ماريو باراغاس يوسا

البطل المتكتم

رواية

ترجمة: صالح علماني

دار المدى

ماريو بارغاس يوسا

البطل المتكتّم

ترجمة: صالح علماني

دار الحوار

البطل المتكتّم

الكتاب: البطل المتكتم

المؤلف: ماريو باراغاس يوسا

الطبعة الأولى:2016/4

ترجمة: صالح علماني

حقوق الطبعة العربية محفوظة ©دار الحوار للنشر والتوزيع.

هذه هي الترجمة الأصلية للنص الإسباني:

Mario Vargas Llosa

El héroe discreto

❁❁

ISBN: 978-9933-523-58-9

❁❁

تم تنفيذ التنضيد والإخراج الضوئي في القسم الفني بدار الحوار

دار الحوار للنشر والتوزيع www.daralhiwar.com

ص. ب 1018 اللاذقية، سورية،

هاتف وفاكس: 33 422 41 963+

البريد الإلكتروني daralhiwar@gmail.com

info@daralhiwar.com

❁ ❁

يمنع نسخ أو تصوير هذا الكتاب أو أجزاء منه بأي وسيلة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو تصوير ضوئي أو تسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى دون أذن خطي مسبق من دار الحوار للنشر والتوزيع.

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without the written permission of Dar Al Hiwar Publishing Company

❁❁

إلى ذكرى صديقي
خابيير سيلفا رويتي

«واجبنا الجميل هو أن نتخيّل أن هنالك متاهة وخيطاً»

خورخي لويس بورخيس
«الخيط والمتاهة»

I

خرج فيليثيتو ياناكيه، صاحب شركة ناريهوالا للنقل، من بيته في ذلك الصباح كما في كل يوم، من الاثنين إلى السبت، في الساعة السابعة والنصف بالضبط، بعد أن مارس تمارين الكي- جونغ لمدة نصف ساعة، واستحم تحت دوش ماء بارد، ثم أعدَّ فطوره المعتاد: قهوة بحليب الماعز وخبز محمص مع الزبد وقطرة صغيرة من عسل التشانكاكا. كان يعيش في مركز مدينة بيورا، وكان صخب المدينة قد انفجر في شارع اريكيبا، وغصت الأرصفة بأناس يتوجهون إلى مكاتب عملهم أو إلى السوق، أو يُوصلون أطفالهم إلى المدرسة. بعض المتدينات كنَّ يتوجهن إلى الكاتدرائية من أجل قداس الساعة الثامنة. وكان الباعة المتجولون يعلنون بأعلى صوت عن بضاعتهم من حلوى الميلوكوتشا ورقائق الموز المجففة، وفطائر وكل أنواع الترهات. وكان الأعمى لوثيندو قد استقر في موقعه عند الناصية، تحت شرفة البيت الكولونيالي، وعلبة جَمْعِ الصدقات عند قدميه. كل شيء كما في كل يوم بالضبط، ومنذ أزمنة لا ترقى إليها الذاكرة.

ثمة استثناء وحيد. ففي هذا الصباح، وعلى بوابة بيته القديمة المصنوعة من خشب مزين بمسامير حديدية كبيرة، ألصقَ أحدهم، عند مستوى المقرعة البرونزية، مغلفاً أزرق يُقرأ عليه بوضوح، وبحروف كبيرة، اسم صاحب البيت: دون فيليثيتو ياناكيه. وعلى ما يذكره هو

نفسه، كانت تلك هي أول مرة يَتركُ له فيها أحدهم رسالةً معلقة بهذه الطريقة، كأنها إشعار قضائي أو قسيمة غَرامة. فمن المعهود أن يَدسَّ ساعي البريد الرسائل من فتحة في الباب إلى الداخل. انتزع الرسالة المعلقة. فتح المغلف وقرأها وهو يحرك شفتيه مع تقدمه في القراءة.

السيد ياناكيه

أن تسير أمور شركة ناريهوالا للنقل التي تملكها على ما يرام يُشكّل مصدر فخر لبيورا وأهالي بيورا. ولكنه يشكل خطراً أيضاً، فكل شركة ناجحة معرضة للسطو والتخريب على يد الحاقدين والحاسدين وغيرهم من الأشرار الذين يوجد كثيرون منهم مثلما تعرف حضرتك. ولكن لا تقلق. فمنظمتنا ستتولى حماية شركة ناريهوالا للنقل، وحماية حضرتك بالذات وأسرتك الموقرة من أي أذى أو مضايقة أو تهديد من الأشرار. ستكون مكافأتنا عن هذا العمل مبلغ 500 دولار شهرياً (وهو مبلغ متواضع بالنسبة لثروتك كما ترى). سوف نتصل بك في الوقت المناسب بشأن طريقة الدفع.

لسنا بحاجة للتأكيد لك على ضرورة الحفاظ على أعلى قدر من التكتم حول هذا الموضوع. فالأمر كله يجب أن يظل بيننا.

وليحفظ الله حضرتك.

وبدلاً من التوقيع، كانت الرسالة تحمل رسماً فظاً لما يشبه عنكبوتاً.

قرأها دون فيليثيتو مرتين أخريين. الرسالة مكتوبة بخطٍ متراقص مع لطخات حبر. شعر بالمفاجأة والمتعة، مع إحساس غامض بأن المسألة لا تعدو أن تكون مزحة سمجة. جعَّد الورقة والمغلف وكان على وشك أن يرمي بهما إلى سلة القمامة عند الناصية، حيث يقف الأعمى لوثيندو. لكنه ندم على ذلك، فأعاد تمسيد الرسالة ووضعها في جيبه.

هنالك حوالي عشرة شوارع بين بيته في شارع اريكيبا ومكتبه في جادة سانتشيث سيرّو. لم يجتزها هذه المرة وهو يهيء في ذهنه أجندة عمل اليوم، مثلما يفعل دوماً، بل كان يقلب في عقله مسألة رسالة العنكبوت. هل عليه أن يأخذ الأمر على محمل الجد؟ أيذهب إلى الشرطة لتقديم شكوى؟ المبتزون يقولون إنهم سيتصلون به من أجل «طريقة الدفع». أيكون من الأفضل الانتظار إلى أن يفعلوا ذلك قبل توجهه إلى مفوضية الشرطة؟ ربما لا يكون الموضوع أكثر من ظرافة بطّال متعطّل يريد له أن يمر بلحظة عصيبة. صحيح أن الجرائم قد تزايدت في بيورا منذ بعض الوقت: سرقات من البيوت، أعمال نشل في الشوارع، وحتى عمليات اختطاف تقوم بتسويتها تحت المنضدة، كما يقال، عائلاتُ البيض في حيِّ إلتشيبه و لوس إخيدوس. كان يشعر بالحيرة والتردد، ولكنه واثق على الأقل من أمر واحد: لن يقَدّم، تحت أية ذريعة أو أي ظرف، سنتاً واحداً لأولئك اللصوص. وتذكر فيليثيتو مرة أخرى، مثلما حدث له في مرات كثيرة في حياته، الكلمات التي قالها له أبوه قبل أن يموت: «لا تسمح لأحد بأن يُذلك يا بني. هذه النصيحة هي الإرث الوحيد الذي ستحصل عليه مني». وقد عمل بنصيحته، ولم يسمح لأحد بأن يُذله. وبعد ما يزيد على نصف قرن يحملها على كاهله، صار عجوزاً لا يمكن له تغيير عاداته. كان مستغرقاً في هذه الأفكار إلى حدّ لم يكد يحيّي الشاعر خواكين راموس بأكثر من انحناءة سريعة، وغذ الخطى قُدماً؛ مع أنه كان يتوقف في مرات سابقة أخرى، لتبادل بعض الكلمات مع ذلك البوهيمي المتمادي الذي يكون قد أمضى الليل في أحد البارات الصغيرة، ويقفل في هذا الوقت عائداً إلى بيته بعينين زجاجيتين، وعدسة المونوكل الدائمة وهو يجر خلفه العنزة التي يسميها غزالته.

حين وصل إلى مكاتب شركة ناريهوالا كانت الحافلات قد خرجت في مواعيدها إلى سويّانا وتالارا وتومباس، وإلى تشولوكاناس وموروبون، وإلى كاتاكاوس ولأونيون وسيتشورا وبايوبار، وجميعها بعدد جيد من الركاب، وكذلك الفانات الصغيرة إلى تشيكلايو، والشاحنات إلى بايتا. وكان هناك عدد من الأشخاص يُجرون معاملات إرسال طرود أو يتحرون عن مواعيد حافلاتِ وفانات بعد الظهر. وكانت سكرتيرته خوسيفيتا ذات الوركين الكبيرين والعينين الحيويتين والبلوزات واسعة فتحة الصدر، قد وضعت على مكتبه قائمة مواعيده والتزاماته لهذا اليوم، وحافظة القهوة التي يأخذ بتناولها خلال فترة الصباح وحتى موعد الغداء.

ـ ماذا جرى لك أيها الرئيس؟ ـ حيَّته سكرتيرته ـ. لماذا هذا الوجه؟ هل رأيت كابوساً الليلة؟

ـ مشاكل صغيرة ـ أجابها بينما هو يخلع القبعة والسترة ويعلقهما على المشجب ويجلس. لكنه نهض من فوره وأعاد ارتداء السترة ووضع القبعة على رأسه من جديد، كما لو أنه تذكر أمراً مستعجَلاً جداً.

ـ سأرجع بسرعة ـ قال لسكرتيرته وهو يتجه نحو الباب ـ. إنني ذاهب إلى مفوضية الشرطة لتقديم شكوى.

ـ هل داهم لصوص بيتك؟ ـ فتحت خوسيفيتا عينيها المتيقظتين والمتقافزتين ـ. هذا ما صار يحدث كل يوم في بيورا الآن.

ـ لا، لا، سوف أُخبرك لاحقاً بما جرى.

توجه فيليثيتو بخطوات حازمة إلى المفوضية القائمة على بُعد كوادرات قليلة من مكتبه، في جادة سانتشيث سيرّو نفسها. كان الوقت لا يزال مبكراً والحرُّ يبدو محتملاً، ولكنه يعرف أن هذه الشوارع التي تغص بوكالات السفر وشركات النقل ستبدأ خلال أقل من ساعة بالتأجج

وسيرجع متعرقاً إلى المكتب. لقد قال له ابناه، ميغيل وتيبورثيو، مرات ومرات، إنه من الجنون ارتداء جاكيت وصدار وقبعة على الدوام في مدينة جميع من فيها، فقراء وأغنياء، يقضون السنة كلها بقمصان قصيرة الأكمام أو سترات الغوايابيرا الخفيفة. ولكنه لم يكن يخلع تلك الملابس، كي يحافظ على المظهر، منذ افتتاحه شركة ناريهولا، فخر حياته؛ ففي الشتاء والصيف يرتدي على الدوام القبعة والجاكيت والصدار، وربطة العنق بعقدتها الصغيرة جداً. إنه رجل قصير القامة ونحيل جداً، قليل الكلام وشغّيل. لم ينتعل حذاء قطّ هناك في ياباتيرا، حيث ولد، أو في تشولوكاناس، حيث درس الابتدائية، ولم يبدأ بانتعال الأحذية إلا حين جاء به أبوه إلى بيورا. إنه الآن في الخامسة والخمسين، يحتفظ ببنية سليمة، وبلياقة بدنية وحبٍّ للعمل. وهو يظن أن الفضل في حالته البدنية الجيدة يعود إلى تمارين الكي جونغ الصباحية التي علّمه إياها صديقه، البقال المتوفى لاو. وهذه هي الرياضة الوحيدة التي مارسها في حياته، إضافة إلى المشي، إن كان بالإمكان إطلاق تسمية رياضة على حركات الكاميرا البطيئة تلك التي هي أولاً، وقبل أن تكون تمارين للعضلات، مجرد طريقة مختلفة وحكيمة للتنفس. وصل إلى مفوضية الشرطة مثقلاً بالحر وغاضباً. فسواء أكان الأمر مزاحاً أم غير مزاح، فقد جعله من كتب تلك الرسالة يضيع الصباح.

كانت المفوضية في الداخل فرناً، وبدا المكان شبه مظلم لأن النوافذ كلها مغلقة. كانت هنالك مروحة عند المدخل، ولكنها متوقفة. الشرطي الذي يجلس إلى منضدة الاستعلامات، وهو شاب فتيٌّ أمرد، سأله عما يريد.

ـ أريد التحدث إلى الرئيس من فضلك ـ قال فيليثيتو وهو يقدم إليه بطاقته.

ـ المفوض في إجازة ليومين ـ أوضح له الشرطي ـ. إذا رغبتَ يمكن للرقيب ليتوما أن يستقبلك، فهو المسؤول عن الموقع حالياً.

ـ سأتحدث إليه إذاً، أشكرك.

كان عليه أن ينتظر ربع ساعة إلى أن تنازل الرقيب واستقبله. وعندما أدخله الشرطي إلى المقصورة الضيقة، كان منديل فيليثيتو مبللاً بالعرق لكثرة ما مسح به جبهته. لم ينهض الرقيب لمصافحته. مدَّ إليه يداً سمينة ورطبة، ثم أشار إلى الكرسي الفارغ قبالته. إنه رجل ممتلئ، يميل إلى البدانة، له عينان ضيقتان لطيفتان، وبداية لَغْدٍ يتلمسه بين حين وآخر بتحبب. يرتدي قميص الخدمة الخاكي مفتوح الأزرار، مع بقعتي عرق تحت الإبطين. وهناك على المنضدة الصغيرة مروحة كهربائية، وقد كانت المروحة تعمل. شعر فيليثيتو بالامتنان لهبَّة الهواء الباردة التي داعبت وجهه.

ـ بماذا يمكنني أن أخدمك يا سيد ياناكي.

ـ لقد تلقيتُ للتو هذه الرسالة. ألصقوها على باب بيتي.

رأى الرقيب ليتوما يضع نظارة تمنحه هيئة كئيبة. وبملامح هادئة راح يقرأ الرسالة بدقة.

ـ حسنٌ حسن ـ قال أخيراً وهو يتصنع تكشيرة لم يتمكن فيليثيتو من تفسيرها ـ. هذه هي نتائج التقدم أيها السيد.

وحين انتبه إلى ارتباك صاحب شركة النقل، أوضح وهو يهز الرسالة التي مازالت في يده:

ـ عندما كانت بيورا لا تزال مدينة فقيرة، لم تكن تحدث هذه الأمور. فمن ذا الذي كان يخطر له آنذاك أن يطلب إتاوة من تاجر؟ أما اليوم، فالأموال كثيرة، والمحتالون يُشهرون مخالبهم ويريدون التصرف على هواهم. المسؤولية يتحملها الإكوادوريون يا سيدي. فهم لا يثقون

بحكومتهم، ويُخرجون رؤوس أموالهم من هناك ويأتون للاستثمار هنا. إنهم يملؤون جيوبهم منا نحن أهالي بيورا.

ـ هذا الكلام لا يمنحني أي عزاء أيها الرقيب. أضف إلى ذلك أنه يخيل إليّ وأنا أسمعك أن كارثة حلّت ببيورا الآن لأن أمورها تمضي على ما يرام.

ـ لم أقل هذا ـ قاطعه الرقيب باقتضاب ـ. ما عنيته فقط هو أن لكل شيء ثمنه في هذه الحياة. وثمن التقدم هو هذا الذي يحدث.

وهز مجدداً رسالة العنكبوت في الهواء، فبدا لفيليثيتو يا ناكيه أن ذلك الوجه الأسمر البدين يسخر منه. كان يلمع في عيني الرقيب وميض بين الأصفر والضارب إلى الخضرة، مثل أعين الضبوب. وسُمع من عمق المفوضية صوتٌ زاعق: «أفضل مؤخرات البيرو موجودة هنا، في بيورا! أؤكد ذلك، يا للعنة». ابتسم الرقيب ورفع إصبعه إلى صدغه. بينما اكتسى فيليثيتو بملامح جدّية جداً وهو يشعر برهاب الحبس. إذ يكاد لا يوجد أي فراغ بينهما وسط تلك الجدران الخشبية الملطخة بإشعارات ومذكرات وصورٍ وقصاصاتِ صحف مثبتة بدبابيس. لقد كان يعبق برائحة العرق والشيخوخة.

ـ العاهر الذي كتب هذه الرسالة لدية معارف إملائية جيدة ـ أكد الرقيب وهو يتصفح الرسالة ـ فأنا، على الأقل، لا أجد لديه أخطاء نحوية.

أحس فيليثيتو بدمائه تفور.

ـ لستُ جيداً في النحو ولا أظن أن هذا يفيد كثيراً ـ دمدم بنبرة احتجاج ـ. ما الذي سيحدث الآن برأيك؟

ـ الأن فوراً لن يحدث أي شيء ـ أجابه الرقيب دون تردد ـ سأسجل المعلومات من باب الاحتياط. ربما لن يتعدى الأمر هذه

الرسالة. ربما وضَعكَ أحدهم نصب عينيه ويريد إزعاجك. أو قد يكون الأمر جدّياً. الرسالة تقول إنهم سيتصلون بك من أجل الدفع. إذا فعلوا ذلك عدْ إلى هنا وسنرى ماذا نفعل.

ـ يبدو لي أنك لا تولي الأمر أهمية. احتج فيليثيتو.

ـ ليس للأمر أهمية حتى الآن ـ أكد الرقيب وهو يهز كتفيه ـ. فهذه ليست سوى قصاصة ورق مجعدة يا سيد ياناكيه. يمكن أن تكون دعابة سمجة. ولكن إذا صار الأمر جَدّاً، فسوف تتصرف الشرطة، أؤكد لك. وباختصار، فلنبدأ العمل.

وخلال وقت لا بأس به، كان على فيليثيتو أن يقدم معلوماته الشخصية والمهنية، بينما راح الرقيب ليتوما يدونها في دفتر ذي غلاف أخضر بقلم رصاص يبلله بفمه بين حين وآخر. كان صاحب شركة النقل يرد على الأسئلة التي تبدو له غير مجدية بتهذبٍ متزايد. مجيئه لتقديم هذه الشكوى لم يكن إلا إضاعة للوقت. فهذا الشرطي لن يفعل شيئاً. أضف إلى ذلك، ألا يقال إن الشرطة هي الأكثر فساداً بين المؤسسات العامة؟ ربما تكون رسالة العنكبوت آتية من هذا الجحر كريه الرائحة بالذات. وحين قال له ليتوما إنه يجب إبقاء الرسالة في المفوضية كدليل اتهام، ردَّ عليه فيليثيتو بنفور:

ـ أريد نسخة مصورة عنها أولاً.

ـ لا توجد لدينا آلة تصوير فوتوكبي هنا ـ أوضح الرقيب مشيراً بيديه إلى تقشف المكان الشبيه بتقشف الكهنة الفرنسيسكان ــ هناك في الشارع العام متاجر كثيرة تقوم بالتصوير. اذهب وصورها ثم ارجع أيها السيد. إنني هنا بانتظارك.

خرج فيليثيتو إلى جادة سانتشيث سيرّو، وبالقرب من سوق التموين وجد ما يبحث عنه. اضطر للانتظار لوقت لا بأس به إلى أن انتهى

بعض المهندسين من تصوير كومة مخططات، وقرر ألا يعود للخضوع مجدداً لاستجواب الرقيب؛ فسلم النسخة المصورة من الرسالة لشرطي منضدة الاستعلامات، وبدل أن يرجع إلى مكتبه عاد للتوغل في مركز المدينة الممتلئ بالناس وصخب السيارات، والحر ومكبرات الصوت، والموتوتكسي وضجيج العربات. اجتاز شارع غراو، وظِلّ أشجار التمر الهندي في ساحة السلاح، وقاوم إغواء رغبته في الدخول لتناول مثلجات فواكه في محل تشالان، توجه نحو حي المَسْلخ القديم، حي أيام مراهقته، لاغايينّيرا، المجاور للنهر. وكان يتضرع إلى الرب أن تكون آديلايدا في دكانها. فالتحدث إليها سيكون مفيداً له. سيُحَسّن من مزاجه، ومن يدري كذلك إن كان بإمكان تلك التقية أن تقدم إليه نصيحة جيدة. كان الحر قد بلغ أوجه دون أن تكون الساعة قد بلغت العاشرة بعد. بدأ يشعر برطوبة في جبهته وبصفيحة متأججة عند مستوى قذاله. مشى بسرعة، بخطوات قصيرة ومتعجلة، مصطدماً بالناس الذين يملؤون الأرصفة الضيقة العابقة بروائح البول والمقالي. بينما مذياع يعزف بأعلى صوت موسيقى أغنية ميركومبري.

فيليثيتو يقول أحياناً، وقد قال ذلك لزوجته خيرترروديس ولابنيه، إن الله كافأ جهوده طوال حياته بأن وضع في طريقه شخصين: البقال لاو والتقية آديلايدا. فمن دونهما ما كان يمكن لأعماله أن تمضي على ما يرام، وما كان ليتمكن من المضي قُدماً بشركته للنقل، ولما استطاع تكوين أسرة محترمة. ومنذ أن أودت التهابات معوية بالمسكين لاو ونقلته إلى العالم الآخر، لم يبق له سوى آديلايدا. وهاهي هناك لحسن الحظ، تتصفح إحدى المجلات، وراء منضدة دكانها الصغير، حيث تبيع أعشاباً وصور قديسين ومشغولات تطريز وتوافه أخرى.

ـ مرحباً يا آديلايدا ـ حياها وهو يمد يده لمصافحتها ـ صافحي هذه الخمس. يا لحسن حظي بالعثور عليكِ.

إنها خلاسية بلا سن محددة، قصيرة القامة، ضخمة المؤخرة والصدر، تمشي حافية على أرضية دكانها الترابية، لها شعر طويل ومجعد ينسدل على كتفيها، وترتدي ذلك الجلباب أو المسوح الأزلي الذي له لون الطين النيء ويصل حتى كاحليها. عيناها واسعتان ولها نظرةٌ تبدو أنها تثقب أكثر من كونها ترى، تخفف منها ملامحها اللطيفة التي تمنح الناس طمأنينة.

ـ مجيئُكَ لزيارتي يعني أن ضراً قد أصابك أو سيحل بك ـ ضحكت آديلايدا وهي تربت على ظهره ـ ما هي مشكلتك يا فيليثيتو؟

قدَّم إليها الرسالة.

ـ لقد تركوها على باب بيتي صباح اليوم. لا أدري ماذا أفعل. قدّمتُ شكوى في مفوضية الشرطة، ولكنني أظن أنها لن تجدي أي نفع. فالشرطي الذي استقبلني لم يُبدِ كبير اهتمام.

تلمست آديلادا الرسالة وشمّتها بعمق كما لو أنها عطر. ثم رفعتها إلى فمها وبدا لفيليثيتو أنها تمصُّ حافة الورقة.

ـ اقرأها لي يا فيليثيتو ـ قالت وهي تعيدها إليه ـ. أرى أنها ليست رسالة حب، تشي غوا[1].

استمعت بجدية بالغة بينما صاحب شركة النقل يقرأ. وعندما انتهى، زمت شفتيها بحركة سخرية وفتحت ذراعيها:

ـ ماذا تريدني أن أقول لك يا فيليثيتو؟

---

[1] تشي غوا che guá: تعبير شعبي شائع الاستخدام في مدينة بيورا البيروية، وهو تعبير متعدد الدلالات والاستخدامات، وغالباً ما يكون للإشارة إلى الاعجاب أو الاستياء، ولأن هذا التعبير يتكرر مراراً في الرواية التي تدور معظم أحداثها في مدينة بيورا، وجدنا أنه من الأفضل الحفاظ عليه، بدلاً من استخدام كلمة «عجباً» أو سواها.

ـ أخبريني إن كان هذا الأمر جدّياً يا آديلايدا. وإن كان علي أن أقلق أم لا. أم أنها مجرد مزحة يلعبونها معي مثلاً. أوضحي لي هذا الأمر، أرجوكِ.

أفلتت التقية قهقهة هزت كامل جسدها المتين المخبأ تحت الجلباب الواسع ذي اللون الطيني.

ـ أنا لستُ الرب لأعرف هذه الأمور ـ هتفت وهي ترفع كتفيها وتُنزلهما وتحرك يديها.

ـ ألا يقول لكِ الوحي شيئاً يا آديلايدا؟ إنني أعرفك منذ خمسة وعشرين عاماً ولم تقدمي لي نصيحة سيئة قطّ. نصائحك كلها كانت مفيدة. لا أدري ما الذي يمكن لحياتي أن تكون عليه من دونك يا صديقتي. ألا يمكنك أن تقدمي لي نصيحة الآن؟

ـ لا يا بابيتو، لا نصيحة لدي ـ أجابت آديلايدا متظاهرة بالحزن ـ لم يأتِني أي وحي. متأسفة يا فيليثيتو.

ـ حسن، لا يمكننا عمل شيء ـ وافق صاحب شركة النقل وهو يمد يده إلى محفظته ـ إذا لم يأتك أي وحي فهذا يعني أنه غير موجود.

ـ لماذا تدفع لي نقوداً ما دمتُ غير قادرة على نصحك ـ احتجت آديلايدا. ولكنها انتهت إلى أن دست في جيبها العشرين سولاً التي أصر فيليثيتو على أن تتقبلها منه.

ـ أيمكنني الجلوس قليلاً هنا في الظل؟ لقد أُنهكتُ من كثرة الحركة يا آديلايدا.

ـ اجلس واسترح يا بابيتو. سآتيك بكأس ماء بارد، أخرجتُه للتو من حجر التقطير. استرح وحسب.

خلال ذهاب آديلايدا إلى داخل الدكان وعودتها، تفحص فيليثيتو في عتمة المحل الخفيفة شِباكَ العنكبوت الفضية المتدلية من السقف،

والرفوف القديمة وما عليها من أكياس صغيرة تحتوي بقدونس، وإكليل الجبل، وكزبرة، ونعنع، وعلب المسامير والبراغي والحبوب والعرى والأزرار، وسط رسوم وتصاوير للعذراء والمسيح وقديسين وقديسات، ورعين وورعات، مقتطعة من مجلات وصحف، يتزين بعضها بشموع صغيرة مشتعلة وغيرها بزينات أخرى تتضمن مسابح وقلادات القلب المقدس وأزهاراً من الشمع أو الورق. بسبب تلك الصور يدعونها في بيورا «التقية»، ولكن آديلايدا لم تكن تبدو لفيليثيتو شديدة التديّن خلال ربع قرن من معرفته لها. فهو لم يرها قطّ في القداس مثلاً. أضف إلى ذلك أن كهنة الأحياء يعتبرونها ساحرة كما يقال. وهذا ما يناديها به الصبية في الشوارع أحياناً: «ساحرة! ساحرة!». لم يكن ذلك صحيحاً، فهي لا تمارس الشعوذة مثل كثيرات من الخلاسيات المحتالات في كاتاكاوس وفي لاليغوا ممن يبعن عقاقير للحب أو البغض أو جلب سوء الطالع، أو مثل أولئك الشامانات في هواناكابامبا الذين يُمررون قوارض الكوي[1] على أبدان المرضى الذين يدفعون لهم أو يُغَطّسونهم في بحيرةِ هوارينغاس لتخليصهم من العلل. لم تكن آديلايدا ولو مجرد عرافة محترفة. فهي تمارس هذه المهنة في أحيان متباعدة، ومع الأصدقاء والمعارف فقط، دون أن تتقاضى منهم سنتاً واحداً. وإذا ما ألح عليها هؤلاء ينتهي بها الأمر إلى أخذ الاكرامية التي يرغبون في تقديمها إليها. وقد كانت زوجة فيليثيتو وابناه (وكذلك مابيل) يسخرون منه لإيمانه الأعمى بوحي آديلايدا ونصائحها. أما هو فلم يكن يصدقها وحسب، بل إنه يتعاطف معها. يُحزنه فقرها ووحدتها. لا يُعرف لها زوج ولا أقارب؛ إنها وحيدة دوماً، ولكنها تبدو سعيدة بحياة الناسك التي تعيشها.

---

[1]: : حيوان من فصيلة القوارض، بحجم الأرنب تقريباً، موطنه مناطق الأنديز، وبصورة خاصة البيرو.

لقد رآها أول مرة قبل ربع قرن، حين كان سائق شاحنة عبر المقاطعات، ولم تكن لديه بعد شركة النقل الصغيرة، وإن كان يحلم ليلاً ونهاراً في امتلاكها. وحدث عند الكيلومتر الخمسين على أتوستراد بان أميركانا، حيث تلك الاستراحات التي تتوقف فيها الحافلات والشاحنات والفانات دوماً لتناول مرق دجاج أو قهوة، وملء قرعةٍ من شراب التشيتشا وأكل سندويتش قبل مواجهة طريق صحراء أولموس الطويل والمتقد، المترع بالغبار والأحجار، الخالي من القرى ولا وجود فيه لأية محطة وقود أو ورشة ميكانيك لحالات الحوادث. كانت آديلايدا ترتدي منذ ذلك الحين هذا الجلباب الذي بلون الطين، والذي سيكون لباسها الوحيد على الدوام، وكانت تملك أحد أكشاك بيع اللحم المقدد والمرطبات. وكان فيليثيتو يومذاك يقود شاحنة تعود ملكيتها لشركة روميرو، محملة حتى الذروة ببالات قطن، ويتوجه بها إلى مدينة تروخييّو. كان يمضي وحيداً، إذ تخلّف معاونه عن الرحلة في اللحظة الأخيرة لأن المستشفى العمالي أخبره أن حالة أمه صارت حرجة جداً، ويمكن أن تموت في أية لحظة. كان فيليثيتو يأكل تامالاً وهو يجلس على مقعد إلى منضدة كونتوار كشك آديلايدا حين انتبه إلى أن المرأة تنظر إليه بطريقة غريبة بتينك العينين العميقتين والمتقصيتين اللتين لها. أي ذبابة لسعت هذه السيدة، تشي غوا؟ لقد امتقع وجهها. وبدت شبه مرتعبة.

ـ ماذا أصابكِ يا سيدة آديلايدا؟ لماذا تنظرين إليَّ هكذا، كالمرتابة بشيء ما؟

لم تقلْ شيئاً. وواصلت تصويب عينيها السوداوين الواسعتين والعميقتين إليه مظهرة تصعيرة اشمئزاز وخوف تُقعِّر خديها وتُجَعِّد جبينها.

ـ هل أنتِ مريضة؟ ألحَّ فيليثيتو بقلق.

ـ خير لكَ ألا تصعد إلى هذه الشاحنة. قالت المرأة أخيراً بصوت مبحوح، كما لو أنها تبذل جهداً كبيراً لينصاع لها لسانها وحنجرتها. وكانت تشير بيدها إلى الشاحنة الحمراء التي أوقفها فيليثيتو إلى جانب الطريق.

ـ أتريدينني ألا أصعد إلى شاحنتي؟ ـ ردد مشوشاً ـ ولماذا، إن كان يمكن لي أن أعرف؟

رفعت آديلايدا عينيها عنه لحظة لتنظر في ما حولها، كما لو أنها تخشى أن يسمعها السائقون والزبائن الآخرون، أو أصحاب المحلات والبارات في الاستراحة.

ـ لدي وحي ـ قالت له مخفضة صوتها، بوجهها المتقع كالسابق ـ لا يمكنني أن أفسر لك الأمر. صدِّق ما أقوله وحسب، أرجوك. من الأفضل ألا تصعد إلى هذه الشاحنة.

ـ أشكر لك نصيحتك يا سيدتي، وأنا واثق من أنها نصيحة بنية طيبة. ولكن عليّ أن أكسب قوتي. إنني سائق، وأكسب لقمة العيش من سياقة الشاحنات يا سيدة آديلايدا. وإلا كيف سأوفر الطعام لزوجتي وابنيّ؟

ـ كن حذراً إذاً على الأقل ـ طلبت منه المرأة وهي تخفض نظرها ـ صدقني.

ـ هذا أمر يمكنني أن أعدَكِ به يا سيدتي. فأنا حذر على الدوام.

بعد ساعة ونصف من ذلك، وعند منعطف على الطريق غير المعبد، وسط زوبعة غبار بين رمادية وصفراء، ظهرت حافلة لشركة كروث دي تشالبون وهي تصدر صريراً وزمجرة وتتجه للاصطدام بالشاحنة بصخب مدوٍ من الصفيح والمكابح والصراخ وصريف العجلات. تمكن فيليثيتو

الذي يتمتع بردود فعل انعكاسية سريعة من الانحراف بالشاحنة وإخراج الجزء الأمامي منها عن الطريق، وهكذا اصطدمت الحافلة بصندوق الشاحنة وحمولتها مما أنقذ حياته. ولكنه ظل عاجزاً عن الحركة تحت جبائر من الجبس إلى أن التحمت عظام ظهره وكتفه وساقه اليمنى، فضلاً عن الآلام التي تسببها له حكة تبعث على الجنون. وعندما تمكن أخيراً من العودة إلى سياقة الشاحنة، كان أول ما فعله الذهاب إلى الكيلومتر خمسين. وقد تعرفتْ السيدة آديلايدا عليه فوراً.

ـ يسعدني أنكَ على ما يرام ـ قالت له على سبيل التحية ـ هل آتيك بوجبة تامال ومياه غازية كالعادة؟

ـ أتوسل إليكِ بأعز ما لديك أن تخبريني كيف عرفت أن حافلة كروث دي تشالبون ستصطدم بي يا سيدة آديلايدا. إنني لا أتوقف عن التفكير في الأمر منذ ذلك اليوم. هل أنت ساحرة، أم قديسة، أم ماذا؟

رأى السيدة تكتسي بالشحوب ولم تعد تدري ما تفعله بيديها. وكانت قد أطرقت رأسها مرتبكة.

ـ أنا لم أعرف شيئاً من هذا ـ تلعثمت دون النظر إليه، كمن هي مُتَّهمة بأمر خطير ـ. لقد كان وحياً، ولا شيء أكثر من هذا. وهو ما يحدث لي أحياناً، دون أن أعرف السبب. لست أسعى إلى ذلك.. تشي غوا. أقسم لك. إنها لعنة نزلت بي. أنا لا أرغب في أن يجعلني الرب المقدس هكذا. إنني أصلي له كل يوم كي ينتزع مني هذه الهبة التي منحني إياها. إنها مسألة رهيبة، صدقني. تجعلني أشعر بالذنب لكل الأمور الخبيثة التي تحدث للناس.

ـ ولكن ما الذي رأيتِهِ يا سيدتي؟ لماذا قلتِ لي في ذلك الصباح إنه من الأفضل لي ألا أصعد إلى شاحنتي؟

ـ لم أرَ شيئاً، فأنا لا أرى الأمور التي ستحدث أبداً. ألم أخبرك بذلك؟ إنه وحي وحسب. إلهام بأنك إذا ما صعدت إلى تلك الشاحنة فسوف يحدث لك شيء. لم أدرِ ما هو. فأنا لا أعرف أبداً ما الذي سيحدث. ما أعرفة فقط هو أن هنالك أمور يُفَضَّل عدم فعلها لأن نتائجها ستكون وخيمة. هل ستتناول وجبة التامال مع زجاجة إنكاكولا؟

لقد تحولا إلى صديقين منذ ذلك الحين، وسرعان ما صارا يتبادلان الحديث دون كلفة. وعندما تركت السيدة آديلايدا الاستراحة عند الكيلومتر خمسين وفتحت دكانها للأعشاب والمطرزات والترهات والصور الدينية بالقرب من منطقة الملخ القديم، صار فيليثيتو يأتي مرة كل أسبوع على الأقل ليسلم عليها ويتبادل الحديث معها لبعض الوقت. وفي كل مرة تقريباً يأتيها بهدية ما: بعض الحلوى أو كعكة أو صندلاً، وحين يودعها يترك ورقة نقدية في يديها القاسيتين والخشنتين كيديّ رجل. جميع القرارات المهمة التي اتخذها خلال تلك البضعة والعشرين عاماً استشارها فيها، ولاسيما منذ تأسيسه شركة نارهوالا للنقل: القروض التي استدانها، والشاحنات والحافلات والسيارات التي راح يشتريها، والمحلات التي استأجرها، والسائقون والموظفون الذين يتعاقد معهم أو يصرفهم من العمل. وفي معظم الأحيان كانت آديلايدا تضحك من استشاراته لها. «وما أدراني أنا بهذه الأمور يا فيليثيتو، تشي غوا. كيف تريدني أن أقول لك إن كانت الشيفروليه أفضل أم الفورد، وما أدراني أنا بماركات السيارات إذا كنتُ لم أملك أياً منها قطّ». ولكن بين حين وآخر، حتى لو كانت لا تعرف شيئاً عن الموضوع، يأتيها وحي وتقدم له نصيحة: «أجل، ادخل في هذه الصفقة يا فيليثيتو، ستكون جيدة كما يبدو لي». أو تقول له: «لا يا فيليثيتو، هذا الأمر لا يناسبك، لا أدري السبب ولكنني أشم رائحة كريهة في

الموضوع». كلمات التقية كانت حقائق كُشف عنها الحجاب في نظر صاحب شركة النقل، وكان ينصاع لأقوالها بحذافيرها مهما بدت غير مفهومة أو سخيفة.

ـ لقد غفوتَ يا بابيتو. سمعها تقول له.

وبالفعل، كان قد غفا بعد أن شرب كأس الماء البارد الذي أحضرته له آديلايدا. لكم من الوقت غفا على ذلك الكرسي الهزاز الذي تسبب له بتشنج في مؤخرته؟ نظر إلى ساعته. حسنٌ، إنها بضع دقائق وحسب.

ـ السبب هو توترات هذا الصباح ومشاغله ـ قال وهو ينهض واقفاً ـ. إلى اللقاء يا آديلايدا. يا لهذا الهدوء هنا في دكانك. إنني أشعر بالتحسن كلما زرتك، حتى لو لم يأتيكِ الوحي.

وفي اللحظة التي تلفظ فيها بكلمة السر، وحي، التي تحدد بها آديلايدا القدرة الغامضة التي تمتلكها، وتكهنها الأمور الطيبة أو الخبيثة التي ستحدث لشخص ما، لاحظ فيليثيتو أن التقية لم تعد هي نفسها المرأة التي استقبلته، والتي استمعت إلى قراءته لرسالة العنكبوت، وأكدت له أن ذلك كله لا يوحي لها بأي ردة فعل. كانت تبدو الآن جديّة جداً، تسيطر عليها ملامح الوقار، جبينها مجعد بينما هي تقضم أحد أظفارها. يمكن القول إنها كانت تكبح الغم الذي بدأ يستحوذ عليها. كانت عيناها الواسعتان مصوبتين إليه. أحس فيليثيتو بتسرع في نبضات قلبه.

ـ ماذا أصابك يا آديلايدا؟ ـ سألها مذعوراً ـ. لا تقولي لي الآن إنه...

أمسكت به يد المرأة المتصلبة من ذراعه وغرست فيه أصابعها.

ـ أعطهم ما يطلبونه منك يا فيليثيتو ـ دمدمت ـ من الأفضل أن تعطيهم ذلك.

ـ أأعطي خمسمئة دولار في الشهر لأولئك المبتزين كيلا يسببوا لي الأذى؟ ـ قال صاحب شركة النقل مستهجناً ـ أهذا ما يقوله لك الوحي يا آديلايدا؟

أفلتت التقية ذراعه وربتت عليه بحنان.

ـ أعرف أن عمل ذلك سيئ، وأعرف أن المبلغ كبير ـ أكدت ـ ولكن ما أهمية المال في نهاية المطاف، ألا ترى ذلك؟ الأهم منه صحتك، طمأنينتك، عملك، حبك في كاستِيّا. أعرف أنه لا يروق لك أن أقول هذا. وأنا أيضاً لا يروق لي قوله، فأنت صديق جيد يا بابيتو. أضف إلى ذلك أنني قد أكون مخطئة وأنني أقدم إليك نصيحة سيئة. ليس هناك ما يدعوك لأن تصدقني يا فيليثيتو.

ـ ليست المسألة هي النقود يا آديلايدا ـ قال بحزم ـ. يجب على الرجل ألا يسمح لأحد بأن يُذله في هذه الحياة. هذا هو الموضوع وليس شيئاً آخر يا صديقتي.

II

حين مرَّ دون إسماعيل كاريرا، صاحب شركة التأمين، على مكتب ريغوبيرتو واقترح عليه أن يتناولا الغداء معاً، فكر ريغوبيرتو: «سوف يطلب مني مرة أخرى أن أتراجع عن قراري»، لأن إسماعيل قد فوجئ كثيراً، مثلما هي حال جميع زملائه ومرؤوسيه، بإعلانه المفاجئ عن أنه سيقدم موعد تقاعده ثلاث سنوات. لماذا التقاعد في سن الثانية والستين، قال له الجميع، في الوقت الذي يمكنه فيه البقاء ثلاث سنوات أخرى في هذه الإدارة التي يديرها وسط احترام إجماعي من قرابة ثلاثمئة موظف في الشركة.

«بالفعل، لماذا، لماذا؟»، فكّر. لم يكن الأمر واضحاً جيداً حتى له هو نفسه بالذات. ولكن المؤكد أن قراره كان حاسماً. لن يتراجع عنه على الرغم من أن تقاعده، قبل بلوغه الخامسة والستين، سيجعله يخرج دون الحصول على الراتب الكامل، ولن يكون له الحق بكافة تعويضات وزيادات من يُحالون إلى المعاش بعد بلوغهم سن التقاعد.

حاول تشجيع نفسه بالتفكير في وقت الفراغ الذي سيتوافر له. وقضاء الساعات في حيزه الحضاري، محمياً من البربرية، ومتأملاً لوحاته المحببة، وكُتب الفن التي تملأ مكتبته، ومستمعاً إلى موسيقى جيدة، واستمتاع برحلته السنوية إلى أوروبا مع لوكريثيا في الربيع أو الخريف، حيث يحضر مهرجانات فنون، ويزور متاحف ومؤسسات

ثقافية، ومعارض فنية، ويعود لرؤية تلك اللوحات والمنحوتات المحببة إليه، ويكتشف أعمالاً أخرى غيرها يضمها إلى متحف لوحاته السري. كان قد أجرى حساباته، وهو جيد جداً في الرياضيات. فبالإنفاق بصورة عقلانية، وإدارته بحذر مدخراته البالغة قرابة المليون دولار إضافة إلى راتبه التقاعدي، سيتمكن من التمتع، هو ولوكريثيا، بشيخوخة مريحة جداً، ويمكن لهما توفير مستقبل مضمون لفونتشيتو.

وفكر: «أجل، أجل، شيخوخة مديدة، ثقافية وسعيدة». لماذا تراه إذاً، على الرغم من هذا المستقبل الواعد، يشعر بكل هذا القلق؟ أيكون السبب هو إديلبيرتو توريس أم تراها كآبة مسبقة؟ لاسيما وأنه، مثلما هو عليه الآن، يمر بنظره على الصور والشهادات المعلقة على جدران مكتبه، والكتب المصفوفة على رفين، ومنضدته المرتبة بدقة مليمترية وعليها دفاتر ملاحظاته، وأقلامه ومقالمه، وآلته الحاسبة، والتقارير، والكمبيوتر المُشَغَّل، وجهاز التلفاز المثبت دوماً على قناة بلومبرغ وما تعرضه من أسعار البورصات. كيف يمكن له الشعور بحنين مسبق إلى هذا كله؟ الشيء الوحيد المهم في هذا المكتب هو صور لوكريثيا وصور فوتشيتو ــ صوره وهو حديث الولادة، وطفل، ومراهق ــ وسيحمل هذه الصور معه يوم ينتقل. وما سوى ذلك فإن هذا البناء القديم في منطقة كارابايا، وسط ليما، لن يعود عما قريب مقراً لشركة التأمين. فمبنى المقر الجديد، في سان إيسيدرو، على حافة جادة الثانخون، يوشك على الانتهاء. أما هذا البناء القبيح الذي عمل فيه طوال ثلاثين عاماً من حياته، فمن المحتمل أن يُهدم.

ظن أن إسماعيل سيأخذه، مثلما يفعل كلما دعاه لتناول الغداء، إلى النادي الوطني، وسيكون هو بدوره غير قادر، مرة أخرى، على مقاومة إغراء شريحة اللحم التي تُقدم هناك مغطاة بصلصة تاكو- تاكو ويسمونها «مِلاءة»، وتناول كأسين من النبيذ، ما يبقيه يشعر، طيلة

فترة العصر، بالانتفاخ مع تخمة ودون رغبة في العمل. ولكنه فوجئ، فور صعودهما إلى سيارة الميرسيدس بنز في كراج المبنى، بأن رئيسه أمر السائق: «إلى ميرافلوريس يا نرسيس، إلى مطعم روسا ناوتيكا». ثم التفت إلى ريغوبيرتو وقال موضحاً: «سنشعر هناك بشيء من التحسن باستنشاق قليل من هواء البحر وسماع زعيق النوارس».

ـ إذا كنت تظن أنك سترشوني بهذا الغداء فأنت مجنون يا إسماعيل ـ حذرة ـ. سأتقاعد على أي حال، حتى لو وجَّهتَ مسدساً إلى صدري.

ـ لن أوجهه إليك ـ قال إسماعيل بإيماءة ساخرة ـ. أعرف أنك عنيد مثل بغل. وأعرف أيضاً أنك ستندم حين تشعر بأنك عديم الفائدة وضَجِر في بيتك، تُفقِد لوكريثيا صبرها طيلة اليوم. ستعود سريعاً لتطلب مني جاثياً أن أعيدك إلى الإدارة. ولسوف أفعل بالطبع. ولكنني سأجعلك تتعذب لبعض الوقت، إنني أحذرك.

حاول أن يتذكر منذ متى يعرف إسماعيل. منذ سنوات طويلة. لقد كان إسماعيل شاباً جيداً جداً، أنيقاً، متميزاً، اجتماعياً. حتى إنه تزوج من كلوتيلدي، فهو مغو. يجعل العازبات والمتزوجات، العجائز والشابات يتنهدن. لقد فقد شعره الآن، لديه قليل من خصل الشعر البيضاء على صلعته، وقد تجعدت بشرته، وصار سميناً ويجرجر قدميه. وتُلاحظ أسنانه الاصطناعية التي ركّبها له طبيب أسنان في ميامي. فالسنوات، والتوأمان قبل كل شيء، قد دمرته بدنياً. تعارفا منذ اليوم الأول لدخول ريغوبيرتو إلى العمل في شركة التأمين، في الإدارة القانونية. منذ أكثر من ثلاثين عاماً! يا للعنة، حياة كاملة. تذكّر أبا إسماعيل، دون أليخاندرو كاريرا، مؤسس الشركة. كان رجلاً قوياً، لا يكل، رجل صعبٌ لكنه نزيه، مجرد حضوره يفرض نظاماً وجدية مُعْدِية. وكان إسماعيل يحترم أباه، على الرغم من أنه لم يحبه قطّ. لأن

دون أليخاندرو جعل ابنه الوحيد يعمل فور عودته من إنكلترا ــ حيث تخرج من جامعة لندن في الاقتصاد وتدرب لمدة سنة في شركة لويدز ــ في كافة أقسام الشركة التي كانت قد بدأت باكتساب مكانة مهمة. وكان إسماعيل قد تجاوز الأربعين، ويشعر بالمهانة من ذلك التدريب الذي أوصله حتى إلى العمل في تصنيف بريد الشركة، وإدارة المقصف فيها، والإشراف على محركات مُولِّد الكهرباء، وعلى حراسة مقر الشركة ونظافته. قد يكون دون أليخاندرو مستبداً بعض الشيء، ولكن ريغوبيرتو يتذكره بتقدير: إنه قائد شركة. لقد صنع هذه الشركة من العدم، بادئاً برأس مال تافه وقروض سددها حتى آخر سنتيم. ولكن إسماعيل كان، في الحقيقة، مواصلاً مرموقاً لعمل أبيه. لا يكل من العمل أيضاً ويعرف ممارسة موهبته القيادية حين يتطلب الأمر ذلك. غير أن سلالة آل كاريرا، بوجود التوأمين على رأسها، ستمضي في الفشل إلى القمامة. فأي من الابنين لم يرث فضائل الأب والجد الإدارية. يا للتعاسة التي ستحل بشركة التأمين حين يختفي إسماعيل من الوجود! ولحسن الحظ أنه هو نفسه لن يكون مديراً في الشركة ولن يشهد الكارثة. لماذا دعاه رئيسه يا ترى إلى الغداء إن لم يكن من أجل التحدث إليه عن تقاعده المبكر؟

كان مطعم «روسا ناوتيكا» يغص بالناس. سائحون كثيرون ممن يتكلمون الإنكليزية والفرنسية. وكانوا قد حجزوا لدون إسماعيل منضدة إلى جانب النافذة. تناولا كأس كامبري وهما يتأملان بعض ممتطي ألواح التزلج يجويون الأمواج محشورين ببدلاتهم المطاطية. كان يوماً شتائياً رمادياً، مع غيوم رصاصية منخفضة تخفي جروف الوهاد وأسراب النوارس التي تطلق الزعيق. وكان هناك سرب من طيور القطرس يمضي طافياً فوق سطح البحر. وبدا دوي مدّ الأمواج الإيقاعي ورجعها لطيفاً. «الشتاء على شيء من الكآبة في ليما، إنني أفضل الصيف ألف مرة»، فكر ريغوبيرتو. طلب سمكة غراب

بحر مشوية مع سلطة، ونبَّه رئيسه إلى أنه لا يستطيع شرب قطرة نبيذ واحدة؛ فلديه عمل في المكتب ولا يريد قضاء فترة العمل المسائية في التثاؤب مثل تمساح مع الشعور بأنه يتحرك نائماً. بدا له أن إسماعيل، المتنع عن الشراب، لم يسمعه. أي ذبابة لسعته يا ترى؟

ـ أنت وأنا صديقان حميمان، نعم أم لا؟ توجه إليه رئيسه فجأة كما لو أنه قد استيقظ للتو.

ـ هذا ما أعتقده يا إسماعيل ـ أجابة ريغوربيرتو ـ. إن كان بالإمكان وجود صداقة حقاً بين رب عمل وموظفه. فهنالك ما يسمى صراع الطبقات كما تعلم.

ـ لقد كانت لنا مواجهاتنا أحياناً ـ واصل إسماعيل بجدية كبيرة ـ. ولكننا، على الرغم من كل شيء، أمضينا هذه السنوات الثلاثين على ما يرام. ألا ترى ذلك؟

ـ هل كل هذا اللف والدوران العاطفي من أجل أن تطلب مني ألا أتقاعد؟ ـ استفزه ريغوبيرتو ـ هل ستقول لي إن الشركة ستنهار إذا ما غادرتُها؟

لم تكن لدى إسماعيل رغبة في المزاح. كان يتأمل أصداف البرميزانا التي أحضروها له للتو كما لو أنها يمكن أن تكون مسممة. يحرك فمه مصدراً صوتاً بأسنانه الاصطناعية. كان هناك قلق في عينيه شبه المغمضتين. أهي البروستات؟ إصابة بسرطان؟ ما الذي أصابه؟

ـ أريد أن أطلب منك معروفاً ـ دمدم بصوت خفيض جداً، دون أن ينظر إليه. وعندما رفع عينيه، رأى ريغوبيرتو أنهما زائغتان ـ ليس معروفاً عادياً، إنه معروف كبير يا ريغوبيرتو.

ـ إن كان باستطاعتي، فجوابي نعم بالطبع ـ وافق مأخوذاً ـ. ماذا جرى لك يا إسماعيل؟ يا لهذا الوجه الذي تبديه!

ـ بما أنك صديقي ـ قال إسماعيل وهو يعيد النظر إلى القواقع ـ. سوف أتزوج.

ظلتْ الشوكةُ، مع الفم نصف المفتوح، معلقة للحظة في الهواء. وأخيراً، بدل أن يوصلها إلى فمه، أعادتها ريغوبيرتو إلى الطبق. «كم عمره»، راح يفكّر. «ليس أقل من خمسة وسبعين أو ثمانية وسبعين عاماً، بل ربما هو في الثمانين». لم يدر ما يمكنه قوله. لقد أصابته المفاجأة بالبكم.

ـ أحتاج إلى شاهدين ـ أضاف إسماعيل، وكان ينظر إليه الآن وهو أكثر تحكماً بنفسه ـ. لقد استعرضت في ذهني جميع أصدقائي ومعارفي. وتوصلت في النتيجة إلى أن الشخصين الأكثر وفاء، بين من أثق بهم، هما نرسيس وأنت. وقد وافق سائقي. فهل توافق أنت؟

ولعجزه حتى تلك اللحظة عن النطق بكلمة أو قول عبارة مازحة، لم يستطع ريغوبيرتو إلا الموافقة بهز رأسه.

ـ طبعاً يا إسماعيل ـ تلعثم أخيراً ـ ولكن أكد لي أن هذا الكلام جديّ، وليس أول عوارض خَرَفك الشيخوخي.

ابتسم إسماعيل هذه المرة، وإن يكن دون أية ذرة من السعادة، فاتحاً فمه كثيراً ومظهراً البياض الفاقع لأسنانه المزيفة. هنالك سبعينيون وثمانيون يحتفظون ببنية قوية، قال ريغوبيرتو لنفسه، ولكنها ليست حال رئيسه بكل تأكيد. ففي الجمجمة المتطاولة، تحت خصل الشعر البيضاء، تكثر الشامات، كما أن جبهته ورقبته مثلمة بالتجاعيد، وفي ملامحه كلها هنالك شيء مهزوم. إنه يلبس بأناقة كالعادة، بدلة زرقاء، وقميص يبدو مكوياً للتو، وربطة عنق مثبتة بمشبك ذهبي، ومنديل بارز في الجيب.

ـ هل أُصبتَ بالجنون يا إسماعيل؟ـ هتف ريغوبيرتو فجأة، في ردّ فعل متأخر على الخبر ـ هل ستتزوج حقاً؟ وأنت في هذه السن؟

ـ إنه قرار متعقل تماماً ـ سمعه يقول بتصميم ـ. وقد اتخذته وأنا أعرف جيداً ما سيتسبب به. ولا حاجة للقول لك، إذا ما كنت شاهداً على زفافي، فسوف تواجه المشاكل أيضاً. وباختصار، لماذا الحديث عما تعرفه جيداً.

ـ وهل هما على علم بالأمر؟

ـ لا تسألني أسئلة بلهاء، أرجوك ـ فقد رئيسه صبره ـ. سيصل صراخ التوأمين إلى السماء، سيحركان الأرض والجحيم كي يبُطلا زواجي، وسيسعيان لإعلاني فاقد الأهلية، ويحاولان إدخالي إلى مستشفى المجانين وألف شيء آخر. بل إنهما سيدفعان قاتلاً مأجوراً إلى قتلي إذا تمكنا. وستكون أنت ونرسيس أيضاً ضحيتين لحقدهما طبعاً. أنت تعرف هذا كله، وعلى الرغم من ذلك قلتَ لي نعم. لم أخطئ إذاً. إنك الشخص النظيف، الكريم والنبيل، مثلما كنت أظن على الدوام. شكراً أيها العجوز.

مدّ يده، وأمسك ريغوبيرتو من ذراعه وأبقاها هناك للحظة، مع ضغطة تأثر.

ـ أخبرني على الأقل من هي العروس المحظوظة. سأله ريغوبيرتو محاولاً ابتلاع لقمة من سمكة غراب البحر. لقد فقدَ كل رغبة في الأكل.

ابتسم إسماعيل هذه المرة ابتسامة حقيقية وهو ينظر إليه بسخرية. ضوء خبيث كان يتلألأ في بؤبؤي عينيه وهو يقترح عليه:

ـ تناول رشفة من النبيذ أولاً يا ريغوبيرتو. إذا كنتَ قد أصبت بكل هذا الشحوب لمجرد أنني أخبرتك بأني سأتزوج، فقد تصاب بسكتة قلبية إذا ما أخبرتك ممن سأتزوج.

ـ أهي قبيحة إلى هذا الحد متصيدة الثروة هذه؟ تلعثم ريغوبيرتو. فبعد ذلك التمهيد صار فضوله هائلاً.

ـ سأتزوج من آرميدا. قال إسماعيل متهجياً الاسم حرفاً حرفاً. وكان ينتظر ردّ فعله مثلما ينتظر عالم حشرات ردّ فعل حشرة يدرسها.

آرميدا، آرميدا؟ راح ريغوبيرتو يستعرض كل من يعرفهن، ولكن أياً منهن لم تكن تتوافق مع هذا الاسم.

ـ هل أعرفها؟ سأله أخيراً.

ـ آرميدا ـ كرر إسماعيل وهو يتفحصه وينظر إليه بابتسامة متكتمة ـ أنت تعرفها جيداً. لقد رأيتَها ألف مرة هنا في بيتي. كل ما هنالك أنك لم تنتبه إليها قطّ. لأن أحداً لا ينتبه أبداً إلى العاملات المنزليات.

الشوكة التي غرس فيها قطعة أخرى من سمكة غراب البحر انزلقت من بين أصابعه وسقطت على الأرض. وبينما هو ينحني ليلتقطها أحس بأن قلبه بدأ ينبض بقوة. سمع رئيسه يضحك. أيكون ممكناً؟ هل سيتزوج من خادمته؟ ألا تحدث مثل هذه الأمور في المسلسلات التلفزيونية وحدها؟ هل يتكلم إسماعيل بجد أم أنه يسخر منه؟ تخيل التقولات، والاختلاقات، والتخمينات، والدعابات التي ستشعل ليما الناس النمامين: سيكون لديهم ما يتسلون به لوقت طويل.

ـ هنالك شخص مجنون هنا ـ قال مؤكداً من بين أسنانه ـ إما أنت أو أنا. أم ترانا مجنونين كلينا يا إسماعيل؟

ـ إنها امرأة طيبة، ونحن متحابان ـ قال رئيسه، دون أدنى تشوش الآن ـ إنني أعرفها منذ زمن طويل. ستكون رفيقة جيدة لي في شيخوختي، ولسوف ترى ذلك.

أجل... لقد رآها ريغوبيرتو، تعرف إليها، اختلقها. إنها سمراء، شعرها طويل جداً، ولها عينان متوقدتان. إنها خلاسية، ساحلية ذات أساليب لعوبة، نحيلة، وليست قصيرة القامة جداً. تشوليتا حسنة المظهر. وفكّر: «لا بد أنه يكبرها بأربعين عاماً، وربما أكثر. لقد أصيب إسماعيل بالجنون».

ـ إذا كنت قد نويت، في شيخوختك، أن تكون بطل أكبر فضيحة مدوية في تاريخ ليما، فسوف تتوصل إلى ذلك ـ قال متنهداً ـ ستكون جوكر النميمة لسنوات لا يعلم عددها إلا الله، وربما لقرون.

ضحك إسماعيل موافقاً، وكان ضحكه هذه المرة بطيب مزاج صريح.

ـ لقد أخبرتك بالأمر أخيراً يا ريغوبيرتو ـ هتف براحة ـ الحقيقة أن إخباري لك كلفني مشقة كبيرة. وأعترف لك أن بحراً من الشكوك كان يراودني. كنت أموت خجلاً. عندما أخبرتُ نرسيس، فتح الزنجي عينيه كصحنين وكاد أن يبتلع لسانه. حسن. ها أنت تعلم ما سيحدث. ستكون فضيحة مدوية ولا يهمني ذلك مقدار ذرة. هل ستظلُ موافقاً على أن تكون شاهداً على زفافي؟

هز ريغوبيرتو رأسه: أجل، أجل يا إسماعيل، فكيف يمكنه أن يرفض ما دام إسماعيل هو من يطلب ذلك منه. ولكن، ولكن... باللعجب، لم يعد يدري أية لعنة يمكنه قولها.

ـ أهو زواج لا بد منه؟ ـ تحمس أخيراً ـ أعني أنك ستغامر بتحمل ما سيجلبه عليك. أنا لا أفكر في الفضيحة وحدها يا إسماعيل. يمكن لك أن تتخيل ما أعنيه. أهنالك ما يستحق الوقوع في المشكلة الهائلة مع ابنيك التي سيتسبب بها هذا الزواج؟ فللزواج مفاعيل اقتصادية قانونية. وباختصار، يخيل إليّ أنك قد فكرت بهذا كله وأن ما أقوله لك مجرد تأملات بلهاء. أليس كذلك يا إسماعيل؟

رأى رئيسه يشرب نصف كأس من النبيذ الأبيض في جرعة واحدة. رآه يهز كتفيه ويؤكد:

ـ سيحاولان اعتباري عاجزاً وفاقد الأهلية ـ أوضح بنبرة ساخرة وهو يقوم بتكشيرة ازدراء ـ لا بد من دفع رشى وأموال كثيرة لقضاة ومحامين طبعاً. وأنا أملك نقوداً أكثر منهما، وهذا يعني أنهما لن يكسبا القضية ضدي إذا ما تقدما بالشكوى.

كان يتكلم دون أن ينظر إلى ريغوبيرتو، ودون أن يرفع صوته كيلا يسمعه من هم على الموائد المجاورة، وبعينين متجهتين نحو البحر. ولكنه لم يكن يرى، دون شك، ممتطي ألواح التزلج، ولا النوارس، ولا الأمواج التي تندفع نحو الشاطئ مطلقة شرر زبد أبيض، ولا رتلي السيارات التي تمر على الشاطئ الأخضر. وراح صوته يمتلئ بالغضب.

ـ وهل يستحق الأمر هذا كله يا إسماعيل؟ ـ ألح ريغوبيرتو ـ. محامون، وكتّاب بالعدل، وقضاة، ومثلول في المحاكم، والقذارة الصحفية وهي تنبش في حياتك الخاصة إلى حدّ الغثيان. كل هذه الفظاعة، فضلاً عن الأموال التي ستكلفك إياها مثل هذه النزوة. وأوجاع الرأس والتكدر. هل يستحق الأمر هذا كله؟

وبدلاً من أن يجيبه، فاجأه إسماعيل بسؤال آخر:

ـ أتتذكر عندما أصابتني النوبة القلبية، في شهر أيلول/سبتمبر؟

ريغوبيرتو يتذكر ذلك جيداً. الجميع ظنوا يومها أن إسماعيل سيموت. فاجأته النوبة وهو في السيارة، في طريق عودته إلى ليما من غداء في أنكون. حمله سائقه نرسيس مغمى عليه إلى مستشفى سان فيلبيه. استبقوه في العناية المركزة عدة أيام، مع أوكسجين، وكان ضعيفاً إلى حدّ لا يقدر معه على الكلام.

ـ ظننا يومذاك أنك لن تتجاوز المحنة، ويا للرعب الذي سببته لنا. لماذا تتذكر ذلك الآن؟

ـ في ذلك الحين قررتُ الزواج من آرميدا ـ كان وجه إسماعيل قد تعكر وصار صوته مشحوناً بالمرارة. وبدا في تلك اللحظة أكثر هرماً ـ. كنتُ على شفا الموت، طبعاً. رأيته قريباً مني، لمسته، شممته. لم يكن الضعف يسمح لي بالكلام، أجل. ولكنني كنت قادراً على السماع. وهذا ما لم يعلمه ابناي الوغدان يا ريغوبيرتو. وسوف أخبرك أنت بما

حدث. أنت وحدك فقط. ولا أريد لهذا الأمر أن يخرج من فمك، ولا حتى للوكريثيا. أقسم لي إنك لن تبوح به، أرجوك.

ـ الدكتور غاميو كان واضحاً جداً ـ أكد ميكي بحماسة ودون أن يخفض صوته ـ. سيفارق الحياة هذه الليلة بالذات يا أخي. نوبة قلبية حادة. إنها نوبة قاتلة، هذا ما قاله الدكتور. واحتمالات النجاة والمعافاة في أدنى الحدود.

ـ تكلم بصوت أخفض– طلب منه إسكوبيتا. وكان هذا يتكلم بصوت خافت، في تلك الإضاءة الخافتة التي تشوه شكل الظلال، في تلك الحجرة الغريبة العابقة برائحة الفورمول – فليسمع الربُ كلامك يا صاحبي. ألم تستطع تحري أي شيء بشأن الوصية في مكتب المحامي أرنييّاس؟ لأنه إذا رغب في استبعادنا، فسوف يستبعدنا. عجوز البراز هذا يعرف كل شيء.

ـ أرنييّاس لا يبوح بشيء لأن العجوز اشتراه ـ قال ميكي وهو يخفض صوته أيضاً ـ. لقد ذهبتُ في المساء لاستدارجه كي يقول شيئاً، ولكن لم تكن ثمة وسيلة. وقد قمتُ على كل حال ببعض التحريات. لن يتمكن من استبعادنا حتى لو أراد ذلك. فما أعطانا إياه حين طردنا من الشركة لا يحتسب. القانون واضح. إننا الوارثان الإجباريان. هكذا هي التسمية: الورثة الإجباريون. لا يمكنه حرماننا من التركة يا أخي.

ـ لا تثق كثيراً يا صاح. فهو يعرف الحيل القانونية كلها. وقادر على عمل أي شيء لخوزقتنا.

ـ فلنأمل ألا ينقضي عليه هذا اليوم ـ قال ميكي ـ لأن هذا العجوز القذر قد يجعلنا نقضي ليلة أخرى دون نوم.

ـ عجوز البراز هذا، ولينتهِ بأسرع ما يمكن... على بُعد أقل من متر عني، كانا سعيدين بكوني أحتضر ـ تذكّر إسماعيل متكلماً ببطء، ونظره مصوب إلى الفراغ ـ. أتدري يا ريغوبيرتو؟ لقد أنقذاني من الموت. أجل،

هما من أنقذاني، أقسم لك. لأن إرادة لا تصدق في التمسك بالحياة جاءتني حين سمعتهما يقولان هذه الفظاعات. إرادة في عدم منحهما تلك البهجة، في عدم الموت. وأقول بصدق إن جسدي استجاب. وهناك اتخذتُ القرار، في ذلك المستشفى: إذا ما استعدت عافيتي سأتزوج من آرميدا. سأخوزقهما أنا قبل أن يخوزقاني. أيريدان الحرب؟ سيكون لهما ما يريدان. سيحصلان عليها يا صاحبي. إنني أرى الوجهين اللذين سيبدوان بهما.

لم تكن المرارة وخيبة الأمل والغضب وحدها هي التي تضمخ كلماته، وإنما كذلك التكشيرة التي عوجت فمه، ويداه وهما تعتصران الفوطة.

ـ قد يكون ما سمعته مجرد تخيلات، مجرد كابوس ـ دمدم ريغوبيرتو غير مصدق ما يقوله ـ. مع كمية الأدوية التي حُقنت يومذاك في جسدك، يمكن لك أن تكون قد حلمت بذلك كله يا إسماعيل. لقد كنت تهذي، وأنا رأيتك.

ـ كنت أعرف أن ابنيَّ لم يحباني قطّ ـ واصل رئيسه الكلام، دون أن يعير ما قاله أدنى اهتمام ـ. ولكنني لم أكن أعرف أنهما يكرهانني إلى ذلك الحد، وأنهما توصلا إلى تمني موتي كي يَرِثاني دفعة واحدة. وكي يبددا، بالطبع، ما بنياه أنا وأبي على امتداد سنوات طويلة ونحن نعمل بجهد. لا. سيبقى الضبعان منتوفين، أؤكد لك.

صفة الضبعين تليق تماماً بابني إسماعيل، هذا ما فكّر فيه ريغوبيرتو. إنهما شخصان لا مثيل لهما في السوء. فهما بطالان، عربيدان، مستغلان، طفيليان يُلحقان العار باسم أبيهما وجدهما. لماذا خرجا على هذا النحو؟ ليس السبب قلة حنان أبويهما ورعايتهما بكل تأكيد. فالواقع عكس ذلك تماماً، لأن إسماعيل وكلوتيدي كانا يضحيان على الدوام مع أجلهما، وفعلا المستحيل من أجل توفير أفضل تعليم لهما. كانا يحلمان بأن يجعلا منهما رجلين محترمين. أية شياطين حوّلتهما إلى الوغدين اللذين صارا إليهما؟ لا غرابة في أنهما تبادلا تلك

المحادثة المشؤومة إلى جانب سرير أبيهما الذي كان يحتضر. فهما فوق ذلك غبيان، لم يفكرا في أنه قد يسمعهما. لا يتورعان بكل تأكيد عن تبادل مثل ذلك الحديث وما هو أسوأ منه. ريغوبيرتو يعرف ذلك جيداً، فخلال تلك السنوات كلها كان في مرات كثيرة منديل دموع رئيسه ومتلقي أسراره بشأن عربدات ابنيه. لكم عانى إسماعيل وكلوتيلدي من الفضائح التي استثارها ابناهما منذ شبابهما المبكر.

لقد ذهبا إلى أفضل مدرسة في ليما، وكان لهما أساتذة خصوصيون لمواد يبدوان ضعيفين بها، وذهبا في دورات تعليمية إلى الولايات المتحدة وإنكلترا. تعلما الإنكليزية ولكنهما كانا يتكلمان إسبانية أميين، تتخللها كل تلك العبارات العامية والمستهترة التي يتداولها شبان ليما، ولم يقرأا كتاباً واحداً ولا حتى جريدة في حياتيهما كلها، وربما لا يعرفان عواصم نصف البلدان الأمريكية اللاتينية، ولم يتمكن أي منهما من تجاوز السنة الأولى في الجامعة. وقد دشنا ممارساتهما المشينة وهما لا يزالان مراهقين باغتصابهما تلك البُنيَّة التي أخذاها من حفلة غير محترمة في بوكوسانا. كان اسم الفتاة فلوراليسا روكا، اسم يبدو خارجاً من إحدى روايات الفروسية. نحيلة وعلى قدر لا بأس به من الجمال، لها عينان متأهبتان وبكاءتان، وجسد يرتعش خوفاً. ريغوبيرو يتذكرها جيداً. إنها في ضميره ومازالت تنتابه نوبات من تأنيب الضمير على الدور القبيح الذي كان عليه أن يلعبه في تلك القضية. استعاد ذكرى تلك المشكلة: محامون، أطباء، محاضر شرطية، ومساع يائسة للحيلولة دون أن تأتي جريدة *لابرنسا* أو مجلة *الكوميرثيو* على ذكر اسم التوأمين تقاريرهما الإخبارية عن الحادثة. كان عليه هو نفسه أن يتحدث إلى أبوي الفتاة، وهما زوجان من مدينة إكا، متقدمين في العمر، تكلف أمر تهدئتهما وإسكاتهما قرابة خمسين ألف دولار، وهو مبلغ كان يشكّل ثروة في ذلك الحين. ومازال حاضراً في ذاكرته ذلك الحديث بينه وبين إسماعيل في

أحد تلك الأيام. كان رئيسه يعصر رأسه، يكبح دموعه، ويتهدج صوته: «بماذا أخطأنا يا ريغوبيرتو؟ ما الذي فعلناه أنا وكلوتيلدي كي يعاقبنا الرب على هذا النحو؟ كيف يمكن أن نكون قد أنجبنا مثل هذين الابنين قاطعي الطريق! حتى إنهما لا يشعران بالندم على الفظاعة التي اقترفاها. إنهما يلقيان الذنب على الفتاة المسكينة، تصور! لم يغتصباها وحسب، بل ضرباها وأساءا معاملتها». إنهما قاطعا طريق، هذه هي التسمية المناسبة بالضبط. ربما لم يتيحا لهما قطّ الإحساس بقليل من المسؤولية. ما كان عليهما أن يغفرا لهما ممارسة ظرافاتهما دوماً... ظرافات التوأمين! تصادم بالسيارات لقيادتهما لها وهما مخمورين ومخدرين، ديون مستحقة يستخدمون فيها اسم الأب، إيصالات مزورة في المكتب حين خطر لإسماعيل، في ساعة نحس، أن يدخلهما إلى الشركة كي يتمرنا. وقد كانا كابوساً بالنسبة إلى ريغوبيرتو. إذ كان عليه أن يذهب بنفسه ليخبر رئيسه بمآثر الأخوين. لقد وصل بهما الأمر إلى إفراغ صندوق مكتبه حيث تُحفظ نقود النفقات الجارية. وكانت هذه، لحسن الحظ، هي النقطة التي جعلت الكأس يطفح. فقد طردهما إسماعيل من العمل، وفضّل أن يقدم لهما مبلغاً شهرياً، ويمول كسلهما. لقد كانت سيرة كل منهما بلا حدود. فقد دخلا، على سبيل المثال إلى جامعة بوسطن وكان أبواهما سعيدين. بعد شهور من ذلك اكتشف إسماعيل إنهما لم يطأا حرم تلك الجامعة قط، بل وضعا في جيوبهما رسوم التسجيل والإقامة الجامعية، وزورا سجل درجات وتقارير دوام. صَدَم أحدهما ـ أكان ميكي أم إسكوبيتا؟ ـ عابر طريق في ميامي، وكان ملاحقاً في الولايات المتحدة لأنه استغل الحرية المؤقته الممنوحة له وهرب إلى ليما. إذا ما رجع إلى هناك سيُقتاد إلى السجن.

بعد وفاة كلوتيدي استسلم إسماعيل. فليفعلا ما يحلو لهما. أعطاهما مقدماً جزءاً من الميراث، من أجل أن يستثمراه إذا رغبا أو فليبدداه،

وهذا هو بالطبع ما فعلاه بالسفر إلى أوروبا وعيش حياة ملوك هناك. لقد صارا رجلين كاملين مكملين، يقتربان من الأربعين من العمر. ولم يكن رئيسه راغباً بمزيد من وجع الرأس مع هذين الابنين اللذين لا سبيل إلى إصلاحهما. وتأتي الآن هذه المسألة! سيحاولان بالطبع إبطال ذلك الزواج إذا ما تحقق. لن يسمحا أبداً بأن يُنتزع منهما ميراث ينتظرانه، طبعاً، بشراهة آكلة لحوم بشر. تخيل ريغوبيرتو الفضيحة التي سيفتعلانها. أبوهما يتزوج من آرميدا! من الخادمة! من الخلاسية التشولا! وضحك في أعماقه: أجل، يا للوجهين اللذين سيبديانهما. ستكون الفضيحة هائلة. يمكن له منذ الآن أن يسمع، ويرى، ويشم النمائم والتكهنات والأقاويل والاختلاقات التي سيجري تداولها عبر هواتف ليما. إنه يتلهف إلى الساعة التي سيخبر فيها لوكريثيا بهذه المستجدات.

ـ هل أنت على علاقة جيدة بفونتشيتو؟ ـ أخرجه صوت رئيسه من تأملاته ـ. كم صار عمر ابنك الآن؟ أربعة عشر أم خمسة عشر عاماً؟

اقشعر بدن ريغوبيرو متخيلاً أنه يمكن لفونتشيتو أن يتحول إلى شخص شبيه بابني إسماعيل. لحسن الحظ أنه غير ميال إلى اللهو.

ـ علاقتي به على ما يرام ـ أجاب ـ. وعلاقته بلوكريثيا أفضل. ففونتشيتو يحبها كما لو أنها أمه لا أكثر ولا أقل.

ـ إنك محظوظ، فعلاقة الطفل بزوجة الأب ليست سهلة على الدوام.

ـ إنه ولد طيب ـ اعترف دون ريغوبيرتو ـ محب للدراسة، ووديع. لكنه متوحد جداً. إنه في هذه الفترة الصعبة من المراهقة. يشرد بكثرة. أحب أن أراه مصادقاً لآخرين، أن يخرج، أن يُغرم بفتاة، أن يذهب إلى حفلات.

ـ هذا ما كان يفعله الضبعان حين كانا في مثل عمره ـ قال إسماعيل بتحسر ـ. الذهاب إلى الحفلات، اللهو. من الأفضل أن يظل كما هو أيها العجوز. الصداقات الخبيثة هي التي خرّبت ابنيَّ.

كان ريغوبيرتو على وشك أن يروي لإسماعيل حماقة فونتشيتو مع الظهور المتكرر لشخصية إديلبرتو توريس الذي يدعوه هو ولوكريثيا «الشيطان»، ولكنه كبح نفسه. ما جدوى ذلك، ومن يدري كيف سيفهم الأمر. في البدء استمتع هو ولوكريثيا بالظهور المزعوم لذلك النذل، واحتفيا بمخيلة الفتى المتألقة، مقتنعين بأنها مجرد لعبة أخرى من الألعاب التي يحب مفاجأتهما بها بين حين وآخر. أما الآن فإنهما قلقان ويقلبان فكرة أخذه إلى طبيب نفساني. الحقيقة أنه بحاجة إلى أن يعيد قراءة ذلك الفصل عن الشيطان في رواية «*دكتور فاوست*» لتوماس مان.

ـ مازلتُ غير مصدق هذا الأمر كله يا إسماعيل. هتف من جديد وهو يرتشف فنجان القهوة. هل أنت متأكد حقاً من أنك ستفعل ذلك، ستتزوج؟

ـ مثل ثقتي بأن الأرض مكورة ـ أكد رئيسه ـ. ليس لتلقين ذلك الثنائي درساً فقط. فأنا أشعر بحب شديد نحو آرميدا. لا أدري ما الذي كان سيحل بي من دونها. فمنذ موت كلوتيدي كانت مساعدتها لي لا تعوض بثمن.

ـ إن أرميدا، إذا لم تخني الذاكرة، امرأة فتية جداً ـ تلعثم دون ريغوبيرتو ـ. كم عاماً تكبرها، إن كان يمكن لي معرفة ذلك؟

ـ ثمانية وثلاثون عاماً فقط ـ ضحك إسماعيل ـ. أجل، إنها شابة، وآمل أن تبعث فيَّ الحيوية، مثلما فعلت فتاة العهد القديم بسليمان. كانت تدعى شوليت، أليس كذلك؟

ـ حسنٌ، حسن، أنت حرّ بحياتك ـ قال ريغوبيرتو مستسلماً ـ. أنا لا أنفع في تقديم النصح. تزوج من آرميدا ولينهار العالم بعد ذلك فوق رؤوسنا، لا فرق أيها العجوز.

ـ إذا كنت ترغب في أن تعرف، فإننا نكون على ما يرام في الفراش ـ تبجح إسماعيل ضاحكاً بينما هو يشير بيده إلى النادل كي يأتيه بالحساب ـ. ومن أجل مزيد من الدقة، لا أستخدم الفياغرا إلا نادراً، لأني أكاد لا أحتاج إليها. ولا تسألني أين سنقضي شهر العسل، لأني لن أخبرك بذلك.

III

بعد أيام قليلة من تلقيه الرسالة الأولى، تلقى فيليثيتو ياناكيه رسالة العنكبوت الثانية، يوم الجمعة ليلاً، وهو اليوم الذي يذهب فيه كل أسبوع لزيارة مابيل. فبعد أن هيأ لها، قبل ثمانية أعوام، البيت الصغير في حي كاستيليّا، غير بعيد عن الجسر القديم الذي انهار واختفى بفعل الأضرار التي تسبب بها إعصار النينيو، صار يذهب لزيارتها مرتين، وحتى ثلاث مرات، في الأسبوع؛ لكن عاطفته راحت تخفت مع مرور السنوات، واقتصر منذ بعض الوقت على زيارتها مرة واحدة كل أسبوع، في أيام الجمعة فقط، بعد خروجه من المكتب. ويبقى معها بضع ساعات، ويتناولان الغداء معاً في معظم الأحيان، في إحدى حانات الحي أو في مطعم كريولي في مركز المدينة. وبين حين وآخر كانت مابيل تطهو له سمكة شابيل مجففة ـ وهذا اختصاصها ـ يلتهمها فيليثيتو بسعادة مع زجاجة بيرة كوسكية مُبَرَّدة جيداً.

مازالت مابيل تحتفظ بقوام جيد جداً. ففي هذه الأعوام الثمانية لم تزدد سمنة، ويبدو مجمل جسدها كرياضية على حاله؛ فخصرها نحيل، ونهداها صلبان منتصبان، ومؤخرتها المكورة والمتعالية مازالت تهتز بمرح حين تمشي. إنها سمراء، لها شعر سبط، وشفتان ممتلئتان، وأسنان ناصعة البياض، وابتسامة مشرقة وقهقهات تبعث عدوى السعادة في ما حولها. وكانت لا تزال في نظر فيليثيتو جميلة جداً وجذابة مثلما كانت حين رآها أول مرة.

حدث ذلك في الستاد القديم، في حي بوينس آيريس، خلال مباراة تاريخية. ففي تلك المناسبة، وكانت قد مضت سنوات على فريق أتلاتيكو غراو دون أن يتمكن من الصعود إلى فرق الدرجة الأولى، ولكنه لم يواجه في تلك المباراة فريق أليانثا ليما وحسب وإنما هزمه أيضاً. ما رآه صاحب شركة النقل يومذاك كان ضربة سهم. «إنك ذاهل يا صاحبي»، سخر منه الكولورادو بيغنولو، صديقه وزميله ومنافسه ــ فهو يملك شركة النقل «دُرّة تشيرا» ــ وكان معتاداً على الذهاب معه إلى مباريات كرة القدم حين تأتي فرق من ليما ومن أقاليم أخرى للعب في بيورا. «بسبب نظرك المتواصل إلى تلك السمراء، ضيّعت على نفسك رؤية جميع الأهداف». «لم أر في حياتي شيئاً بمثل هذه الروعة»، دمدم فيليثيتو وهو يفرقع بلسانه؛ ثم أضاف: «إنها باهرة الجمال!». كانا على بُعد أمتار قليلة منها، وكان يرافقها شاب يضع ذراعه على كتفيها ويداعب شعرها بين وقت وآخر. بعد قليل همس الكولورادو بيغنولو في أذنه: «إنني أعرفها. اسمها مابيل. لقد وقعتَ يا صاحبي. إنها تُضاجِع». جفل فيليثيتو: «أتعني يا صاحبي أن هذه البهجة عاهرة؟».

ـ ليست هكذا بالضبط ـ صحح الكولورادو وهو يوكزه بمرفقه ـ قلت إنها تُتيح أن تُضَاجَع، وليس أن تتعهر. المضاجعة والتعهر أمران مختلفان يا زميل. ومابيل هي نوع من الخليلة أو شيء من هذا القبيل. تفعل ذلك مع بعض المتميزين، وفي بيتها. وهي تحصل من كل واحد منهم على ما يساوي عيناً من وجهه على ما أُقدّر. أتريديني أن أحصل لك على رقم هاتفها؟

تحرى له عن رقم هاتفها، وقام فيليثيتو بالاتصال بها وهو شبه ميت من الخجل، لأنه ـ خلافاً للكولورادو بيغنولو العربيد والداعر منذ صغره ـ يعيش حياة شديدة التقشف مكرساً نفسه لعمله وأسرته. وبعد كثير من

اللف والدوران، حدد موعداً مع امرأة الستاد الجميلة. حددت له الموعد أولاً في مقهى بجادة غراو، مقهى بالالايكي، القريب من تلك المقاعد التي يجتمع عليها، للاستمتاع ببرودة الغروب، أولئك النمامون المسنون مؤسسو م. ت. ح. ا. (مركز تحري حيوات الآخرين). تناولا وجبة خفيفة، وتبادلا الحديث لوقت لا بأس به. كان يشعر بالرهبة حيال ذلك الجمال والشباب، ويتساءل بينه وبين نفسه، في بعض اللحظات، عما سيفعله إذا ما ظهرت زوجته خيرترووديس فجأة في المقهى أو ابناه تيبورثيو وميغيليتو. كيف سيقدم لهم مابيل؟ أما هي فكانت تلعب معه لعبة القط والفأر: «أنت عجوز جداً، مُستهلَك وغير مناسب للوقوع في حب امرأة مثلي. أضف إلى ذلك أنك طِرْح ضئيل، وإذا كان عليّ أن أمشي معك فسوف أضطر إلى المضي دائماً بحذاء بلا كعب». كانت تتغنج مع صاحب شركة النقل على هواها، وتقرّب منه وجهها الباسم وعينيها المترعتين بالشرر، وتمسك بيده أو بذراعه، وهي ملامسات تهز كيان فيليثيتو من رأسه حتى أخمص قدميه. كان عليه الخروج مع مابيل قرابة ثلاثة شهور، يأخذها إلى السينما، يدعوها للغداء، للعشاء، للتنزه على شاطئ ياثيلا، وإلى حانات كاتاكاوس، ويقدم لها الكثير من الهدايا إليها، ابتداء من عقود وأساور وحتى أحذية وأثواب تختارها بنفسها، قبل أن تسمح له بزيارتها في البيت الذي تعيش فيه، شمالي المدينة، بالقرب من مقبرة سان تيودورو القديمة، عند ناصية في متاهة تلك الأزقة ذات الكلاب الشاردة والرمال التي هي آخر ما تبقى من حي لامانغاتشيريا. يوم نام معها فيليثيتو ياناكيه أول مرة، بكى للمرة الثانية في حياتها (المرة الأولى كانت يوم وفاة أبيه).

ـ لماذا تبكي أيها العجوز؟ ألم أعجبك؟

ـ لم أكن في حياتي سعيداً مثلما أنا الآن ـ اعترف لها فيليثيتو وهو جاثٍ يقبل يديها ـ حتى الآن لم أكن أعرف ما هي المتعة، أقسم لك. أنت من علمتني السعادة يا مابيليتا.

بعد وقت قصير من ذلك عرض عليها، دون مزيد من المقدمات، أن يوفر لها ما يسمونه في البيرو «البيت الصغير» وأن يقدم لها مبلغاً شهرياً كي تتمكن من العيش بطمأنينة، دون قلق بشأن المال، في مكان أفضل من ذلك الحي الذي يغص بالماعز وبالمانغاتشريين حملة السكاكين. فوجئت المرأة، ولم تجد ما تقوله سوى: «أقسم لي إنك لن تسألني أبداً عن ماضيَّ، وإنك لن تواجهني بأية نوبة غيرة طوال حياتك». «أقسمُ لك يا مابيل». بحثت بنفسها عن البيت الصغير في حي كاستيليّا، بجوار مدرسة سان خوان بوسكو التابعة للآباء السالسيانيين، وأثثته وفق ذوقها. وقّع فيليثيتو عقود الإيجار ودفع كافة الحسابات، دون أن يعترض على السعر. وصار يقدم إليها المبلغ الشهري بدقة، ونقداً، في اليوم الأخير من كل شهر، مثلما يدفع لموظفي وعمال شركة ناريهوالا للنقل. كان يتفق معها دوماً على الأيام التي سيزورها فيها. وطوال ثمانية أعوام لم يذهب بصورة مفاجئة ودون إخبار مسبق إلى البيت الصغير في كاستيليّا. لم يكن يرغب في تعريض نفسه لحرج اللقاء مع بنطال رجالي في غرفة عشيقته. ولم يكن يتحرى كذلك عما تفعله في بقية أيام الأسبوع التي لا يلتقيان فيها. ولكنه كان يحدس، وهذا صحيح، أنها تأخذ راحتها ويشكرها بصمت لأنها تفعل ذلك بتكتم، ودون أن تُذله. وكيف بإمكانه الاعتراض على ذلك؟ فمابيل شابة، مرحة، ولها الحق بأن تستمتع بحياتها. لاسيما وأن قبولها بأن تكون عشيقة لرجل عجوز، قصير القامة وقبيح مثله هو أمر أكثر من كبير. ليست المسألة في أنه لم يكن يهتم، لا شيء من هذا. فعندما كان يلمح

مابيل من بعيد، أحياناً، وهي تخرج من متجر أو من صالة سينما برفقة رجل، كانت معدته تتلوى من الغيرة. وفي بعض الأحيان كانت تأتيه كوابيس تعلن له مابيل فيها، بكل جدّية: «سوف أتزوج، وستكون هذه هي المرة الأخيرة التي نلتقي فيها يا عجوزي». لو كان بإمكان فيليثيتو الزواج بها لفعل ذلك. ولكنه لا يستطيع. ليس لأنه متزوج، وإنما لأنه لا يريد أن يتخلى عن خيرترورديس، مثلما فعلت أمه، تلك المرأة غير الطبيعية التي لم يعرفها قطّ، إذ تركته هو وأباه مهجورين، هناك في ياباتيرا، حين كان فيليثيتو لا يزال طفلاً رضيعاً. مابيل هي المرأة الوحيدة التي أحبها حقاً. فهو لم يحب خيرترورديس قطّ، وقد تزوج منها مكرهاً، بسبب تلك الخطوة السيئة في شبابه، وربما، ربما، لأنها هي وأمها الآمرة قد أعدتا له شركاً محكماً (وهذه قضية يحاول عدم تذكرها، لأنها تسبب له المرارة، إلا أنها تعود إلى ذهنه دائماً مثل إسطوانة مشروخة). ولكنه كان زوجاً صالحاً على الرغم من ذلك. قدم لزوجته وابنيه أكثر مما يمكنهم انتظاره من البائس الذي كان عليه عند زواجه. فمن أجل ذلك عمل طيلة حياته كعبد، دون أن يأخذ إجازة قطّ. هذا ما كانت عليه حياته إلى أن تعرف على مابيل: عملٌ، عمل، عمل، وتحطيم ظهره نهاراً وليلاً من أجل جمع رأس مال صغير إلى أن تمكن من فتح شركته للنقل التي طالما حلم بها. لقد جعلته هذه الفتاة يكتشف أن النوم مع امرأة هو أمر جميل، زخم، مؤثر، وهو ما لم يتخيله قطّ في المرات النادرة التي ذهب فيها إلى الفراش مع عاهرات المواخير القائمة على الطريق العام إلى سويّانا، أو مع «ترتيبة» تخرج له ـ عند موت مطران ـ في احتفال ما، ولا تستمر إلا أقل من ليلة. لقد كانت ممارسة الحبّ مع خيرترورديس أمراً سريعاً، مجرد حاجة بدنية، إجراء لتهدئة الجزع. وقد تخليا عن النوم معاً منذ ولادة تيبورثيو، أي

منذ بضعة وعشرين عاماً. وحين يسمع الكولورادو بيغنولو يتحدث عن مضاجعاته ذات اليمين وذات الشمال، يصاب فيليثيتو بالانبهار. فقد عاش كراهب بالمقارنة مع صاحبه.

كانت مابيل تستقبله برداء بيتي، وبالتودد وعبارات الغزل. تكون قد انتهت من مشاهدة حلقة مسلسل أيام الجمعة التلفزيوني، وتعلق له عليه بينما هي تقتاده من يده إلى المخدع. وتكون قد أسدلت الستائر وشغّلت المروحة. ووضعت خرقة حمراء حول المصباح، لأن فيليثيتو يحب تأملها عارية في ذلك الجو الضارب إلى الحمرة. كانت تساعده على خلع ملابسه والاستلقاء على ظهره فوق السرير. ولكن خلافاً لمرات أخرى، لكل المرات الأخرى، لم يُبد عضو فيليثيتو أدنى مؤشر على التصلب. ظل ضئيلاً ومتفلتاً، ملتفاً بطياته، غير عابئ بما تغدقه عليه من ملاطفات أصابع مابيل الحامية.

ـ وهذا، ما الذي أصابه اليوم يا عجوزي؟ ـ فوجئت وهي تضغط على عضو عشيقها المتهدل.

ـ لا بد أن السبب هو شعوري بأنني لست على ما يرام ـــ اعتذر فيليثيتو بضيق ـــ وربما سأصاب برشح. لقد آلمني رأسي طيلة النهار، وتنتابني قشعريرة بين حين وآخر.

ـ سأحضّر لك شاياً ساخناً مع الليمون، وبعد ذلك سأداعبك ببعض الملاطفات لنرى إن كنا سنوقظ هذا النؤوم ـ قفزت مابيل عن السرير ولبست رداءها البيتي من جديد ـ. لا تنم أنت أيضاً يا عجوزي.

ولكنها حين رجعت حاملة فنجان الشاي الذي يتصاعد منه البخار وقرص البنادول في يدها كان فيليثيتو قد ارتدى ملابسه. وكان ينتظرها في الصالة الصغيرة ذات الأثاث البهيج رماني اللون، منكمشاً على نفسه وفي حالة حرجة تحت لوحة قلب يسوع المنير.

ـ ما أصابك شيءٌ أكثر من الرشح ـ قالت مابيل وهي تجثو إلى جانبه وتتفحصه بنظرات مهيبة ـ ألا يكون الأمر أنني لم أعد أروق لك؟ ألا تكون قد وقعت في غرام واحدة من نساء بيورا؟

نفى فيليثيتو بحركة من رأسه، ثم أمسك يدها وقبّلها.

ـ أنا أحبك أكثر من أي شيء في هذا العالم يا مابيليتا ـ أكد بعذوبة ـ لن أعود للوقوع أبداً في حب أحد. أعرف أنني لن أجد في أي مكان امرأة مثلك.

تنهد وأخرج من جيبه رسالة العنكبوت.

ـ لقد تلقيت هذه الرسالة وأنا قلق جداً ـ قال وهو يقدمها إليها ـ إنني أثق بك يا مابيل. اقرئيها ولنر ما هو رأيك.

قرأت مابيل وأعادت القراءة ببطء شديد. الابتسامة التي تطفو على وجهها دوماً بدأت بالخسوف، وامتلأت عيناها بالقلق.

ـ عليك أن تذهب إلى الشرطة، أليس كذلك؟ ـ قالت أخيراً مترددة. وكان التشوش بادياً عليها ـ هذه عملية ابتزاز وعليك أن تتقدم بشكوى على ما أعتقد.

ـ لقد ذهبتُ إلى مفوضية الشرطة. ولكنهم لم يعيروا الأمر اهتماماً. الحقيقة أنني لا أعرف ما عليّ عمله يا حبي. رقيب الشرطة الذي تكلمتُ إليه قال شيئاً يبدو للوهلة الأولى صحيحاً. قال إنه مع التقدم الكبير الذي يحدث الآن في بيورا، تتزايد الجرائم أيضاً. تظهر عصابات أشرار تطلب إتاوة من التجار والشركات. لقد سمعتُ بذلك. ولكنني لم أفكر قطّ في أنه يمكن للأمر أن يصل إليّ. أعترفُ لكِ بأنني مشوش بعض الشيء يا مابيليتا. لا أدري ماذا أفعل.

ـ لا تقل إنك ستقدم النقود التي يطلبها منك هؤلاء، لا يا عجوزي؟

ـ لن أدفع سنتاً واحداً، لن أدفع طبعاً. أنا لا أسمح بأن أُذلّ من أي كان، هذا أمر يمكنكِ أن تكوني واثقة منه.

أخبرها أن آديلايدا نصحته بأن يرضخ للمبتزين.

ـ أظن أنها ستكون المرة الأولى في حياتي التي لن أتبع وحي صديقتي التقية.

ـ كم أنت ساذج يا فيليثيتو ـ ردتْ مابيل بانزعاج ـ. كيف تستشير الساحرة في مثل هذا الموضوع الحساس. لا أدري كيف يمكنك ابتلاع الحكايات الكاذبة التي تقدمها لك تلك الماكرة.

ـ لم تخطئ معي قط ـ ندم فيليثيتو لأنه حدثها عن آديلايدا وهو يعرف أن مابيل تمقتها ـ. لا تقلقي، فهذه المرة لن أتبع نصيحتها. يبدو لي أن كارثة توشك أن تحلّ بي.

بدت مابيل جدية جداً. ورأى فيليثيتو كيف راحت شفتاها الجميلتان الحمراوان تتجعدان بعصبية. رفعت إحدى يديها وسوّت شعره بتمهل.

ـ أود أن أتمكن من مساعدتك يا عجوزي، ولكنني لا أعرف كيف.

ابتسم لها فيليثيتو موافقاً. نهض واقفاً، مشيراً بذلك إلى أنه قرر الانصراف.

ـ ألا تريدني أن أرتدي ملابسي ونذهب معاً إلى السينما؟ سوف يلهيك ذلك قليلاً، هيا تشجع.

ـ لا يا حبي، لا أجد لدي حماسة لمشاهدة أفلام. سنذهب في يوم آخر. اعذريني. من الأفضل أن أذهب لأرقد في الفراش. لأن مسألة الرشح حقيقية.

رافقته مابيل حتى الباب وفتحته، لتتيح له الخروج. وعندئذ رأى فيليثيتو، مجفلاً، المغلف الملصق إلى جانب جرس البيت. كان أبيض،

وليس أزرق كالمغلف السابق، وأصغر منه حجماً. خمَّن مضمونه على الفور. كان هناك بعض الصبية يلعبون بدوامات خشبية في الشارع، على بعد خطوات قليلة. اقترب منهم فيليثيتو قبل أن يفتح المغلف ليسألهم إن كانوا قد رأوا من وضعه هناك. تبادل الصبيان النظرات في ما بينهم متفاجئين، ثم هزوا أكتافهم. لم يرَ أيٌ منهم شيئاً بالطبع. حين رجع إلى البيت كانت مابيل شاحبة جداً ووميض كآبة يلمع في عمق عينيها.

ـ أتظن أن... تلعثمت وهي تعض شفتيها. كانت تنظر إلى المغلف الذي في يده دون أن يُفتح بعد وكأنه يمكن له أن يعضها.

دخل فيليثيتو، أشعل ضوء الممر الصغير، وبينما مابيل تتعلق بذراعه وتقرب وجهها لتقرأ ما كان يقرأه، تعرَّف على الحروف الكبيرة المكتوبة دوماً باللون الأزرق:

السيد ماناكيه:

لقد اقترفتَ خطأً بذهابك إلى مفوضية الشرطة، على الرغم من التوصية التي قدَّمتُها إليك المنظمة. كنا نريد لهذه المسألة أن تُحل بصورة سرية، من خلال الحوار. ولكنك تعلن علينا الحرب. سيكون لك ما أردته إن كان هذا ما تفضله. وفي هذه الحالة يمكن لنا أن نخبرك بأنك ستخرج خاسراً. ونأسف لذلك. قريباً ستجد الدليل على أننا قادرون على الرد على استفزازك. لا تكن عنيداً، نقول لك هذا من أجل مصلحتك. لا تُعرِّض للخطر ما توصلتَ إليه بسنوات طويلة من العمل الشاق يا سيد ماناكيه. ولا تَعُدْ، بصورة خاصة، إلى تقديم شكاوى إلى الشرطة لأن ذلك سيُحزنك. فلتتحمل العواقب.

ليحفظ الله حضرتكم.

رسمُ العنكبوت الذي يَرِد بدل التوقيع كان مطابقاً تماماً للرسالة الأولى.

ـ ولكن، لماذا وضعوها هنا، في بيتي ـ تلعثمت مابيل وهي تضغط بقوة على ذراعه. كان يشعر بها ترتجف من رأسها حتى قدميها. وكانت شاحبة.

ـ يريدونني أن أعرف أنهم يعرفون حياتي الخاصة، وما من سبب آخر ـ أحاط فيليثيتو كتفيها بذراعه وضمها إليه. أحس بها ترتجف، فأحزنه ذلك. قبّلها من شعرها ـ أنت لا تعلمين كم أنا متأسف لأنك ستتورطين بسببي في هذه القضية يا مابيليتا. كوني حذرة جداً يا حبي. لا تفتحي الباب دون النظر قبل ذلك من الكوة. ومن الأفضل ألا تخرجي وحدك في الليل إلى أن تتضح هذه المسألة. من يدري ما هم مستعدون لفعلة أولئك الأشخاص.

قبلها مجدداً من شعرها وهمس في أذنها قبل أن ينصرف: «أقسم لك بذكرى أبي، وهي أقدس ما لدي، أن أحداً لن يُلحق بك أي أذى أبداً يا حبي».

خلال الدقائق القليلة التي انقضت منذ خروجه للتحدث مع الصبية الذين يلعبون بالدوامات، كان الظلام قد خيم. وكانت الأنوار الخافتة في ما حوله تكاد لا تضيء الدروب المتلئة بالحفر والمطبات. سمع نباحاً وموسيقى لجوجة، كما لو أن أحدهم يضبط دوزان جيتار. اللحن نفسه يتكرر مرة بعد أخرى. وعلى الرغم من أنه كان يتعثر إلا أنه غذ الخطى مستعجلاً. اجتاز الجسر المعلق بما يشبه الركض، هذا الجسر الذي صار الآن مخصصاً للمشاة، وتذكر أن ذلك التلألؤ الليلي الذي يتبدى في مياه نهر بيورا كان يسبب له الخوف في صغره، يجعله يفكر في عالم متكامل من الشياطين والأشباح في أعماق المياه. لم يردّ على تحية زوجين آتيين من الاتجاه المعاكس. واحتاج لما يقارب نصف ساعة كي يصل إلى مفوضية الشرطة في جادة سانتشيث سيرّو. كان يتعرق ويكاد الاضطراب لا يسمح له بالكلام.

ـ لا يمكن استقبال المراجعين في هذا الوقت ـ قال له الحارس الشاب عند المدخل ـ. اللهم إلا إذا كان هنالك موضوع مستعجل يا سيدي.

ـ الأمر مستعجل، ومستعجل جداً ـ قال فليثيتو باندفاع ـ. أيمكنني التحدث إلى الرقيب ليتوما؟

ـ من أقول له؟

ـ فيليثيتو ياناكيه، من شركة ناريهوالا للنقل. كنتُ هنا منذ بضعة أيام لتقديم شكوى. قل له إن أمراً خطيراً جداً قد حدث.

كان عليه أن ينتظر لوقت لا بأس به، في عرض الشارع، يستمع إلى رجع أصوات ذكورية تتكلم بوضوح داخل المكان. رأى ظهور قمر متناقص فوق سطوح الأبنية المحيطة. كان جسده كله يتأجج، كما لو أن الحمى تتآكله. تذكر ارتجاف أبيه حين كان يصاب بالحمى الثلاثية، هناك في تشولوكاناس، وكيف كان يعالجها بالتعرق متدثراً بكومة من الجلود. ولكن ليست الحمى هي ما يجعله يرتجف الآن وإنما الغضب. أخيراً رجع الحارس الشاب الأمرد وأدخله. كان الضوء في الداخل شحيحاً وكئيباً مثلما هو في شوارع حي كاستيّا. لم يقده الحارس هذه المرة إلى مقصورة الرقيب ليتوما الضيقة، وإنما إلى حجرة مكتب أكثر اتساعاً. هناك كان الرقيب ومعه ضابط ـ برتبة نقيب، عرف ذلك من الشرائط الثلاث على كتفي قميصه ـ، بدين، قصير، وله شارب. نظر إلى فيليثيتو بلا سعادة. كان فمه المفتوح يكشف عن أسنان ضاربة إلى الصفرة. يبدو أنه قطع على الشرطيين لعبة داما. أراد صاحب شركة النقل أن يتكلم، ولكن النقيب أوقفه بإيماءة:

ـ أعرف قضيتك يا سيد ياناكيه، لقد أطلعني الرقيب عليها. وقد قرأت رسالة العكبوت تلك التي أُرسلت إليك. أنت لا تتذكر، ولكننا

تعارفنا خلال غداء في الروتاري كلوب، في المركز البيوراني، منذ بعض الوقت. كانت هناك بعض كوكتيلات الخروب الجيدة كما يبدو لي.

ودون أن يقول له شيئاً، وضع فيليثيتو الرسالة فوق رقعة الداما مشوشاً ترتيب أحجارها. كان يشعر بأن الغضب قد صعد حتى دماغه ويكاد لا يسمح له بالتفكير.

ـ اجلس قبل أن تصيبك سكتة قلبية يا سيد ياناكيه ـ قال النقيب ساخراً وهو يشير إلى كرسي. كان يعضُّ أطراف شاربه، وبدت نبرة صوته متعالية واستفزازية ـ آه، بالمناسبة، لقد نسيت أن تقول لنا مساء الخير. أنا النقيب سيلفيا، المفوض، في خدمتك.

ـ مساء الخير ـ ركّب فيليثيتو الكلمتين بصوت يختنق من الغيظ ـ لقد أرسلوا إليّ للتو رسالة أخرى. أطالب بتفسير أيها السيدان الشرطيان.

قرأ النقيب مُقرِّباً الورقة من مصباح منضدته. وقدمها بعد ذلك إلى الرقيب ليتوما مدمدماً من بين أسنانه: «ياه، المسألة تزداد سخونة».

ـ أطالب بتفسير ـ كرر فيليثيتو مختنقاً ـ كيف يعرف اللصوص أنني جئت إلى مفوضية الشرطة لأقدم شكوى بشأن الرسالة المغفلة؟

ـ عرفوا ذلك بطرق عديدة أيها السيد ياناكيه ـ هز النقيب سيلفا كتفيه وهو ينظر إليه بأسى ـ لأنهم لحقوا بك إلى هنا، على سبيل المثال. لأنهم يعرفونك ويعلمون أنك رجل غير قابل للابتزاز، وأنك ستذهب إلى الشرطة وتقدم شكوى ضد المبتزين. أو لأن أحداً ممن أخبرتهم بأنك تقدمت بشكوى. أو لأننا نحن، هكذا فجأة، دبرنا هذه الرسائل المغفلة، نحن التعساء نريد ابتزازك. لقد خطرت لك هذه الفكرة، أليس كذلك؟ ولهذا أنت تبدو سيء المزاج، تشي غوا، مثلما يقول أبناء مدينتك.

كبح فيليثيتو رغبته في أن يقول له أجل. وكان يشعر في تلك اللحظة بغضب على الشرطيين أشد من غضبه على مدبري رسالتي العنكبوت.

ـ هل وجدتها معلقة أيضاً على باب بيتك؟

توقد وجهه بينما هو يجيب مواربا اضطرابه:

ـ علقوها على باب بيت شخص كنت أزوره.

تبادل النقيب والرقيب النظرات.

ـ هذا يعني أنهم يعرفون حياتك بعمق إذاً يا سيد ياناكيه ـ علق النقيب سيلفا ببطء خبيث ـ هؤلاء الأنذال يعرفون حتى من تزورهم. لقد قاموا بعمل استخبارتي جيد كما يبدو. من هنا يمكننا أن نستنتج أنهم محترفون وليسوا هواة.

ـ وماذا سيحدث الآن؟ قال صاحب شركة النقل. وقد تبدل غضبه الذي كان عليه قبل لحظة إلى شعور بالحزن والعجز. فما يجري له جائر وقاس. على أي شيء.. ولماذا يعاقبونه من هم هناك في الأعالي؟ أي شر اقترفه أيها الرب المقدس؟

ـ سيحاولون الآن تخويفك، كي تلين ـ أكد النقيب كما لو أنه يتكلم عن كم هي باردة هذه الليلة ـ كي يجعلوك تعتقد أنهم أقوياء ولا يمكن المس بهم. وبهذا سيقترفون خطأهم الأول. عندئذ سنبدأ بتتبع أثرهم. عليك بالصبر يا سيد ياناكيه. فالأمور تمضي في طريق جيد، حتى لو لم تصدق ذلك.

ـ من السهل قول هذا عند مراقبة الأمر من الشرفة ـ تفلسف صاحب شركة النقل ـ وليس عندما تتلقى تهديداتٍ تشوش حياة أحدنا وتقلبها رأساً على عقب. أتريدني أن أعتصم بالصبر بينما أولئك اللصوص يخططون لعمل خبيث ضدي أو ضد أسرتي كي أرضخ لهم؟

ـ أحضر كأس ماء للسيد ياناكيه يا ليتوما ـ أمر النقيبُ سيلفيا الرقيبَ بتهكمه المعهود ـ لا أريد أن تأتيه جلطة، لأنهم سيتهموننا عندئذ بخرق حقوق الإنسان مع رجل أعمال محترم من بيورا.

ليس مزاحاً ما قاله ذلك الشرطي، فكّر فيليثيانو. أجل، يمكن له أن يصاب بجلطة ويبقى متيبساً هنا بالذات، على هذه الأرضية القذرة الممتلئة بأعقاب السجائر. إنها ميتة كئيبة، في مفوضية للشرطة، بينما هو مريض ومحبط بسبب أبناء عاهرة بلا وجوه ولا أسماء، يلعبون معه لعبة راسمي عناكب. تذكّر أباه وتأثر وهو يستحضر وجه أبيه القاسي، المشقق كما بضربات سكين، وجه صارم دوماً، الشعر منتصب والفم بلا أسنان. «ماذا عليّ أن أفعل يا أبي؟ أعرف، يجب ألا أسمح بأن أُذل، ألا أعطيهم سنتاً واحداً مما كسبته بصورة نظيفة. ولكن أي نصيحة أخرى كان يمكن لك أن تقدمها إليّ لو كنتَ حياً؟ أن أقضي الساعات منتظراً الرسالة المغفلة التالية؟ لقد صار ذلك يحطم أعصابي يا أبي». لماذا كان يدعوه دوماً بأبي وليس بابا؟ حتى في هذه الحوارات السرية التي يُجريها معه لا يتجرأ على رفع الكلفة معه. وهو ما يفعله ابناه الآن معه. لماذا لم يتعامل تيبورثيو وميغيل معه دون كلفة قطّ. وكلاهما بالمقابل يرفعان الكلفة مع أمهما.

ـ هل تشعر بتحسن يا سيد ياناكيه؟

ـ أجل، شكراً ـ تناول رشفة أخرى من كأس الماء الذي جاءه به الرقيب ونهض واقفاً.

ـ أخبرنا بأية مستجدات فور وقوعها ـ شجعه النقيب على سبيل الوداع ـ ثق بنا. قضيتك الآن هي قضيتنا يا سيد ياناكيه.

بدت له كلمات الضابط ساخرة. خرج من المفوضية مكتئباً بعمق. مشى كامل المسيرة إلى بيته في شارع اريكيبا ببطء، ملتصقاً بالجدران.

كان يخامره إحساس مزعج بأن هنالك من يتبعه، أحد يستمتع في التفكير بأنه يدمره قليلاً قليلاً؛ يُغرقه في انعدام الأمان والريبة، وابن العاهرة ذاك واثق من أنه سيهزمه عاجلاً أو آجلاً. فدمدم: «إنك مخطئ يا ابن العاهرة».

وفي بيته، فوجئت خيرترروديس بعودته مبكراً على ذلك النحو. سألته عما إذا كانت الهيئة الإدارية لجمعية العاملين في النقل في بيورا، وكان فيليثيتو عضواً فيها، قد ألغت عشاء أيام الجمعة ليلاً في نادي غراو. أتعرف خيرترروديس بأمر مابيل يا ترى؟ من الصعب ألا تكون عارفة بالأمر. ولكنها خلال تلك الأعوام الثمانية لم تعطه أية إشارة تدل على أنها عارفة: لا تبدي أية شكوى، ولا تفتعل أي مشهد غيرة، ولا تبدي أي تلميح. لا يمكن ألا تكون قد وصلتها إشاعات، تقولات، بأن له عشيقة. أليست بيورا منديلاً مفتوحاً؟ الجميع فيها يعرفون كل شيء عن الجميع، وخاصة شؤون الفراش قبل أي شيء آخر. ربما كانت تعرف وتفضل المداراة كي تتجنب المشاكل وتتحمل الأمر بهدوء. لكن فيليثيتو يقول لنفسه أحياناً إنها غير عارفة بالأمر؛ فالحياة المغلقة التي تعيشها امرأته، بلا أقارب، واقتصار خروجها إلى الشارع من أجل الذهاب إلى القداس أو صلوات التاسوع أو المسبحة في الكاتدرائية، لابد أن تسمح باستبعاد احتمال أنها تعرف أي شيء.

ـ جئتُ مبكراً لشعوري بأني لست على ما يرام. أظن أنني سأصاب برشح.

ـ لم تأكل إذاً. أتريدني أن أُعدّ لك شيئاً تأكله. سأفعل ذلك بنفسي، لأن ساتورنينا قد غادرت.

ـ لا، لستُ جائعاً. سأشاهد التلفاز قليلاً ثم أذهب إلى الفراش. هل من جديد؟

ـ تلقيتُ رسالة من أختي آرميدا، من ليما. يبدو أنها ستتزوج.

ـ آه، جيد، يجب أن نرسل إليها هدية إذاً ـ لم يكن فيليثيتو يعلم أن لخيرترورديس أختاً في العاصمة. إنه الخبر الأول عنها. حاول أن يتذكر. أتراها تكون تلك الطفلة الحافية ذات السنوات القليلة التي كانت تتنقل في بنسيون «شجرة الخروب»، حيث تعرّف على زوجته؟ لا، تلك الصغيرة هي ابنة سائق شاحنة ترمل يدعى أرخيميرو تريّيس.

هزت خيرترورديس رأسها موافقة وابتعدت باتجاه حجرتها. فمنذ أن ذهب ميغيل وتيبورثيو ليعيشان وحدهما بعيداً عن البيت، صارت لكل من فيليثيتو وزوجته غرفة منفصلة. رأى كتلة زوجته التي لا تقاطيع لها تختفي في البهو الصغير المظلم حيث توجد غرفتا النوم وغرفة الطعام والصالة الصغيرة والمطبخ. لم يحبها قطّ مثلما تُحب امرأة، ولكنه يشعر نحوها بتعاطف ممزوج بالشفقة، لأن خيرترورديس، وإن كانت لا تشكو، تشعر دون ريب بالإحباط مع زوج بذلك البرود وعدم الاكتراث. لا يمكن لحاله أن تكون غير ذلك في زواج لم يكن حصيلة حب وإنما نتيجة سكرة ومضاجعة شبه غير واعية. أو من يدري. فهذا موضوع يعود إلى ذاكرة فيليثيتو بين حين وآخر ويسبب له مرارة طيلة اليوم، مع أنه يفعل كل ما بوسعه لتجنبه. كانت خيرترورديس ابنة صاحبة نُزل «شجرة الخروب»، وهو بنسيون رخيص في شارع رامون كاستيّا، المنطقة الأشد بؤساً آنذاك في إلتشيبه، يأوي إليه سائقو شاحنات كثيرون. وقد نام فيليثيتو معها مرتين، دون أن يكون بوعيه تقريباً، في ليلتي شُرب وسُكر. فعل ذلك لأنه فعله، لأنها كانت هناك ولأنها امرأة، ليس لأن الفتاة أعجبته. لم تكن تعجب أحداً، ومن يمكنه أن يُعجب بتلك الأنثى شبه الحولاء، التافهة التي تفوح منها على الدوام رائحة الثوم والبصل. ونتيجة واحدة من تينك المضاجعتين بلا حب، وبلا رغبة تقريباً، حبلت

خيرترووديس. كان هذا على الأقل ما قالته لفيليثيتو هي وأمها. السيدة لوثميل، صاحبة النزل، من اعتاد السائقون تسميتها بالآمرة، تقدمت بشكوى ضده لدى الشرطة. وكان عليه أن يذهب ليقدم إفادته، واعترف أمام مفوض الشرطة بأنه ضاجع تلك البنت القاصر. ووافق على الزواج منها لشعوره بتأنيب الضمير من أن يولد له ابن دون أن يُعترف به، ولأنه صدق القصة. في ما بعد، عندما ولد ميغيل الصغير، بدأت الشكوك. أهو ابنه حقاً؟ لم يستجوب خيرترووديس قطّ بالطبع، ولم يتحدث في هذا الأمر مع آديلايدا أو مع أي شخص آخر. ولكنه عاش طيلة كل تلك السنوات وهو يشك في أنه ليس ابنه. لأنه لم يكن هو الوحيد الذي يضاجع ابنة الآمرة في تلك الحفلات التي كانت تقام أيام السبت في نزل شجرة الخروب. لم يكن ميغيل يشبهه في أي شيء، فهو ولد أبيض البشرة وأزرق العينين. لماذا حمّلته خيرترووديس وأمها المسؤولية؟ ربما لأنه كان أعزب، وشخصاً طيباً، وشغيلاً، ولأن الآمرة تريد تزويج ابنتها بأي حال. وربما لأن أبا ميغيل الحقيقي كان متزوجاً، أو شخصاً أبيض سيئ السمعة. لقد كانت هذه القضية تعود لتعكر مزاجه بين فترة وأخرى. لم يسمح لأحد قطّ بأن يلاحظ ذلك، بدءاً من ميغيل نفسه. فقد تصرف معه على الدوام على أنه ابنه، مثله مثل تيبورثيو. وإذا كان قد أدخله إلى الجيش، فإنما فعل ذلك من أجل مصلحته، لأنه كان آخذاً بالضلال. ولم يبدِ قطّ أي تفضيل لابنه الأصغر. وهذا الابن الثاني كان صورة حية عنه بالفعل: خلاسي تشولو من رأسه حتى قدميه، دون أثر من البياض في وجهه أو جسده.

كانت خيرترووديس امرأة نشيطة ومضحية في السنوات الصعبة. وبعد ذلك أيضاً، حين تمكن فيليثيتو من افتتاح شركة ناريهوالا للنقل وتحسنت أحواله. ومع أن لديهما الآن بيتاً جيداً وخادمة ودخلاً

مضموناً، إلا أنها مازالت تعيش بتقشف السنوات التي كانا فيها فقيرين. فهي لا تطلب منه نقوداً لاحتياجتها الخاصة أبداً، وإنما نقود الطعام والنفقات المنزلية الأخرى. فكان يلح عليها، بين حين وآخر، كي تشتري أحذية أو ثوباً جديداً. ولكنها حتى لو اشترت شيئاً من ذلك، تظل دوماً بخف عادي وبذلك الرداء البيتي الذي يبدو أشبه بجلباب كاهن. متى تحولت إلى متدينة جداً؟ لم تكن هكذا في البدء. بدا له أن خيرترووديس قد تحولت مع مرور السنين إلى جزء من الأثاث، وأنها لم تعد شخصاً حياً. كانا يقضيان أياماً بكاملها دون أن يتبادلا كلمة واحدة، باستثناء صباح الخير ومساء الخير. لم يكن لزوجته صديقات، وهي لا تقوم بزيارات ولا تستقبل زائرات، بل إنها لا تذهب لزيارة أبنائها عندما تنقضي الأيام دون أن يأتوا لزيارتها. كان تيبورثيو وميغيل يأتيان إلى البيت بين وقت وآخر، ودائماً بمناسبة عيد ميلاد أحد أفراد الأسرة، وليلة عيد الميلاد، وهي تبدو عندئذ حنونة معهما. وباستثناء هذه المناسبات، لم تكن تبدو شديدة الاهتمام بابنيها. في بعض الأحيان يعرض عليها فيليثيتو أن يذهبا إلى السينما، أو للتنزه على الكورنيش أو للاستماع إلى عزف الفرقة الموسيقية العسكرية أيام الآحاد في ساحة السلاح، بعد قداس الثانية عشرة. فتوافق بانصياع، ولكنها نزهات قلما يتبادلان خلالها الكلام، ويبدو له أن خيرترووديس تكون متلهفة للعودة إلى البيت، والجلوس على كرسيها الهزاز في أقصى البهو، بجانب المذياع أو التلفزيون اللذين تبحث فيهما دوماً عن برامج دينية. ولا يتذكر فيليثيتو حدوث أي شجار أو خلاف مع هذه المرأة التي تنصاع دوماً لمشيئته بإذعان كامل.

ظل لبعض الوقت في الصالة الصغيرة يستمع إلى الأخبار. الجرائم وأعمال السطو وعمليات الاختطاف المعهودة. وبين الأخبار سمع خبراً

جعل شعر رأسه ينتصب. روى المذيع أن أسلوباً جديداً في السطو على السيارات آخذ بالانتشار بين لصوص السيارات في ليما. استغلال إشارة المرور الحمراء لرمي فأر حي داخل السيارة التي تقودها سيدة. فتفلت المرأة المقود وهي تكاد تموت من الفزع والقرف، وتخرج من السيارة مطلقة الصرخات وراكضة. عندئذ يأخذ اللصوص السيارة بكل اطمئنان. فأر حي على التنورة، يا للقذارة! التلفزيون يسمم الناس بكثرة الدماء والقذارات. وقد كان من عادة فيليثيتو، بدل الاستماع إلى الأخبار، أن يضع أسطوانة للمغنية سيسليا بارّاسا. ولكنه في هذه المرة تابع تعليق مقدم الأخبار في برنامج ***24 ساعة*** الذي يؤكد على أن الجرائم تتزايد في البلاد. «فليسألوني أنا»، فكر فيليثيتو.

ذهب للنوم في حوالي الساعة الحادية عشرة، ومع أنه غفا على الفور بسبب انفعالات هذا اليوم القوية دون شك، إلا أنه استيقظ في الثانية فجراً. ولم يعد يكاد يغمض عينيه بعدها. كانت تنتابه مخاوف، إحساس بالقشعريرة، وفوق ذلك كله مرارة الشعور بأنه غير قادر، وعاجز في مواجهة ما يحدث له. ما إن يغفو قليلاً حتى يعج رأسه بصور أمراض وحوادث ونكبات. وجاءه كابوس فيه عناكب.

نهض في الساعة السادسة. وقام بممارسة تمارين الكي جونغ إلى جانب السرير وهو ينظر في المرآة، ويتذكر كالعادة معلمه البقال لاو. وضعية الشجرة التي تهتز إلى الأمام والخلف، إلى اليسار واليمين وبصورة دائرية، تحركها الرياح. يقف بقدمين راسختين تماماً على الأرض، وبينما هو يحاول إفراغ ذهنه، يهتز باحثاً عن المنتصف. البحث عن المركز. عدم فقدان المركز. رفْعُ الذراعين وإنزالهما ببطء شديد، مثل مطر خفيف يهطل من السماء يرطب جسده وروحه، يهدئ أعصابه وعضلاته. استبقاء السماء والأرض في مكانيهما والحيلولة دون

أن تلتقيا، بواسطة الذراعين ـ ذراع مرفوع إلى أعلى ليسند السماء والآخر يتجه إلى أسفل ليثبّت الأرض ـ وبعد ذلك تمسيد الذراعين، والوجه، والكليتين، والساقين في جسده. فتح الماء بيديه وضمهما. تسخين المنطقة القطنية من العمود الفقري بتدليك ناعم ومتواصل. فتح الذراعين كفراشة تفتح جناحيها. في البدء، كان ذلك البطء الاستثنائي في الحركات، وذلك التنفس بكاميرا بطيئة لتمرير الهواء إلى كافة أجزاء البدن، يُفقده صبره، ولكنه اعتاد عليه مع مرور السنوات. وهو يدرك الآن أنه في ذلك تكمن الفائدة التي يأتي بها إلى جسده وروحه ذلك الشهيق والزفير العميقان، وتلك الحركات، برفع يد إلى أعلى ومدّ الأخرى نحو الأرض، مع ضم الركبتين بخفة، إنما يثبّت كواكب القبة السماوية في أمكنتها ويحول دون القيامة. وحين يغمض عينيه أخيراً، ويبقى ثابتاً دون حراك للحظات، بينما اليدان مضمومتان كما في صلاة، يكون نصف الساعة قد انقضى. وها قد بدأ يطل من النافذة ضوء صباح بيورا الصافي والأبيض.

ضربات قوية على الباب الخارجي قطعت عليه تمرينات الكي جونغ. ذهب ليفتح الباب معتقداً أن ساتورنينا قد جاءت مبكرة هذا الصباح، متقدمة عن موعدها، لأنها لا تصل أبداً قبل الساعة السابعة. ولكن من وجده عند العتبة حين فتح الباب هو لوثيانو.

ـ أركض، أركض يا دون فيليثيتو ـ كان أعمى الناصية متوتراً جداً ـ لقد قال لي أحدهم إن مكتبك في جادة سانتشيث سيرّو يحترق، اتصلْ بالمطافئ واذهب إلى هناك.

IV

زفاف إسماعيل وآرميدا كان الأقصر والأقل رواداً بين جميع حفلات الزفاف التي يتذكرها ريغوبيرتو ولوكريثيا، على الرغم من أنه قدّم لهما أكثر من مفاجأة. فقد أقيمت المراسم في وقت مبكر جداً، في بلدية تشورّييّوس، حين كان لا يزال يُرى مشهد تلاميذ بالزي المدرسي يتدفقون نحو المدارس، وكان موظفو بارّنكو وميرافلوريس وتشوروييّوس يتوجهون متعجلين إلى أعمالهم في الفانات والحافلات والأومنبوسات. وقد اتخذ إسماعيل الاحتياطات المتوقعة كيلا يعلم ابناه بالخبر مسبقاً، فأخبر ريغوبيرتو في العشية فقط، أنه عليه أن يَمْثُل في مقر عمدة تشورّييّوس، ترافقه زوجته إن كانت ترغب في ذلك، في الساعة التاسعة صباحاً بالضبط، وأن يأتيا معهما بوثائقهما الشخصية. وحين وصلا إلى مبنى البلدية، وجدا العروسين هناك ومعهما أيضاً نرسيس الذي ارتدى للمناسبة بدلة سوداء وقميصاً أبيض، ووضع ربطة عنق زرقاء مزينة بنحوم صغيرة مذهبة.

أما إسماعيل فكان يرتدي بدلة رمادية، مع تأنقه المعهود. وارتدت آرميدا بدلة مفصلة خصيصاً للمناسبة، وحذاء جديداً، وكانت تبدو مثبطة ومضطربة. وراحت تتوجه بالحديث إلى لوكريثيا بالقول لها «يا سيدتي» على الرغم من أن هذه الأخيرة طلبت منها، حين عانقتها، أن تكلمها برفع الكلفة ـ «أنت وأنا سنكون صديقتين جيدتين منذ الآن يا

آرميدا» ـ، ولكن بدا صعباً على العاملة المنزلية السابقة، إن لم نقل مستحيلاً، أن تلبي رغبة لوكريثيا.

جرت المراسم بسرعة كبيرة. قرأ العمدة، بتعثر، واجبات الزوجين وحقوقهما؛ وما كادت القراءة تنتهي حتى وقّع الشاهدان على السجل. جرت المعانقات والمصافحات المعهودة. لكن كل شيء كان بارداً، هكذا فكر ريغوبيرتو، ومتكلفاً ومتصنعاً. المفاجأة جاءت لدى الخروج من مقر العمدة، حين توجه إسماعيل إلى ريغوبيرتو ولوكريثيا بابتسامة ماكرة: «والأن أيها الصديقان، إذا كان لديكما متسع من الوقت، فإنني أدعوكما إلى الطقوس الدينية». سيتزوجان في الكنيسة أيضاً! «الأمر أكثر جدية مما يبدو عليه»، علقت لوكريثيا بينما هم يتوجهون نحو كنيسة «نويسترا سنيورا دل كارمن ديلا ليغوا» القديمة، على ضفاف نهر كايّاو، حيث أقيمت طقوس الزواج الكاثوليكية.

ـ التفسير الوحيد هو أن صديقك إسماعيل قد صار أزرق، وقد وقع في الحب حقاً ـ أضافت لوكريثيا ـ ألا يكون مختلاً؟ الحقيقة أنه لا يبدو كذلك. رباه! من يستطيع فهم هذا؟ أنا على الأقل لا أفهمه.

كان كل شيء جاهزاً كذلك في الكنيسة التي يقال إن المسافرين من كاياو إلى ليما، في زمن المستعمرة، كانوا يتوقفون فيها دوماً ليطلبوا من عذراء الكارمن أن تحميهم من عصابات السطو التي كانت تعج بها الأراضي الخلاء الفاصلة آنذاك بين الميناء ومدينة ليما، مقر نائب الملك. لم يتأخر الكاهن أكثر من عشرين دقيقة في عقد قران الزوجين الجديدين ومنحهما المباركة. ولم يجر أي احتفال أو تبادل أنخاب، اللهم إلا تهنئة ومعانقة كل من نرسيس وريغوبيرتو ولوكريثيا للزوجين. وفي تلك اللحظة فقط كشف لهم إسماعيل أنه هو وآرميدا سيتوجهان إلى المطار فوراً للانطلاق إلى شهر عسلها. وأن أمتعتهما موجودة في حقيبة السيارة. «ولكن لا تسألاني إلى أين

سنذهب، لأني لن أخبركما. آه، وقبل أن أنسى. لا تتخلفا غداً عن قراءة صفحة الأخبار الاجتماعية في جريدة *الكوميرثيو*. ستجدان فيها إعلاناً يُطلع مجتمع ليما على زواجنا». أفلت ضحكة وغمزهما بخبث؛ ثم انطلق هو وآرميدا على الفور، يقود السيارة بهما نرسيس الذي كان شاهداً، وعاد من جديد الآن ليكون سائق إسماعيل كاريرا.

ـ مازلتُ غيرَ مصدقة أن هذا كله يحدث ـ قالت لوكريثيا مرة أخرى بينما هي وريغوبيرتو يعودان إلى بيتهما في بارانكو على الطريق الساحلي ـ ألا يبدو لك لعباً، مسرحاً، تهريجاً؟ باختصار، لا أدري كيف أصفه، ولكنه ليس شيئاً يحدث حقاً في الحياة الواقعية.

ـ أجل، أجل، معك حق ـ وافقها زوجها ـ. فمشهد هذا الصباح يعطي إحساساً باللاواقعية. حسنٌ، إسماعيل وأرميدا مضيا لقضاء وقت ممتع. وللتحرر مما هو آتٍ. أعني مما سيقع على رؤوسنا نحن المتبقين هنا. من الأفضل لنا أن نغادر نحن أيضاً بأسرع ما يمكن إلى أوروبا. لماذا لا نقدّم موعد سفرنا يا لوكريثيا.

ـ لا، لا نستطيع، لا يمكننا الذهاب مادامت مشكلة فونتشيتو تلك موجودة ـ قالت لوكريثيا ـ. ألا يُشعرك ذهابنا في هذا الوقت بتأنيب الضمير لتركنا الفتى وحيداً مع المشكلة التي في رأسه؟

ـ أشعر بذلك طبعاً ـ صحح دون ريغوبيرتو ـ. لولا تلك الرؤى اللعينة لكنتُ قد اشتريت تذاكر السفر. أنت لا تدرين أية بهجة تسببها لي هذه الرحلة يا لوكريثيا. لقد درستُ الطريق الذي سنسلكة بعدسة مكبرة، حتى في أدق التفاصيل. سوف يفتنك ذلك، وسترين.

ـ لن يعلم التوأمان بالأمر حتى الغد، من خلال الإعلان في الجريدة ـ قدّرت لوكريثيا ـ. وحين يعلمان ستكون أنت من سيطلبان منه تفسيرات، إنني واثقة من ذلك.

ـ سيطلبونها مني طبعاً ـ وافقها ريغوبيرتو ـ ولكن، بما أن ذلك لن يحدث إلا غداً، فسوف يكون لدينا اليوم يوم أمان وهدوء مطلقين. لا أريد العودة إلى الحديث عن الضبعين، أرجوكِ.

حاولا الالتزام بذلك. ولم يأتيا على ذكر أي شيء عن ابني إسماعيل كاريرا خلال الغداء، ولا في فترة بعد الظهر، ولا على العشاء. وحين رجع فونتشيتو من المدرسة أخبراه بأمر الزواج. إلا أن الصبي الذي كان يمضي ساهياً، كمن يركّز على مخاوف حميمة منذ لقائه بإديلبيرتو توريس، لم يبدُ عليه أنه أولى أدنى اهتمام للموضوع. استمع إليهما وابتسم تأدباً، ثم ذهب لينزوي في غرفته قائلاً إن لديه واجبات مدرسية كثيرة عليه إنجازها. ولكن على الرغم من أن ريغوبيرتو ولوكريثيا لم يذكرا التوأمين طوال بقية اليوم، إلا أنهما كانا يعلمان أنه مهما كان ما يفعلانه، ومهما كان ما يتحدثان فيه، فإن هنالك في أعماق ذهنيهما ذلك السؤال المقلق: كيف سيكون ردّ فعل التوأمين حين يعلمان بزواج أبيهما؟ لن يكون ردّ فعل متحضر وعقلاني، هذا أمر مفروغ منه. لأن الأخوين ليسا متحضرين ولا عقلانيين، فلسبب ما يسمونهما الضبعين، لقب ثابت اكتسباه في حيِّهما مذ كانا يرتديان بناطيل قصيرة.

بعد العشاء، انزوى ريغوبيرتو في مكتبه وتهيأ، مرّة أخرى، للقيام بواحدة من تلك المقارنات المشغوف بها، لأنها تستحوذ على اهتمامه وتنسيه كل ما عداها. استمع في هذه المرة لتسجيلين يملكهما لواحدة من مقطوعاته الموسيقية المفضلة: الكونشيرتو رقم 2 للبيانو والأوركسترا 83 لجوهانز براهمز، بعزف فيلهرمونيكا برلين، يقودها في الحالة الأولى كلود آباد مع ماوريز بوليني كمنفرد، وفي الحالة الثانية بقيادة السير سيمونراتيل للاوركسترا ويفين برونفمان منفرداً على البيانو. النسختان كلتاهما كانتا رائعتين. لم يتمكن قطّ من حسم أمر تفضيل إحداهما دون

خطأ؛ ففي كل مرة يجد أنهما، رغم اختلافهما، متماثلتان بحيث لا يمكن المفاضلة بينهما. ولكن حدث له شيء في هذه الليلة مع عزف برونفمان، عند بدء الحركة الثانية ـ *سعادة مؤثرة* ـ حسم اختياره: أحس بعينيه تدمعان. قلما بكى وهو يستمع إلى كونشيرتو: أيكون السبب هو براهمز، أيكون البيانو، أتكون الحالة عالية الحساسية التي أوصلته إليها أحداث هذا اليوم؟

عندما حان موعد النوم أحس بضيق في النَفَس: كان متعباً جداً، وهادئاً تماماً. وبدا كما لو أن إسماعيل وآرميدا والضبعين وإديلبيرتو توريس قد صاروا بعيدين، إلى الوراء جداً، قد أُبطل وجودهم. هل سينام إذاً بسرعة؟ يا للأمل. بعد قليل من التقلب في الفراش، في المخدع شبه المظلم، بوجود المصباح الذي إلى جانب السرير من جهة لوكريثيا مضاء، سأل زوجته فجأة وهو مؤرق، ضحية حماسة مباغتة:

ـ ألم يخطر لك التفكير في كيف ستكون قصة إسماعيل مع آرميدا يا قلبي؟ متى وكيف سيبدآن. من سيأخذ زمام المبادرة. أي نوع من الألعاب أو المصادفات أو الملامسات أو المزاح شرعا به.

ـ بالضبط. دمدمتْ لوكريثيا وهي تستدير كمن تذكرت شيئاً. قربت وجهها وجسدها كثيراً من زوجها وهمست في أذنه: هذا ما كنت أفكر فيه طيلة الوقت يا حبي. منذ اللحظة الأولى التي رويت لي فيها هذه القصة.

ـ آه، حقاً؟ وما الذي فكرتِ فيه؟ ماذا خطر لك على سبيل المثال؟ ـ استدار ريغوبيرتو جانبياً نحوها ومر بيديه على خصرها ـ. لماذا لا تخبرينني.

خارج الغرفة، في شوارع حي بارانكو، ساد ذلك الصمت الليلي الذي يقطعه، بين حين وآخر، هدير البحر البعيد. أتكون هنالك نجوم؟ لا،

إنها لا تظهر أبداً في مثل هذه الفترة من السنة. أما هناك في أوروبا فيرونها تلمع وتتلألأ في كل ليلة. ولوكريثيا، بصوت مرخم وبطيء كما في أفضل المناسبات، ذلك الصوت الذي هو موسيقى لريغوبيرتو، قالت بتمهل، كما لو أنها ترتل قصيدة:

«مهما بدا لك الأمر غير معقول، يمكن لي أن أعيد لك بناء قصة حب إسماعيل وآرميدا بكل تفاصيلها. أعرف أن ذلك سيزيح عنك النعاس، وسيملؤك بأفكار خبيثة، منذ أن أخبرك صديقك في مطعم «روسا ناوتيكا» أنه سيتزوج. كيف أعرف كل هذا؟ فلتهو مرمياً على ظهرك... أعرفه بفضل خوستينيانا. فهي وآرميدا صديقتان حميمتان منذ زمن. أو بعبارة أدق، منذ بدأ مرض كلوتيلدي وأرسلناها بضعة أيام كي تساعد آرميدا في أعمال المنزل. إنها تلك الأيام الكئيبة، حين انهار العالم على رأس المسكين إسماعيل وهو يفكر في أن رفيقته مدى الحياة وأم ابنيه يمكن أن تموت. ألا تتذكر؟

ـ إنني أتذكر طبعاً ـ كذب ريغوبيرتو متهجياً في أذن زوجته كما لو أن الأمر يتعلق بسرٍ لا يمكن البوح به ـ كيف لن أتذكر يا لوكريثيا... وما الذي حدث حينئذ؟

«حسنٌ، صارتا صديقتين وبدأتا تخرجان معاً. ومنذ ذلك الحين، كما يبدو، كانت آرميدا قد وضعت في رأسها الخطة التي انتهت بها إلى نجاح باهر. فمن عاملة منزلية ترتب الأسرّة وتنظف الغرف، تحولت ليس إلى أقل من زوجة إسماعيل كاريرا، السيد الكبير المحترم والثري في ليما. وهو فوق ذلك سبعيني أو ربما ثمانيني».

ـ تجاهلي التعليقات وما تعرفين ـ أنّبها ريغوبيرتو لاعباً الآن لعبة الأسى ـ. فلنذهب مباشرة إلى ما هو مهم حقاً يا حبي. وأنت تعرفين تماماً ما أعنيه. الوقائع، الوقائع.

«هذا ما أتوجه إليه. لقد خططتْ آرميدا لكل شيء، وبدهاء. وطبعاً، لو لم يكن لدى هذه البيورانية بعض المفاتن الجسدية لما أفادها ذكاؤها ودهاؤها في أي شيء. لقد رأتها خوستينيانا عارية طبعاً. فإذا ما سألتَني كيف ولماذا، فإنني لا أعرف. من المؤكد أنهما استحمتا معاً ذات مرة. أو نامتا معاً في الفراش نفسه ذات ليلة، من يدري. إنها تقول إننا سنُفاجأ بكَم هي آرميدا متناسقة التكوين حين تُرى عارية، وهو أمر لا يُلحظ بسبب رداءة ما تلبسه من أثواب البدينات الفضفاضة تلك. خوستينيانا تقول إنها ليست بدينة، وإن وركيها متينان ونهديها منتصبان، وإن حلمتيها صلبتان، وساقيها مسكوبان جيداً، وترى أن لها بطناً أملس مثل طبل. وعانتها بلا شعر تقريباً، مثل يابانية».

ـ أيكون ممكناً أن آرميدا وجوستينيانا قد استُثيرتا حين رأت كل منهما الأخرى عارية؟ ـ قاطعها ريغوبيرتو العاري ـ. أيكون ممكناً أنهما بدأتا اللعب، والتلامس، والتودد وانتهى بهما الأمر إلى ممارسة الحب؟

ـ كل شيء ممكن في هذه الحياة يا صغيري ـ ألمحت دونيا لوكريثيا بحكمتها المعهودة. وكان الزوجان قد التصقا الآن أحدهما بالآخر ـ ما يمكنني تقديمه إليك هو أن خوستينيانا، حين رأت آرميدا عارية، بلغ بها الأمر حدَّ الإحساس بدغدغة في ذلك الجزء من جسدها، وأنت تعرفُ ما أعنيه. خوستينيانا نفسها من اعترفت لي بذلك وهي متوردة من الخجل وضاحكة. إنها تمزح كثيراً في هذه الأمور، أنت تعرف ذلك، ولكنني أظن أن رؤية آرميدا عارية قد استثارتها. وهكذا... من يدري، يمكن لأي شيء أن يكون قد حدث بينهما. على كل حال، ما كان يمكن لأحد أن يتخيل كيف هو، في الحقيقة، جسد آرميدا المخبأ تحت وزرة المطبخ والتنانير العادية التي تلبسها. ومع أننا أنا وأنت لم ننتبه، فإن خوستينيانا تعتقد أنه منذ دخول المسكينة كلوتيلدي المرحلة

الأخيرة من مرضها، حين صار موتها أمراً لا مناص منه، بدأت آرميدا تهتم أكثر من السابق بمظهرها.

ـ ما الذي كانت تفعله مثلاً؟ ـ عاد ريغوبيرتو إلى مقاطعتها. كان صوته بطيئاً وقلبه متسرعاً ـ أكانت تلمح بشيء لإسماعيل؟ ما الذي فعلته؟ وكيف؟

«كانت تظهر كل صباح وهي أفضل مظهراً مما كانت عليه في اليوم السابق. مُسرّحة الشّعر مع لمسات تغنج صغيرة، يكاد لا ينتبه أحد إليها. وبحركات جديدة باليدين، بالصدر، بالوركين. لكن إسماعيل العجوز كان ينتبه إلى ذلك؛ على الرغم من الحال التي صار إليها بعد موت كلوتيلدي، حال الذهول، السرنمة، التمزق حزناً. إذ أضاع البوصلة، ولم يعد يعرف من يكون أو أين هو. ولكنه انتبه مع ذلك إلى أن شيئاً ما يجري حوله. لقد لاحظ ذلك بالطبع».

ـ ها أنت تبتعدين مرة أخرى عما هو أساسي يا لوكريثيا ـ تذمر ريغوبيرتو وهو يشدها إليه ـ. ليس هذا هو الوقت المناسب للتحدث عن الموت يا حبي.

«عندئذ، ويا للعجب، تحولت آرميدا إلى الأشد إخلاصاً واهتماماً وتذللاً. فهي موجودة على الدوام رهن إشارة سيدها كي تحضر له مشروب متة مع البابونج، فنجان شاي، كأساً من الويسكي، تكوي قميصه، تخيط له زراً، تقوم بلمسات لترتب له وضع البدلة، تعطي الحذاء لكبير الخدم كي يلمّعه، تستعجل نرسيس بإخراج السيارة في الحال لأن دون إسماعيل يتأهب للخروج ولا يحب الانتظار».

ـ ما أهمية هذا كله ـ غضب ريغوبيرتو وهو يعض إحدى أذني امرأته ـ أريد معرفة أشياء أكثر حميمية يا حبي.

«في الوقت نفسه، وبحكمة لا يملكها أحد سوانا نحن النساء، حكمة أتت إلينا من حواء شخصياً، وتكمن في أرواحنا، في دمائنا، ويخيل إليَّ أنها موجودة في قلوبنا وفي أرحامنا أيضاً، بدأت آرميدا بحياكة ذلك الفخ الذي سيسقط فيه الأرمل، المحطم بموت زوجته، كملاك وديع».

ـ أي أشياء كانت تفعلها له ـ توسل ريغوبيرتو متعجلاً ـ أخبريني بدقة أكبر في التفاصيل يا حبي.

«في ليالي الشتاء، حين يكون إسماعيل منزوياً في مكتبه، ينفجر في البكاء. وكما في أعمال السحر، تظهر إلى جانبه هناك آرميدا، مخلصة، محترمة، متأثرة، متلفظة بعبارات تدليل بتلك النبرة الغنائية الشمالية التي لها رنة موسيقى. وتسكب هي أيضاً بعض الدموع، قريباً جداً من سيد البيت. يستطيع هو الشعور بها وسماعها، لأن جسديهما يتلامسان. وبينما آرميدا تمسح جبهة سيدها وعينيه، ودون أن تنتبه ،كما يقال، في سعيها لمواساته وتهدئته والحنو عليه، تنزلق فتحة صدر ثوبها، ولا تستطيع عينا إسماعيل التخلي عن ملاحظة تينك النهدين الطازجين، الأسمرين، الفتيين وهما يلامسان صدره ووجهه؛ نهدا امرأة لا بد أنهما، من وجهة نظر سِنه، لا يبدوان نهدا شابة وإنما طفلة. عندئذ تبدأ المرور في ذهنه فكرة أن آرميدا ليست مجرد زوج من الأيدي التي لا تكل في ترتيب الأسِرَّة، ونفض الغبار عن الجدران، وتلميع الأرضيات، وغسل الثياب، وإنما هي كذلك جسد ممتلئ، طري، نابض، دافئ، وإنها حميمية شذية، ندية، مثيرة. عندئذ يبدأ إسماعيل المسكين، خلال مظاهر الوفاء والتأثر الحانية تلك التي تبديها عاملته المنزلية، يبدأ بالشعور بأن ذلك الشيء المنكمش والمغطى بين ساقيه، والأقل قليلاً من يائس بسبب عدم الاستعمال، قد بدأ يبدي إشارات حياة، بدأ ينبعث. وهذا ما لم تكن خوستينيانا تعرفه طبعاً، ولكنها

تتكهن به. وأنا أيضاً لا أعرفه، ولكنني متأكدة من أن كل شيء بدأ على هذا النحو. ألا ترى ذلك أنت أيضاً يا حبي؟» .

ـ عندما روت لكِ خوستينيانا هذا كله، هل كنت أنت وهي عاريتين يا حبي؟ ـ كان ريغوبيرتو يتكلم بينما هو يعضض بخفة رقبة زوجته، وأذنيها، وشفتيها، وتداعب يداه ظهرها وإليتيها وما بين ساقيها.

ـ كنت أضمها مثلما تضمني أنت الآن ـ ردت لوكريثيا وهي تداعبه، تعضضه، تقبله، تتكلم داخل فمه ـ كنا شبه عاجزتين عن التنفس، لأننا كنا نختنق، كنت أرشف لعابها وهي ترشف لعابي. وتظن خوستينيانا أن آرميدا هي من أقدمت على الخطوة الأولى، وليس هو. فهي من لمست إسماعيل أولاً. هنا، أجل. هكذا.

ـ أجل، أجل، بالطبع، واصلي، واصلي ـ كان ريغوبيرتو يخرخر، يبذل جهداً، ويكاد صوته لا يخرج منه ـ هكذا حدث الأمر بالتأكيد، هكذا حدث.

ظلا لبعض الوقت صامتين، متعانقين، يتبادلان القبلات، ولكن ريغوبيرتو توقف فجأة، باذلاً في ذلك جهداً عظيماً. وابتعد بخفة عن زوجته.

ـ لا أريد أن أنهي بعد يا حبي ـ همس ـ إنني أستمتع كثيراً. أرغبُ فيك، أحبك.

ـ فلنأخذ فاصلاً إذاً ـ قالت لوكريثيا وهي تبتعد عنه أيضاً ـ. لنتحدث عن آرميدا. لقد كان ما فعَلَتْهُ وتوصلتْ إليه أمراً جديراً بالإعجاب، ألا ترى ذلك؟

ـ بكل المعاني ـ قال ريغوبيرتو ـ ما قامت به عمل فني حقيقي. تستحق عليه الاحترام والتقدير. إنها امرأة عظيمة.

ـ وبين قوسين ـ قالت زوجته، مستبدلة صوتها ـ، إذا ما متُ أنا قبلك، لن يزعجني مطلقاً أن تتزوج من خوستينيانا. فأنت تعرف كل

نزواتها، سواء الجيدة منها أو الخبيثة، ولاسيما هذه الأخيرة. وهكذا، ضع هذا الأمر في اعتبارك.

ـ وتصرين على الحديث عن الموت ـ توسل إليها ريغوبيرتو ـ. فلنرجع إلى آرميدا ولا تشردي عن الموضوع كثيراً، أحلفك بأعز ما لديك.

تنهدت لوكريثيا، التصقت بزوجها، بحث فمُها عن أذنه وكلّمته بتمهل شديد:

«مثلما كنت أقول لك، لقد كانت هناك طيلة الوقت في متناول يده، قريبة جداً من إسماعيل على الدوام. وعندما كانت تنحني في بعض الأحيان، لتمسح تلك اللطخة عن الأريكة، تنزلق تنورتها وتطل، دون أن تلحظ هي ذلك ــ ولكن إسماعيل كان يلحظه ــ تلك الركبة المكورة، ذلك الفخذ الناعم والمرن، ذلك الكاحل النحيل، أو جزء من الكتف، من الذراع، من الرقبة، أو انهدام الصدر بين النهدين. لم يكن، وما كان ممكناً أن يكون هنالك أدنى أثر من الفجاجة في حركات السهو تلك. كل شيء كان يبدو طبيعياً، مصادفة، وغير متعمد على الإطلاق. وكان القدر يرتب الأمور بطريقة أن الأرمل، المجرب، صديقنا، الأب المرعوب من ابنيه، قد اكتشف من خلال تلك الأحداث الصغيرة أنه لا يزال رجلاً، وأن لديه عصفور حي، بالغ الحيوية. مثل هذا الذي أمسك به يا حبي. صلب، رطب، راعش».

ـ يستثيرني تخيل السعادة التي لا بد أن إسماعيل شعر بها حين علم أنه مازال لديه ذلك العصفور، وأن عصفوره على الرغم من توقفه عن التغريد لوقت طويل، بدأ يغرد من جديد ـ هذى ريغوبيرتو وهو يتحرك تحت الملاءات ـ. أشعر بالتأثر يا حبي لدى ما كان عليه الموقف من جمال حين بدأ، بعد غرقه في مرارة شيخوخته، بالتوصل إلى

تخيلات غرامية، وشهوة، وانتصابات وهو يفكر في عاملته المنزلية. من منهما لمس الآخر أولاً، فلنحزر.

«لم تفكر آرميدا قطّ في أن الأمور ستصل بعيداً إلى ذلك الحد. كانت تأمل أن يعتاد إسماعيل على قربها منه، ويكتشف بفضلها أنه ليس ذلك الحطام البشري الذي يشي به مظهره، وأنه تحت هيئته المهزومة، ومشيته المزعزة، وأسنانه المخلخلة وضعف بصره، مازال عضوه متأهباً. وأنه قادر على امتلاك رغبات. وأنه، إذا ما تغلب على حسه بأنه شخص مضحك، سيتجرأ أخيراً ذات يوم على اتخاذ خطوة جريئة. وهكذا يقوم بينهما تواطؤ سري، حميم، في بيته، تلك الدارة الكولونيالية الكبيرة التي حولها موت كلوتيلدي إلى ليمبوس. ربما تكون آرميدا قد فكرتْ في أن ذلك كله قد يؤدي إلى أن ينقلها إسماعيل من مرتبة خادمة إلى عشيقة. وأن يوفّر لها بيتاً صغيراً، ويقدّم لها راتباً شهرياً متواضعاً. هذا ما كانت تحلم به، وأنا واثقة من ذلك. لم تكن تحلم بأكثر من هذا. لم تتخيل قطّ الثورة التي راحت تُحْدِثُها في إسماعيل الطيب ولا الظروف التي ستحولها إلى أداة انتقام الأب المتألم والساخط».

ـ ولكن ما هذا؟ من هو هذا الدخيل الذي هنا تحت الملاءات؟ قطعت لوكريثيا حكايتها، متقلبة، مبالغة، ممسكة به.

ـ واصلي، واصلي يا حبي، أحلفك بأعز ما لديك ـ توسل إليها ريغوبيرتو، اختنق، وبلهفة أكبر فأكبر ـ لا تصمتي الآن بعد أن صار كل شيء على ما يرام.

ـ أرى ذلك ـ ضحكت لوكريثيا وهي تتحرك لتنزع عنها قميص النوم، وتساعد زوجها للتخلص من البيجامة، وتشابك كل منهما بالآخر، مفسدين ترتيب السرير، متعانقين ومتبادلين القبلات.

ـ إنني بحاجة لأن أعرف كيف كانت مضاجعتهما أول مرة ـ أمر ريغوبيرتو وهو يحتفظ بزوجته مشدودة جداً إلى جسده ويتكلم إليها وشفتيه ملتصقتين بشفتيها.

ـ سأخبرك بذلك، ولكن دعني أتنفس قليلاً على الأقل ـ ردّت لوكريثيا بهدوء، آخذه وقتاً لتمر بلسانها على فم زوجها وتتلقى لسانه بلسانها ـ. بدأ ذلك ببكاء.

ـ بكاء من؟ ـ ارتبك ريغوبيرتو وتيبس ـ من؟ أكانت آرميدا عذراء؟ أهذا ما تقصدينه؟ هل افتضها؟ أجعلها تبكي؟

ـ بكاء من ذلك الذي ينتاب إسماعيل في الليل أحياناً أيها الأبله ـ وبخته دونيا لوكريثيا وهي تقرص إليتيه، تربت عليهما، وتترك يديها تنزلقان حتى الخصيتين لتحتضنهما برفق ـ لأنه كان يتذكر كلوتيلدي. بكاء قوي، مع إجهاشات تجاوزت الباب والجدران.

ـ إجهاشات وصلت إلى حجرة آرميدا طبعاً ـ تحمس ريغوبيرتو. تكلم وهو يدير لوكريثيا حول نفسها ويضعها تحته.

ـ إجهاشات أيقظتها، أخرجتها من الفراش، دفعتها للخروج راكضة لمواساته ـ قالت منزلقة بسهولة تحت جسد زوجها، مباعدة ما بين ساقيها، ومعانقة إياه.

ـ لم يُتَحْ لها الوقت لترتدي الروب والخف ـ تولى ريغوبيرتو الكلام بدلاً منها ـ ولا لتسرح شعرها ولا أي شيء آخر. ودخلت راكضة إلى حجرة إسماعيل وهي على تلك الحال، شبه عارية. إنني أراها يا حبي.

ـ تذكر أن الظلام كان يخيم على كل شيء؛ وقد مضت متعثرة بالأثاث، مستدلة بصوت نحيب المسكين إلى سريره. وحين وصلت احتضنته و...

ـ واحتضنها هو أيضاً وبحركتين قويتين انتزع عنها قميص النوم الذي عليها. تظاهرت بأنها تقاوم، ولكن ليس لوقت طويل. فما إن بدأت ذلك الجهد حتى عانقته هي نفسها. وقد فوجئت أعظم مفاجأة حين اكتشفت أن إسماعيل كان في تلك اللحظة وحيد قرن، اخترقها؛ جعلها تصرخ...

ـ جعلها تصرخ ـ كررت لوكريثا العبارة بدورها وصرخت متضرعة ـ. انتظر، لا تجيء بعد، لا تكن شريراً، لا تفعل بي هذا.

ـ أحبك، أحبك ـ انفجر مقبلاً زوجته من عنقها وهو يشعر أنها تتيبس، ثم تئن بعد ثوان، راخية جسدها لتبقى ثابتة، متصلبة.

ظلا على تلك الحال، ساكنين وساكتين، بضع دقائق، يستعيدان قواهما. بعد ذلك تمازحا، نهضا، اغتسلا، رتبا الملاءات، وأعادا ارتداء البيجاما وقميص النوم، أطفأا ضوء مصباح القراءة وحاولا النوم. لكن ريغوبيرتو ظل مؤرقاً، يسمع كيف راحت أنفاس لوكريثيا تهدأ وتتباعد مع استغراقها في النوم وثبات جسدها. لقد نامت. أتراها تحلم؟

في تلك اللحظة، وبصورة مرتجلة تماماً وجد سبب ذلك الترابط الذي راح ذهنه ينسجه بطريقة مضطربة ومشوشة منذ بعض الوقت، وبعبارة أدق، منذ بدأ فونتشيتو يخبرهما بتلك اللقاءات المستحيلة، تلك المصادفات غير المحتملة مع ذلك الشخص الغريب المدعو إديلبيرتو توريس. لا بد له من أن يعيد قراءة هذا الفصل من «دكتور فاوست» لتوماس مان. لقد قرأ الرواية منذ سنوات طويلة، ولكنه يتذكر بوضوح تلك الواقعة، فوهة بركان القصة.

نهض دون إحداث ضجة، وذهب حافياً في العتمة إلى حجرة مكتبه، حيزه الصغير الحضاري، متلمساً الجدران في الطريق. أشعل مصباح الكرسي حيث اعتاد الجلوس للقراءة وسماع الموسيقى. كان هناك

صمت مطبق في ليل بارانكو. البحرُ رجعٌ بعيد جداً. لم يكلفه شيئاً العثور على الكتاب في رف الروايات. إنه هناك. وكان الفصل الخامس والعشرون هو المطلوب: لقد أشَّر عليه بصليب وإشارتي تعجب. إنه فوهة بركان الرواية، حدثُ تركيز المعايشات القصوى، والذي يبدل طبيعة القصة بالكامل، بإدخاله إلى العالم الواقعي بُعداً خارقاً للطبيعة. إنها الواقعة التي يُرى فيها ظهور الشيطان وتبادله الحديث مع المؤلف الموسيقي الشاب أدريان ليفركوهن، في عزلته الإيطالية ببالسترينا، ويعرض عليه الاتفاق المشهور. ما إن بدأ بإعادة القراءة حتى وجد نفسه مأخوذاً ببراعة الاستراتيجية السردية. فالشيطان يظهر لأدريان كرجل عادي وطبيعي؛ العارض الوحيد الفريد هو، في البداية، البرد الذي ينبعث منه ويجعل الموسيقي الشاب يشعر بقشعريرة. لا بد له من أن يسأل فونتشيتو، كمن يوجه سؤالاً فضولياً على شيء من البلاهة، والمصادفة، «أيحدث أنك تشعر بالبرد في كل مرة يظهر لك فيها ذلك الشخص؟». آه، وكان أدريان يعاني أيضاً من حالات صداع وغثيان إنذارية قبل اللقاء الذي سيبدل حياته. «قل لي يا فونتشيتو هل صادف وأتتك آلام رأس، أو اضطراب معوي، أو توعك بدني من أي نوع في كل مرة يظهر لك فيها ذلك الشخص؟».

وفق رواية ابنه، كان إديلبيرتو توريس شخصاً عادياً أيضاً. أصيب ريغوبيرتو بجفلة هلع مع وصف تلك الضحكة الساخرة التي تطلقها شخصية الرواية، والتي تنفجر فجأة في عتمة البيت الظليلة بالجبال الإيطالية، حيث تدور المحادثة المثيرة للقلق. ولكن... ولكن لماذا ربطَ لاوعيه كلَ هذا الذي يقرأه بفونتشيتو وإديلبيرتو توريس؟ ليس لهذا الربط من معنى. فالشيطان في رواية توماس مان يشير إلى السفلس وإلى الموسيقى باعتبارهما مظهرين لسلطته الخبيثة في الحياة، بينما لم يسمع

ابنه ذلك المدعو إديلبيرتو توريس يتكلم قط عن أمراض أو عن موسيقى كلاسيكية. أيمكن التساؤل عما إذا كان ظهور الإيدز الذي يتسبب بأضرار كبيرة في عالم اليوم مثل تلك التي كان السفلس يتسبب بها، هو مؤشر على الهيمنة الآخذة ببلوغ حضور جهنمي في الحياة المعاصرة؟ من الغباء تصور هذا؛ ومع ذلك، فإنه هو نفسه، غير المؤمن، واللاأدري الراسخ، يشعر في هذه اللحظة، بينما هو يقرأ، أن هذه العتمة الظليلة من الكتب واللوحات المحيطة به، والظلمات التي في الخارج، مضمخة في هذه اللحظات بروح قاسية، عنيفة وخبيثة. «هل لاحظت يا فونتشيتو أن ضحكة إديلبيرتو توريس لا تبدو بشرية؟ أعني، هل هي لا تشبه الصخب الذي يُحدثه صوت صادر عن حنجرة إنسان، وإنما هي أقرب إلى ولولة مجنون، أو نعيق غراب، أو صفير ثعبان؟». سينفجر الصبي في الضحك مقهقهاً وسيظن أن أباه مجنون. وداهمه القلق مرة أخرى. لقد محا التشاؤم في ثوانٍ قليلة تلك السعادة الزخمة التي تقاسمها للتو مع لوكريثيا، والمتعةً التي أمدته بها إعادة قراءة هذا الفصل من *دكتور فاوست*. أطفأ النور ورجع إلى حجرة النوم مجرجراً قدميه. لا يمكن لهذا الأمر أن يستمر على هذا النحو، عليه أن يستجوب فونتشيتو بحذر ومكر، وإزاحة القناع عما هنالك من حقيقة في تلك اللقاءات، وتبديد الأشباح التي صاغتها مخيلة ابنه المحمومة مرة واحدة وإلى الأبد. رباه، ليست الأزمنة مواتية لأن يبدي الشيطان مجدداً ما يشير إلى أنه حي ويظهر مرة أخرى للناس.

V

الإعلان الذي دفع فيليثيتو ياناكيه أجره من جيبه، ونشره في جريدة *«التيمبو»*، جعله مشهوراً بين ليلة وضحاها في بيورا كلها. صار الناس يوقفونه في الشارع لتهنئته والإعراب عن التضامن معه، ويطلبون منع توقيع أوتوغرافات، وينصحونه بصورة خاصة أن يتوخى الحذر: «ما فعلته حضرتك مرعب يا دون فيليثيتو. تشي غوا! حياتك الآن معرضة للخطر حقاً».

لم يدفع شيءٌ من ذلك صاحبَ شركة النقل إلى الزهو أو الخوف. أكثر ما أثار ذهوله هو ملاحظة التبدل الذي أحدثة الإعلان المقتضب، المنشور في جريدة بيورا الرئيسة، بالرقيب ليتوما وكذلك بالنقيب سيلفا بصورة خاصة. فهذا المفوض المبتذل الذي يستغل أية ذريعة كي يملأ فمه بالحديث عن مؤخرات نساء بيورا، لم يستلطفه فيليثيتو قطّ، وهو يظن أن النفور بينهما متبادل. ولكن موقف المفوض صار منذ تلك اللحظة أقل عجرفة. فبعد ظهر يوم نشر الإعلان بالذات، ظهر الشرطيان كلاهما في بيته بشارع اريكيبا، وكانا لطيفين ومتملقين. جاءا ليعربا له عن قلقهما مما يحدث يا سيد ياناكيه. لم يبديا مثل هذا الاهتمام حتى عندما أودى الحريق الذي افتعله لصوص العنكبوت بنصف مقر ناريهوالا للنقل. أي ذبابة لسعت الآن هذين الشرطيين؟ إنهما يبدوان متأثرين حقاً بوضعه ومتلهفين لرمي القفاز في وجه المبتزين.

أخيراً أخرج النقيب سيلفا من جيبه قصاصة «*التيمبو*» وفيها الإعلان.

ـ هل جننت حضرتك لتنشر هذا يا دون فيليثيتو ـ قال نصف مازح ونصف جاد ـ ألم يخطر لك أنه يمكن لهذه النزوة أن تؤدي بك إلى طعنة سكين أو رصاصة في العنق؟

ـ لم تكن نزوه، لقد فكرتُ في الأمر كثيراً قبل الإقدام عليه ـ أوضح صاحب شركة النقل بعذوبة ـ أردتُ أن يعلم ملعونو فرج أمهاتهم هؤلاء، مرة واحدة وإلى الأبد، أنهم لن ينتزعوا مني سنتاً واحداً. يمكن لهم أن يحرقوا هذا البيت، وجميع شاحناتي وحافلاتي وفاناتي. ويمكن لهم حتى أن يقتلوا زوجتي وابنيَّ إذا شاؤوا. ولكنني لن أدفع لهم سنتاً عاهراً واحداً!

لقد كان ضئيلاً وراسخاً، وكان يقول ذلك دون تصنّع، دون غضب، بينما يداه ساكنتان ونظرته حازمة، وبتصميم هادئ.

ـ أنا أصدقك يا دون فيليثيتو. وافقه النقيب منزعجاً، وتوجه إلى جوهر الموضوع: المسألة أنك دون أن ترغب في ذلك، ودون أن تنتبه، قد أدخلتنا نحن في مشكلة عويصة. فالكولونيل رسكاتشوتشا، قائدنا المحلي في المنطقة، اتصل صباح اليوم بالمفوضية بسبب هذا الإعلان الصغير. أتدري لماذا؟ أخبرهُ أنت يا ليتوما.

ـ كي يوجه إلينا اللعنات ويسمينا بغير النافعين والفاشلين يا دون ـ أوضح الرقيب بأسف.

ضحك فيليثيتو ياناكيه. فللمرة الأولى مذ بدأ بتلقي رسائل العنكبوت يشعر أنه في مزاج طيب.

ـ هذا هو ما أنتما عليه أيها النقيب ـ دمدم مبتسماً ـ. كم يسعدني أن قائدكما قد وبخكما. أهكذا هو اسمه، بكل هذا الوضوح؟ رسكاتشوتشا؟

ضحك الرقيب ليتوما والنقيب سيلفا أيضاً، ولكن بضيق.

ـ بالطبع لا، ما هذا إلا لقب ـ أوضح المفوض ـ فهو يدعى الكولونيل أسوندينو ريوس باردو. لا أدري لماذا أُطلقت عليه تلك البذاءة ولا من الذي أطلقها عليه كلقب. إنه ضابط جيد، ولكنه شخص عصبي جداً. لا يتحمل برغوثاً، يوجه اللعنات لنصف العالم لأي سبب.

ـ إنك مخطيء في ظنك بأننا لم نأخذ شكواك على محمل الجد يا سيد ياناكيه ـ تدخل الرقيب ليتوما.

ـ كان لابد لنا من انتظار ظهور اللصوص كي نقوم بعملنا ـ واصل النقيب بحماسة مفاجئة ـ وبما أنهم قد فعلوا ذلك الآن، فإننا في أوج العمل.

ـ مواساة ضعيفة لي ـ قال فيليثيتو ياناكيه بتكشيرة استياء ـ لا أدري ما الذي تفعلانه حضرتكما، ولكن في ما يخصني لن يعيد لي أحد مقري الذي أحرقوه.

ـ ألا يتولى التأمين تعويض الأضرار والخسائر؟

ـ هذا ما يجب عليهم عمله، ولكنهم بدؤوا يتذاكون. يتعللون بأن التأمين يشمل المركبات وحدها، وليس المنشآت. الدكتور كاسترو بوسو، محاميٌ، يقول إننا قد نضطر إلى الذهاب إلى محكمة. وهو ما يعني أنني سأخرج خاسراً بأي حال. وها أنتم ترون.

ـ لا تقلق يا دون فيليثيتو ـ طمأنه النقيب وهو يربت على ظهره ـ سوف يقعون. عاجلاً أو آجلاً سيقعون. كلمة شرف. سنطلعك على التطورات. إلى اللقاء. وتحياتي إلى السيدة خوسيفيتا، تلك السكرتيرة باهرة الجمال التي لديك، أرجوك.

وكان صحيحاً حقاً أن الشرطيين قد بدأا منذ ذلك اليوم بإظهار أدلة على اهتمامهما بالقضية. فقد استجوبا جميع سائقي وموظفي ناريهوالا

للنقل. واستبقيا ميغيل وتيبورثيو، ابني فيليثيتو، عدة ساعات في المفوضية خاضعين لوابل من الأسئلة، لم يكن الشابان يعرفان دوماً بماذا يردان عليها. بل إن الشرطيين أنهكا لوثيندو الأعمى كي يتعرف على صوت الشخص الذي جاء ليطلب منه إخبار دون فيليثيتو بأن المحل يحترق. فكان الأعمى يحلفُ أنه لم يسمع من قبل صوت من كلّمه. ولكن صاحب شركة النقل، وعلى الرغم من كل هذا الانكباب الذي أبداه الشرطيان، ظل يشعر بالقنوط والريبة. كان لديه إحساس داخلي بأنهما لن يقبضا على الفاعلين أبداً. وسيواصل المبتزون محاصرته، وأن ذلك كله سينتهي، فجأة، بمأساة. ومع ذلك لم تجعله هذه الأفكار القاتمة يتراجع قيد أنملة عن قراره بعدم الاستسلام لتهديداتهم واعتداءاتهم.

أكثر ما أحبطه هو حديثه مع صاحبه، وزميله، ومنافسه الكولورادو فيغنولو. فقد جاء إليه ذات صباح في مقر ناريهوالا للنقل، وكان فيليثيتو قد استقر وراء منضدة عمل مرتجلة ــ لوح خشبي عريض فوق برميلي زيت ــ في أحد أركان المرآب. ومن هناك كان بإمكانه أن يرى ركام ألواح الصفيح المختلِط، والجدران والأثاث المحروق في الوضع الذي خلّفت فيه النيران مكتبه القديم. بل إن اللهب أتلف جزءاً من السقف. ومن خلال الفتحة التي حدثت فيه، تُرى قطعة من السماء العالية والزرقاء. لحسن الحظ أن الأمطار نادراً ما تهطل في بيورا، اللهم إلا في سنوات هبوب إعصار النينيو. كان الكولورادو فيغنولو قلقاً جداً.

ـ ما كان عليك أن تفعل هذا يا صاحبي ــ قال له بينما هو يعانقه ويعرض عليه قصاصة *«التيمبو»* ـ كيف خطر لك أن تقامر بحياتك على هذا النحو! أنت المعروف بهدوئك في كل أمر يا فيليثيتو، أية حشرة

لسعتك هذه المرة. لماذا وُجد الأصدقاء، تشي غوا. لو أنك استشرتني لما تركتك تُقدم على مثل هذه الفظاعة.

ـ لهذا السبب لم أستشرك يا صاحبي. كنت أشم أنك ستنصحني بعدم نشر الإعلان ـ وأشار فيليثيتو إلى أنقاض مكتبه القديم ـ كان لا بد لي من الرد بطريقة ما على من فعلوا هذا بي.

خرجا لتناول فنجان قهوة في حانة افتتحت حديثاً، عند ناصية ساحة بلاثا مايور مع شارع تاكانا، بجوار مطعم صيني. كان المكان مظلماً، تحوم في عتمته الظليلة أسراب من الذباب. ومن هناك تظهر أشجار اللوز المعفرة بالغبار في الساحة الضيقة، وواجهة كنيسة دل كارمن حائلة اللون. لم يكن هنالك زبائن واستطاعا تبادل الحديث بهدوء.

ـ ألم يحدث لك مثل هذا من قبل قطّ يا صاحبي ـ سأله فيليثيتو ـ ألم تصلك قطّ واحدة من هذه الرسائل تبتزك؟

وتفاجأ برؤية تبدل غريب في ملامح الكولورادو بيغولو، بدا متردداً للحظات، لا يدري بماذا يجيبه. كان هناك وميض إحساس بالذنب في عينيه الغائمتين؛ وكان يرمش دون توقف ويتجنب النظر إليه.

ـ لا تقل لي يا صاحبي إنك... تلعثم فيليثيتو وهو يشد على ذراع صديقه.

ـ لستُ بطلاً ولا أريد أن أكون بطلاً ـ أكد الكولورادو فيغنولو بصوت خافت ـ أجل، سأقول لك. إنني أدفع لهم إتاوة كل شهر. ومع أن الأمر لا يعنيني، فإنني أقول إن جميع شركات النقل في بيورا، أو جميعها تقريباً، تدفع هذه الإتاوات. وهذا ما كان عليك أن تفعله بدل التهور بمواجهتهم. جميعنا كنا نظن أنك أنت أيضاً تدفع لهم يا فيليثيتو. أي تهور هذا الذي أقدمت عليه، لا أنا ولا أحد من زملائنا

يفهمه. هل أُصبتَ بالجنون؟ لا يمكن لأحدنا خوض معركة غير قادر على كسبها يا رجل.

ـ لا أستطيع أن أصدق أنكم تُنزلون سراويلكم هكذا في مواجهة أبناء العاهرة هؤلاء ـ تحسر فيليثيتو ـ. عقلي لا يتقبل ذلك، أقسم لك. أنت الذي تبدو على الدوام ديكاً يا صاحبي.

ـ ليس الأمر عظيماً، إنه مبلغ صغير يضاف إلى النفقات العامة ـ هز الكولورادو كتفيه خَجِلاً دون أن يدري ما يفعله بيديه وهو يحركهما كما لو أنهما فائضتان عن حاجته ـ ليس هنالك ما يستحق المجازفة بالحياة من أجل تفاهة يا فيليثيتو. كان يمكن تخفيض هذه الخمسمئة التي طلبوها منك إلى النصف لو أنك تفاوضت معهم بالحسنى، أؤكد لك. ألا ترى ما الذي فعلوه بمقرك؟ وتأتي فوق ذلك لتنشر هذا الإعلان في «*التيمبو*». إنك تغامر بحياتك وبحياة أسرتك. وحتى بحياة مابيل المسكينة، ألا ترى ذلك؟ لن تستطيع مواجهتهم أبداً، أؤكد هذا، مثل تأكدي من أنني أدعى فيغنولو. الأرض مكورة وليست مربعة. تقبل هذا الواقع ولا تحاول تقويم اعوجاج العالم الذي نعيش فيه. المافيا قوية جداً، ومتغلغلة في كل مكان، بدءاً من الحكومة والقضاء. ومن السذاجة العظيمة الوثوق بالشرطة. لا أستغرب أن يكون الشرطيون مشاركين كذلك في الوليمة. ألا تدري في أي بلاد نعيش يا صاحبي؟

كان فيليثيتو لا يكاد يسمعه. الحقيقة أنه يجد صعوبة في تصديق ما سمعه: الكولورادو بيغنولو يدفع إتاوة شهرية للمافيا. إنه يعرفه منذ عشرين عاماً، وكان يظن على الدوام أنه شخص شديد الاستقامة، يا للأم العاهرة، أي عالم هذا.

ـ أأنت متأكد من أن جميع شركات النقل تدفع الإتاوات؟ ـ ألح وهو يبحث عن عيني صديقه ـ ألا تبالغ؟

ـ إذا كنتَ لا تصدقني، اسألهم. إنني متأكد مثل تأكدي من أنني أُدعى فيغنولو. إذا لم يكن الجميع، فإن الجميع تقريباً يدفعون. ليست الأزمنة مناسبة للعب دور البطل يا صديقي فيليثيتو. المهم أن نتمكن من العمل وأن تسير أعمالنا. إذا لم يكن هناك مفر من دفع الإتاوة، فلتُدفع وانتهى الأمر. افعل مثلي ولا تدس يدك في النار يا صاحبي. يمكن لك أن تندم. لا تقامر بما شيَّدته بكثير من التضحية. ولا يروقني أن أحضر قداس جنازتك.

منذ تلك المحادثة ما عاد فيليثيتو قادراً على رفع رأسه. كان يشعر بالأسى، بالشفقة، بالغضب، بالدهشة. وحتى في وحدته الليلية، في صالة بيته الصغيرة، وهو يضع أغنيات لسيسيليا باراسا، لم يتوصل إلى إلهاء نفسه. كيف يمكن لزملائه أن يسمحوا بأن يُذلوا بهذه الطريقة؟ ألا يدركون أنهم، بتلبيتهم رغبات المبتزين، إنما يقيدون أيديهم وأقدامهم ويرهنون مستقبلهم. فالمبتزون سيطلبون منهم أكثر في كل يوم، إلى أن يُفلسوهم. بدا له كما لو أن بيورا بأسرها قد توافقت على إلحاق الأذى به، بمن في ذلك أولئك الذين كانوا يوقفونه في الشارع لمعانقته وتهنئته. ليسوا سوى منافقين داخلين في المؤامرة لينتزعوا منه ما جناه خلال سنوات طويلة من العرق. «مهما يكن ما سيحدث، كن مطمئناً يا أبي. فابنك لن يسمح بأن يُذله أولئك الجبناء أو أي أحد سواهم».

الشهرة التي أكسبه إياها الإعلان في «*التيمبو*» لم تبدل حياة فيليثيتو ياناكيه العادية والمُجِدَّة، على الرغم من أنه لم يكن معتاداً على أن يتعرف إليه الناس في الشارع. فهو يرتبك ولا يدري كيف يردّ على عبارات المديح وإشارات التضامن التي يوجهها إليه العابرون. كان ينهض مبكراً جداً كل صباح، يمارس تمارين الكي جونغ، ويصل إلى ناريهوالا للنقل في الثامنة. أقلقه انخفاض شراء التذاكر؛ فبعد الحريق

لم يكن مستغرباً أن يكون بعض الزبائن قد خافوا، خشية أن يتخذ اللصوص إجراءات انتقامية ضد مركبات الشركة، بمهاجمتها وإحراقها على الطرق العامة. الحافلات الذاهبة إلى أياباكا، وعليها أن تصعد مئتي كيلومتر في طريق ضيق ومتعرج على حواف هاويات أنديزية عميقة، فقدت قرابة نصف زبائنها. ولا يمكنه إعادة بناء المكتب مادامت المشكلة مع شركة التأمين لم تُحل. ولكن فيليثيتو لا يهمه أن يواصل العمل على اللوح الخشبي والبرميلين في ركن المستودع. ظل ساعات وساعات مع السيدة خوسيفيتا يراجع ما تبقى من دفاتر الحسابات، والفواتير، والعقود، والإيصالات والمراسلات. لحسن الحظ أنه لم يفقد الكثير من الأوراق المهمة. ولكن سكرتيرته هي من لم تجد مواساة. كانت خوسيفيتا تحاول المداراة، ولكن فيليثيتو كان يلحظ مدى توترها واستيائها من اضطرارها إلى العمل في الهواء الطلق، على مرأى من السائقين والميكانيكيين، والركاب الواصلين والمغادرين، والناس الذين يصطفون في الدور من أجل معاملات إرسال طرود. وقد اعترفت وهي تمط شفتيها كطفلة في وجهها كثير النمش:

ـ هذا العمل أمام كل الناس يسبب لي ما لا أدريه، يبدو لي كأنني أقدم عرض ستربتيز. ألا تشعر أنت بذلك يا دون فيليثيتو؟

ـ كثيرون من هؤلاء سيكونون سعداء لو قدَّمتِ لهم عرض ستربتيز يا خوسيفيتا. فقد سمعتُ عبارات التودد التي يوجهها إليك النقيب سيلفا كلما رآكِ.

ـ لا تروق لي بأي حال ظرافات ذلك الشرطي ـ احمر وجه خوسيفيتا، وأضافت مفتونة ـ وأقل من ذلك إعجابي بنظراته تلك التي يوجهها إلى حيث تعرف حضرتك يا دون فيليثيتو. هل تظن أنه منحرف؟ هذا ما يقولونه عنه. يقولون إن النقيب لا ينظر إلا إلى

هذا الجزء في النساء، كما لو أنه ليس لدينا أشياء أخرى في جسدنا، *تشي غوا*.

في اليوم نفسه الذي ظهر فيه الإعلان في «*التيمبو*»، طلب منه ميغيل وتيبورثيو أن يحدد لهما موعداً. كان ابناه يعملان سائقين ومفتشين في حافلات وشاحنات وفانات الشركة. أخذهما فيليثيتو لتناول وجبة سيفيتشي قواقع بحرية سوداء وسمكة شابل مجففة، في مطعم فندق الذهب الأخضر، بمنطقة إلتشيبيه. كان هناك مذياع مفتوح، فاضطرتهم الموسيقى إلى التكلم برفع أصواتهم كثيراً. ومن منضدتهم كانوا يرون عائلة تسبح في المسبح، تحت أشجار النخيل. وبدلاً من البيرة طلب فيليثيتو مياهاً غازية. ومن خلال وجهي ابنيه، تنبأ شراً مما لديهما. تكلم أولاً ابنه الكبير، ميغيل. وهو شاب متين البنية، رياضي، أبيض البشرة، له عينان زرقاوان وشعر أشقر، يلبس على الدوام بشيء من الاهتمام، على العكس من تيبورثيو الذي نادراً ما يستبدل البلوجنز والقمصان الخفيفة وحذاء الرياضة. كان ميغيل ينتعل حذاء موكاسين وبنطال كوردوري وقميصاً أزرق فاتحاً ومطبعاً برسوم سيارات سباق. لقد كان متأنقاً لا علاج له، لديه استعداد طبيعي لذلك وأساليب راقية. حين أجبره فيليثيتو على أداء الخدمة العسكرية، كان يفكر في أنهم سيخلصونه في الجيش من أساليب الطفل المنعم التي هو عليها؛ ولكن الأمر لم يكن كذلك، فقد خرج من الثكنة مثلما دخلها. وفكر صاحب شركة النقل مرة أخرى في حياته: «أيكون ابني؟». كان الفتى يضع ساعة بسوار جلدي يداعبة بينما هو يقول:

ـ لقد فكرت أنا وتيبورثيو في الأمر يا أبي، وقد استشرنا ماما أيضاً ـ كان متوتراً بعض الشيء، مثلما يكون دوماً حين يتوجه بالكلام إلى أبيه.

ـ هذا يعني أنكما تفكران ـ مازحه فيليثيتو ـ تسعدني معرفة ذلك، هذا خبر طيب. أيمكنني أن أعرف الفكرة اللامعة التي خطرت لكما؟ آمل ألا يكون ما فكّرتما فيه هو الذهاب لاستشارة سحرة هواناكابامبا الهنود بشأن مبتزي العنكبوت. فقد قمت باستشارة آديلايدا ولم تستطع هي نفسها التكهن بأي شيء، بل ليس لديها أدنى فكرة عمن يمكن أن يكونوا.

ـ الأمر جدِّيّ يا أبي ـ تدخل تيبورثيو. في شرايين ابنه هذا تجري دماؤه هو، لا وجود لأدنى شك في ذلك. إنه يشبهه كثيراً ببشرته المحروقة، وشعره السبط والأسود، وبجسده الضعيف ـ لا تسخر يا أبي، أرجوك. استمع إلينا. فهذا من أجل مصلحتك.

ـ حسنٌ، موافق، إنني أستمع إليكما. ما هو الموضوع أيها الشابان؟

ـ بعد هذا الإعلان الذي نشرته في «*التيمبو*» أصبحتَ معرضاً لخطر كبير ـ قال ميغيل.

ـ لا أدري إن كنتَ مدركاً مدى الخطر يا أبي ـ أضاف تيبورثيو ـ. يبدو الأمر كما لو أنك قد وضعت الحبل حول عنقك.

ـ إنني في خطر منذ ما قبل الإعلان ـ صحح لهما فيليثيتو ـ. بل نحن جميعنا في خطر. خيرترورديس وأنتما أيضاً. مذ وصلت الرسالة الأولى من أبناء العاهرة هؤلاء الذين يريدون ابتزازي. أتراكما لا تعرفان ذلك؟ فهذا الأمر ليس موجهاً إليّ فقط، وإنما إلى أسرتي كلها. أم أنكم لستم أنتم من سترثون عني ناريهوالا للنقل؟

ـ ولكنك الآن معرض للخطر أكثر من السابق، لأنك تحديتهم علناً يا أبي ـ قال ميغيل ـ. سوف يقومون بالردّ، لا يمكنهم البقاء صامتين حيال مثل هذا التحدي. سيحاولون الانتقام، لأنك وضعتهم في وضع مضحك. بيورا بأسرها تقول ذلك.

ـ الناس يوقفوننا في الشارع لتحذيرنا ـ أخذ منه تيبورثيو الكلام ـ «انتبهوا لأبيكما أيها الشابان، لأنهم لن يغفروا له هذه النزوة». هذا ما يقولونه لنا في الشوارع والساحات.

ـ أي إنني أنا من يستفز أولئك المساكين ـ قاطعه فيليثيتو غاضباً ـ. يهددونني، يحرقون مكتبي، وأكون أنا المستفز لأني قلت لهم إنني لن أخضع للابتزاز مثل زملائي المستسلمين.

ـ لسنا ننتقدك يا أبي، بالعكس ـ ألح ميغيل ـ إننا ندعمك، نشعر بالفخر لنشرك هذا الإعلان في «*التيمبو*». لقد رفعتَ اسم العائلة عالياً جداً.

ـ ولكننا لا نريد أن يقتلوك، افهمنا، أرجوك ـ ساندہ تيبورثيو ـ سيكون من المناسب أن تتعاقد مع حارس شخصي. لقد تحرينا الأمر، هنالك شركة جدّية جداً. تقدم خدمات لجميع الأشخاص المهمين في بيورا: المصرفيون، الزراعيون، المنجميون. وليست غالية جداً، لدينا هنا الأسعار.

ـ حارس شخصي؟ ـ انفجر فيليثيتو في الضحك، ضحكة مفتعلة وساخرة ـ. ويتبعني شخص مثل ظلي ومسدسه في جيبه؟ إذا ما تعاقدتُ مع حماية، فسيعني ذلك أنني أمنح أولئك اللصوص أكبر بهجة. هل في رأسيكما دماغ أم نشارة خشب؟ سيكون ذلك اعترافاً بأنني خائف، وأنني أنفق نقودي على هذا الأمر لأنني مذعور. سيكون ذلك مماثل لدفع الإتاوة التي يطلبونها مني. لن نتكلم أكثر في هذا الموضوع. تناولا طعامكما، تناولا طعامكما، سوف تبرد سمكة الشابل. ولنتحدث في أمر آخر.

ـ ولكننا نفعل هذا من أجل مصلحتك يا أبي ـ واصل ميغيل محاولة إقناعه ـ كيلا يحدث لك شيء. استمع إلينا، إننا ابناك.

ـ ولا كلمة أخرى في هذا الموضوع ـ أمرهما فيليثيتو ـ. إذا ما جرى شيء لي، ستكونان على رأس ناريهوالا للنقل، ويمكن لكما عندئذ أن تفعلا ما تريدان. بما في ذلك التعاقد مع حراس شخصيين إن رغبتما. أما أنا فلن أفعل ذلك حتى لو متُّ.

رأى ابنيه يخفضان رأسيهما ويبدآن الأكل، دون رغبة. لقد كانا وديعين جداً على الدوام، حتى في مرحلة المراهقة التي يتمرد فيها الفتيان على السلطة الأبوية. لا يتذكر أنهما سببا له الكثير من أوجاع الرأس، باستثناء بعض الشيطنات المتفرقة التي تتمخض عن نتائج كبيرة. مثل ذلك الحادث الذي وقع لميغيل وأدى إلى قتل عابر سبيل على الطريق العام إلى كاتاكاوس، أثناء تعلمه سياقة السيارة، حين تصادف مرور ذلك الحمار على الطريق. ومازالا مطيعين إلى حدّ كبير على الرغم من أنهما صارا رجلين كاملي الرجولة. وحتى عندما أمر ميغيل بأن يتقدم متطوعاً إلى الجيش لمدة عام من أجل أن يتصلب، انصاع ابنه له دون أن ينبس ببنت شفة. وقد كانا يقومان بعملهما على أحسن وجه، فالحقيقة هي الحقيقة. لم يكن قاسياً معهما قطّ، ولكنه لم يكن كذلك واحداً من أولئك الآباء المولعين بأبنائهم، يدللونهم ويحولونهم إلى كسالى ومخنثين. لقد سعى إلى إكسابهما المهارات كي يعرفا كيف يواجهان المصاعب ويكونان قادرين على المضي قُدما بالشركة عندما يصير عاجزاً عن العمل. جعلهما ينهيان المدرسة، ويتعلمان الميكانيك، ويستحصلان على رخص قيادة حافلات وشاحنات. وعمل كلاهما بكافة المهن في ناريهوالا للنقل وتدرجا فيها: حارس، كناس، مساعد محاسب، معاون سائق، مفتش، سائق... الخ، إلخ. يمكن له أن يموت مطمئناً، فالاثنان مهيآن للحلول محله. وعلاقتهما في ما بينهما جيدة، إنهما متحدان جداً لحسن الحظ.

ـ أنا لا أشعر بالخوف من أبناء العاهرة أولئك ـ هتف فجأة وهو يضرب المنضدة. توقف ابناه عن الأكل ـ. أسوأ ما يمكن أن يفعلاه بي هو قتلي. ولكنني لا أخاف الموت أيضاً. لقد عشتُ خمساً وخمسين عاماً وهذا يكفي. ما يطمئنني أنني سأترك ناريهوالا للنقل بين أيدٍ أمينة حين أغادر لألتحق بأبي.

حدس أن الشابين يحاولان الابتسام ولكنه لاحظ أنهما مرتبكان وعصبيان.

ـ لا نريدك أن تموت بعد يا أبي ـ تلعثم ميغيل.

ـ إذا ما ألحق بك هؤلاء أي أذى سنجعلهم يدفعون الثمن غالياً ـ أكد تيبورثيو.

ـ لا أظن أنهم يتجرؤون على قتلي ـ طمأنهم فيليثيتو ـ إنهم لصوص ومبتزون، ليس أكثر. من أجل القتل يجب أن تكون لهم خصى أكثر من مجرد إرسال رسائل عليها رسوم عناكب.

ـ اشتر مسدساً على الأقل وتسلح به يا أبي ـ عاد تيبورثيو إلى الهجوم ـ كي تتمكن من الدفاع عن نفسك في حالة...

ـ سأفكر في الأمر، سوف نرى ـ أبدى فيليثيتو اللين ـ والآن، أريد منكما أن تعاهداني، حين أغادر هذا العالم وتصير ناريهوالا بين أيديكما، ألا ترضخا لابتزاز أبناء العاهرات هؤلاء.

رأى ابنيه يتبادلان النظرات وهما بين المتفاجئين والمذعورين.

ـ أقسما بالله على ذلك، الآن بالذات ـ طلب منهما ـ أريد أن أكون مطمئناً من هذه الناحية، تحسباً لحدوث أي شيء لي.

وافق كلاهما، ودمدما وهما يرسمان إشارة الصليب: «نقسم لك بالله يا أبي».

أمضوا بقية وقت الغداء في الحديث عن أمور مختلفة. وبدأت تدور في ذهن فيليثيتو فكرة قديمة أخرى. فمنذ أن ذهبا ليعيش كل منهما على طريقته، صار لا يعرف إلا القليل عما يفعله تيبورثيو وميغيل حين لا يكونان في العمل. إنهما لا يعيشان معاً. الكبير أقام في بنسيون بضاحية ميرافلوريس، وهو حي للبيض بالكامل طبعاً. وتيبوريثو استأجر شقة مع صديق في حي كاستيّا، بالقرب من الستاد الجديد. ألديهما حبيبتان، عشيقتان؟ أهما عربيدان، محبان للنساء؟ أيسكران مع الأصدقاء أيام السبت ليلاً؟ أيرتادان حانات ومطاعم اللهو، أيبحثان عن عاهرات؟ كيف يقضيان أوقات فراغهما؟ خلال أيام الآحاد التي يأتيان فيها أحياناً لتناول الغداء في البيت بشارع اريكيبا لا يتحدثان كثيراً عن حياتيهما الخاصتين، ولا يوجه إليهما هو أو خيرترووديس أسئلة بهذا الشأن. ربما من المناسب أن يتبادل الحديث معهما قليلاً ذات مرة، وأن يعرف المزيد عن حياة الشابين الحميمة.

أسوأ ما في تلك الأيام هي المقابلات التي كان عليه إجراؤها على إثر الإعلان في *«التيمبو»*. مقابلات مع عدة إذاعات محلية، مع كتبة تحقيقات صحفية بجريدة *«الكوريّو»*، وجريدة *«لا ريبوبليكا»*، ومع مراسل *أخبار إذاعة بيورا*. كانت أسئلة الصحفيين توتره. تبتل يداه بالعرق، ويشعر بحيّات تنسل على ظهره. كان يجيب على الأسئلة مع وقفات صمت طويلة، يبحث عن الكلمات، ينكر بحزم كونه بطلاً مدنياً أو نموذجاً يحتذى لأحد. لا شيء من هذا، يا لهذه الأفكار، إنه لا يفعل شيئاً أكثر من تنفيذ فلسفة أبيه التي تركها له في هذه النصيحة كميراث: «لا تسمح أبداً لأحد بأن يُذلك يا بني». فيبتسمون وينظر إليه بعضهم بوجوه متسامحة. لم يكن يهمه ذلك. بل كان يجعل من أحشائه قلباً، ويواصل. فهو رجل محب للعمل، رجل عادي، ولا شيء

أكثر. لقد ولد فقيراً، بل شديد الفقر، على مقربة من تشولوكاناس، في ياباتيرا، وكل ما يملكه إنما كسبه بالعمل. يدفع ضرائبه، يتقيد بالقوانين. فلماذا سيسمح لبعض اللصوص بأن ينتزعوا منه ما يملكه بإرسالهم تهديدات إليه دون أن يُظهروا له وجوههم؟ إذا لم يستجب أحد لهذه الابتزازات، فسوف يتلاشى المبتزون.

وهو لا يحب كذلك أن يتلقى تمييزاً أو تكريماً، لأنه يتعرق جليداً إذا ما اضطر إلى إلقاء خطابات. إنه يفتخر في أعماقه طبعاً وهو يفكر في مقدار السعادة التي سيشعر بها أبوه، أليني ياناكيه، لنيله مدالية المواطن النموذجي التي علقها على صدره نادي الروتري كلوب خلال غداء في المركز البيوراني. ولكن، حين كان عليه الاقتراب من المايكريفون ليقدم الشكر، انعقدت حنجرته واختفى صوته. وقد حدث له الشيء نفسه عندما أعلنته جمعية إنريكي لوبيث ألبوخار المدنية ـ الثقافية ـ الرياضية شخصية العام في بيورا.

في تلك الأيام وصلت إلى بيته في شارع اريكيبا رسالة من نادي غراو، تحمل توقيع رئيسها، الكيميائي ـ الصيدلاني المميز، الدكتور غارابيتو ليون سيمينارِيو، تخبره بأن مجلس الإدارة قد وافق بالإجماع على طلبه لنيل عضوية الجمعية. لم يستطع فيليثيتو أن يصدق عينيه. لقد قدَّم الطلب منذ سنتين أو ثلاث سنوات، وبما أنهم لم يردوا عليه قطّ، فقد فكر في أن طلبه قد أُهمل لأنه ليس أبيض، مثلما يُعتقد أنهم كذلك أولئك السادة الذين يذهبون إلى نادي غراو للعب التنس، والبينغ بونغ، والسابو، والكاتشو، والسباحة في المسبح والرقص في أيام السبت مع أفضل فرقة أوركسترا في بيورا. وقد تجرأ على التقدم بذلك الطلب مذ رأى سيسيليا بارأسا تغنيَ في حفلة لنادي غراو، تلك الفنانة الكريولية التي يقدِّرها أكثر من أي شيء. ذهب يومذاك مع مابيل وجلس إلى

منضدة الكولورادو بيغنولو الذي كان عضواً في النادي. ولو أنه سُئل عن أسعد يوم في حياته، لاختار فيليثيتو ياناكيه تلك الليلة.

لقد كانت سيسليا بارّاسا حبه السري، حتى قبل أن يراها في صورة أو شخصياً. أُغرم بها بسبب صوتها. لم يخبر أحداً بذلك، لأنه أمر خاص وحميم. فذات يوم، في مطعم الملكة الذي اختفى، والذي كان يقوم عند ناصية كورنيش إغويغويرا وجادة سانتشيث سيرّو، حيث كان يجتمع للعشاء هناك، في أول سبت من كل شهر، مجلس إدارة جمعية السائقين عبر المحافظات في بيورا، وكان عضواً فيه. وبينما هم يرفعون نخباً بكؤوس من شراب الخروب سمع فجأة، من مذياع المحل، غناءَ أحد أحب الفالسات إلى نفسه «روح وقلب وحياة» بظرف وتأثر وإخلاص لم يسمعه بمثله من قبل. فلا خيسوس باسكيث، ولا فريق موروتشوكوس، ولا لوتشا ريس، ولا أي مغن كريولي آخر ممن يعرفهم، غنى ذلك الفالس البديع بهذا الإحساس والظرف الذي تؤديه به المغنية التي يسمعها أول مرة. كانت تطبع كل كلمة، كل مقطع صوتي، كل حرف بكثير من الحقيقة والانسجام، بكثير من الحساسية والعذوبة، مما يمنح الرغبة في الرقص... وحتى البكاء. سأل عن اسمها فقالوا له: سيسيليا باراسا. سماع صوت تلك الفتاة جعله يفهم كما يبدو بصورة كاملة، أول مرة، الكثير من كلمات الفالسات الكريولية التي كانت تبدو له من قبل غامضة وغير مفهومة:

روح لغزوك
قلب لحبك
حياة لعيشها
إلى جانبك!

أحس بأنه قد غُزي، تـأثر، افـتتن، أحـب. منـذ ذلـك الحـين، في الليل، قبل أن ينام، أو في الفجر قبل أن ينهض، يتخيل نفسه أحيانـاً أنه يعيش إلى جانب تلك المغنية المدعوة سيسيليا باراثا. ودون أن يخبر أحداً، وبخاصة مابيل طبعاً، عاش بصورة أفلاطونية متعلقاً بذلك الوجه الباسم، ذي العينين بالغتي التعبير والابتسامة شديدة الغواية. لقد جمع مجموعـة لا بـأس بهـا مـن صـورها الـتي كانـت تظهـر في الصـحف والمجلات، واحتفظ بها بغيرة وراء قفل في أحد دروج مكتبه. لقد ذهب الحريـق بجـزء لا بـأس بـه مـن تلـك الصـور، ولكـن لـيس بمجموعـة أسطوانات سيسليا بارَاسا التي يمتلكها موزعـة مـا بـين بيتـه في شـارع اريكيبا وبيت مابيل في كاستيّا. يظن أنه يملك جميع الأسطوانات الـتي سجلتها تلك الفنانة التي رفعت، حسـب طريقتـه في الفهـم، الموسـيقى الكريوليـة إلى مسـتويات جديـدة، بمـا فيهـا الفالسـات والمارينيريـات والتنويرو والبريغون. كان يستمع، بصورة عامـة، إلى تلـك الأسـطوانات في الليل، بعـد العشـاء، حـين تـذهب خيرتـروديس للنـوم، في الصـالة الصغيرة حيث يوجد التلفاز وجهاز الموسيقى. الأغنيات تجعل مخيلتـه تحلق؛ وكان يتأثر في بعـض الأحيـان إلى حـدّ يشـعر معـه بـأن عينيـه تدمعان مع الصوت العذب والمُداعب الذي يضمخ الليـل. ولهـذا، حـين أُعلن أنهـا سـتأتي إلى بيـورا لـتغني في نـادي غـراو، وسـتكون الحفلـة مفتوحة للجمهور، كان أحد أول من اشتروا تذاكر الدخول. دعا مابيل، وأجلسهما الكولورادو بيغنولو إلى منضدته، حيث تناولوا، قبل الحفلة، وجبة فاخرة مع نبيذ أبيض وأحمر. رؤية الفنانة شخصياً، وإن لم يكـن عن قرب كبير، أدخل فيليثيتو في حالة من النشوة. بدت له أكثر جمالاً وظرافة وأناقة مما هي عليه في الصور. كان يصفق بحماسة شـديدة بعـد

كل أغنية، حتى إن مابيل قالت لبيغنولو مشيرة إليه: «انظر كيف صار هذا العجوز المتصابي يا كولورادو».

ـ لا تكوني سيئة الظن يا مابيليتا ـ قال لها مدارياً ـ، ما أصفقُ له هو فن سيسيليا باراسا، فنها فقط.

وصلت رسالة العنكبوت الثالثة بعد وقت لا بأس به من الرسالة الثانية، حين كان فيليثيتو يتساءل عما إذا كان المافيويون قد أصيبوا بالذعر بعد الحريق، والإعلان في «*التيمبو*» والضجة التي أحدثها، واستسلموا لتركه بسلام. كانت قد انقضت ثلاثة أسابيع على الحريق ولم يكن الخلاف مع شركة التأمين قد حُلَّ بعد، حين حدث ذات صباح، على منضدة المكتب المرتجلة في الكراج، أن هتفت السيدة خوسيفيتا التي كانت تفتح المراسلات:

ـ يا للغرابة يا دون فيليثيتو، رسالة لا تحمل اسم المُرسل.

انتزعها صاحب شركة النقل من يديها بشدَّةٍ واحدة. وكانت ما خشي منه.

عزيزي السيد ياناكيه:

يسعدنا أنك صرت الآن رجلاً مشهوراً ومعتبراً في مدينتنا المحبوبة بيورا. ونتمنى أن تضاعف هذه الشهرة من أرباح ناريهوالا للنقل، وخاصة بعد الضرر الذي تعرضت له الشركة بسبب شدة عنادك. غير أنه من المناسب لك أن تتقبل دروس الواقع وتكون برغماتياً بدلاً من اعتماد العناد كبغل. لسنا راغبين في أن تتعرض لضرر آخر أخطر من السابق. لهذا ندعوك لأن تكون مرناً، وأن تستجيب لمطالبنا.

لقد اطلعنا، مثل جميع أهالي بيورا، على الإعلان الذي نشرته في «*التيمبو*». لسنا حاقدين عليك. بل أكثر من هذا، إننا نتفهم قرارك بنشر

هذا الإعلان نتيجة نوبة انزعاج من الحريق الذي دمر المكتب. لقد نسينا ذلك، فانسَهُ أنت أيضاً ولنبدأ من الصفر.

إننا نمنحك مهلة أسبوعين ـ أربعة عشر يوماً بدءاً من هذا اليوم ـ كي تفكر، وتعود إلى العقل وننهي المسألة التي تهمنا. في حالة عدم موافقتك، عليك أن تتحمل النتائج. وستكون أشد خطورة من كل ما عانيته حتى الآن. وخير الكلام ما قل ودل، كما يقول المثل يا سيد ياناكيه.

وليحفظك الله.

الرسالة كانت مكتوبة على آلة كاتبة هذه المرة، ولكن التوقيع هو الرسم نفسه بحبر أزرق كما في الرسالتين السابقتين: رسم عنكبوت بخمس قوائم طويلة مع نقطة في المنتصف تمثل الرأس.

ـ هل تشعر بتوعك يا دون فيليثيتو؟ لا تقل لي إنها واحدة أخرى من تلك الرسائل ـ ألحت السكرتيرة.

كان رئيسها قد أنزل ذراعيه، ويبدو أنه قد باعد بين ساقيه وهو جالس على كرسيه. وجهه شاحب، وعيناه مصوبتان إلى قطعة الورق. وأخيراً هز رأسه موافقاً ورفع يده إلى فمه، في إشارة لها للاحتفاظ بالصمت. الناس الذين يملؤون المحل لم ينتبهوا. طلب منها كأس ماء شربه ببطء، باذلاً الجهد للتحكم بالاضطراب الذي سيطر عليه. كان يشعر بقلبه مضطرباً وبأنه يتنفس بصعوبة. لم يتراجع أولئك القوادون طبعاً، وسيستمرون بالطبع في موضوعهم. ولكنهم يخطئون إذا كانوا يظنون أن فيليثيتو ياناكيه سيسمح لهم بلي ذراعه. كان يشعر بغضب، بحقد، بسخط يجعله يرتجف. ربما كان ميغيل وتيبورثيو على حق. ليس في مسألة الخارس الشخصي طبعاً، فهو لن يهدر نقوده في هذا الشأن. ولكنهما ربما كانا على حق في موضوع المسدس. فليس هنالك ما

يسعده في هذه الحياة أكثر من تصفية أولئك البراز إذا ما صاروا في متناول يده. خردقتهم بالرصاص، بل والبصاق على جثثهم.

عندما هدأ قليلاً، ذهب ماشياً بسرعة إلى مفوضية الشرطة، ولكن النقيب سيلفا والرقيب ليتوما لم يكونا هناك. لقد خرجا لتناول الغداء وسيرجعان في حوالي الرابعة عصراً. جلس في أحد مقاهي جادة سانتشيث سيرّو، وطلب مشروباً غازياً بارداً. اقتربت منه سيدتان لمصافحته. إنهما تقدرانه، فهو نموذج وملهم لجميع أهالي بيورا. وودّعتاه وهما تباركانه. شكرهما بابتسامة. وفكر: «الحقيقة أنني لا أشعر الآن بأني بطل أو أي شيء أقل من ذلك بكثير. بل أقرب إلى أن أكون أبلهاً، تافهاً في مهب الريح، هذا هو ما أنا عليه. فهم يلعبون بي على هواهم بينما أنا لا أحل ولا أربط شيئاً في المسألة المعقدة».

في طريق عودته إلى المكتب ماشياً ببطء على أرصفة الشارع العالية، وسط صخب المتوتكسي والدراجات النارية والمشاة، ووسط قنوطه، أحس برغبة مفاجئة وهائلة في رؤية مابيل. رؤيتها، تبادل الحديث معها، وربما سيشعر شيئاً فشيئاً بالرغبات تأتيه، فيغرق لدقائق في تهيج يدوخه ويجعله ينسى الحريق، والمشاكل مع التأمين التي يتولاها المحامي كاسترو بوسو، ورسالة العنكبوت الجديدة. وربما يتمكن، بعد أن يستمتع، من النوم قليلاً بهدوء وسعادة. لا يتذكر أنه، خلال هذه السنوات الثماني الفائتة، قد انقض فجأة وفي منتصف النهار على بيت مابيل الصغير، فدائماً يذهب عند الغروب وفي الأيام المتفق عليها مسبقاً معها. ولكنه يعيش أزمنة استثنائية، ويمكن له أن يكسر العادات. كان متعباً، وكان الجو حاراً، فذهب في سيارة أجرة بدل الذهاب ماشياً. حين ترجل، في شارع كاستيّا، رأى مابيل عند باب بيتها. أهي خارجة أم عائدة؟ ظلت تنظر إليه متفاجئة.

ـ أنتَ في هذه الأنحاء؟ ـ قالت له على سبيل التحية ـ واليوم؟ وفي هذا الوقت؟

ـ لم أشأ إزعاجك ـ اعتذر فيليثيتو ـ إذا كان لديك أي التزام فسوف أذهب.

ـ لدي التزام واحد، ولكنني أستطيع إلغاءه ـ ابتسمت له مابيل وهي تخرج من وقع المفاجأة ـ ادخل، ادخل. انتظرني لحظة، سأرتب الأمر وأرجع.

لاحظ فيليثيتو أنها منزعجة على الرغم من كلماتها اللطيفة. أيكون قد وصل في لحظة غير مناسبة. ربما كانت ستخرج من أجل المشتريات. لا، لا. على الأغلب أنها كانت خارجة للقاء صديقة، والتمشي معها قليلاً وتناول الغداء معاً. أو ربما كان ينتظرها رجل شاب، مثلها، يروق لها وتلتقي به خفية. أحس بوخزة غيرة وهو يتخيل مابيل ذاهبة للقاء مع عشيق. شخص يعريها ويجعلها تصرخ. لقد أحبط خطتهما. أحس بتيار شهوة، بدغدغة بين ساقيه، ببداية انتصاب. هيا، بعد كم من الأيام؟ كانت مابيل جميلة هذا الصباح، بذلك الثوب الأبيض الذي يكشف عن ذراعيها وكتفيها، وذلك الحذاء ذي الكعب الرفيع، وهي مسرحة الشعر جيداً، عيناها وشفتاها ممكيجة. أيكون لديها صديق؟ كان قد دخل إلى البيت وخلع عنه الجاكيت وربطة العنق. حين رجعت مابيل وجدته يعيد مرة أخرى قراءة رسالة العنكبوت. لقد غادرها الإنزعاج . فهي تبدو الآن باسمة ومحبة مثلما اعتادت أن تبدو معه دوماً.

ـ تلقيتُ رسالة أخرى هذا الصباح ـ اعتذر فيليثيتو وهو يقدمها إليها ـ. أحسستُ بنوبة غضب عارمة. وفجأة راودتني رغبة في رؤيتك. لهذا أنا هنا يا حبي. اعذريني لانقضاضي عليك هكذا، دون إشعار مسبق. آمل ألا أكون قد عطلت لك أي مشروع.

ـ إنك في بيتك يا عجوزي ـ ابتسمت له مابيل مجدداً ـ يمكنك المجيء متى تشاء. ولم تعطل لي أي مشروع. كنت ذاهبة إلى الصيدلية لشراء بعض الأدوية.

تناولت الرسالة، جلست إلى جانبه، ومع تقدمها في القراءة كانت ملامحها تكتسي بالمرارة. غطت وجهها سحابة.

ـ أي إن اللعينين لا يتوقفون ـ هتفت بجدية كبيرة ـ ماذا ستفعل الآن؟

ـ ذهبت إلى مفوضية الشرطة ولكن الشرطيين غير موجودين. سيعودان عصراً. لست أدري لماذا لا يفعل هذان البليدان شيئاً. إنهما يهدهداني، هذا هو الشيء الوحيد الذي يفعلانه. يهدهداني بالكلام الفارغ.

ـ أي إنك جئت لأُهيّجك قليلاً ـ رفعت مابيل من معنوياته مبتسمة ـ أليس صحيحاً يا عجوزي؟

مرت بيدها على وجهه وأمسكته وقبّلته.

ـ فلنذهب إلى الغرفة يا مابيل ـ همس في أذنها ـ لدي رغبة كبيرة، الآن بالذات.

ـ حسنٌ، حسن، هذا ما لم أكن أنتظره ـ عادت تضحك متصنعة حركات ـ في مثل هذا الوقت؟ أكاد لا أتعرف إليك يا عجوزي.

ـ سترين ـ قال وهو يعانقها ويقبّلها من عنقها، ويشمها ـ يا لرائحتك الزكية يا حبي. إنني أبدل عاداتي، أستعيد الشباب، تشي غوا.

انتقلا إلى غرفة النوم، تعريا ومارسا الحب. كان فيليثيتو متهيجاً إلى حدّ أنه بلغ النشوة فور دخوله فيها. ظل معانقاً إياها، يداعبها بصمت، يلعب بشعرها، يقبّل رقبتها وجسدها، يعضض حلمتيها، يدغدغها، يتلمسها.

ـ كم أنت حنون يا عجوزي ـ أمسكته مابيل من أذنيه، ونظرت إلى عينيه عن قرب ـ سوف تقول لي في أي يوم من هذه الأيام إنك تحبني.

ـ أولم أقل لك هذا مرات كثيرة يا مجنونتي الصغيرة؟

ـ تقوله لي وأنت متهيج، وهذا لا نفع فيه ـ عاتبته مابيل مداعبة ـ. ولكنك لم تقله لي قبل أو بعد قطّ.

ـ سأقوله لك الآن إذاً بعدما لم أعد متهيجاً. أنا أحبك كثيراً يا مابيليتا. أنت المرأة الوحيدة التي أحببتها حقاً.

ـ أتحبني أكثر من سيسيليا باراسا؟

ـ هي مجرد حلم وحسب، إنها حكايتي عن الحوريات ـ قال فيليثيتو ضاحكاً ـ أما أنتِ فحبي الوحيد في دنيا الواقع.

ـ سأصدق كلامك يا عجوزي. بعثرت شعره وهي تكاد تموت من الضحك.

تبادلا الحديث لبعض الوقت وهما مستلقيان على السرير، بعد ذلك نهض فيليثيتو، اغتسل وارتدى ملابسه. رجع إلى ناريهوالا للنقل وظل يدير شؤون المكتب لفترة لا بأس بها من بعد الظهر. وعند خروجه، مرّ مجدداً على المفوضية. كان المفوض والرقيب هناك، استقبلاه في مكتب أولهما. ودون أن يقول لهما كلمة واحدة، قدم إليهما رسالة العنكبوت الثالثة. قرأها النقيب سيلفا بصوت عال، متهجياً الكلمات، أمام نظرات الرقيب ليتوما المتيقظة الذي كان يستمع وهو يداعب دفتراً بيده الممتلئة.

ـ حسنٌ، كل شيء يجري مثلما هو متوقع ـ أكد النقيب سيلفا حين انتهى من القراءة. كان يبدو راضياً عن توقعه لكل ما يجري ـ. إنهم لا يسمحون بلي ذراعهم، كما هو متوقع. إصرارهم هذا سيكون سبب دمارهم، لقد قلت ذلك من قبل.

ـ أيجب عليّ أن أبدي السعادة إذاً؟ ـ سأله فيليثيتو ساخراً ـ لم يكتفوا بإحراق مكتبي، بل يلاحقوني بإرسال رسائل مغفلة، ويقدمون لي الآن إنذاراً لأسبوعين، ويهددونني بما هو أعظم من الحريق. أجيء إلى هنا فتقولون لي إن كل شيء يجري في مساره المتوقع. الحقيقة أنكم لم تتقدموا ميليمتراً واحداً في تحرياتكم بينما أبناء العاهرة هؤلاء يفعلون بي ما يحلو لهم.

ـ من يقول إننا لم نتقدم؟ ـ احتج النقيب سيلفا وهو يومئ بيديه ويرفع صوته ـ. لقد تقدمنا كثيراً. فحتى الآن توصلنا إلى استبعاد أن يكون هؤلاء من إحدى العصابات الثلاث المعروفة في بيورا بمطالبتها بإتاوات من التجار. ثم إن الرقيب ليتوما وجد شيئاً يمكن أن يكون طرف خيط جيداً.

قال ذلك بطريقة صدّقها فيليثيتو على الرغم من حسه الارتيابي.

ـ طرف خيط؟ حقاً؟ أين؟ ما هو؟

ـ مازال الوقت مبكراً لإطلاعك عليه. ولكن التوصل إلى شيء صغير يُعَدّ إنجازاً. ستعلم بالأمر فور تأكدنا من تحديده. صدقني يا سيد ياناكيه. إننا مستغرقان في قضيتك جسداً وروحاً. نكرس لها وقتاً أكثر من كل ما عداها. إنك أول أولوياتنا.

أخبرهما فيلثيتو أن ابنيه، بسبب قلقهما، اقترحا عليه أن يتعاقد مع حارس شخصي وأنه رفض ذلك. واقترحا عليه كذلك أن يشتري مسدساً. ما رأيكما؟

ـ لا أنصحك بذلك ـ أجابه النقيب سيلفا على الفور ـ. يجب حمل المسدس فقط عندما يكون المرء مستعداً لاستخدامه، ولا يبدو لي أن حضرتك قادر على قتل أحد. ستعرض نفسك للخطر دون فائدة يا سيد ياناكيه. والأمر لك في نهاية المطاف. وإذا كنت، بالرغم من نصيحتي،

تريد ترخيصاً بحمل سلاح، فسوف نسهِّل لك الإجراءات. خذ وقتاً للتفكير، إنني أنبهك. سيكون عليك أن تجتاز اختباراً سيكولوجياً. وباختصار، ناقش الأمر مع وسادتك.

وصل فيليثيتو إلى بيته بعد أن خيم الظلام وبدأت الجداجد تغني وضفادع الحديقة تنق. تناول على الفور طبقاً من مرق الدجاج، وسلطة، وهلاماً قدمته إليه ساتورنينا. وبينما هو متوجه إلى الصالة الصغيرة لمشاهدة الأخبار في التلفزيون، لاحظ أن تلك الهيئة الصامتة والمتحركة التي هي خيرترووديس تقترب منه. وكانت تحمل جريدة في يدها.

ـ المدينة بأسرها تتحدث عن هذا الإعلان الذي نشرته في *«التيمبو»*

ـ قالت امرأته وهي تجلس على المقعد المجاور لمقعده ـ حتى الكاهن، في قداس الصباح، أتى على ذكره في عظته. بيورا بأسرها قرأته. باستثنائي أنا.

ـ لم أشأ أن أسبب لكِ القلق، لهذا لم أقل لك شيئاً ـ اعتذر فيليثيتو ـ. ولكن هاهو معك. لماذا لم تقرئيه إذاً؟

لاحظ أنها تتململ في المقعد بضيق، وتشيح بصرها عنه.

ـ لقد نسيت ـ سمعها تقول من بين أسنانها ـ لأنني لا أقرأ أبداً، بسبب نظري، لم أعد أميز ما أقرأه. الحروف تتراقص أمام نظري.

ـ عليكِ أن تذهبي إلى طبيب العيون كي يفحص بصرك إذاً ـ نبهها ـ وكيف يمكن أن تكوني قد نسيت القراءة، لا أظن أن هذا يحدث لأحد يا خيرترووديس.

ـ ولكنه يحدث لي ـ قالت ـ أجل، سأذهب لفحص بصري في أحد هذه الأيام. ألا يمكنك أن تقرأ لي ما نشرته في *«التيمبو»*؟ طلبتُ ذلك من ساتورنينا ولكنها لا تعرف القراءة أيضاً.

قدمت إليه الجريدة، وبعد أن وضع فيليثيتو النظارة، قرأ:

السادة مبتزو العنكبوت:

على الرغم من أنكم أحرقتم مكتب ناريهوالا للنقل، الشركة التي أقمتها بالجهد الشريف طوال حياتي، فإنني أخبركم أمام الملأ بأني لن أدفع لكم الإتاوة التي تطلبونها لتوفروا لي الحماية. أفضّلُ أن تقتلوني قبل أن أفعل ذلك. لن تتلقوا مني سنتاً واحداً، لأني أرى أننا نحن الأشخاص الشرفاء، العاملون والمحترمون، يجب علينا ألا نخاف أمثالكم من قطاع الطرق واللصوص، وإنما علينا مواجهتهم بحزم إلى أن نرسلهم إلى السجن، حيث يستحقون أن يكونوا.

أقول هذا وعليه أوقّع:

فيليثيتو ياناكيه (وليس لي اسم عائلي من جهة الأم).

ظلت الحزمة الأنثوية ثابتة لبعض الوقت، تجتر ما انتهت من سماعه. وأخيراً دمدمت:

ـ صحيح ما قاله الكاهن في عظته إذاً. أنت رجل شجاع يا فيليثيتو. فليشملنا شفيعنا السيد الكاوتيبو برحمته. إذا ما خرجنا من هذه المحنة، سوف أذهب إلى أياباكا لأصلي له في عيده، في الثاني عشر من تشرين الأول/ أكتوبر القادم.

VI

ـ لا توجد أية قصة هذه الليلة يا ريغوبيرتو ـ قالت لوكريثيا عندما اضطجعا وأطفأا النور. وكان في صوت زوجته رنة قلق.

ـ وأنا أيضاً لستُ مستعداً للتخيلات هذه الليلة يا حبي.

ـ هل حصلتَ أخيراً على أخبار عنهما؟

هز ريغوبيرتو رأسه مؤكداً. فبعد سبعة أيام من زواج إسماعيل وآرميدا، أمضى هو ولوكريثيا الأسبوع كله في قلق، ينتظران ردّ فعل الضبعين على ما حدث. ولكن كل يوم كان ينقضي دون حدوث أي شيء. إلى أن حدث واتصل محامي إسماعيل، الدكتور كلاوديو أرنييّاس، بريغوبيرتو قبل يومين ليحذره. لقد تحرى التوءمان وتوصلا إلى أن مراسم الزواج المدني قد أقيمت في مقر عمدة تشوريبّوس، وصارا يعرفان بالتالي أنه أحد الشاهدين على الزواج. يجب أن يكون مستعداً، فقد يتصلان به في أي لحظة.

فعلا ذلك بعد بضع ساعات.

ـ طلب ميكي وإسكوبيتا موعداً، واضطررت إلى تحديد موعد لهما ـ ثم أضاف ـ سيأتيان غداً. لم أخبركِ بالأمر فوراً كيلا أمرمر يومك يا لوكريثيا. ستنقضُّ علينا المشكلة. آمل أن نخرج من هذا القضية وكل عظامنا سليمة على الأقل.

ـ أتدري يا ريغوبيرتو؟ لست مهتمة كثيراً بأمرهما، فنحن نعرف

مسبقاً أن هذا سيحدث. وكنا ننتظره، أليس صحيحاً؟ لا بد لنا من تجرع تلك الكأس المرة، لا مهرب ـ ثم غيَّرت زوجته الموضوع ـ زواج إسماعيل وهياج قاطعيّ الطريق لا يهمني مقدار ذرة الآن، فما يقلقني ويمنعني من النوم هو موضوع فونتشيتو.

ـ أهو ذلك الشخص مرة أخرى ـ ذُعر ريغوبيرتو ـ هل عادت إليه الرؤى؟

ـ لم تتوقف قطّ يا بني ـ ذكّرته لوكريثيا بصوت منكسر ـ. ما يحدث، على ما أعتقد، أن الصبي لم يعد يخبرنا شيئاً لأنه صار لا يثق بنا. وهذا هو أكثر ما يقلقني. ألا ترى كيف هي حال المسكين؟ إنه كئيب، ساه، منغلق على نفسه. لقد كان يخبرنا بكل شيء من قبل، ولكنني الآن أخشى من أنه يخفي الأمور عنا. ولهذا ينهشه الغم حياً. ألا تلاحظ ذلك؟ من كثرة تفكيرك في الضبعين، لم تلحظ كم تبدل ابنك خلال هذه الشهور. إذا لم نتصرف بسرعة، قد يصيبه مكروه، فنندم طيلة ما تبقى من حياتنا. ألا ترى ذلك؟

ـ إنني أراه جيداً ـ تقلب ريغوبيرتو تحت ملاءات الفراش ـ المسألة هي أنني لا أعرف ما الذي يمكننا عمله أكثر مما فعلناه. إذا كنتِ تعرفين، أخبريني به وسنفعله. أنا لم أعد أعرف المزيد. لقد أخذناه إلى أفضل طبيبة نفسية في ليما. وتحدثتُ مع أساتذته، وفي كل يوم أحاول تبادل الحديث معه وكسب ثقته من جديد. أخبريني ما الذي تريدينني أن أفعله وسأفعله. إنني قلق مثلكِ على فونتشيتو يا لوكريثيا. أتظنين أنني غير مهتم بأمر ابني؟

ـ أعرف، أعرف ـ وافقته ـ لقد خطر لي... في نهاية الأمر... لا أعرف... لا تضحك مني... إنني مشوشة جداً لما يحدث له، باختصار... حسن، إنها فكرة... لا شيء سوى مجرد فكرة.

ـ أخبريني بما يخطر لك وسنفعله يا لوكريثيا. أي شيء، وسأفعله، أقسم لكِ.

ـ لماذا لا نتحدث مع صديقك... الأب أودونوفان. أخيراً... لا تضحك، لستُ أدري.

ـ أتريدينني أن أذهب للتحدث مع كاهن في هذه القضية؟ ـ فوجئ ريغوبيرتو. وأطلق قهقهة قصيرة ـ لماذا؟ كي يُخرج الشياطين من فونتشيتو؟ أتأخذين مزحة الشيطان على محمل الجد؟

لقد بدأ ذلك منذ عدة شهور، ربما منذ سنة مضت، وبأشد الطرق ابتذالاً. خلال عشاء نهاية الأسبوع. روى فونتشيتو لأبيه وزوجة أبيه، كمن هو غير راغب، وكما لو أن الأمر ليس مهماً، عن لقائه الأول مع ذلك الشخص.

ـ أنا أعرف ما اسمك ـ قال له ذلك السيد مبتسماً بلطف من المنضدة الجانبية ـ اسمك إبليس.

ظل الصبي ينظر إليه متفاجئاً، دون أن يدري ما يمكنه أن يقول. كان يتناول زجاجة إنكاكولا من فم القارورة مباشرة، وحقيبته المدرسية على ركبتيه، وقد انتبه في تلك اللحظة إلى حضور ذلك السيد في المقهى الصغير المنعزل في متنزه بارانكو، غير بعيد عن البيت. كان سيداً ذا صدغين فضيين، وعينين باسمتين، نحيلاً جداً، يلبس بتواضع، ولكن بتناسق شديد. فهو يرتدي كنزة بنفسجية تتخللها أشكال مُعينات بيضاء، تحت سترة رمادية. وكان يتناول فنجان قهوة في رشفات صغيرة.

ـ لقد منعتك منعاً حاسماً من التكلم مع الغرباء في الشارع يا فونتشيتو ـ ذكّره دون ريغوبيرتو ـ. هل نسيت ذلك؟

– اسمي ألفونسو، وليس إبليس، أجابه، وأصدقائي ينادونني فونتشو.

ـ أبوكَ يقول لك هذا من أجل مصلحتك يا صغيري ـ تدخلتْ زوجة أبيه ـ. فلا أحد يدري أبداً من هم أولئك الأشخاص الذين يتقربون للتحدث مع التلاميذ عند أبواب المدارس.

ـ إما أنهم يبيعون مخدرات، أو أنهم خاطفون أو مغتصبو قاصرين. لهذا يجب عليك أن تتوخي الحذر.

ـ يجب أن تغير اسمك إلى إبليس إذاً ـ ابتسم له ذلك السيد. وكان صوته البطيء والمهذب ينطق كل كلمة بدقة أستاذ في النحو. وجهه الطويل وبارز العظام يبدو أنه قد حُلق للتو. «أقسم لك إنه كان يبدو شخصاً شديد الاستقامة يا بابا» ـ. أتعرف ما الذي يعنيه إبليس؟

نفى فونتشيتو بحركة من رأسه. «إبليس، أقال لك هذا؟»، أبدى ريغوبيرتو اهتماماً. «أقلتَ إبليس؟».

ـ إنه من يحمل النور، حامل النور ـ أوضح ذلك السيد بهدوء. «كان يتكلم كما في كاميرا بطيئة يا بابا» ـ. وهذا يعني أنك فتى وسيم جداً. عندما تكبر، ستجن بك جميع فتيات ليما. ألم يعلموك في المدرسة من هو إبليس؟

ـ إنني أراه يقترب، وأتخيل جيداً ما الذي يسعى إليه ـ دمدم دون ريغوبيرتو وهو يولي الآن اهتماماً كبيراً لما يقوله ابنه.

عاد فونتشيتو إلى النفي بحركة من رأسه.

ـ كنتُ أعرف أنه عليّ الذهاب بأسرع ما يمكن، إنني أتذكر جيداً كم من المرات قلتَ لي إنه علينا عدم تبادل الأحاديث مع مجهولين، مثل هذا السيد الذي حاول تعليمي يا بابا ـ أوضح مومئاً بيديه ـ ولكن، ولكن، أقول لك، كان فيه شيء، في أساليبه، في طريقته بالكلام، لا يبدو معه أنه شخص سيئ. ثم إن الفضول لسعني. في المدرسة ماركهام لم يحدثونا، على ما أذكر، عن إبليس.

ـ لقد كان أجمل الملائكة، الملاك المفضل لدى الرب هناك في الأعالي ـ لم يكن يمزح، كان يتكلم بجدية تامة، مع ظل ابتسامةٍ حانية في وجهه جيد الحلاقة؛ ويشير بإصبعه إلى السماء ـ ولكن إبليس، لمعرفته أنه باهر الجمال، تكبر، ارتكب خطيئة التكبر. أحس أنه مثل الرب، وليس أقل من ذلك. تصور. عندئذ عاقبه الرب، وتحول من ملاك النور ليصبح أمير الظلمات. هكذا بدأ كل شيء: التاريخ... ظهور الزمن والشر... الحياة البشرية.

ـ لم يكن يبدو كاهناً يا بابا، ولا واحداً من أولئك المبشرين الإنجيليين الذين يوزعون مجلات دينية متنقلين من بيت إلى بيت. وقد سألته: «هل أنت أبٌ أيها السيد». «لا، لا، كيف أكون كاهناً يا فونتشيتو، لا أدري لماذا يخطر لك مثل هذا الخاطر». وانفجر ضاحكاً.

ـ لقد كان تهوراً منك التحدث معه، قد يكون لحق بك حتى هنا ـ أنبته دونيا لوكريثيا وهي تداعب جبهته ـ عليك أن تعدني بألا تفعل ذلك أبداً، أبداً يا صغيري.

ـ يجب أن أذهب أيها السيد ـ قال فونتشيتو وهو ينهض ـ إنهم ينتظرونني في البيت.

لم يحاول السيد استبقاءه. ابتسم له بطريقة أكثر انفتاحاً، على سبيل الوداع، وانحنى له باحترام، ولوح بيده.

ـ أنت تعرف جيداً من يكون، أليس كذلك؟ ـ كرر ريغوبيرتو ـ إنه منحرف. مُغَرر بالقاصرين. أظن أنك تعرف ما الذي يعنيه هذا، لستُ بحاجة لأن أشرح لك ما يعنيه. لقد كان يستدرجك طبعاً. لوكريثيا على حق. فقد أسأتَ التصرف بالرد عليه. كان عليك أن تغادر فور بدئه الكلام معك.

ـ لم يبدُ لي أنه شاذ يا بابا ـ طمأنه فونتشيتو ـ أقسم لك. فالشاذون

الذين يمضون بحثاً عن الصبيان أعرفُهم فوراً، من طريقتهم في النظر. حتى قبل أن يفحوا فمهم، أقول لك بجد. ولأنهم يحاولون دوماً تحسسي. هذا كان مختلفاً تماماً، إنه رجل مؤدب، مهذب جداً. لا يبدو أن لديه نوايا سيئة حقاً.

ـ هؤلاء هم الأسوأ يا فونتشيتو ـ أكدت له دونيا لوكريثيا بذعر صريح ـ من يبدون أشبه بذبابة ميتة، من لا يبدو عليهم، ولكنهم كذلك.

ـ قل لي يا بابا ـ غيّر فونتشيتو الموضوع ـ ذلك الكلام الذي أخبرني به السيد عن الملاك إبليس، أهو صحيح؟

ـ حسنٌ، هذا ما يقوله الكتاب المقدس ـ تردد دون ريغوبيرتو ـ. إنه صحيح في نظر المؤمنين على أي حال. من الغريب أنهم في مدرسة ماركهام لا يجعلونكم تقرؤون الكتاب المقدس، كثقافة عامة على الأقل. ولكن دعنا لا نخرج عن الموضوع. أكرر لك مرة أخرى يا بني. ممنوع منعاً باتاً أن تَقبَل أخذ أي شيء من غرباء. لا دعوات، ولا أحاديث، ولا أي شيء. لقد فهمتَ ما أقوله، أليس كذلك؟ أم أنك تريد أن أمنعك من الخروج إلى الشارع بتاتاً؟

ـ لقد كبرتُ على هذا يا بابا. لقد صار عمري خمس عشرة سنة، أرجوك.

ـ أجل، لقد صرتَ بعمر نوح ـ ضحكت دونيا لوكريثيا. ولكن ريغوبيرتو سمعها تتنهد على الفور في الظلام ـ لو أننا عرفنا إلى أين سيؤدي ذلك الموضوع كله. يا للكابوس، رباه. إنه مستمر منذ سنة على ما أُقدِّر.

ـ سنةٌ أو أكثر قليلاً يا حبي.

لقد نسي ريغوبيرتو تقريباً حادثة الغريب الذي تكلم مع فونتشيتو عن إبليس، في مقهى متنزه بارانكو. ولكنه بدأ يتذكره ويقلق بعد أسبوع

من ذلك، عندما رجع ابنه، حسب ما قال له ــ للعب مباراة كرة قدم في مدرسة سان أغوسطين، وعاد ذلك السيد للظهور.

ـ كنتُ خارجاً بعد أن أخذت دوشاً في حمامات سان أغوسطين، وكنت ذاهباً للقاء تشاتو بيثولو كي نركب معاً الحافلة إلى بارانكو. وحتى لو كنتَ لا تصدق، كان هو هناك يا بابا. إنه السيد نفسه. هو بالذات.

ـ مرحباً يا إبليس ـ حياه السيد بالابتسامة الودودة كما في المرة السابقة ـ هل تتذكرني؟

كان جالساً في البهو الفاصل بين ملعب كرة القدم وبوابة مدرسة سان أغوسطين. ومن خلفه يظهر الأفعوان الطويل الذي تشكله السيارات والشاحنات والحافلات المتقدمة من جادة خابير برادو. وكانت بعض السيارات تضيئ مصابيحها.

ـ أجل، أجل أتذكرك ـ قال فونتشيتو وهو ينهض. وقال له بنبرة حاسمة: ـ بابا منعني من التحدث إلى غرباء، اعذرني.

ـ لقد أحسن ريغوبيرتو صنعاً ـ قال السيد وهو يهز رأسه. وكان يلبس السترة الرمادية نفسها التي في المرة السابقة، ولكن الكنزة البنفسجية كانت واحدة أخرى، من دون الأشكال المعينية البيضاء ـ ليما تغص بالناس الأشرار. هنالك منحرفون ومنحطون في كل مكان. والصغار المهذبون من أمثالك هم هدفهم المفضل.

فتح دون ريغوبيرتو عينيه على اتساعهما:

ـ ذكر اسمي أنا؟ أقال لك إنه يعرفني؟

ـ وهل تعرف أبي أيها السيد؟

ـ وأعرف أيضاً إلويسا، أمك ـ أكد السيد مبدياً الجدية ـ وأعرف كذلك لوكريثيا، زوجة أبيك. لا يمكنني القول إننا أصدقاء، لأننا لم

نلتق إلا نادراً. ولكنني أعجبتُ بكليهما، ومنذ أن رأيتهما أول مرة بديا لي ثنائياً رائعاً. يسعدني أن أعلم أنهما يهتمان بك كثيراً ويقلقان عليك. فصبي في مثل جمالك لن يكون آمناً في سدوم وعمورة التي صارت إليها مدينة ليما.

ـ أيمكنك أن تخبرني ما تعنيه سدوم وعمورة هذه يا بابا؟ سأل فونتشيتو ولمح ريغوبيرتو في عينيه بريقاً ضئيلاً من الخبث.

ـ إنهما مدينتان قديمتان، فاسدتان جداً، ولأنهما كذلك أبادهما الله ـ أجاب ساهماً ـ. هذا ما يؤمن به المؤمنون على الأقل. عليك أن تقرأ الكتاب المقدس قليلاً يا بني. كثقافة عامة. العهد الجديد على الأقل. فالعالم الذي نعيش فيه يغص بالإشارات التوراتية وإذا لم تفهمها ستعيش في بلبلة وجهل كاملين. لن تفهم، مثلاً، أي شيء من الفن الكلاسيكي، ومن التاريخ القديم. أأنت متأكد من أن ذلك الشخص قال لك إنه يعرف لوكريثيا ويعرفني؟

ـ وقال إنه عرف أمي أيضاً ـ حدد فونتشيتو ـ. حتى إنه أخبرني باسمها: إلويسا. وكان يقول ذلك بطريقة من المحال معها عدم تصديق أن ما يقوله هو الحقيقة يا بابا.

ـ أقال لك ما هو اسمه؟

ـ حسنٌ، لم يقل هذا ـ ارتبك فونتشيتو ـ. لم أسأله ولم أُتح له الوقت حتى لأن يقوله لي. بما أنك أمرتني بألا أتكلم ولو كلمة واحدة معه. فقد هربتُ راكضاً. ولكن من المؤكد أنه يعرفك، أنه يعرفكما. وإلا لما كان أخبرني باسمك، ولما كان يعرف اسم أمي، وأن زوجة أبي تدعى لوكريثيا.

ـ إذا ما صادف والتقيت به مرة أخرى، لا تنسَ أن تسأله عن اسمه ـ قال ريغوبيرتو، وهو يمعن النظر في الصبي بعدم ثقة: أهذا الذي يرويه

لهما صحيح أم إنه اختلاق آخر من اختلاقاته؟ ـ ولكن دون أن تتوقف لتبادل الحديث معه، وأقل من ذلك أن تقبل منه كوكاكولا أو أي شيء آخر يعرضه عليك. ففي كل مرة أزداد قناعة بأنه واحد من أولئك المنحطين الذين يمضون طلقاء في ليما بحثاً عن فتية صغار. وإلا ما الذي يفعله في مدرسة سان أغوسطين.

ـ أتريد أن أخبرك أمراً يا ريغوبيرتو؟ ـ قالت له دونيا لوكريثيا وهي تلتصق به في الظلام، كما لو أنها تقرأ أفكاره ـ. في بعض الأحيان أفكر في أن هذا كله من اختلاقه. إنه أمر نموذجي في فونتشيتو وتخيلاته. لقد فعل بنا مثل هذه الظرافات من قبل، أليس كذلك؟ وأقول لنفسي إنه يجب عدم القلق، وأن ذلك السيد لا وجود له ولا يمكن أن يكون له وجود. وأنه اختلقه كي يضفي اهتماماً على نفسه ويقلقنا ويجعلنا نتعلق به. لكن المشكلة أن فونتشيتو مخادع عظيم. لأنه حين يروي حكاياته، يبدو لي أنه من المحال أن يكون ما يقوله غير صحيح. إنه يتكلم بطريقة بالغة الحقيقية، بالغة البراءة، بالغة الإقناع. وباختصار، لست أدري. ألا تفكر في مثل هذا أيضاً؟

ـ بلى بالطبع، مثلما يحدث لك ـ اعترف ريغوبيرتو وهو يحتضن امرأته متدفئاً بجسدها ومدفئاً إياه ـ. إنه مخادع عظيم، بكل تأكيد. أرجو أن يكون قد اختلق كل هذه القصة يا لوكريثيا، أرجو ذلك، أرجو. في البدء كنت آخذ الأمر بخفة، ولكن تلك الرؤى بدأت تسيطر على تفكيري. أجلس لأقرأ فيلهيني التفكير في ذلك الشخص، أحاول سماع موسيقى فأجده هناك، أريد رؤية لوحاتي، فيكون ما أراه وجهه، وهو ليس وجهاً وإنما علامة استفهام.

ـ الحقيقة أنه لا يمكن لأحد أن يمل أبداً مع فونتشيتو ـ حاولت لوكريثيا أن تمزح ـ. فلنحاول النوم قليلاً. لا أريد قضاء الليل ساهرة مرة أخرى.

مضت أيام عديدة دون أن يعود الصبي للتحدث إليهما عن الرجل المجهول. بدأ ريغوبيرتو يفكر في أن لوكريثيا على حق. وأن كل ذلك كان تخيلاً من ابنه ليضفي أهمية على نفسه ويحظى باهتمامها. إلى أن جاء ذلك المساء الشتائي شديد البرودة والرذاذ، واستقبلته لوكريثيا بملامح أثارت فزعه.

ـ لماذا هذا الوجه ـ قبّلها ريغوبيرتو ـ. أبسبب تقاعدي المبكر؟ أترين أنها فكرة سيئة؟ أترتعبين من رؤيتي طيلة اليوم هنا في البيت؟

ـ إنه فونتشيتو ـ أشارت لوكريثيا إلى الطابق السفلي حيث غرفة الطفل ـ جرى له شيء في المدرسة ولم يرد أن يخبرني. لقد لاحظتُ ذلك فور دخوله. جاء شاحباً جداً، ومرتجفاً. ظننت أنه محموم. وضعت له ميزان الحرارة، لم تكن ثمة حرارة مرتفعة. كان كالذاهل، مرعوباً ويكاد لا يستطيع الكلام. «لا، لا، لا أعاني شيئاً يا خالتي». يكاد صوته لا يخرج منه. اذهب وانظر ما به يا ريغوبيرتو، إنه منزوٍ في حجرته. فليخبرك بما حدث له. ربما علينا استدعاء الطوارئ الطبية، لم يرق لي الوجه الذي هو عليه.

«إنه الشيطان مرة أخرى»، فكر ريغوبيرتو. ونزل الدرج مسرعاً نحو الطابق السفلي من الشقة. وبالفعل، كان السبب هو ذلك الشخص مرة أخرى. قاوم فونتشيتو قليلاً في البداية ـ «لماذا سأخبرك مادمت لن تصدقني يا بابا» ـ، ولكنه استسلم أخيراً لمبررات أبيه العقلانية. «من الأفضل أن تُخرج ما لديك وتشاركني به يا صغيري. سيُشعرك إخباري بما لديك بالتحسن، سوف ترى». كان ابنه شاحباً بالفعل وفاقداً تلقائيته. يتكلم كما لو أن الكلمات تُملى عليه، أو كما لو أنه سينفجر في أي لحظة بالبكاء. لم يقاطعه ريغوبيرتو ولو مرة واحدة؛ استمع إليه دون أن يتحرك، مركّزاً بالكامل على ما يسمعه.

حدث ذلك خلال استراحة الثلاثين دقيقة في مدرسة ماركهام، عند العصر، قبل موعد الدروس اليومية الأخيرة. فبدلاً من الذهاب للعب في ملعب كرة القدم، حيث كان زملاؤه يتقاذفون كرة، أو يتبادلون الحديث مستلقين على العشب، جلس فونتشيتو في أحد أركان المدرجات الخاوية ليراجع درس الرياضيات الأخير، وهي المادة التي تسبب له أكبر وجع رأس. وكان قد بدأ الغوص في معادلة معقدة، ذات تفرعات وجذور تكعيبية، عندما حدث شيء ـ «أشبه بالحاسة السادسة يا بابا» ـ جعله يشعر بأنه مُرَاقب. رفع بصره وهناك كان السيد جالساً أيضاً، على مقربة منه، على المدرج المقفر. يلبس بالدقة والبساطة المعهودة، مع ربطة عنق وكنزة بنفسجية تحت سترته الرمادية. وكان يحمل حافظة وثائق تحت إبطه.

ـ مرحباً يا فونتشيتو ـ قال له مبتسماً بصورة طبيعية، كما لو أنهما صديقان قديمان ـ. أنت تدرس، بينما زملاؤك يلعبون. إنك تلميذ نموذجي، وهذا تصوري عنك. مثلما يجب أن تكون.

ـ متى جاء وصعد المدرج؟ ما الذي يفعله هناك ذلك السيد؟ الحقيقة أنني أخذت أرتجف دون أن أدري السبب يا بابا ـ ازداد شحوب ابنه قليلاً وبدا مشوشاً.

ـ هل حضرتك أستاذ في المدرسة أيها السيد؟ ـ سأله فونتشيتو مرعوباً، دون أن يدري سبب رعبه.

ـ أستاذ، لا، لستُ أستاذاً ـ أجابه، ودوماً بذلك الهدوء وتلك الأساليب بالغة التمدن التي لا تغادره ـ إنني أمد يد المساعدة بين حين وآخر لمدرسة ماركهام في مسائل عملية. أقدم للمدير نصائح من النوع الإداري. وأحب المجيء إلى هنا حين يكون الجو جيداً، لرؤيتكم أنتم التلاميذ. إنكم تذكرونني بأيام شبابي، وتُشعرونني باستعادة الشباب

بطريقة ما. ولكن مسألة الجو الجيد لم تعد نافعة. يا للأسف، فقد بدأ الرذاذ يهطل.

ـ أبي يريد أن يعرف ما هو اسم حضرتك أيها السيد ـ قال فونتشيتو، وقد فوجئ بأنه يتكلف مشقة كبيرة في الكلام، وبأن صوته يرتعش بقوة ـ لأن حضرتك تعرفه، أليس كذلك؟ وأنت تعرف خالتي أيضاً، أليس صحيحاً؟

ـ اسمي إديلبيرتو توريس، ولكن لا يمكن لريغوبيرتو أن يتذكرني، ولا لوكريثيا كذلك، لأننا تعارفنا بصورة عابرة جداً. أوضح السيد بقلة كلامه المعهودة. ولكنه اليوم، وخلافاً لمرات أخرى، بدل أن يطمئن فوتشيتو بابتسامته المهذبة تلك، وعينيه اللطيفتين والنفاذتين، جعله يشعر بالريبة.

لاحظ ريغوبيرتو أن صوت ابنه يتقطع. وأن أسنانه تصطك.

ـ اهدأ يا صغيري، لسنا في عجلة من أمرنا. أتشعر بأنك لست على ما يرام؟ أتريد أن آتيك بكاس ماء؟ أترغب في مواصلة رواية هذه القصة لي في ما بعد، أو غداً؟

نفى فونتشيتو بحركة من رأسه. كانت الكلمات تخرج منه بصعوبة، كما لو أن لسانه مخدر.

ـ أعرف أنك لن تصدق ما أقوله يا بابا، ولكن... ولكن، حدث عندئذ أمر غريب جداً.

أشاح ببصره عن أبيه وصوبه إلى الأرض. كان يجلس على حافة السرير، وهو لا يزال مرتدياً الزي المدرسي، وشبه منكمش على نفسه، وبملامح ذاهلة. أحس دون ريغوبيرتو بموجة من الحنان والشفقة على الصغير. بدا واضحاً أنه يعاني. ولم يكن يدري كيف يساعده.

ـ إذا ما قلت لي إنه كلام صحيح وحقيقي، سأصدقك ـ قال له وهو

يمر بيده على شعره في مداعبة ليست كثيرة التواتر لديه ـ أنا أعرف جيداً أنك لم تكذب عليّ قطّ، وأنك لن تبدأ بفعل ذلك الآن يا فونتشيتو.

دون ريغوبيرتو الذي كان واقفاً، جلس الآن على كرسي مكتب ابنه. كان يرى الجهد الذي يبذله هذا الأخير ليتكلم، ويضايقه أنه ينظر إلى الجدار، يجوب بنظره الكتب التي على الرف، متجنباً النظر إلى عينيه. وأخيراً استجمع قواه واستطاع مواصلة الكلام:

ـ وهكذا، بينما أنا أتحدث إلى السيد، جاء تشاتو بيثولو، صديقي الذي تعرفه، جاء راكضاً. وكان يصرخ:

ـ ماذا جرى لك يا فونتشيتو! لقد انتهت الفسحة، الجميع يعودون إلى الدروس. أسرع يا رجل.

نهض فونتشيتو واقفاً بقفزة واحدة.

ـ المعذرة، يجب أن أذهب، لقد انتهت الفسحة ـ ودّع السيد إديلبيرتو توريس واندفع راكضاً نحو صديقه.

ـ استقبلني تشاتو بيثولو وهو يتصنع تكشيرات ويتلمس رأسه كما لو أن برغياً ينقصني يا بابا.

ـ هل أنت مجنون أم ماذا يا صاحبي فونتشيتو؟ ـ سأله صديقه بينما هما يركضان نحو مبنى قاعات الدرس ـ أيمكنني أن أعرف أية لعنة كنت تودّع؟

ـ لا أعرف من يكون ذلك الشخص ـ أوضح له فونتشيتو لاهثاً ـ يدعى إديلبيرتو توريس ويقول إنه يساعد مدير المدرسة في أمور عملية. هل رأيته أنت هنا ذات يوم من قبل؟

ـ ولكن عن أي شخص تتكلم أيها الأبله ـ هتف تشاتو بيثولو لاهثاً وهو يتوقف عن الركض. والتفت ناظراً إليه ـ ولكنك لم تكن مع أحد.

كنتَ تتكلم مع الفراغ، مثل من في رأسهم خلل. ألا تكون قد جننت يا صاحبي؟

كانا قد وصلا إلى قاعة الدرس، ولم يعودا قادرين من هناك على رؤية ملعب كرة القدم.

ـ ألم تره أنت؟ ـ أمسكه فونتشيتو من ذراعه ـ. ألم ترَ ذلك السيد ذا الشيب، والسترة وربطة العنق والكنزة البنفسجية، جالساً هناك، بجانبي؟ أقسم لي بأنك لم تره يا تشاتو.

ـ لا تزعجني أكثر ـ ورفع تشاتو بيثولو إصبعه إلى صدغه مرة أخرى ـ أنت مجنون تماماً، لم يكن هناك أحد سواك. إما أن تكون مجنوناً أو أنك ترى رؤى. لا تزعجني يا ألفونسو. أنت تريد الخداع، أليس كذلك؟ أؤكد لك أنك لن تستطيع خداعي.

ـ كنتُ أعرف أنك لن تصدقني يا بابا ـ همس فوتشيتو وهو يتنهد. توقف عن الكلام قليلاً ثم أكد: ـ ولكنني أعرف جيداً ما أراه وما لا أراه. ويمكنك أن تكون واثقاً كذلك من أنني لم أتحول إلى مجنون. فهذا الذي أُخبرك به هو ما حدث. وقد حدث هكذا بالضبط.

ـ حسنٌ، حسن ـ حاول ريغوبيرتو تهدئته ـ. ربما يكون صديقك بيثولو هو من لم يرَ المدعو إديلبيرتو توريس. قد يكون واقفاً في زاوية ميتة، أو أن عائقاً حجب عنه الرؤية. لا تُقلِّب هذا الأمر أكثر. يمكن أن يكون هناك أي تفسير آخر؟ صديقك تشاتو لم يتمكن من رؤيته، وهذا هو كل شيء. لن نبدأ بالاعتقاد بوجود أشباح في هذا المستوى من الحياة، أليس صحيحاً يا بني؟ انس هذا كله، وبخاصة إديلبيرتو توريس. فلنقل إنه لم يوجد قطّ. إنه قد مضى وراح، مثلما تقولون أنتم في هذه الأيام.

ـ إنها واحدة أخرى من تخيلات هذا الطفل المحمومة ـ علقت دونيا

لوكريثيا في ما بعد ـ لن يتوقف أبداً عن مفاجأتنا. بأن هنالك شخصاً يظهر له ولا يراه أحد سواه، هناك في ملعب الكرة بالمدرسة. رباه، يا لرأسه الصغير المتجاوز لكل الحدود!

ولكنها هي نفسها من حثت ديغوبيرتو بعد ذلك على الذهاب إلى مدرسة ماركهام، دون علم فونتشيتو، للتحدث مع مستر ماكفيرسون، المدير. وقد جعلت تلك المحادثة ريغوبيرتو يمر بوقت عصيب.

ـ طبعاً، إنه لم يسمع حتى باسم إديلبيرتو توريس ـ أخبر لوكريثيا، مع حلول الليل، وهو الوقت الذي يتبادلان الحديث فيه عادة ـ وفوق ذلك، ومثلما هو متوقع، سخر مني ذلك الغرينغو على هواه. فمن المحال بالمطلق أن يكون شخص غريب قد دخل إلى المدرسة، وأصعب من ذلك أن يصل إلى ملعب كرة القدم. فمن غير المسموح لمن هو غير أستاذ أو موظف أن يضع قدميه هناك. ويعتقد مستر ماكفيرسون أيضاً أن الأمر برمته لا يعدو أن يكون واحدة من تلك التخيلات التي يميل إليها الصبية الأذكياء والحساسون. وقال لي إنه يجب عدم إيلاء أدنى اهتمام للقضية. وإنه من الطبيعي في من هم بمثل عمر ابنك أن يروا شبحاً، بين حين وآخر، اللهم إلا إذا كان الصبي مجنوناً. وقد اتفقنا ألا يتحدث أي منا مع فونتشيتو بشيء عن الحديث الذي دار بيننا. ويبدو لي أنه على حق. لا مسوغ لمواصلة مجاراته في موضوع لا أساس له ولا رأس.

ـ تصور أن يكون للشيطان وجود، وأنه بيرويٌّ ويدعى إديلبيرتو توريس ـ ضحكتْ لوكريثيا فجأة. ولكن ريغوبيرتو انتبه إلى أنها ضحكة عصبية.

كانا مضطجعين وبدا واضحاً أنه لن تكون هناك، في ذلك الوقت من الليل، لا قصص ولا تخيلات، وأنهما لن يمارسا الحب. وهو ما صار

يحدث لهما بكثرة في الفترة الأخيرة. فبدلاً من أن يخلتقا قصصاً تهيجهما، صارا يتبادلان الحديث وكثيراً ما يستغرقان فيه طويلاً بحيث يأخذ الوقت بالانقضاء إلى أن يتغلب عليهما النعاس.

ـ أخشى ألا يكون الأمر مضحكاً وحسب ـ تراجعت هي نفسها عن كلامها بعد لحظة، وأبدت الجدّ من جديد ـ. فهذه المسألة تتخذ أبعاداً أكبر يا ريغوبيرتو. علينا أن نفعل شيئاً. لا أدري ماهو، ولكن يجب أن نفعل شيئاً ما. لا يمكننا أن نشيح بوجهينا وكأن شيئاً لا يحدث.

ـ أنا متأكد، الآن على الأقل، من أنها تخيلات، وهو أمر معهود لديه ـ فكّر ريغوبيرتو ـ. ولكن، ما الذي يسعى إليه من هذه الحكايات؟ هذه الأمور ليست مجانية، بل لها خلفية، لها جذور في اللاوعي.

ـ إنني أراه أحياناً شديد الصمت، فأموت حزناً عليه يا حبي. أشعر أن الصغير يتعذب بصمت فتنشطر روحي. لم يعد يروي لنا رؤاه، لأنه يعرف أننا لا نصدقها. وهذا يزيد الوضع سوءاً.

ـ يمكن أن تكون لديه رؤى، تهيؤات ـ شرد دون ريغوبيرتو ـ. وهذا يحدث للناس الطبيعيين، المتيقظين منهم والبلهاء. ربما يظن أنه يرى ما لا يراه، يرى ما هو في ذهنه وحسب.

ـ أجل بالطبع، من المؤكد أنها اختلاقات ـ استخلصت دونيا لوكريثيا ـ. من المفترض أنه لا وجود للشيطان. أنا كنت أؤمن بوجوده حين تعرّفتُ إليك يا ريغوبيرتو. كنت أؤمن بوجود الرب والشيطان، مثلما تؤمن كل أسرة كاثوليكية عادية. أنت أقنعتني بأنها شعوذات، بلاهات أناس جهلة. وتبين الآن أن من لا وجود له قد دخل أسرتنا، ما رأيك.

أطلقتْ ضحكة عصبية أخرى وصمتت على الفور. رآها ريغوبيرتو هادئة وساهمة.

ـ من أجل أن أكون صريحاً معكِ، لا أدري إن كان موجوداً أم لا ـ وافقها ـ الشيء الوحيد الذي أنا متأكد منه الآن هو ما قلتِه أنت. يمكن أن يكون موجوداً، هذا هو الحد الذي يمكنني الوصول إليه. ولكنني لا أستطيع تقبل أن يكون بيروياً، وأن اسمه إديلبيرتو توريس ويقضي وقته في التجول وراء تلاميذ مدرسة ماركهام. لا تزعجيني بهذا إذاً.

قلَّبا الأمر كثيراً، وأخيراً قررا أن يأخذا فونتشيتو إلى طبيب نفسي كي يقيّم حالته. قاما بالتحري والاستفسار من أصدقائهما. وذكر لهما الجميع الدكتورة أغوسطا ديلميرا ثيسبديس. فقد درست في فرنسا، وهي متخصصة بعلم النفس الطفلي، ومن أوكلوا إليها أمر أبنائهم أو بناتهم الذين لديهم مشاكل، كانوا يتكلمون بأعاجيب عن علمها، وعن مهارتها. خشيا أن يعارض فونتشيتو ذلك، واتخذا ألف احتياط كي يعرضا عليه الموضوع بترو. وكانت مفاجأتهما أن الصبي لم يبدِ أي اعتراض. وافق على لقائها، وذهب عدة مرات إلى عيادتها، وقام بكل الاختبارات التي أخضعته لها الدكتورة ثيسبيديس وتحدث معها بأفضل ما في العالم من قابلية. ذهب ريغوبيرتو ولوكريثيا إلى عيادتها، فاستقبلتهما الدكتورة بابتسامة مطمئنة. إنها مرأة تقارب الستين من العمر، ممتلئة بعض الشيء، رشيقة، لطيفة ومحدثة ممتعة:

ـ فونتشيتو أكثر طفل طبيعي في العالم ـ أكدت لهما ـ. المحزن أنه فاتن إلى حدّ كنت أرغب معه في أن أستبقيه تحت رعايتي لمزيد من الوقت. لقد كانت كل جلسة معه متعة بذاتها. إنه ذكي، حساس، ولهذا السبب بالذات يشعر في بعض الأحيان بأنه ناء عن أترابه. ولكنه بكل تأكيد طبيعي بصورة لا تحتمل المزيد. وإذا كان هنالك أمر يجب عليكما أن تكونا متأكدين منه بالكامل، فهو أن إديلبيرتو توريس ليس شبحاً، بل شخص من عظم ولحم. واقعي ومحدد بقدر ما أنتما وأنا

واقعيون ومحددون. فونتشيتو لم يكذب عليكما. أجل، ربما يكون قد زين الأمور قليلاً. فمن أجل هذا تنفعه المخيلة الخصبة التي يمتلكها. وهو لم يأخذ تلك اللقاءات مع ذلك السيد قطّ على أنها رؤى سماوية أو شيطانية. أبداً، بالمطلق! يا للبلاهة. إنه طفل راسخ القدمين جيداً على الأرض، ورأسه مستقر تماماً في مكانه. أنتما من اختلقتما ذلك كله، ومن تحتاجان بالتالي لطبيب نفساني. هل أحدد لكما موعداً؟ أنا لا أعالج الأطفال فقط، بل البالغين أيضاً ممن يبدؤون في التفكير فجأة بأن الشيطان موجود وأنه يضيع وقته في التجول في شوارع ليما وبارانكو وميرافلوريس.

واصلت الدكتورة ثيسبيديس مزاحها بينما هي ترافقهما حتى الباب. وعند الوداع طلبت من ريغوبيرتو أن يريها ذات يوم مجموعته من اللوحات الإيروتيكية. «لقد قال لي فونتشيتو إنها مجموعة رائعة»، وكانت هذه مزحتها الأخيرة. خرج ريغوبيرتو ولوكريثيا من العيادة غارقين في بحر من التشوش.

ـ قلتُ لكِ إن اللجوء إلى طبيب نفساني أمر شديد الخطورة ـ ذكَّرَ ريغوبيرتو لوكريثيا ـ. لا أدري في أية ساعة نحس استجبتُ لطلبك. يمكن للطبيب النفسي أن يكون أكثر خطراً من الشيطان نفسه، لقد عرفتُ ذلك مذ قرأت فرويد.

ـ لك ما تشاء إن كنت تريد أخذ هذه القضية على محمل المزاح، مثلما تفعل الدكتورة ثيسبيديس ـ دافعت لوكريثيا عن نفسها ـ. وأرجو ألا تندم على ذلك.

ـ أنا لا آخذ الأمر على محمل المزاح ـ أجابها، وكان يتكلم بجد الآن ـ. لقد كان من الأفضل الإيمان بأن إديلبيرتو توريس لا وجود له. أما إذا كان هذا الشخص موجوداً ويلاحق فونتشيتو، فأخبريني أية شياطين يمكننا أن نفعلها الآن.

لم يفعلا شيئاً، وخلال وقت لا بأس به لم يعد الصبي إلى الحديث في الموضوع. واصل حياته العادية، يذهب إلى المدرسة ويعود منها في المواعيد المعتادة، وينزوي في غرفته لساعة وفي بعض الأحيان لساعتين، في المساء، من أجل إنجاز واجباته المدرسية، ويخرج في عطلة نهاية الأسبوع أحياناً مع تشاتو بيثولو. ويذهب أيضاً في أحيان أخرى، وإن يكن بدفع من دون ريغوبيرتو ودونيا لوكريثيا، مع فتية آخرين إلى السينما، أو إلى إستاد كرة القدم، أو للعب الكرة، أو إلى حفلة ما. ولكن ريغوبيرتو ولوكريثيا كانا يتفقان في أحاديثهما الليلية على أن الصغير لم يعد هو نفسه، وإن كان يُظهر أنه في حالة طبيعية.

ما الذي تغيَّر فيه؟ لم يكن من السهل قول ذلك، ولكنهما متأكدان من أنه لم يعد هو نفسه. ومن أن التبدل الذي طرأ عليه عميق جداً. أهي مشكلة السن؟ ذلك التحول الصعب بين الطفولة والمراهقة، حيث يتبدل صوته في الوقت نفسه، فيصبح خشناً، ويبدأ بالظهور في وجهه زغب يشي بلحية مستقبلية، ويأخذ الطفل بالإحساس بأنه لم يعد طفلاً، ولكنه لم يصبح رجلاً كذلك بعد، ويحاول، في طريقة لبسه وجلوسه وإيمائه وتكلمه مع أصدقائه ومع البنات، أن يبدو منذ الآن الرجل الذي سيصيره في ما بعد. يظهر عليه إيجازه في الحديث وكثرة تأمله، ويصير قليل الكلام في ردّه على الأسئلة، أثناء الجلوس إلى مائدة الطعام، حول المدرسة وأصدقائه.

ـ أنا أعرف ما بك أيها الصغير ـ تحدته لوكريثيا ذات يوم ـ لقد وقعت في الحب! أليس كذلك يا فونتشيتو؟ أتعجبك إحدى البنات؟

ودون أن يبدو عليه أدنى قدر من تورد الخجل، نفى بحركة من رأسه.

ـ لا وقت لدي لهذه الأمور الآن ـ أجاب بمهابة، دون أي أثر من

السخرية ــ فقريباً سيحل موعد الامتحانات وأريد الحصول على نتائج جيدة.

ـ هكذا تعجبني يا فونتشيتو ـ أيده دون ريغوبيرتو ـ سيكون لديك في ما بعد متسع من الوقت من أجل البنات.

وفجأة أشع الوجه الضارب إلى الحمرة بابتسامة وظهر في عيني فونتشيتو مكر الخبث في أزمنة أخرى.

ـ ثم إنك تعرفين أن المرأة الوحيدة التي تعجبني في الدنيا هي أنت يا خالتي.

ـ آي، رباه، دعني أقبلك يا صغيري ـ صفقت دونيا لوكريثيا ـ. ولكن ما الذي تعنيه هذه الأيدي يا زوجي؟

ـ تعني أنه عند الحديث عن الشيطان تتأجج، فجأة، مخيلتي وأشياء أخرى يا حبي.

واستمتعا خلال بعض الوقت متخيلين أن دعابة الشيطان وفونتشيتو تلك قد انتقلت إلى الحياة الأخرى. ولكن لا، لم تكن قد انتقلت بعد.

VII

حدث ذات مرة أن الرقيب ليتوما والنقيب سيلفا كانا منكبين على المهمة بحواسهما الخمس ـ وقد تجاهل الثاني للحظات هوسه بمؤخرات نساء بيورا، وبالسيدة خوسيفيتا بصورة خاصة ـ يحاولان التوصل إلى طرف خيط يوجه تحقيقاتهما. فالعقيد ريوس باردو، الشهير بلقب راسكاتشوتشا، قائد شرطة المنطقة، عاد لتوبيخهما في العشية، وقد تحول كمن به مس شيطاني، لأن خبر تحدي فيليثيتو ياناكيه للمافياويين في جريدة «*التيمبو*» قد وصل إلى ليما. واتصل به وزير الداخلية شخصياً ليطالبه بأن تُحل تلك القضية فوراً. فالصحافة وسعت أصداء المسألة ولم تعد الشرطة وحدها، بل الحكومة نفسها، بدت في وضع مضحك أمام الرأي العام. وصار إلقاء القبض على المبتزين والقيام بإجراء عقابي كبير هو شعار المراجع القيادية!

ـ علينا أن نستعيد سمعة الشرطة، يا للعنة ـ زمجر راسكاتشوشا من وراء شاربه الضخم، بعينين كالجمر ـ. لا يمكن السماح لبعض الأوغاد أن يسخروا منا بهذه الطريقة. عليكما أن تقبضا عليهم في الحال وإلا ستندمان طوال ما تبقى من مسيرتكما الشرطية؛ أقسم لكما بالقديس مارتين شفيع الكلاب وبالرب.

تفحص ليتوما والنقيب سيلفا بتمعن أقوال جميع الشهود، أعدا بطاقات بيانات، وقاما بمقارنات، وقاطعا معلومات، واستعرضا

فرضيات واستبعداها واحدة بعد أخرى. وحين كانا يتوقفان بين حين وآخر لالتقاط أنفاسهما، اعتاد النقيب أن يطلق صرخات إطراء، مشحونة بحمى جنسية، لتكورات السيدة خوسيفيتا التي أُغرم بها. وبجدية كبيرة وإيماءات معقدة، كان يشرح لمرؤوسه أن تينك الإليتين ليستا كبيرتين ومكورتين ونصفي كرتين وحسب، بل إنهما «تهتزان نافرتين عند المشي»، وهو أمر يدغدغ قلبه وخصيتيه في آن واحد. ولهذا، يؤكد، «على الرغم من سنوات عمرها، ووجهها المغطى بالنمش، وساقيها الملتويتين بعض الشيء، فإن خوسيفيتا هي أنثى فاخرة بكل معنى الكلمة».

ـ وإذا ما اضطررتني إلى إجراء مقارنات يا ليتوما، فإنني أعتبرها أكثر متعة في المضاجعة من مابيل الوفيرة ـ حدّد وعيناه تقفزان من محجريهما كما لو أنه يقف إزاء مؤخرتي السيدتين ويروزهما ـ أعترفُ أن لعشيقة دون فيليثيتو جسداً بديعاً، وثهدين حربيين وساقين وذراعين مسكوبة وممتلئة، غير أن مؤخرتها، ولا بد أنك لاحظت ذلك، لا تفي بالرغبة. ليست ملموسة جداً، غير مكتملة تماماً، لم تتفتح، كما لو أنها قد ضمرت في لحظة ما. فمؤخرتها وفق نظامي التصنيفي مؤخرة خجولة، أظنك تفهمني.

ـ لماذا لا تركز على التحريات أكثر يا نقيبي ـ طلب منه ليتوما ـ. لقد رأيتَ كم هو غاضب العقيد ريوس باردو. وإذا ما ظللنا على هذا الإيقاع، فإننا لن نخرج أبداً من هذه القضية، ولن نترفع في رتبتينا.

ـ لقد تمكنتُ من ملاحظة أنك لا تبدي أي اهتمام بمؤخرات النساء يا ليتوما ـ أصدر النقيب حكمة متأثراً، ومبدياً وجهاً مكتئباً. ولكنه ابتسم على الفور ومرَّ بلسانه على شفتيه مثل هرّ ـ هذا الأمر يعتبر خللاً في تكوينك الرجولي، أؤكد لك. فالمؤخرة الجيدة هي الجزء الأكثر

ألوهية مما وضعه الرب في أجساد الإناث من أجل إسعاد الذكور. حتى الكتاب المقدس يعترف بذلك كما قيل لي.

ـ إنني أهتم طبعاً يا نقيبي. ولكن ما لدى حضرتك ليس اهتماماً فقط، بل هوس وإدمان، وأقول هذا مع كل الاحترام. فلنعد إلى العناكب دفعة واحدة وننسى ما سواها.

أمضيا ساعات عدة في قراءة وإعادة قراءة رسائل المبتزين ورسومها، وتفحصها كلمة كلمة وحرفاً حرفاً، والتمعن في قوائم العناكب قائمة قائمة. كانا قد طلبا من المكتب المركزي فحصاً لخطوط الرسائل المغفلة، ولكن الاختصاصي بذلك كان في المستشفى، حيث أجريت له عملية بواسير، ولديه إجازة لمدة أسبوعين. وفي أحد تلك الأيام، بينما هما مستغرقان في مقارنة رسائل مع تواقيع وكتابات مجرمين لهم ملفات في النيابة العامة، برز فجأة في رأس ليتوما ذلك الشك، مثل وميض شرارة في الظلام. إنها ذكرى قديمة، تداعي أفكار. وقد لاحظ النقيب سيلفا أن شيئاً يحدث لمساعده.

ـ لقد بدوتَ فجأة كمن به خبل. ما الذي حدث يا ليتوما؟

ـ لا شيء، لا شيء يا سيدي النقيب ـ هز الرقيب كتفيه ـ. مجرد بلاهة. لقد تذكرتُ للتو شخصاً كنت أعرفه. وكان يرسم عناكب طيلة الوقت، إن لم تخني الذاكرة. إنها مجرد بلاهة بالتأكيد.

ـ بالتأكيد ـ كرر النقيب وهو يتفحصه. قرَّب وجهه منه وبدَّل نبرة صوته ـ. ولكن، بما أنه لا يوجد لدينا أي شيء، فإن وجود بلاهة أفضل من لا شيء. ومن هو ذلك الشخص؟ هيا، أخبرني.

ـ إنها قصة قديمة جداً يا نقيبي ـ لاحظ المفوض أن صوت معاونه وعينيه قد امتلأا بالقلق، كما لو أن النبش في تلك الذكرى يزعجه، مع أنه لا يستطيع تجنب ذلك ـ وليس لذلك الشخص أية علاقة بقضيتنا هذه

على ما أتخيل. ولكنني أتذكر جيداً أن ابن العاهرة ذاك كان يرسم دوماً خربشات يمكن لها أن تكون عناكب. كان يرسمها على أوراق، على جرائد. وحتى على أرضية الحانات البائسة أحياناً، باستخدام عود.

ـ ومن كان ابن العاهرة ذاك يا ليتوما؟ أخبرني دفعة واحدة ولا تزعجني بكثرة اللف والدوران.

ـ هلم بنا لنتناول عصيراً ولنخرج قليلاً من هذا الفرن يا نقيبي ـ اقترح عليه الرقيب ـ. إنها قصة طويلة، سأرويها لك إن كنت لا تمل... ولا تقلق، فسوف أدفع أنا ثمن العصير.

ذهبا إلى درّة تشيرا، وهو بار صغير في شارع ليبرتاد، محاذٍ لقطعة أرض خلاء، قال ليتوما لرئيسه معلقاً بأن قطعة الأرض تلك كانت في شبابه ميدان مصارعة ديوك، تجري فيها مراهنات بمبالغ كبيرة. وكان هو نفسه يأتي إليها أحياناً، مع أنه لا يحب مصارعات الديوك، وتحزنه رؤية كيف تمزق تلك الحيوانات المسكينة بعضها بعضاً، بمناقيرها وبالشفرات المثبتة بقوائمها. لم يكن هناك في الحانة مكيف هواء، ولكن المراوح كانت تُبرد المحل. وكان مقفراً من الزبائن. طلبا كأسين من عصير اللوكوما مع كثير من الثلج وأشعلا سيجارتين.

ـ ابن العاهرة ذاك كان يدعى خوسيفينو روخاس، وهو ابن كارلوس روخاس، صاحب الزورق الذي كان يأتي قديماً بالمواشي من المزارع إلى منطقة المسلخ، عبر النهر، في شهور الفيضان ـ قال ليتوما ـ. تعرَّفت عليه حين كنت صبياً تقريباً. كانت لنا عصبتنا. وكنا نحب العربدة، والجيتارات، والبيرة، والنساء. وقد عمَّدنا أحدهم، أو نحن عمّدنا أنفسنا، باسم «المنيعون». ووضعنا نشيدنا الخاص.

وبصوت خافت ومجرح، غنى ليتوما مترنماً وباسماً:

نحن المنيعون

من لا نحب العمل؛

الشرب فقط!

المضاجعة فقط!

اللواط فقط!

احتفى به النقيب مطلقاً قهقهة ومصفقاً:

ـ جيد يا ليتوما. أي إنه كان ينتصب معك على الأقل وأنت شاب صغير.

ـ لقد كنا ثلاثة مَنْ شكلنا فريق المنيعين في البدء ـ واصل الرقيب بنوستالجيا وهو مستغرق في ذكرياته ـ ابنا عمي، الأخوين ليون ـ خوسيه والونو ـ وخادمك. ثلاثة مانغاتشيين. ولا أدري كيف انضم إلينا خوسيفينو. فهو لم يكن من حي مانغاتشيريّا وإنما من حيٍّ غاييِّناثيرا، هناك حيث كان يقوم السوق القديم، ومنطقة المسلخ. لستُ أدري لماذا أدخلناه في الجماعة. فقد كانت بين الحيين آنذاك خصومة رهيبة، مع لكمات وضربات سكاكين. أقول لك إنها حرب أسالت الكثير من الدماء في بيورا.

ـ يا للعنة، إنك تكلمني عما قبل التاريخ في هذه المدينة ـ قال النقيب ـ. أعرف جيداً أين كان حي لامانغاتشيريّا، إنه هناك إلى الشمال، أسفل جادة سانتشيث سيرّو، عند مقبرة سان تيودورو القديمة. ولكن ماذا عن حي غاييّناثيرا؟

ـ هناك بالذات، قريباً جداً من ساحة السلاح، على ضفة النهر، باتجاه الجنوب ـ قال ليتوما مشيراً ـ كان يدعى غاييّناثيرا بسبب أعداد نسور الرخمة التي يجتذبها المسلخ، عند ذبح الماشية. وقد كنا نحن المانغاتشيين من أنصار سانتشث سيرّو وكان الغاييّناثين من أنصار حزب

الأبرا. وابن العاهرة خوسيفينو كان غاييناثيّ وكان يقول إنه كان صبي جزار متدرب في صغره.

ـ كنتم عصابات حينذاك إذاً.

ـ رعاع وحسب يا نقيبي. نقوم بشيطنات فقط، دون أي شيء جدّي. نوجه لكمات، ولا نتجاوز إلى ما أكثر من ذلك. أما خوسيفينو فتحول في ما بعد إلى قواد. يغوي فتيات ويُدخلهن للدعارة في «البيت الأخضر»، وكان هذا هو اسم الماخور، عند مخرج المدينة في الطريق إلى كاناكاوس، حين لم يكن حي كاستيّا يسمى كاستيّا بعد وإنما تاكالا. هل تعرفت إلى ذلك الماخور؟ لقد كان مشهوراً.

ـ لا، ولكنني سمعت الكثير عن «البيت الأخضر» المشهور. إنه أسطورة قائمة بذاتها في بيورا. أي إن خوسيفينو صار قواداً. أهو من كان يرسم العناكب؟

ـ هو نفسه يا نقيبي. أظن أنها كانت عناكب، ربما تخني الذاكرة. لستُ متأكداً تماماً.

ـ ولماذا تكره ذلك القواد إلى هذا الحد يا ليتوما إن كان يمكن لي أن أعرف؟

ـ لأسباب كثيرة ـ عبس وجه الرقيب الخشن، واحتقنت عيناه من الغضب. كان قد بدأ بارتشاف العصير الكثيف بسرعة كبيرة ـ. السبب الأساسي ما فعله بي عندما كنت مسجوناً. وحضرتك تعرف هذه القصة، فقد سجنوني لأني كنت ألعب الروليت الروسي مع مَلَّاك من هنا. في «البيت الأخضر» بالتحديد. وهو أبيض سكير يكنى سيميناريو، وقد فجَّر دماغه أثناء اللعب. واستغل خوسيفينو وجودي في السجن، فاستولى على أنثاي وأدخلها كعاهرة تعمل من أجله في «البيت الأخضر». كان اسمها بونيفاثيا. جئت بها من ألتو مارانيون، التابعة

لسانتا مارتا دي نييفي في منطقة الأمازون. وعندما صارت فتاة متعة، أطلقوا عليها اسم سيلفاتيكا.

ـ آه، حسنٌ، لديك ما يكفي من الأسباب لتكرهه ـ وافق النقيب وهو يهز رأسه ـ. هذا يعني أنه كان لك ماضٍ متكامل يا ليتوما. لا يمكن لأحد أن يصدق ذلك حين يراك الآن وديعاً هكذا. تبدو كمن لم يقتل ذبابة في حياته قطّ. الحقيقة أنني لا أستطيع أن أتصورك تلعب الروليت الروسي. أنا لعبتها مرة واحدة، مع زميل لي، في ليلة شراب. ومازلتُ حتى الآن أشعر بعظامي تتجمد حين أتذكر ذلك. ولماذا لم تقتل خوسيفينو ذاك، إن كان ممكناً لي أن أعرف؟

ـ ليس بسبب انعدام الرغبة، وإنما كيلا أذهب إلى السجن مرة أخرى ـ أوضح الرقيب باقتضاب ـ. لكنني أوسعته ضرباً إلى حدّ لا بد معه أن بدنه مازال يتوجع حتى الآن. إنني أكلمك عن أمر مضى عليه عشرون عاماً على الأقل يا نقيبي.

ـ أأنت متأكد من أن ذلك القواد كان يقضي الوقت في رسم عناكب صغيرة؟

ـ لا أدري إن كانت عناكب ـ صحح ليتوما مرة أخرى ـ. ولكنه كان يرسم، أجل، طيلة الوقت. على مناديل ورقية، على قطعة الورق التي توضع أمامه. كانت تلك هي نزوته. ربما لا تكون لها أية علاقة بما نبحث عنه.

ـ فكِّر وحاول أن تتذكر يا ليتوما. ركِّز، أغمض عينيك وعدْ بالذكرى إلى الوراء. أهي عناكب مثل العناكب التي يرسلونها إلى فيليثيتو ياناكيه؟

ـ ذاكرتي لا تقدم المزيد يا نقيبي ـ اعتذر ليتوما ـ إنني أحدثك عن أمر مضت عليه سنوات طويلة، وقد قلت لك إنها عشرون عاماً، وربما

أكثر. لست أدري لماذا خطر لي هذا الربط. من الأفضل نسيان الأمر.

ـ أتعرف ما الذي حلّ بالقواد خوسيفينو؟ ألح النقيب. وقد بدت عليه ملامح الاهتمام ولم يكن يرفع بصره عن الرقيب.

ـ لم أره بعد ذلك قطّ، مثلما لم أعد إلى رؤية المنيعين الآخرين، ابني عمي. فمنذ أن أعادوا قبولي في سلك الشرطة، خدمتُ في سلسلة الجبال، وفي الأدغال، وفي ليما. يمكن القول إنني جُلت في كل أنحاء البيرو. ولم أعد إلى بيورا إلا منذ وقت قصير. ولهذا أقول لك إنه من المحتمل ألا يكون ما خطر لي سوى مجرد بلاهة. ولستُ متأكداً، كما قلت لك، من أنها كانت عناكب. لقد كان يرسم شيئاً، أجل. وكان يفعل ذلك دوماً وكنا نحن في فريق المنيعين نسخر منه.

ـ إذا كان القواد خوسيفينو لا يزال حياً فإنني أرغب في التعرف إليه ـ قال المفوض وهو يضرب على المنضدة ـ. تحرى عنه يا ليتوما. لستُ أدري السبب، ولكنني أشم رائحة ما. ربما نكون قد عضضنا قطعة لحم. وهي طرية وذات عصارة. أشعر بذلك في لعابي، في دمي وفي خصيتي. أنا لا أخطئ في هذه الأمور. إنني أرى بصيص نور في عمق النفق. حسنٌ يا ليتوما.

كان النقيب سعيداً إلى حدّ ندم معه الرقيب لأنه أخبره بذلك الخاطر الذي باغته. هل صحيح أن خوسيفينو، في أزمنة المنيعين، كان يرسم دون توقف؟ لم يعد متأكداً جداً من ذلك. وفي هذه الليلة، بعد خروجه من الخدمة، ذهب كالعادة ماشياً في جادة غراو صعوداً باتجاه النزل الذي يعيش فيه، في حي بوينس آيريس، بالقرب من ثكنة غراو؛ وأجهد ذاكرته في محاولة للتأكد من أنها لم تكن ذكرى زائفة. كانت تعود إلى ذاكرته، في موجات متدفقة، صورٌ من سنوات الشباب المبكر تلك، في شوارع حيّ مانغاتشيريا الترابية، حين كان يذهب مع المونو

وخوسيه إلى الرَمْلة الملاصقة للمدينة، لينصبوا أفخاخاً للسلاحف عند جذوع أشجار الخروب، ولصيد العصافير بمقلاع يصنعونه بأنفسهم، أو الاختباء بين آجام الرَمْلة وكثبانها ليتلصصوا على الغسالات اللاتي يتوغلن عند مصب المجرور في النهر حتى خصورهن لغسل الملابس. فتشف ثيابهن عن صدروهن أحياناً، وتتأجج عيون الفتيان وفتحات سراويلهن بالإثارة. كيف انضم خوسيفينو إلى الجماعة؟ لم يعد يتذكر متى حدث ذلك أو سببه. لقد انضم إليهم على كل حال بعدما لم يعودوا صبية صغاراً. لأنهم كانوا يذهبون آنذاك إلى الحانات، وينفقون فيها السولات القليلة التي يكسبونها من القيام بأعمال آنية عابرة، مثل بيع بطاقات مراهنات سباقات الخيل، في دور القمار والعربدة والسكر. ربما لم تكن عناكب، ولكن خوسيفينو كان يرسم، أجل، ويفعل ذلك في كل وقت. إنه يتذكر الأمر بوضوح. كان يفعل ذلك بينما هو يتحدث أو يغني، وحين يستغرق في التفكير بألاعيبه الخبيثة منعزلاً عن بقية الجماعة. ليست ذكرى زائفة، ربما كان يرسم ضفادع، أو ثعابين، أو فراخ. داهمته الشكوك. وبدا له فجأة أن تلك الرسوم كانت صلباناً ودوائر في لعبة القطّ، أو أنها رسوم كاريكاتيرية للناس الذين يرونهم في بار لاتشونغا، أحد أمكنتهم المحببة. لاتشونغا التشونغيتا! هل مازالت موجودة؟ مستحيل. إذا كانت لا تزال على قيد الحياة، فلا بد أنها صارت عجوزاً إلى حدّ لا يمكنها معه إدارة شؤون بار. ولكن من يدري. فقد كانت امرأة لها شعر في صدرها، لا تخشى أحداً، تواجه المخمورين مواجهة الند للند. وذات مرة أوقفت خوسيفينو نفسه عند حده حين أراد أن يبدو مرحاً معها.

المنيعون! لاتشونغا! يا للعنة كيف يمضي الزمن بسرعة. ربما يكون الأخوان ليون وخوسيفينو وبونيفاثيا قد ماتوا جميعهم ودُفنوا ولم يبق

منهم سوى الذكرى. يا للحزن.

كان يمشي في شبه ظلمة لأن أنوار الإضاءة العامة، بعد تجاوز نادي غراو والدخول في حي بوينس آيرس السكني، تصبح متباعدة وشحيحة. كان يمضي ببطء، متعثراً بحُفَر في الإسفلت، بين بيوت، بعد أن كانت ذات حدائق وطابقين، أخذت تتحول إلى أقل انخفاضاً وأكثر بؤساً. ومع اقترابه من نُزله، صارت البيوت تتحول إلى أكواخ، وأبنية فجة، جدرانها من الطين وأغصان الخروب وسقوفها من صفيح، تتوزع على جوانب شوارع بلا أرصفة، وتكاد لا تمر منها سيارات.

لدى عودته إلى بيورا، بعد أن خدم سنوات طويلة في ليما وفي سلسلة الجبال، استقر في غرفة في حي العسكريين السكني، حيث للشرطيين الحق بالإقامة، مثلهم مثل العسكريين. ولكن ذلك الاختلاط مع رفاق السلاح لم يرق له. إذ أحس كما لو أنه يستمر في الخدمة، يرى الأشخاص أنفسهم ويتحدث في الأمور نفسها. لهذا انتقل بعد ستة أشهر إلى بيت آل كالانتشي الذين يملكون خمس غرف للنزلاء. المكان متواضع، وحجرة ليتوما ضيقة جداً، ولكنه يدفع قليلاً ويشعر هناك بأنه أكثر استقلالية. كان الزوجان كالانتشي يشاهدان التلفاز عند وصوله. لقد كان رب البيت معلماً وزوجته موظفة بلدية. وهما متقاعدان منذ زمن. وكانت أجرة النُزل تتضمن الفطور فقط، ولكن يمكن للزوجين كالانتشي، إذا رغب المستأجر، أن يأتياه بالغداء أو العشاء من مطعم صغير مجاور، وهي وجبات طبيخ مغذية جداً. سألهما الرقيب عما إذا كانا يتذكران، بالصدفة، باراً صغيراً بالقرب من الستاد القديم تديره امرأة مسترجلة بعض الشيء تدعى، أو يلقبونها، لاتشونغا. نظرا إليه بحيرة وهما يهزان رأسيهما.

ظلّ تلك الليلة مؤرقاً لوقت طويل، وبشيء من الضيق في بدنه.

ملعونة الساعة التي خطر له فيها التحدث إلى النقيب سيلفا عن خوسيفينو. إنه متأكد الآن من أن ذلك القواد لم يكن يرسم عناكب، وإنما كان يرسم شيئاً آخر. تقليب ذلك الماضي يُشعره بالضيق. يحزنه أن يتذكر شبابه، وسنوات العمر التي بلغها ــ إنه يقارب الخمسين ــ، وكم كانت حياته متوحدة، والنكبات التي حلت به، وحماقة الروليت الروسي تلك مع سيميناريو، وسنوات السجن، وقصة بونيفائيا التي ما إن ترد إلى ذهنه حتى تملأ فمه بطعم المرارة.

نام أخيراً، ولكن بصورة سيئة، مع كوابيس خلّفت لديه بعد الاستيقاظ صوراً مشروخة ومرعبة. اغتسل، تناول فطوراً، وقبل السابعة خرج إلى الشارع متوجهاً إلى المكان الذي تفترض ذاكرته أن بار لاتشونغا كان قائماً فيه. لم يكن من السهل عليه التوجه. فتلك الأمكنة، في ذاكرته، كانت خارج المدينة، أكواخ متفرقة من الطين والقصب تنتصب على الرمال. ولكن هنالك الآن شوارع، وإسمنتاً، وبيوتاً من مواد بناء ثمينة، ومصابيح إنارة كهربائية، وأرصفة، وسيارات، ومدارس، ومحطات وقود، ومحلات تجارية. يا للتبدلات! الحي البائس القديم صار جزءاً من المدينة الآن ولا يشبه ذكرياته بأي حال. محاولاته مع الجيران ــ كان يقترب لسؤال أشخاص كبار في السن فقط ــ لم تفد في شيء. لا أحد يتذكر البار الصغير أو لاتشونغا، وأناس كثيرون هناك ليسوا من بيورا في الأصل وإنما ممن نزلوا إليها من سلسلة الجبال. راوده إحساس فظّ بأن ذاكرته تكذب عليه؛ وأنه لا شيء مما يتذكره كان موجوداً قطّ، إنها مجرد تخيلات وقد كانت كذلك على الدوام، محض نتاج من مخيلته. أرعبه التفكير في ذلك.

عند الضحى كره مواصلة البحث ورجع إلى مركز بيورا. وقبل أن يعود إلى المفوضية، تناول شراباً غازياً عند الناصية، وكان يشعر بحر

شديد. كانت الشوارع قد امتلأت بالضجيج والسيارات والحافلات، وبتلاميذ بالزي المدرسي. باعة يانصيب وترهات رخيصة ينادون على بضائعهم صارخين، أناس متعرقون ومتعجلون يملؤون الأرصفة. عندئذ أعادت إليه الذاكرة اسم ورقم الشارع الذي كان يعيش فيه ابنا العم ليون: شارع موربون، الرقم 17. في قلب مانغاتشيريا بالضبط. أغمض عينيه ورأى الواجهة حائلة اللون للبيت المؤلف من طابق واحد، والنوافذ ذات القضبان الحديدية، وأصص الزهور الشمعية، والراية البيضاء التي تشير إلى أن بيرة تشيتشا باردة تباع هناك.

ركب موتوتكسي حتى جادة سانتشيث سيرّو، وبينما هو يشعر بقطرات العرق تسيل على وجهه وتبلل ظهره، توغل ماشياً في متاهة الشوارع والأزقة والمنحنيات، والأراضي الخلاء التي كانت عليها مانغاتشيريا، ذلك الحي الذي يقال إنه يسمى هكذا لأن من كانوا يسكنونه في العهد الاستعماري هم من العبيد المالاغشيين المستوردين من مدغشقر. لقد تبدل كل ما في ذلك الحي أيضاً من أشكال وأناس ونسيج معماري وألوان. فالدروب الترابية صارت إسفلتية، والبيوت صارت من آجر وإسمنت، وهنالك بعض العمارات، وإنارة عامة، ولم تبق ولو حانة تشيتشريا أو مقمرة واحدة في الشوارع، وإنما كلاب متشردة فقط. لقد صارت الفوضى منظمة، شوارع مستقيمة ومتوازية. لم يعد هنالك ما يشبه ذكرياته المانغاتشية. لقد صار الحي محتشماً، وتحول إلى حي تافه وبلا هوية. غير أن شارع موربون موجود وكذلك الرقم 17 فيه. ولكنه بدل أن يجد بيت ابني عمه، وجد هناك ورشة ميكانيك كبيرة، وعليها إعلان يقول: «نبيع قطع غيار لكافة ماركات السيارات والشاحنات والحافلات». دخل إلى المحل الفسيح والقاتم العابق برائحة الزيوت، ورأى هياكل سيارات ومحركات نصف مفككة، وسمع ضجة

معدات لِحام ولمح ثلاثة أو أربعة عاملين يرتدون أفرهولات زرقاء، وينحنون على آلياتهم. وكانت تنبعث، من مذياع، موسيقى غابيّة، موسيقى أغنية «**لاكونتامانينا**». دخل إلى مكتب تئز فيه مروحة. وكانت هناك امرأة شابة تجلس قبالة جهاز كمبيوتر.

ـ مرحباً ـ قال ليتوما وهو يخلع قبعته الشرطية.

ـ بماذا يمكنني خدمتك؟ كانت تنظر إليه بذلك القلق الخفيف الذي ينظر به الناس إلى الشرطيين عادة.

ـ إنني أقوم بتحريات عن أسرة كانت تعيش هنا ـ أوضح لها ليتوما مشيراً إلى المحل ـ. حين لم يكن هذا المكان ورشة وإنما بيت أسرة. وكان لقبهم آل ليون.

ـ حسب ما أتذكر، هذا المكان كان ورشة ميكانيك منذ البدء. قالت الفتاة.

ـ حضرتكِ ما تزالين فتية جداً، ولا يمكنك أن تتذكري ـ رد عليها ليتوما ـ ولكن ربما يعرف صاحب المحل شيئاً ما.

ـ يمكنك انتظاره إذا شئت ـ أشارت له الفتاة إلى كرسي. وفجأة، أضيء وجهها: ـ آي، كم أنا بلهاء. طبعاً! صاحب الورشة نفسه يدعى ليون. دون خوسيه ليون. وربما بإمكانه مساعدتك.

تهاوى ليتوما على الكرسي. كان قلبه ينبض بقوة. دون خوسيه ليون. يا للعنة. إنه هو، ابن عمه خوسيه. يجب أن يكون أحد المنيعين. ومن يمكن أن يكون غيره.

تحول إلى جمرة سيجار متوقدة وهو ينتظر. بدت له الدقائق لانهائية. وعندما ظهر المنيع خوسية ليون في الورشة أخيراً، وعلى الرغم من أنه تحول الآن إلى رجل مربوع وذي كرش، مع لطخات شيب في شعره الخفيف، ويلبس مثل رجل أبيض، سترة وقميصاً بياقة وحذاء

ملمعاً كمرآة، فقد تعرّف عليه فوراً. نهض واقفاً بانفعال، وفتح ذراعيه. لم يتعرف عليه خوسيه وتفحصه مقرباً وجهه منه كثيراً باستغراب.

ـ أرى أنك لم تعرف من أنا يا ابن العم ـ قال ليتوما ـ هل التغير كبير إلى هذا الحد؟

وسّعت ابتسامة كبيرة وجه خوسيه.

ـ لا أستطيع أن أصدق! ـ هتف وهو يفتح ذراعيه أيضاً ـ ليتوما! أي مفاجأة يا أخي. بعد كل هذه السنوات، *تشي غوا*.

تعانقا، تبادلا التربيت، أمام أعين الموظفة والعاملين المتفاجئين. تفحص كل منهما الآخر مبتسمين وسعيدين.

ـ ألديك متسع من الوقت لتناول فنجان قهوة؟ ـ سأله ليتوما ـ أم تفضل أن نلتقي في وقت متأخر أو في الغد؟

ـ سأنهي أمراً أو اثنين ثم نذهب لتذكر أزمنة المنيعين ـ قال خوسيه وهو يربت على كتفه مرة أخرى ـ اجلس يا ليتوما. سأنتهي بسرعة. يا للروعة يا أخي.

عاد ليتوما للجلوس على الكرسي، ومن هناك رأى ليون يراجع أوراقاً على المكتب، ويتفحص شيئاً في بعض السجلات مع السكرتيرة، ويخرج من المكتب ليقوم بجولة على الورشة مراقباً عمل الميكانيكيين. لاحظ ليتوما كم هو واثق من نفسه حين يصدر الأوامر، ويتلقى تحيات العاملين؛ والطلاقة التي يوجه بها التعليمات أو يعطي حلولاً للاستفسارات. وفكر: «من يتخيلك ومن يراك يا ابن العم». كان يجد مشقة في التعرف على خوسيه رث الثياب في شبابه، يركض حافياً بين الماعز والحمير في لامانغاتشيريا، وقد صار أبيض ومالك ورشة ميكانيك كبيرة يلبس بدلة وحذاء حفلات في منتصف النهار.

خرجا معاً، وليتوما يمسك بذراع خوسيه، إلى كافيتريا ـ مطعم اسمه

«بيورا الجميلة». قال ابن عمه إنه يجب الاحتفال بهذا اللقاء وطلب بيرة. شربا نخب الأزمنة الماضية وظلا لبعض الوقت يقارنان بحنين ذكرياتهما المشتركة. لقد كان المونو شريكاً لخوسيه في الورشة عندما فتحها هذا الأخير. ولكنهما اختلفا في ما بعد وابتعد المونو عن المحل، إلا أن الأخوين ظلا متحدين على الدوام ويلتقيان بكثرة. المونو متزوج وله ثلاثة أبناء. عمل بضع سنوات في البلدية، وأقام بعد ذلك معمل آجر. عمله يمضي على ما يرام، تتصل به عدة شركات بناء في بيورا، ولاسيما الآن، في مرحلة البقرات السمان هذه التي بدأت تُشيّد فيها أحياء جديدة. فجميع أهالي بيورا يحلمون بامتلاك بيت خاص، والرائع أن رياحاً جديدة بدأت تهب. ولا يمكن لخوسيه أن يتذمر. لقد كان العمل صعباً في البدء، وكانت هناك منافسة كبيرة، ولكن نوعية الخدمة راحت تفرض نفسها شيئاً فشيئاً، والآن، من دون تبجح، صارت ورشته واحدة من أفضل الورش في المدينة. ولديه فائض من العمل والحمد لله.

ـ هذا يعني أنك أنت والمونو لم تعودا منيعين ومانغاشيين، وتحولتما إلى أبيضين وغنيين ـ مازحه ليتوما ـ. أنا وحدي من لا زلتُ فقيراً يستحق الشفقة، وسأظل شرطياً إلى أبد الآبدين.

ـ منذ متى أنت هنا يا ليتوما؟ لماذا لم تبحث عني من قبل؟

كذب عليه الرقيب بالقول إنه هنا منذ وقت قصير، وإن التحريات التي قام بها عنه لمعرفة أين صار لم تؤد إلى نتيجة، إلى أن خطر له المجيء والقيام بجولة في الأحياء القديمة. وهكذا وصل إلى الرقم 17 في شارع موربون. لم يتخيل قطّ أن تلك الرملة ذات الأكواخ البائسة قد تحولت إلى هذا الذي هي عليه الآن. مع وجود ورشة ميكانيك تُرفع لها القبعة!

ـ الأزمنة تتغير، ولحسن الحظ أنها تتغير إلى الأفضل ـ وافقه خوسيه ـ هذه فترة جيدة لبيورا وللبيرو بأسرها يا ابن العم. أرجو أن تدوم... فلنمسّ الخشب.

لقد تزوج من فتاة من مدينة تروخييو، لكن الزواج كان كارثة. فقد كانا مثل القط والفأر، وانتهيا إلى الطلاق. لهما ابنتان، تعيشان مع أمهما في تروخييو. ويذهب خوسيه لزيارتهما بين وقت وآخر، وتأتيان لقضاء العطلات الدراسية معه. إنهما في الجامعة، الكبيرة تدرس طب الأسنان والصغيرة تدرس الصيدلة.

ـ أهنئك يابن العم. ستكونان مهنيتين كلتيهما، يا لحسن الحظ.

وعندما كان ليتوما يستعد لأن يتطرق في الحديث إلى اسم القواد، سبقه خوسيه، كما لو أنه قرأ أفكاره:

ـ هل تتذكر خوسيفينو يابن العم؟

ـ كيف يمكن لي أن أنسى ملعون الأم ذاك. تنهد ليتوما، وبعد وقفة صمت طويلة، كمن يود قول شيء، سأل: ماذا جرى له؟

هز خوسيه كتفيه وقام بتكشيرة ازدراء.

ـ منذ سنوات لا أعرف شيئاً عنه. لقد انغمس في الحياة الخبيثة كما تعلم. يعيش على استغلال النساء، لديه مومسات يعملن لحسابه. وقد راح يزداد خبثاً. أنا والمونو ابتعدنا عنه. يأتي بين حين وآخر ليقترض منا نقوداً، ويروي لنا حكاية أمراضه والدائنين الذين يهددونه. بل إنه تورط في قضية قبيحة، بشأن جريمة قتل. اتهموه بالتواطؤ والتستر على الجريمة. ليس من المستغرب أن يظهر ذات يوم مقتولاً في أحد تلك الأمكنة سيئة السمعة التي تروق له كثيراً. ومن يدري، ربما هو يتعفن الآن في السجن.

ـ معك حق، فقد كانت الشرور تجتذبه مثلما يجتذب العسل الذباب

ـ قال ليتوما ـ لقد ولد ذلك الداعر ليكون مجرماً. لا أجد تفسيراً لاجتماعنا معه يا بن العم. لاسيما وأنه غاييناثو، بينما نحن مانغاتشيون.

وفي تلك اللحظة، كان ليتوما ينظر مصادفة إلى حركة يدي ابن عمه على المنضدة، فانتبه إلى أن خوسيه يُحدِثُ بظفر إبهامه خطوطاً على السطح الخشن الممتلئ بكتابات وبقع محروقة ولطخات. كاد يفقد أنفاسه، أمعن النظر وقال وكرر لنفسه إنه ليس مجنوناً، وليس به مسّ؛ لأن ما يخطه ابن عمه بظفره، دون أن ينتبه، هي عناكب. أجل، إنها عناكب، مثل عناكب رسائل التهديد المغفلة التي يتلقاها فيليثيتو ياناكيه. يا للعنة، فهو لا يحلم ولا يرى رؤى. إنها عناكب، عناكب، يا لابن العاهرة، يا لابن العاهرة.

ـ لدينا الآن مشكلة ألف شيطان ـ دمدم مواريا عصبيته ومشيراً باتجاه جادة سانتشيث سيرّو ـ لا بد أن تكون مطلعاً. وأن تكون قد قرأت في *«التيمبو»* رسالة موجهة إلى المبتزين من فيليثيتو ياناكيه، صاحب شركة ناريهوالا للنقل.

ـ أفضل خصيتين راسختين في مكانهما في بيورا بأسرها ـ هتف ابن عمه. ولمعت عيناه إعجاباً ـ لم أقرأ تلك الرسالة وحسب، مثلما فعل جميع أهالي بيورا. بل قصصتها، وأوصيت على إطار لها وعلقتها على جدار مكتبي يا ابن العم. فيليثيتو ياناكيه نموذج يجب أن يحتذي به رجال أعمال بيورا وتجارها الذين يُنزلون سراويلهم أمام المافيات ويدفعون لها الإتاوات. إنني أعرف دون فيليثيتو منذ زمن. فنحن في الورشة نقوم بإصلاح وضبط دوزان حافلات وشاحنات ناريهوالا للنقل. وقد كتبت إليه بضعة سطور تهنئة على رسالته في *«التيمبو»*.

ووكز ليتوما بمرفقه مشيراً إلى الشرائط على كتفيه.

ـ عليكم أنتم واجب حماية هذا الرجل يابن العم. ستكون كارثة أن ترسل المافيات قاتلاً لتصفية دون فيليثيتو. لقد رأيت كيف أنهم سارعوا إلى إحراق محله.

كان الرقيب ينظر إليه مؤكداً كلامه. كل هذا السخط والتقدير لا يمكن أن يكون مصطنعاً؛ إنه هو المخطئ، فخوسيه لم يكن يرسم عناكب بظفر إبهامه، بل خطوط وحسب. مجرد توافق، مجرد مصادفة مثل مصادفات كثيرة. ولكن ذاكرته وجهت إليه، في تلك اللحظة بالذات، صفعة أخرى، أضاءت له ليرى بصورة واضحة وجليه، وذكّرته بصفاء جعله يرتعش، أن من كان يرسم في صغرهم، بقلم أو عود أو سكين، تلك النجوم التي تبدو كعناكب هو ابن عمه خوسيه وليس القواد خوسيفينو. طبعاً، طبعاً. لقد كان خوسيه. وقبل زمن طويل من تعرفهم إلى خوسيفينو. خوسيه هو من كان يرسم دوماً. وقد سخر هو والمونو منه مرات كثيرة لتلك النزوة، يا للأم العاهرة، يا للأم العاهرة.

ـ متى نستطيع تناول الغداء أو العشاء معاً، كي تلتقي بالمونو أيضاً يا ليتوما. سيسعده اللقاء بك حقاً!

ـ وأنا أيضاً سيسعدني ذلك يا خوسيه. فأفضل ذكرياتي هي ذكرياتي عن بيورا. عن الفترة التي كنا فيها معاً، فترة المنيعين. إنها الأفضل في حياتي على ما أعتقد. في ذلك الزمن كنتُ سعيداً. بعد ذلك جاءت النكبات. ثم إنك أنت والمونو، على ما أتذكر، القريبان الوحيدان المتبقيان لي في هذه الدنيا. سنلتقي عندما تريد، أخبراني بالموعد وسوف أوافق.

ـ الغداء أفضل من العشاء إذاً ـ قال خوسيه ـ لأن ريتا، زوجة أخي، غيورة جداً، تغار على المونو إلى حد لا يمكنك تصوره. تتسبب له بجرسة كبيرة كلما خرج ليلاً. بل يبدو أنها تضربه كذلك.

ـ فليكن غداء إذاً، لا توجد مشكلة ـ كان ليتوما يشعر بالاضطراب إلى حدّ خشي معه أن يرتاب خوسيه بما يجول في رأسه، فبحث عن ذريعة ليودعه وينصرف.

رجع إلى المفوضية مختنقاً، مضطرباً ومشوشاً، لا يعرف جيداً أين يضع قدمه، حتى إن عربة بائع فاكهة كادت أن تصدمه عند إحدى النواصي. حين وصل، انتبه النقيب إلى تردي حالته المعنوية فور رؤيته له.

ـ لا تأتني بمشاكل أخرى زيادة لما هو فوق رأسي يا ليتوما ـ حذره ونهض واقفاً وراء مكتبه بغضب جعل الحجرة الضيقة تهتز ـــ أي براز حدث لك؟ من مات لك؟

ـ مات الشك بأن خوسيفينو روخاس هو من كان يرسم العناكب ـــ تلعثم ليتوما وهو يخلع القبعة ويمسح العرق بمنديل ـ. تبين الآن أن المشتبه به ليس القواد، بل ابن عمي خوسيه ليون. أحد المنيعين الذين حدثتك عنهم يا نقيبي.

ـ أتسخر مني يا ليتوما؟ ـ هتف النقيب مرتبكاً ـ أوضح لي قليلاً كيف يمكن ابتلاع هذه البلاهة التي قلتها.

جلس الرقيب محاولاً أن يكون هواء المروحة موجهاً مباشرة إلى وجهه. وروى للمفوض بالتفصيل كل جرى له هذا الصباح.

ـ أي إن ابن عمك خوسيه الآن هو من يرسم عناكب بظفره ـ قال النقيب بغضب ـ. وهو فوق ذلك كله غبي تماماً إلى حدّ أنه يشي بنفسه أمام رقيب في الشرطة، وهو يعلم جيداً أن عناكب فيليثيو ياناكيه وناريهوالا للنقل هي حديث الناس جميعاً في بيورا. أرى أن هنالك لحماً مسلوقاً في رأسك يا ليتوما.

ـ لستُ متأكداً من أنه كان يرسم عناكب بأظفاره ـ اعتذر مرؤوسه

محزوناً ـ يمكن أن أكون مخطئاً أيضاً في هذا الأمر، أرجوك أن تعذرني. لم أعد متأكداً من أي شيء يا نقيبي، لست متأكداً حتى من الأرض التي أقف عليها. أجل، معك حق. رأسي أشبه بقِدر مملوءة بجداجد.

ـ بل الأدق أنه أشبه بقِدر عناكب ـ ضحك النقيب ـ وانظر الآن من أتى. إنه الوحيد الذي كان ينقصنا. صباح الخير يا سيد ياناكيه. تفضل، ادخل.

عرف ليتوما من ملامح وجه صاحب شركة النقل أن شيئاً خطيراً قد حدث: أهي رسالة أخرى من المافيا؟ كان فيليثيتو شاحباً، تحيط بعينيه هالة من الزرقة، وكان فمه مفتوحاً قليلاً بملمح من البلاهة، بينما تشي عيناه بالرعب. انتهى من خلع القبعة وبدا شعره مشعثاً كما لو أنه نسي تسريحه. وهو الذي كان يمضي دائماً مهندماً على أحسن وجه، زرَّر صداره بصورة سيئة، بوضعه الزر الأول في العروة الثانية. بدا مظهره مضحكاً ومهمَلاً وتهريجياً. لم يكن قادراً على الكلام. لم يردّ على التحية، واكتفى بإخراج مغلف من جيبه وتقديمة إلى النقيب بيد مرتجفة. بدا أكثر ضآلة وهشاشة من أي وقت آخر، بل أشبه بقزم.

ـ يا للعنة العاهرة. قال المفوض من بين أسنانه، وهو يُخرج الرسالة من المغلف ويبدأ القراءة بصوت عالٍ:

السيد ياناكيه العزيز:

قلنا لك إن عنادك وتحديك في *«التيمبو»* ستكون له نتائج غير لطيفة. قلنا لك إنك ستندم لرفضك أن تكون متعقلاً وأن تتفاهم معنا، نحن الذين لا نريد إلا تقديم الحماية لأعمالك والأمان لأسرتك. إننا ننفذ دوماً ما نقوله. بين أيدينا أحد الأشخاص الأعزاء لديك وسنحتفظ به إلى أن تسمح بلي ذراعك وتتفق معنا.

وعلى الرغم من أننا صرنا نعرف عادتك السيئة بالذهاب لتقديم

شكاويك إلى الشرطة، كما لو أن هذه الشرطة تنفع في شيء، إلا أننا نقترح، من أجل مصلحتك، أن تحافظ هذه المرة على التكتم المطلوب. فمن غير المناسب أن يعرف أحد بأننا نحتجز هذا الشخص لدينا، وخاصة إذا كنتَ مهتماً بألا يتعرض للمعاناة نتيجة تهور آخر من جانبك. يجب أن يبقى هذا الأمر بيننا وأن يتم حله بتكتم وسرعة.

ولأنك تحتب استخدام الصحافة، عليك أن تنشر إعلاناً في «*التيمبو*»، تشكر فيه السيد كوتيفو دي آياباكا لتحقيقه المعجزة التي طلبتها منه. وهكذا سنعرف أنك موافق على الشروط التي نطرحها عليك، وعلى الفور سيرجع الشخص المذكور سليماً معافى إلى بيته. وفي حالة الرفض، يمكن ألا تعود لمعرفة أي شيء عنه.

فليحفظ الله حضرتك.

ومع أن ليتوما لم ير مضمون الرسالة إلا أنه خمن أن رسم العنكبوت يختم تلك الرسالة.

ـ من هو الشخص الذي اختطفوه يا سيد ياناكيه؟ ـ سأل النقيب سيلفا.

ـ مابيل ـ تلعثم صاحب شركة النقل مختنقاً. ورأى ليتوما عيني الرجل الضئيل تبتلان وبضع قطرات من الدموع تسيل على خديه.

ـ اجلس هنا يا سيد فيليثيتو ـ تنازل له الرقيب عن الكرسي الذي كان يحتله وساعده على الجلوس.

جلس صاحب شركة النقل وغطى وجهه بيديه. كان يبكي ببطء، دون ضجة. وكان جسده الخائر يهتز في اختلاجات مفاجئة. أحس ليتوما بالحزن من أجله. يا للرجل المسكين، لقد وجد أبناء العاهرة الآن حقاً الطريقة لتليين موقفه. ليس لهم حق، يا للظلم.

ـ يمكنني أن أقترح عليك أمراً يا دون ـ بدا النقيب متأثراً أيضاً بما

يحدث لفيليثيتو ياناكيه ـ. لن يمسوا شعرة واحدة من صديقتك. إنهم يريدون إخافتك، ولا شيء أكثر. يعرفون أنه من غير المناسب لهم إلحاق أدنى أذى بمابيل. إن بين أيديهم شخصاً لا يمكنهم المس به.

ـ يا للفتاة المسكينة ـ تلعثم فيليثيتو ياناكيه وسط شهقاته ـ. أنا المذنب، أنا من أدخلها في هذا الأمر. ماذا سيحل بها، رباه، لن أسامح نفسي أبداً.

رأى ليتوما أن وجه النقيب سيلفا منتفخ الخدين مع ظلال لحية يتحول من الأسى إلى الغضب ثم إلى الشفقة بعد ذلك. رآه يمد ذراعه، يربت على كتف دون فيليثيتو، ويقرّب وجهه منه ليقول له بحزم:

ـ أقسم لك بأقدس ما لدي، وهو ذكرى أمي، أنه لن يحدث لها شيء. سيعيدونها سليمة معافاة. وأقسم بقداسة أمي إنني سأحل هذه القضية، وسيدفع أبناء العاهرة هؤلاء، الثمن غالياً. أنا لا أقسم مثل هذا القسم عادة يا دون فيليثيتو. أنت رجل شجاع ثابت الخصيتين، بيورا بأسرها تقول هذا. لا تضعف الآن، أرجوك بأعز ما لديك.

بدا ليتوما مبهوراً. فما يقوله المفوض حقيقي: إنه لا يقسم أبداً بمثل هذا القَسَم الذي أقسمه. أحس بمعنوياته ترتفع: سيفعل ذلك، سيفعله. سيقبض عليهم. وسيندم أولئك البراز على اقترافهم مثل تلك النذالة مع هذا الرجل المسكين.

ـ أنا لن أضعف الآن ولا في أي وقت آخر ـ تلعثم صاحب شركة النقل وهو يمسح الدموع عن عينيه.

VIII

وصل ميكي وإسكوبيتا إلى الموعد بدقة، في الحادية عشرة صباحاً بالضبط. فتحت لهما الباب لوكريثيا نفسها وحييا بتقبيل خدها. بعد ذلك، بينما هما يجلسان في الصالة، جاءت خوستينيانا لتسألهما أي شيء تقدم إليهما. طلب ميكي قهوة مع قليل من الحليب، وطلب إسكوبيتا كوب مياه معدنية وغازية. كان صباحاً رمادياً انخفضت فيه بعض الغيوم طافية فوق البحر الضارب إلى خضرة قاتمة مع لطخات زبد في خليج ليما. وفي أعالي البحر كانت تُرى بعض مراكب الصيادين. كان ابنا إسماعيل كاريرا يرتديان بدلتين قاتمتين، ويضع كل منهما منديلاً بارزاً في الجيب العلوي الصغير، وتلمع ساعتا رولكس في معصميهما. حين رأيا دخول ريغوبيرتو نهضا واقفين: «مرحبا يا عماه». ففكّر صاحب البيت: «يا للعادة اللعينة». لا يدري السبب، ولكنه يتضايق من العادة المحدثة التي تنتشر بين شباب ليما منذ بضع سنوات، بالقول «يا عم» و«يا عمة» لجميع معارف الأسرة وللأشخاص المتقدمين في السن، مختلقين بذلك صلة قرابة لا وجود لها. صافحه ميكي وإسكوبيتا، ابتسما له، مبديين له مودة بالغة التدفق كي تبدو حقيقية. «كم تبدو في حالة جيدة أيها العم ريغوبيرتو»، «التقاعد جعلك أحسن حالاً أيها العم ريغوبيرتو»، «يبدو أنك رجعت شاباً عدة سنوات مذ رأيناك آخر مرة».

ـ لديك إطلالة بديعة من هنا ـ قال ميكي أخيراً وهو يشير إلى الكورنيش وبحر بارانكو ـ حين يكون الجو صحواً تستطيع رؤية المشهد من ليما حتى تشوريبّوس، أليس كذلك أيها العم؟

ـ أرى ذلك، ويرانا أيضاً جميع أولئك الأشخاص الذين يمارسون رياضة الطيران الشراعي ويلامسون لدى مرورهم نوافذ المبنى ـ أكد ريغوبيرتو ـ يمكن لهبة رياح في أي يوم أن تُدخل أحد أولئك الطيارين الجريئين إلى البيت.

احتفا «ابنا أخيه» بدعابته بضحكة مبالغ فيها. ففوجيء ريغوبيرتو: «إنهما أكثر عصبية مني».

لقد كانا توأمين ولكنهما لا يتشابهان في شيء سوى طول القامة، والجسدين الرياضيين، وعاداتهما السيئة. أتراهما يمضيان ساعات طويلة بممارسة التمارين، ورفع الأثقال في الصالة الرياضية بنادي بييّا أو نادي ريغاتاس؟ كيف تتوافق هذه العضلات مع حياة البوهيمية والشراب والكوكائين واللهو المنفلت من عقاله؟ لميكي وجه مدور وسعيد، وفم ثخين بأسنان لاحمة. شديد البياض، كأنه غرينغو، أشقر الشعر، يبتسم بين حين وآخر بصورة آلية، مثل دمية آلية. أما إسكوبيتا بالمقابل فشديد السمرة، له عينان سوداوان نفاذتان، وفم بلا شفتين، وصوت نحيل وزاعق. وله سالفان طويلان كأنهما سالفا مغني فلامنكو أو مصارع ثيران. «أيهما الأكثر جنوناً؟»، فكّر ريغوبيرتو. «ومن منهما الأسوأ؟».

ـ ألا تشتاق إلى المكتب الآن وقد أصبح وقتك كله فراغاً يا عماه؟ سأله ميكي.

ـ الحقيقة أنني لا أشتاق يابن الأخ. فأنا أقرأ كثيراً، وأستمع إلى موسيقى جيدة، وأقضي ساعاتٍ مستغرقاً في كتبي الفنية. فالرسم كان

أحب إليّ على الدوام من شركات التأمين، ولا بد أن يكون إسماعيل قد أخبرك بذلك. وصار بإمكاني الآن، أخيراً، أن أكرس له وقتاً طويلاً.

ـ يا للمكتبة التي تروق لك يا عماه ـ هتف إسكوبيتا مشيراً إلى الرفوف المرتبة في حجرة المكتب المجاورة ـ. يا لكمية الكتب الشيطانية! هل قرأتها كلها؟

ـ حسن، لم أقرأها كلها بعد ـ «هذا أشدهما فظاظة»، فكر حاسماً الأمر ـ. فبعضها كتب مرجعية فقط، مثل المعاجم والموسوعات التي على ذلك الرف في الركن. ولكن نظريتي تقول إن إمكانية قراءة الكتاب حين يكون موجوداً في البيت أكبر من إمكانية ذلك بوجوده في المكتبات.

ظل الأخوان ينظران إليه بارتباك، وكانا يتساءلان دون شك عما إذا كان ما قاله دعابة أم أنه يتكلم بجد.

ـ بكل هذه الكمية من كتب الفن التي تملكها هنا، تكون كمن جلب متاحف العالم كلها إلى مكتبك ـ أصدر ميكي حكمه وهو يبدي وجه رجل ماكر وحكيم. وأضاف:ـ وهكذا يمكنك زيارة تلك المتاحف دون أن تزعج نفسك بالخروج من البيت، يا للراحة.

«حين يُعرف مقدار حماقة ثنائيي الأرجل هذين، يُعرف مقدار ذكائهما»، هذا ما خطر لريغوبيرتو. كان من الصعب معرفة أيهما هو الأشد حماقة: هنالك تعادل. ساد صمت ثقيل، بلا نهاية، في الصالة، ولمداراة التوتر، راح الثلاثة ينظرون إلى المكتب. وفكر ريغوبيرتو: «لقد حان الوقت». هزته رعشة مفاجأة خفيفة، ولكنه كان يشعر بالفضول لمعرفة ما الذي سيحدث. راوده إحساس عبثي بأنه محمي بفعل وجوده في ميدانه الخاص، ومحاط بكتبه ولوحاته.

ـ حسنٌ يا عماه ـ قال ميكي وهو يرمش بسرعة كبيرة، وإصبعه في الهواء قبالة فمه ـ، أظن أن الوقت قد حان لنمسك الثور من قرنيه. وأن

ننتقل إلى الحديث في الأمور المؤسفة.

كان إسكوبيتا يواصل شرب المياه المعدنية من كأسه شبه الفارغة مصدراً قرقرة. وكان يحك جبهته دون توقف بينما عيناه الصغيرتان تنظران متقافزتين إلى أخيه وإلى ريغوبيرتو.

ـ مؤسفة؟ لماذا هي مؤسفة يا ميكي؟ ـ أبدى ريغوبيرتو ملامح المفاجأة ـ ما الذي جرى أيها الشابان؟ هل تورطنا في المشاكل مرة أخرى؟

ـ أنت تعرف جيداً ما الذي جرى أيها العم ـ صاح إسكوبيتا برجع غضب في صوته ـ لا تتظاهر، أرجوك.

ـ أتعني إسماعيل؟ ـ تظاهر ريغوبيرتو بالبلاهة ـ أتريدان أن نتحدث عنه؟ عن أبيكما؟

ـ صرنا سخرية ليما وموضوع النمائم فيها ـ أبدى ميكي وجهاً ميلودرامياً، وكان يعض إصبعه الصغرى بهمة. ويتكلم دون أن يرفع إصبعه من فمه، فيخرج صوته متكلفاً ـ لا بد أنك لاحظت ذلك، لأن الأحجار نفسها لاحظته. لم تعد هنالك تقولات وثرثرات عن أي أمر آخر في هذه المدينة، وربما في البيرو بأسرها. لم أتصور قطّ، في حياتي، أنه يمكن للعائلة أن تجد نفسها محشورة في مثل هذه الفضيحة.

ـ وهي فضيحة كان بإمكانك منعها أيها العم ريغوبيرتو ـ أكد إسكوبيتا مكدراً، ومبدياً نوعاً من التبرم بشفتيه. ويبدو أنه انتبه الآن فقط إلى أن كأسه فارغة من الماء. فوضعها على منضدة الوسط الصغيرة بمبالغة في الحذر.

«الميلودراما أولاً وبعد ذلك التهديد»، قدّر ريغوبيرتو الوضع. كان قلقاً بكل تأكيد، ولكنه مذهول أكثر فأكثر مما يجري. فهو يراقب التوءمين كمن يراقب ممثلين غير كفوءين، مبدياً ملامح الاهتمام والرصانة. لم

يكن يدري السبب، لكنه كان يشعر برغبة في الضحك.

ـ أنا؟ ـ أبدى الارتباك والتشوش ـ. لا أدري ما الذي تعنيه يا ابن أخي.

ـ أنت الشخص الذي اعتاد أبي الاستماع إليه دائماً ـ أكد إسكوبيتا بكثير من التفخيم ـ. وربما الشخص الوحيد الذي كان يستجيب لنصحه دوماً. أنت تعرف ذلك جيداً يا عماه، فلا تتظاهر. أرجوك. لسنا هنا لنلعب لعبة التكهنات. أرجوك!

ـ لو أنك نصحته، لو أنك عارضت، لو أنك أريته مدى فظاعة ما سيُقدم عليه، لما تحقق ذلك الزواج ـ أكد ميكي وهو يضرب على المنضدة. لقد تبدل الآن، ففي عمق عينيه الزرقاوين كانت تتلوى أفعى صغيرة. وكان صوته أكثر حدة.

سمع ريغوبيرتو صوت موسيقى آتياً من هناك في الأسفل، من الكورنيش: إنه صفير ناي مجلخ السكاكين. وهو يسمعه دوماً في الموعد نفسه. إنه رجل دقيق في مواعيده هذا المجلخ. عليه أن يرى وجهه ذات يوم.

ـ وهو زواج لا يساوي أي شيء على كل حال، لأنه مجرد قمامة ـ صحح إسكوبيتا لأخيه ـ مجرد مهزلة بلا أية قيمة قانونية. وأنت تعرف هذا أيضاً يا عماه، فلسبب ما أنت محامٍ. ولهذا دعنا نتحدث على المكشوف، إذا رغبت، وأن نسمي الخبز خبزاً والنبيذ نبيذاً.

«ما الذي يحاول قوله هذا السفيه؟»، تساءل دون ريغوبيرتو «كلاهما يستخدم الأمثال على هواه، لسد الفراغ، دون أن يدركا ما تعنيه».

ـ لو أنك أخبرتنا في الوقت المناسب بما كان يحيكه أبي، لكنا أوقفنا الأمر، حتى لو اقتضى الأمر الاستعانة بالشرطة ـ ألح ميكي. وكان لا يزال يتكلم بحزن مفتعل، ولكنه لم يستطع الحيلولة دون أن

يُظهر في نبرة صوته بوادر غضب. وقد صارت عيناه شبه العابستين الآن تتوعدان ريغوبيرتو.

ـ لكنك بدلاً من أن تحذره، ساهمتَ في تلك المهزلة إلى حدّ أنك وضعت توقيعك كشاهد أيها العم ـ رفع إسكوبيتا يده وقام بحركة غاضبة في الهواء ـ. وقّعت إلى جانب نرسيس. حتى السائق، وهو مجرد أميّ بائس، لطختموه بتلك المؤامرة المشينة، شديدة القبح. عمل سيئ هذا الاستغلال لشخص جاهل. الحقيقة أننا لم نكن ننتظر مثل هذا الأمر منك أيها العم ريغوبيرتو. عقلي لا يتقبل أنك ساهمت في ذلك العمل التهريجي السيئ.

ـ لقد خيبت أملنا أيها العم ـ واصل ميكي وهو يتململ، كما لو أن ملابسه تضغط عليه ـ. هذه هي الحقيقة المحزنة: خيـ ـ بت ـ أملـ ـ نا. مثلما تسمع وقعها. يحزنني أن أقول لك هذا، ولكن هكذا هي الحال. أقولها لك في وجهك، وبأكبر قدر من الصراحة، لأنها الحقيقة المحزنة. أنت تتحمل مسؤولية رهيبة عما جرى أيها العم. ولكي أكلمك على المكشوف، أنت لا تدري ما الذي تعرّض نفسك له. قد تترتب عليك نتائج سيئة في حياتك الخاصة، وفي حياتك الأخرى.

«ما هي حياتي الأخرى؟»، فكر ريغوبيرتو. كان كلاهما قد بدأ برفع الصوت، وتبخر التودد المهذب، وتلاشت معه الابتسامات. صار التوءمان الآن جديين جداً، وما عادا يخفيان سخطهما. «هل سيعرضان عليَّ أموالاً؟ هل سيهدداني بقاتل مأجور؟ هل سيُشهران مسدساً في وجهي؟» كل شيء محتمل مع مثل ذلك الثنائي.

ـ لم نأت لتأنيبك ـ غيّر إسكوبيتا الاستراتيجية فجأة، وأضفى العذوبة مجدداً على صوته. كان يبتسم، يداعب أحد سالفيه، غير أن ابتسامته بدت ملتوية وحربية.

ـ إننا نحبك كثيراً يا عماه ـ أكد ميكي وهو يتنهد ـ. لقد رأيناك منذ مولدنا، إنك أشبه بأقرب أقربائنا، كل ما هنالك...

لم يستطع إكمال الفكرة وظل فاغر الفم وبنظرة مرتبكة، كالمقيد. فاختار أن يعضعض إصبعه الصغرى من جديد، وبغضب. «أجل، هذا أشدهما جلافة»، أكد لنفسه دون ريغوبيرتو.

ـ الشعور متبادل يابن الأخ ـ استغل صمتهما كي يقول جملة ـ. اهدأ، أرجوك. ولنتحدث كأشخاص عقلانيين ومتحضرين.

ـ قول هذا سهل عليك وليس علينا ـ أجابه ميكي رافعاً صوته. وفكر ريغوبيترو: «طبعاً، إنه لا يعرف ما الذي يقوله، ولكنه يصيب في القول أحياناً» ـ. فليس والدك وإنما والدنا هو الذي تزوج من خادمته، الخلاسية التشولا الجاهلة والمقملة، وحوّلنا إلى محط سخرية عائلات ليما المحترمة كلها.

ـ وهو زواج ليست له فوق ذلك أية قيمة! ـ تذكر إسكوبيتا من جديد وهو يومئ بعصبية ـ مجرد مهزلة بلا أية قيمة قانونية. وأظن أنك تدرك الأمر جيداً أيها العم ريغوبيرتو. لهذا دعك من التظاهر بعدم الفهم، وبأنك لا تلاحظ شيئاً.

ـ ما الذي عليّ ملاحظته يابن الأخ؟ ـ سأله بجدية، وبفضول يبدو ساذجاً ـ. أرغبُ في أن تشرح لي معنى ما قلته عن عدم الفهم. إنه من مترادفات الغباء، أليس كذلك؟

ـ ما أعنيه هو أنك قد أدخلت نفسك في مشكلة كبيرة بمحض الجهالة ـ انفجر إسكوبيتا ـ. مشكلة ابنة عاهرة، إن سمحتَ لي بالفجاجة. ربما دون أن ترغب في ذلك، ولاعتقادك بأنك تقدم خدمة إلى صديق مقرب. إننا نأخذ بطيب نواياك. ولكن هذا لا يهم، لأن القانون هو القانون على الجميع، وفي هذه القضية أكثر من أي قضية أخرى.

ـ يمكن لهذا الأمر أن يتسبب بمشاكل خطيرة، لك ولأسرتك ـ أبدى ميكي الشفقة بينما هو يتكلم ويُدخل في آن واحد إصبعه الصغرى في فمه من جديد ـ. لا نريد إخافتك، ولكن هكذا هي الأمور. ما كان عليك أن توقّع على تلك الورقة بأي حال. أقول لك هذا بطريقة موضوعية ومحايدة. وبكل المحبة طبعاً.

ـ إننا نقول هذا من أجل مصلحتك أيها العم ريغوبيرتو ـ حدّد أخوه ـ إننا نفكر في مصلحتك أكثر مما نفكر في مصلحتنا، حتى لو لم تصدق ذلك. ونرجو ألا تندم على حشر نفسك في هذه الورطة.

«عما قريب سيصلان إلى الهستيريا، ولن يتورع هذان الحيوانان عن ضربي»، استنتج ريغوبيرتو ذلك. فقد كان التوءمان ينساقان للغضب، وصارت نظراتهما وإيماءاتهما وحركاتهما تزداد عدوانية في كل لحظة. فكّر: «أيكون عليّ أن أدافع عن نفسي بقبضتيّ في مواجهة هذا الثنائي؟». لم يعد يتذكر آخر مرة تبادل اللكمات مع أحد. من المؤكد أن ذلك حدث في مدرسة ريكوليكتا، خلال إحدى الفسح بين الدروس.

ـ لقد قمنا بكل الاستشارات، ومع أفضل المحامين في ليما. ونحن نعرف ما الذي نتحدث فيه. ولهذا نطلب منك أن تؤكد أنك قد تورطت في مشكلة اللعنة العظيمة هذه أيها العم. وآسف لأني أقول لك هذا بكلام غير مهذب، ولكن علينا نحن الرجال أن ننظر إلى الحقيقة مواجهة. ومن الخير لك أن تكون مطلعاً.

ـ ستواجه تهمة التواطؤ والتستر ـ أوضح ميكي بنبرة وقورة، متهجياً كل كلمة ببطء شديد لمنحها مزيداً من الصبغة القتالية. وكان صوته ناشزاً طوال الوقت وعيناه جمرتين متوقدتين.

ـ قضية إبطال الزواج قد انطلقت ولن يتأخر إصدار الحكم فيها طويلاً ـ أخبره إسكوبيتا ـ. ولهذا فإن أفضل ما يمكن أن تفعله هو

مساعدتنا أيها العم ريغوبيرتو. وأعني ما هو أفضل لك طبعاً.

ـ وبعبارة أخرى، لسنا نريد أن تساعدنا نحن وإنما أن تساعد أبينا أيها العم ريغوبيرتو. أن تساعد صديقك مدى الحياة، الشخص الذي كان أخاً كبيراً لك. وأن تساعد نفسك بالذات، وتخرج من ورطة الألف عاهرة هذه التي أدخلت نفسك وأدخلتنا نحن أيضاً فيها. أتدرك هذا؟

ـ بصراحة، لا يابن الأخ. لستُ مدركاً أي شيء، اللهم إلا أنكما متوتران ـ لقد أنبهما ريغوبيرتو في الواقع بجدية، بطريقة محببة، وهو يبتسم لهما ـ. بما أنكما تتكلمان معاً في وقت واحد، فإنني أعترف لكما بأنكما أصبتماني بدوار. لستُ أفهم جيداً ما تسعيان إليه. لماذا لا تهدأان وتوضحا لي بهدوء ما الذي تريدانه مني.

هل ظن التوءمان أنهما قد كسبا الجولة؟ أهذا ما يفكران فيه؟ لأن سلوكهما هدأ فجأة. وقد صارا يتأملانه باسمين، وراحا يهزان رأسيهما ويتبادلان في ما بينهما نظرات التواطؤ والرضى.

ـ أجل، أجل، اعذرنا، لقد تجاوزنا الحدود قليلاً ـ اعتذر ميكي ـ. أنت تعرف أننا نحبك كثيراً أيها العم.

«إن أذنيه كبيرتان مثل أذنيَّ»، فكّر ريغوبيرتو. «ولكن أذنيه تتحركان وأذنيَّ لا».

ـ واعذرنا، بصورة خاصة، إذا كنا قد رفعنا صوتنا عليك ـ تابع إسكوبيتا وهو يحرك يديه في الهواء بلا مبرر ولا معنى، مثل قرد هائج ـ ولكن هذا أقل ما يمكن فعله في ظل ما وصلت إليه الأمور، عليك أن تتفهم الأمر. جنون أبي العجوز الخرف أفقدنا صوابنا أنا وميكي.

ـ الأمر بسيط جداً ـ أوضح ميكي ـ. نحن ندرك جيداً أنك، بسبب كون أبي رئيسك في العمل، لم تستطع رفض التوقيع على تلك الورقة كشاهد. وكذلك حال التعيس نرسيس. سيأخذ القاضي ذلك بعين

الاعتبار طبعاً. وسيكون مفيداً كعامل مُخَفِف. لن يحدث لكما أي شيء. المحامون يضمنون ذلك.

«كلمة محامي في فمه أشبه بعصا سحرية»، فكّر دون ريغوبيرتو بمرح.

ـ إنكما مخطئان، فأنا ونرسيس لم نوافق على أن نكون شاهدي أبيكما لأننا مرؤساه في العمل ـ وبخهما بلطف ـ. أنا فعلت ذلك لأن إسماعيل، فضلاً عن كونه رئيسي في العمل، هو صديقي مدى الحياة. وفعل نرسيس ذلك أيضاً للمحبة الكبيرة التي يشعر بها تجاه أبيكما.

ـ لقد قدمتَ إذاً جميلاً خبيثاً إلى صديقك المحبب ـ غضب إسكوبيتا من جديد، وقد صعدت إمارات الغضب الآن إلى وجهه، كما لو أنه أصيب بضربة شمس مفاجئة، فقد صارت عيناه السوداوان تقدحان شرراً ـ فأبونا العجوز لم يكن يعرف ما الذي يفعله. إنه خَرِف منذ زمن. ومنذ زمن لم يعد يعرف أين هو ولا من يكون، وأقل من ذلك معرفته بما يفعله بوقوعه في غواية خلاسية البراز تلك التي يتقود معها، إن كنت تسمح لي بهذا التعبير.

«يتقود؟»، فكر ريغوبيرتو. «لا بد أنها أقبح كلمة في اللغة القشتالية، إنها كلمة تعبق برائحة كريهة ولها شَعر».

ـ أتصدق أن أبي الذي كان سيداً محترماً على الدوام، سيُقدم، وهو بكامل قواه العقلية، على الزواج من خادمة. والأدهى أنها أصغر منه بأربعين عاماً؟ ـ أيده ميكي فاتحاً فمه كثيراً ومُظهراً أسنانه الكبيرة.

ـ أتصدق مثل هذا الأمر؟ ـ صارت عينا إسكوبيتا الآن حمراوين وصوته منكسراً ـ. غير ممكن، أنت رجل ذكي ومثقف، لا تخدع نفسك، ولا تحاول خداعنا. فلا أنت ولا أحد سواك يمكن له أن يدس إصبعه في فمنا، كي تعرف.

ـ لو كان لدي شك في أن إسماعيل لا يتمتع بكامل أهليته لما وافقت على أن أكون شاهده يابن الأخ. أرجوكما أن تتركاني أتكلم. أتفهم أنكما متأثران جداً. وهذا من حقكما بكل تأكيد. ولكن عليكما أن تبذلا جهداً لتقبل الوقائع مثلما هي. ليس الأمر كما تظنان. فقد فوجئت كثيراً أيضاً بزواج إسماعيل. مثلما فوجئ الجميع بالطبع. ولكن إسماعيل كان يعرف جيداً ما يفعله، وأنا متأكد تماماً من ذلك. لقد اتخذ قرار الزواج بعقل واع، وبمعرفة مطلقة بما هو مقدم عليه؛ وبنتائج ما فعله.

وبينما هو يتكلم، كان يلحظ تعاظم السخط والعداء في وجهي التوءمين.

ـ أعتقد أنك لن تتجرأ على أن تردد أمام قاض هذه البلاهات التي تقولها ـ نهض إسكوبيتا عن المقعد وتقدم خطوة نحوه متأججاً. لم يعد الآن محتقناً بل كان يرتجف ووجهه شاحب.

لم يتحرك دون ريغوبيرتو من مقعده. كان ينتظر أن يمسك به ويهزه، وربما أن يضربه، ولكن إسكوبيتا كبح نفسه، واستدار وعاد للجلوس. كان وجهه المدور مغطى بالعرق. «ها قد جاءت التهديدات. هل سيأتي الضرب أيضاً؟».

ـ إذا كنت تريد إخافتي فقد توصلتَ إلى ذلك يا إسكوبيتا ـ اعترف بهدوئه الثابت ـ. وبعبارة أدق، توصلتما إلى ذلك كليكما معاً. أتريدان معرفة الحقيقة؟ إنني أموت خوفاً يابني أخي. إنكما شابان، قويان، مندفعان، ولديكما أوراق اعتماد وسوابق تبعث الخوف في أشد الناس جرأة. وأنا أعرف سوابقكما جيداً، لأنني كما تتذكران قد ساعدتكما مرات كثيرة على الخروج من التعقيدات والمخالفات القانونية التي تورطتما فيها منذ شبابكما المبكر. مثلما حدث حين اغتصبتما تلك الفتاة

في بوكوسانا، هل تتذكران؟ أنا مازلت أتذكر حتى اسمها: فلوراليسا روكا. هكذا كان اسمها. ولم أنسَ كذلك بالطبع أنه كان عليّ أن أقدم خمسين ألف دولار لأبويها، كيلا تدخلا السجن بسبب الظرافة التي ارتكبتماها. وأنا أعرف جيداً، أنكما قادران على سحقي إذا قررتما ذلك. وهذا واضح جداً.

تبادل التوءمان النظرات مرتبكين، أبديا الجدية، حاولا الابتسام دون أن يتمكنا من ذلك، وبدا عليهما الغيظ.

ـ لا تأخذ الأمر على هذا النحو ـ قال ميكي أخيراً وهو يُخرج إصبعه الصغرى من فمه ويربت على ذراع ريغوبيرتو ـ إننا في لقاء سادة محترمين أيها العم.

ـ لن نمد يدنا إليك بالأذى أبداً ـ أكد إسكوبيتا مذعوراً ـ. نحن نحبك يا عماه، حتى لو لم تصدق هذا. على الرغم من سوء تصرفك معنا بتوقيعك تلك الورقة المقرفة.

ـ اتركاني أكمل ـ هدأهما ريغوبيرتو بحركة من يديه ـ ولكن على الرغم من خوفي، إذا ما استدعاني القاضي لأصرح بما لدي، فسوف أقول له الحقيقة. إن إسماعيل قد اتخذ قرار الزواج وهو يعرف تماماً ما الذي يفعله. وإنه ليس مختلاً، وليس خرفاً، ولم تُغرر به أرميدا أو أي شخص آخر. لأن أباكما مازال أكثر فطنة منكما معاً. هذه هي الحقيقة الصارمة يابني الأخ.

ساد الغرفة مرة أخرى صمت شوكي كثيف ومشحون. وفي الخارج، كانت الغيوم قد اسودت، وهناك في البعيد، في الأفق البحري، ظهرت أضواء كهربائية يمكن لها أن تكون كشافات سفينة أو بروق عاصفة. كان ريغوبيرتو يشعر باضطراب في صدره. وكان التوءمان لا يزالان شاحبين وينظران إليه بطريقة قال لنفسه معها إنهما يبذلان، دون

شك، جهوداً عظيمة ليكبحا نفسيهما من الانقضاض عليه وسحقه. وفكّر: «لقد قدمت لي جميلاً خبيثاً بإدخالي في هذا الأمر يا إسماعيل».

كان إسكوبيتا هو أولهما في التكلم. وفعل ذلك خافضاً صوته، كما لو أنه سيخبره بسر، وكان ينظر بثبات إلى عينيه بنظرة تلمع بالازدراء.

ـ هل دفع لك أبي مقابل هذا؟ هل يمكنني معرفة كم دفع لك أيها العم؟

باغته السؤال بطريقة أبقته فاغر الفم.

ـ لا تأخذ هذا السؤال على محمل السوء ـ أراد ميكي إصلاح الأمور، وقد أخفض صوته كذلك وراح يحرك يده لطمأنته ـ. لا داعي لأن تخجل، فلجميع الناس احتياجاتهم. وإسكوبيتا يسألك لأنه إذا كان للأمر علاقة بالنقود، فنحن أيضاً على استعداد لأن نكرمك. لأننا في الحقيقة بحاجة إليك أيها العم.

ـ نحتاج لأن تمثل أمام القاضي، وأن تصرح بأنك وقّعت كشاهد تحت الضغط والتهديد ـ أوضح إسكوبيتا ـ. إذا ما صرحت أنت ونرسيس بهذا، فسوف يمضي كل شيء بطريقة أسرع، وسوف يُلغى الزواج بجرة قلم. ونحن على استعداد طبعاً لمكافأتك أيها العم. وبصورة سخية.

ـ هذه الخدمات يُدفع ثمنها، ونحن نعرف جيداً في أي عالم نعيش ـ أضاف ميكي ـ. وسيجري كل شيء بتكتم مطلق بالطبع.

ـ أضف إلى ذلك أنك ستقدم جميلاً عظيماً لأبي أيها العم. فلا بد أن يكون المسكين في حالة من اليأس الشديد الآن، ولا يدري كيف يفلت من الشَّرك الذي وقع فيه في لحظة ضعف. نحن سنُخرجه من المشكلة وسينتهي به الأمر إلى شكرنا، حقاً.

استمع إليهما ريغوبيرتو دون أن يرمش أو يتحرك، كان متحجراً في

المقعد، كما لو أنه مستغرق في تأملات رصينة. وكان التوءمان ينتظران رده متلهفين. تطاول الصمت لما يقارب الدقيقة. وفي البعيد كان يُسمع بين حين وآخر صفير ناي المجلخ الذي صار خافتاً جداً.

ـ سأطلب منكما أن تخرجا من هذا البيت، وألا تعودا إلى وضع أقدامكما هنا ـ قال دون ريغوبيرتو أخيراً، بهدوئه الدائم نفسه ـ الحقيقة أنكما أسوأ مما كنت أظنه أيها الشابان. مع أنه إذا كان هناك من يعرفكما جيداً، فهو أنا، مذ كنتما ترتديان البنطلونات القصيرة.

ـ إنك تهيننا ـ قال ميكي ـ لا تخطئ يا عماه. إننا نحترم شيبتك، ولكن إلى هذا الحد وليس أكثر.

ـ لن نسمح لك ـ أكد إسكوبيتا وهو يضرب المنضدة بقبضته ـ. وليكن معلوماً لديك أنك ستخسر في كل الحالات. فتقاعدك نفسه مازال تحت الدراسة.

ـ لا تنس من سيكونان صاحبي الشركة فور ارتعاش ساق العجوز المجنون ـ هدده ميكي.

ـ طلبت منكما أن تغادرا ـ قال ريغوبيرتو وهو ينهض ويشير إلى الباب ـ ولا تعودا للمجيء أبداً إلى هذا البيت. لا أريد رؤيتكما بعد اليوم.

ـ أتظن أنك ستطردنا هكذا من بيتك يا شقفة القواد؟ ـ قال إسكوبيتا وهو ينهض أيضاً ويشد قبضتيه.

ـ اصمت ـ قاطعه أخوه وهو يمسكه من ذراعه ـ. لا يمكن للأمور أن تنحط إلى مشاجرة. اعتذر من العم ريغوبيرتو لشتمك إياه يا إسكوبيتا.

ـ لا حاجة إلى ذلك. يكفي أن تغادرا ولا تعودا ـ قال ريغوبيرتو.

ـ إنه هو من أهاننا يا ميكي. إنه يطردنا من بيته كالكلاب الجرباء. أتراك لم تسمعه؟

ـ اعتذر منه، يا للعنة! ـ أمره ميكي وهو ينهض واقفاً أيضاً ـ. الآن بالذات، اطلبْ منه المعذرة.

ـ لا بأس ـ أذعن إسكوبيتا، وكان يرتعش مثل ورقة ـ. أطلب منك الصفح عما قلته يا عماه.

ـ لقد سامحتك ـ أكد ريغوبيرتو ـ لقد انتهت هذه المحادثة. شكراً لزيارتكما أيها الشابان. وطاب صباحكما.

ـ سنتبادل الحديث مرة أخرى، بهدوء أكبر ـ قال ميكي مودعاً ـ. يؤسفني أن الأمر انتهى على هذا النحو أيها العم ريغوبيرتو. كنا نرغب في التوصل إلى اتفاق ودي معك. ونظراً إلى عدم تساهلك، لا بد من نقل القضية إلى السلطة القضائية.

ـ وليس هذا في مصلحتك، أقولها لك بكل طيب نية لأنك ستندم ـ قال إسكوبيتا ـ. من الأفضل أن تعيد التفكير في الأمر.

ـ هيا يا أخي، اصمت ـ أمسك ميكي أخاه من ذراعه وسحبه باتجاه الباب الخارجي.

ما إن خرج التوءمان من البيت حتى رأى ريغوبيرتو ظهور لوكريثيا وخوستينيانا بوجهين مذعورين. وكانت هذه الأخيرة تحمل بين يديها، كسلاح حاسم، مدقة عجن الدقيق.

ـ لقد سمعنا كل شيء ـ قالت لوكريثا وهي تتأبط ذراع زوجها ـ. لو أنهما أقدما على عمل أي شيء لك، كنا جاهزتين للتدخل والانقضاض على الضبعين.

ـ آه، من أجل هذا تحملين مدقة خفق العجين ـ سأل ريغوبيرتو، فأومأت خوستينيانا بالإيجاب ملوحة في الهواء بهراوتها المرتجلة.

ـ وأنا كنت أحمل في يدي قضيب تسعير نار المدفأة ـ قالت لوكريثيا ـ. كنا سننتزع عيون هذين المحتالين. أقسم لك يا حبي.

ـ لقد أحسنتُ التصرف، أليس كذلك؟ ـ أبرز دون ريغوبيرتو صدره ـ لم أسمح لنفسي بالخوف في أية لحظة من ثنائي المتخلفين.

ـ لقد تصرفت كسيد عظيم ـ قالت لوكريثيا ـ وقد هزم الذكاء القوة البهيمية في هذه المرة على الأقل.

ـ تصرفتَ كرجل يغطي الشعر صدره يا سيدي. قالت خوستينيانا كصدى لقول لوكريثيا.

ـ لا أريد أن تصل كلمة واحدة من هذا كله إلى فونتشيتو ـ أمر ريغوبيرتو ـ لدى الصبي ما يكفي من وجع الرأس وليس بحاجة للمزيد.

وافقتا على كلامه، وفجأة، في آن واحد، انفجر الثلاثة في الضحك.

IX

بعد ستة أيام من نشر إعلان فيليثيتو ياناكيه في جريدة «*التيمبو*» (وهو إعلان مُغْفَل، خلافاً لإعلانه الأول)، لم يُبد الخاطفون أثراً لوجودهم. وعلى الرغم من الجهود التي بذلها ليتوما والنقيب سيلفا، إلا أنهما لم يجدا أي أثر لمابيل. لم يكن خبر الاختطاف قد وصل إلى الصحافة، وكان النقيب سيلفا يقول إن مثل هذه المعجزة لا يمكن أن تستمر، فمن المحال، في ظل الاهتمام الذي تحظى به قضية صاحب ناريهوالا للنقل في البيرو بأسرها، ألا يحتل حدثٌ بمثل تلك الأهمية صدارة أخبار الجرائد والإذاعة والتلفزيون سريعاً. ففي أية لحظة قد يُعرف كل شيء ويصاب العقيد راسكاتشوتشا بنوبة غضب عظيمة أخرى، مع ما يرافقها من توبيخ وتجريح ورفسات عصبية.

كان ليتوما يعرف رئيسه بما يكفي لأن يدرك مدى القلق الذي يشعر به المفوض، حتى ولو لم يقل ذلك، وأبدي الثقة بالنفس وواصل التفوه بتعليقاته النابية والداعرة المعهودة. لا بد أن رئيسه يتساءل، مثلما يتساءل هو نفسه، عما إذا لم تكن يد مافيا العنكبوت قد تجاوزت الحدّ مع تلك السمراء، عشيقة دون فيليثيتو، وصارت في عداد الموتى ومدفونة في إحدى مزابل الضواحي. ففي كل مرة يلتقيان فيها بصاحب شركة النقل الذي تستنزفه تلك النكبة، كان الرقيب والنقيب يتأثران للازرقاق المحيط بعينيه، وارتجاف يديه، ولكيفية انقطاع صوته في منتصف

جملة وتوقفه كمخبول، ينظر إلى الفراغ برعب، صامتاً وأسير جنون فظيع يتبدى في عينيه الصغيرتين الحادتين. «في أية لحظة قد تصيبه سكتة قلبية ويظل متخشباً هنا»، كان ليتوما يفكر بخوف. وقد صار رئيسه يدخن الآن ضعف عدد السجائر التي كان يدخنها من قبل، ويستبقي أعقاب السجائر بين شفتيه ويعضعضها، وهو ما لا يفعله إلا في حالات القلق العظيم.

ـ ماذا سنفعل إذا لم تظهر السيدة مابيل يا نقيبي. أقول لك إن هذه القضية تؤرقني كل ليلة.

ـ سننتحر يا ليتوما ـ يحاول المفوض أن يمزح ـ. سنلعب لعبة الروليت الروسية، وهكذا نغادر هذا العالم بخصيتين قويتين، مثلما حدث لسيميناريو مراهنتك. ولكنها ستظهر، لا تكن متشائماً جداً. فهم يعرفون من الإعلان في *«التيمبو»*، أو يظنون على الأقل، أنهم قد كسروا إرادة ياناكيه أخيراً. ولا بد أنهم يريدونه الآن أن يعاني قليلاً كي ينجزوا العمل على أحسن وجه. ليس هذا هو ما يقلقني يا ليتوما. أتعرف ما الذي يقلقني بالمقابل؟ أن يفقد دون فيليثيتو عقله، ويخطر له فجأة أن ينشر إعلاناً آخر يتراجع فيه عن السابق ويقوض الخطة كلها.

لم يكن من السهل إقناعه. فقد تطلب الأمر من النقيب عدة ساعات في تقديم السيناريوهات المحتملة من أجل نشر الإعلان في جريدة *«التيمبو»* ذلك اليوم بالذات. تحدث إليه أولاً في المفوضية، وبعد ذلك في «**الرَّجل الغريبة**»، وهي حانة أخذاه إليها، هو وليتوما، بما يشبه الجرجرة. رأياه يشرب، واحداً بعد آخر، نصف دستة من أكواب كوكتيل الخروب، على رغم من أنه لا يشرب أبداً، كما كرر لهما عدة مرات. فالكحول يؤذي معدته، يسبب له حرقة وإسهالاً. ولكنه مختلف الآن. فقد عانى انكساراً رهيباً، هو الأشد ألماً في حياته، والكحول يكبح

الرغبة في نوبة بكاء أخرى.

ـ أرجوك أن تصدقني يا دون فيليثيتو ـ كان المفوض يشرح له مبدياً المزيد من الصبر ـ أنا لا أطلب منك أن تستسلم في مواجهة المافيا، أفهم ذلك. لا يمكن أن يخطر لي أن أنصحك بأن تدفع لهم الإتاوة التي يطلبونها.

ـ هذا ما لن أفعله أبداً ـ كرر صاحب شركة النقل مرتجفاً وحاسماً ـ حتى لو قتلوا مابيل واضطررتُ إلى الانتحار كيلا أعيش مع هذا الشعور بالذنب في ضميري.

ـ لستُ أطلب منك سوى التظاهر، لا شيء أكثر. اجعلهم يعتقدون أنك وافقت على شروطهم ـ ألح النقيب ـ ليس عليك أن تتخلى لهم عن سنتٍ واحد، أقسم لك بأمي. وبخوسيفيتا، تلك الجميلة. إننا بحاجة إلى أن يطلقوا سراح الفتاة، ويمكن لهذا أن يجعلنا نتلمس آثارهم. أعرف جيداً ما أقوله لك، صدقني. إنها مهنتي وأعرف بالتفصيل كيف يتصرف أولئك المجرمون. لا تكن عنيداً يا دون فيليثيتو.

ـ لست أفعل هذا عناداً أيها النقيب ـ كان صاحب شركة النقل قد هدأ، وبدت على وجهه الآن ملامح تراجيكوميدية، لأن خصلة شعر قد تدلت على جبينه وغطت جزءاً من عينه اليمنى. وبدا أنه لم ينتبه إليها ـ أنا أحب مابيل كثيراً، أحبها. قلبي يتمزق لوقوع شخص مثلها، ليس له أية علاقة بهذه القضية، ضحية شرور أولئك المجرمين وجشعهم. ليس الأمر متعلق بي، عليك أن تفهمني أيها النقيب. لا يمكنني أن أسيئ إلى ذكرى أبي.

ظل صامتاً لبرهة، يتأمل كأسه الفارغة من شراب الخروب، فظن ليتوما أنه سيبدأ بالتباكي مرة أخرى. لكنه لم يفعل. بل أطرق برأسه، دون أن يراهما، كما لو أنه لا يتوجه إليهما وإنما يكلم نفسه، وراح

الرجل الضئيل المحشور في جاكيته وفي صداره الرمادي يتذكر أبيه. كانت هناك بضع ذبابات زرقاء تزنُّ محومة حول رأسه؛ وفي البعيد يُسمع جدال مرتفع الصوت بين رجلين حول حادث سير. كان فيليثيتو يتكلم بصورة متقطعة، يبحث عن الكلمات لإضفاء التفخيم اللازم على ما يرويه، ويستسلم للعاطفة أحياناً. سرعان ما أدرك ليتوما والنقيب سيلفا أن ذلك الياناكوني المدعو أليني ياناكيه، من مزرعة ياباتيرا بتشولوكاناس، هو أكثر شخص أحبه فيليثيتو في حياته. ليس لأن دماءه نفسها تجري في عروقه وحسب، وإنما كذلك لأنه تمكن بفضل ذلك الأب من الوقوف على قدميه والصعود انطلاقاً من الفقر، أو بعبارة أدق، من البؤس الذي ولد وأمضى طفولته فيه ـ وهو بؤس لا يمكن لهما حتى أن يتصوراه ـ إلى أن صار رجل أعمال، يملك أسطولاً كبيراً من السيارات والشاحنات والحافلات، وشركة نقل معتمدة تمنح السمو لاسم عائلته المتواضع. لقد اكتسب احترام الناس، ومن يعرفونه يعرفون أنه محترم ونزيه. وقد تمكن من توفير تعليم جيد لابنيه، وحياة كريمة، ومهنة، وسيترك لهما ناريهولا للنقل، الشركة المحترمة جداً بين زبائنها ومنافسيها. وهذا كله لم يتوصل إليه بجهوده وحدها، وإنما بتضحيات أليني ياناكيه. فهو لم يكن أبوه وحسب، بل كان أمه وأسرته أيضاً، لأن فيليثيتو لم يعرف قطّ المرأة التي جاءت به إلى الدنيا، كما أنه لم يعرف أي قريب آخر له. بل إنه لم يكن يعرف سبب ولادته في ياباتيرا، وهي قرية زنوج وخلاسيين، حيث كان آل ياناكيه ـ هو وأبوه ـ يبدوان غريبين لكونهما كرويليين، أي خلاسيين تشولو. كانا يمارسان حياة منعزلة عن الآخرين، لأن زنوج ياباتيرا ما كانوا يتصادقون مع أليني وابنه. فقد عاشا وحيدين على الدوام، إما لأنهما بلا أسرة، وإما لأن أباه لم يكن يرغب في أن يعرف فيليثيتو من

هم أعمامه وأبناء عمومته، وأين يعيشون. إنه لا يتذكر، لأنه كان صغيراً جداً عندما حدث ذلك، ولكنه يعرف أن أمه قد ذهبت بعد قليل من ولادته، ومن يدري إلى أين راحت ومع من. ولم تظهر بعد ذلك قطّ. وهو يتذكر، مذ صار في رأسه ذاكرة، أن أباه كان يعمل كبغل في قطعة الأرض التي قدمها إليه السيد المالك، وفي مزرعة ذلك السيد، دون عطلة يوم أحد أو أعياد، طيلة أيام الأسبوع وطيلة شهور السنة. وكان ألينيو ياناكيه يُنفق كل ما يتلقاه، وهو قليل، من أجل إطعام فيليثيتو، وذهابه إلى المدرسة، ومن أجل أن يوفر له حذاء وملابس ودفاتر وأقلام. وفي بعض الأحيان كان يهدي إليه لعبة ما في عيد الميلاد، أو يعطيه قطعة نقود كي يشتري مصاصة أو حلوى. لم يكن من أولئك الآباء الذين يظلون طيلة الوقت يمننون أبناءهم ويثقلون عليهم بالعجرفة. كان أباً قليل الكلام، متقشفاً، لم يقبّله أو يعانقه قطّ، ولم يروِ له دعابات لإضحاكه. ولكنه حرم نفسه من كل شيء كيلا يكون ابنه حين يكبر أمياً مثله. لم يكن يوجد في ياباتيرا آنذاك ولو مدرسة صغيرة. فكان على فيليثيتو أن يمشي من بيته حتى تشولوكاناس، حوالي خمسة كيلومترات ذهاباً وخمسة أخرى إياباً، ولم يكن يجد على الدوام سائقاً مُحسناً يسمح له بالصعود إلى شاحنته ويوفر عليه تلك المسيرة. لا يتذكر أنه تغيب يوماً واحداً عن المدرسة. وكان يحصل دوماً على درجات جيدة. ولأن أباه لا يعرف القراءة، كان على فيليثيتو نفسه أن يقرأ له ما يقوله سجله المدرسي، وأن يشعر بالسعادة حين يرى ألينيو ينتفخ كطاووس وهو يسمع تعليقات ثناء المعلمين. ومن أجل أن يتمكن فيليثيتو من مواصلة المدرسة الإعدادية، ولأنه لا وجود لمكان شاغر في مدرسة تشولوكاناس الوحيدة، اضطرا إلى المجيء إلى بيورا. وقد أسعد ألينيو أن ابنه فيليثيتو قد قُبل في وحدة سان ميغيل المدرسية في بيورا، وهي

المدرسة الرسمية الأشهر في المدينة. وبأمر من أبيه، أخفى فيليثيتو عن زملائه وأساتذته أن أباه يكسب عيشه من تحميل البضائع وتفريغها في السوق المركزي، هناك في غاييّناثيرا، وأنه يعمل في الليل بجمع القمامة في شاحنات البلدية. كل تلك الجهود من أجل أن يتعلم ابنه ولا يكون، حين يكبر، ياناكونياً ولا حمالاً ولا زبالاً. والنصيحة التي قدّمها إليه ألينيو قبل موته، «لا تسمح لأحد قطّ بأن يُذلك يا بني»، كانت تلك هي عملة حياته الصعبة. وهو لن يسمح الآن كذلك بأن يُذله أولئك اللصوص مشعلي الحرائق والخاطفين وأبناء السبع عاهرات.

ـ أبي لم يطلب صدقة قطّ، ولم يسمح لأحد بأن يُذلّه ـ أنهى كلامه.

ـ لا بد أن أباك كان شخصاً محترماً مثلك يا دون فيليثيتو ـــ مالقه المفوض ـ. ولن أطلب منك أبداً أن تخونه، أقسم لك بذلك. كل ما أطلبه منك هو القيام بمراوغة، بشَرَك، أن تنشر في جريدة «*التيمبو*» هذا الإعلان الذي طلبوه منك. سيظنون أنهم قد تمكنوا من ليِّ ذراعك، وسيطلقون سراح مابيل. هذا هو المهم الآن. وهكذا سيكشفون أنفسهم وسنتمكن من القبض عليهم.

وافق فيليثيتو أخيراً. وقام بالتعاون من النقيب بتحرير النص الذي سيظهر منشوراً في صحيفة اليوم التالي.

رسالة شكر للسيد كاوتيفو دي آياباكا

أشكر من أعماق روحي السيد كاوتيفو آياباكا الذي حقق لي، بكرمه اللامتناهي، المعجزة التي طلبتها. وسأظل ممتناً له دائماً ومتابعاً كافة الخطوات التي يشير عليّ بها بحكمته ورحمته العظيمتين.

من مخلص

في تلك الأيام، وبينما هم ينتظرون إشارة ما من مافيويي العنكبوت، تلقى ليتوما رسالة من الأخوين ليون. فقد أقنعا ريتا، زوجة المونو، بأن

تسمح له بالخروج ليلاً، وهذا يعني أنهم بدل الغداء سيتناولون العشاء معاً يوم السبت. التقوا في حانة، بالقرب من دير راهبات مدرسة لورديس. خلع ليتوما زيه الشرطي في نزل الزوجين كالانتشي وذهب بملابس مدنية، بالبدلة الوحيدة التي يملكها. أخذها أولاً إلى المصبغة كي يغسلوها ويكووها. لم يضع ربطة عنق، لكنه اشترى قميصاً من متجر يقوم بتصفية موجوداته. لمّع حذاءه عند كشك لبيع الصحف، واستحم في حمام عمومي قبل توجهه إلى الموعد مع ابني عمه.

من أجل التعرف إلى المونو، احتاج إلى جهد أكبر مما تطلّبه منه التعرف إلى خوسيه. لأن المونو قد تغير فعلاً. ليس بدنياً فقط، وإن صار أكثر بدانة بكثير مما كان عليه في شبابه، وصار شعره قليلاً، وهنالك أكياس بنفسجية تحت عينيه وتجعدات عند السالفين وحول الفم وفي العنق. وكان يرتدي ملابس «سبور» أنيقة، وينتعل حذاء شديد البياض، ويضع في معصمه سلسلة ذهبية وتتدلى سلسلة أخرى على صدره. لكن أكبر تبدل طرأ عليه هو أساليبه المطمئنة والهادئة، كشخص واثق ثقة عظيمة بنفسه لأنه اكتشف سر الوجود وطريقة التعايش على أحسن حال مع الجميع. لم يبق فيه أي أثر لحركات العفرتة والتهريج التي كان يقوم بها في صباه والتي اكتسب بها لقب المونو [القرد].

عانقه بكثير من المحبة: «يا لروعة اللقاء بك من جديد يا ليتوما!».

ـ لم يعد ينقصنا إلا أن نغني نشيد المنيعين ـ هتف خوسيه، ثم صفق بيديه طالباً من الصيني أن يأتيهم بزجاجتي بيرة ساحليتين كبيرتين ومبردتين جيداً.

كان اللقاء في بدايته على شيء من الوقار المتكلف والشاق، فبعد كل مقارنة للذكريات المشتركة يسود فاصل طويل من الصمت، ترافقه ضحكات مغتصبة ونظرات عصبية. لقد انقضى زمن طويل، وقد عاش

كل منهم حياته، ولم يكن سهلاً عليهم بعث الرفاقية القديمة. كان ليتوما يتململ بقلق على مقعده، ويقول لنفسه إنه ربما كان من الأفضل تجنب ذلك اللقاء. فهو يتذكر بونيفاثيا، ويتذكر خوسيفينو، فينكمش شيء في معدته. وعلى الرغم من ذلك، ومع توالي إفراغ زجاجات البيرة التي يرفقونها بالرز المقلي والمعكرونة الصينية ولحم البط ذهبي اللون، وحساء الشيشبرك الصيني، والقريدس المقلي، راحت الحماسة تسري في دمائهم، وأخذت ألسنتهم تنفلت. بدؤوا يشعرون بالاسترخاء والراحة. روى خوسيه والمونو بعض الدعابات، وحث ليتوما ابن عمه على القيام ببعض حركات المحاكاة التي كانت طبقه الرئيسي في شبابه. أن يقلد، مثلاً، عظات الأب غارسيا في كنيسته، كنيسة عذراء الكارمن القائمة في ساحة ميرينو. توانى المونو في بادئ الأمر، ولكنه سرعان ما تحمس وبدأ يعظ ويطلق التهديدات التوراتية الصاعقة، مقلداً الكاهن الإسباني العجوز، هاوي جمع الطوابع والنزق، والذي تتحدث الأسطورة عن أنه قد أقدم مع جماعته من المتدينين الهائجين على إحراق أول ماخور في تاريخ بيورا، وكان يقوم في وسط الرملة في الطريق إلى كاتاكاوس، وكان يديره والد تشونغا تشونغيتا. يا للأب غارسيا المسكين! كم مرمر المنيعون حياته وهم يصرخون عليه في الشوارع: «حارق! حارق!». لقد حوّلوا السنوات الأخيرة من حياة الرجل النزق إلى جحيم من العذاب. فكان كلما التقى بهم في الشارع، يطلق عليهم سباباً بصوته الحلقي: «كسالى! سكيرون! منحلون!». آي، يا للضحك. يا لتلك الأزمنة، لقد مضت إلى غير رجعة كما تقول أغنية التانغو.

أنهوا العشاء بتناول حلوى برتقال صينية، ولكنهم واصلوا الشرب، كان رأس ليتوما قد تحول إلى دوامة هادئة وبهيجة. كل شيء كان يدور، وتأتيه بين الفينة والفينة تثاؤبات لا يمكن له كبحها، وتوشك

أن تخلع عظام فكيه. وفجأة، وسط ذلك النوع من الإغفاء شبه الواعي، انتبه إلى أن المونو بدأ يتكلم عن فيليثيتو ياناكيه. كان يسأله عن شيء ما. أحس بأن بداية سُكْره تلك قد راحت تتبخر، واستعاد السيطرة على وعيه.

ـ ماذا جرى للمسكين فيليثيتو يابن العم؟ ـ كرر المونو ـ. لا بد أنك تعرف شيئاً ما. أما زال مصراً على عدم دفع الإتاوة التي يطلبونها منه؟ ميغيل وتيبورثيو قلقان جداً على أبيهما، فالأمر يشغل بال الابنين. إنهما يحبان عجوزهما على الرغم من أنه كان قاسياً جداً معهما. يخشيان أن يقتله المافياويون.

ـ أنت تعرف ابني دون فيليثيتو؟ سأله ليتوما.

ـ ألم يخبرك خوسيه؟ ـ أجابه المونو ـ إننا نعرفهما منذ وقت طويل.

ـ كانا يأتيان بسيارات ناريهوالا للنقل إلى الورشة من أجل الإصلاح والصيانة ـ بدا خوسيه متضايقاً من بوح المونو ـ. إنهما طيبان. هذا لا يعني أننا أصدقاء جداً. إنهما من المعارف وحسب.

ـ لقد لعبنا القمار معهما مرات عديدة ـ أضاف المونو ـ. تيبورثيو ماهر جداً بألعاب النرد.

ـ أخبراني ببعض الأمور عن هذين الشخصين ـ ألح ليتوما ـ. لم ألتق بهما سوى مرتين، حين جاءا لتقديم أقوالهما في المفوضية.

ـ إنهما شخصان طيبان جداً ـ أكد المونو ـ. ويعانيان كثيراً مما يتعرض له أبوهما. على الرغم من أن العجوز كان متسلطاً في تعامله معهما كما يبدو. لقد جعلهما يقومان بكل الأعمال في شركته، بدءاً من الأعمال الدنيا. ومازال يستخدمهما كسائقين، ويقال إنه يدفع لهما مثلما يدفع للسائقين الآخرين. لا يقدم لهما أي تفضل، على الرغم من أنهما ابناه. لا يدفع لهما ولو قرشاً واحداً زيادة، ولا يقدم لهما أية

مكافآت. وقد أدخل ميغيليتو، كما تعرف، إلى الجيش، ويقال إنه فعل ذلك لتقويمه، لأنه كان آخذاً بالانحراف. يا له من عجوز!

ـ دون فيليثيتو هو واحد من أولئك الأشخاص النادرين الذين لا يظهرون إلا بين فترة وأخرى في الحياة ـ أعلن ليتوما ـ إنه أكثر من عرفتهم استقامة. كان يمكن لأي رجل أعمال آخر أن يدفع تلك الإتاوة ويزيح ذلك الكابوس عن كاهله.

ـ حسن، على كل حال، ميغيليتو وتيبورثيو سيرثان نارهوالا للنقل وسيخرجان من الفقر ـ حاول خوسيه أن يغير الموضوع ـ وأنت كيف أحوالك يابن العم؟ أعني في الأمور النسائية مثلاً. ألديك امرأة... عشيقة... عشيقات؟ أم أنك تتردد على العاهرات فقط؟

ـ لا تتجاوز الحد يا خوسيه ـ أومأ المونو مبالغاً كما في الأزمنة القديمة ـ انظر كيف أربكت ابن العم بهذا الفضول سيئ الظن الذي تبديه.

ـ ألا تكون مازلت تشعر بالحنين إلى تلك التي حوّلها خوسيفينو إلى عاهرة يابن العم؟ ـ ضحك خوسيه ـ. كانوا يدعونها سيلفاتيكا، أليس كذلك؟

ـ لم أعد أتذكر من تكون ـ أكد ليتوما وهو ينظر إلى السقف.

ـ لا تُذكِّر ابن العم بأمور حزينة، تشي غوا، يا خوسيه.

ـ من الأفضل أن نتحدث عن دون فيليثيتو ـ اقترح عليهما ليتوما ـ. الحقيقة أنه رجل قوي الشخصية وشجاع. إنه يصيبني بالذهول.

ـ ومن لم يصبه الذهول منه، لقد تحول إلى بطل بيورا، وصار مشهوراً مثل الأميرال غراو ـ قال المونو ـ. ربما بعد أن تحول الآن إلى شخصية واسعة الشعبية لم يعد بإمكان المافيا أن تتجرأ على تصفيته.

ـ بالعكس، سيحاولون تصفيته لأنه صار مشهوراً. لقد جعلهم

أضحوكة، ولا يمكنهم التسامح مع ذلك ـ قال خوسيه ـ إن شرف المافياويين في اللعبة يا أخي. إذا ما نجح دون فيليثيتو في ما هو فيه، فسوف يتوقف جميع رجال الأعمال الذين يدفعون عن الدفع غداً بالذات، وسوف تفلس المافيا. أتظنان أنهم سيتحملون ذلك؟

هل صار ابن عمه خوسيه عصبياً؟ وانتبه ليتوما، وسط تثاؤبه، إلى أن خوسيه بدأ مجدداً برسم خطوط بطرف ظفره. لم يركز بصره، كيلا يستوحي أنه يرسم عناكب، مثلما اعتقد في المرة السابقة.

ـ ولماذا لا تفعلون شيئاً يابن العم؟ ـ احتج المونو ـ. أعني أنتم في الحرس الأهلي. لا تغضب يا ليتوما، ولكن الشرطة، هنا في بيورا على الأقل، ليست إلا مظاهر فارغة. لا تفعل شيئاً في أي شأن ولا تنفع إلا في طلب إكراميات.

ـ ليس في بيورا وحدها ـ جاراه ليتوما ـ. إننا مجرد مظاهر فارغة في البيرو بأسرها يابن العم. ولكنني أنبهك إلى أمر، فأنا على الأقل، وخلال كل السنوات التي أمضيتها وأنا أرتدي الزي الشرطي، لم أطلب بعد أية إكرامية من أحد. ولهذا أعيش حياة أشد بؤساً من متسول. فلنرجع إلى الحديث عن فيليثيتو، الحقيقة أن القضية لا تتقدم لأننا لا نملك إلا القليل من الوسائل التقنية. اختصاصي الخط الذي عليه أن يساعدنا، هو في إجازة الآن، إذ أُجريت له عملية بواسير. التحقيق برمته متوقف بسبب مؤخرة ذلك السيد المتأذية، فتصور.

ـ أتعني أنه ليس لديكم حتى الآن أي أثر يقود إلى المافياويين؟ ـ ألح المونو. وكان يمكن لليتوما أن يقسم بأن خوسيه كان يتوسل بعينيه كيلا يواصل أخوه الحديث في الموضوع نفسه.

ـ لدينا بعض الآثار، ولكن لا وجود لشيء مضمون منها ـ حدّد الرقيب ـ. لكنهم سيقدمون عاجلاً أو آجلاً على خطوة تكشفهم. المشكلة

أنه لا توجد، في بيورا الآن، مافيا واحدة وإنما عدة مافيات. ولكنهم سيقعون. إنهم يتمادون دوماً وينتهي بهم الأمر إلى كشف أنفسهم. لسوء الحظ أنهم لم يقترفوا أي خطأ حتى الآن.

عاد يوجه إليهما أسئلة عن تيبورثيو وميغيليتو، ابني صاحب شركة النقل، وبدا له مجدداً أن خوسيه لا يروقه هذا الموضوع. وفي إحدى اللحظات برز تناقض بين الأخوين:

ـ الحقيقة أننا تعرفنا عليهما منذ زمن قصير جداً. صار خوسيه يلح بين لحظة وأخرى.

ـ كيف منذ وقت قصير إذا كنا نعرفهما منذ سبع سنوات على الأقل

ـ صحح له المونو ـ. ألم تعد تتذكر تلك المرة التي أخذنا فيها تيبورثيو إلى تشيكلايو في إحدى شاحناته الصغيرة؟ كم مضى على ذلك؟ زمن طويل. حين كنا نحاول تلك الصفقة التي لم تتحقق.

ـ أي صفقة يابن العم؟

ـ بيع آلات زراعية للجمعيات والتعاونيات الزراعية في الشمال ـ قال خوسيه ـ. لم يكن أولئك العاهرون يدفعون قطّ. يحتجون على جميع الكمبياليات. لقد خسرنا استثمارنا كله تقريباً.

لم يلح ليتوما. وبعد أن ودع المونو وخوسيه في تلك الليلة وشكرهما على المأكولات الصينية، ركب في حافلة نقل عام حتى النُّزل، واندس هناك في الفراش. ظل مستيقظاً لوقت طويل يفكر بابني عمه. ولاسيما خوسيه. لماذا يشعر بالاستياء منه إلى هذا الحدّ؟ هل بسبب الرسوم التي يُحدثها بظفره على المنضدة فقط؟ أم أن هنالك شيئاً مريباً حقاً في سلوكه؟ لقد كان يبدو غريباً، كمن يجفل، كلما دار الحديث عن ابني دون فيليثيتو. أم أنها محض توجسات منه بسبب ضياعهما هو والنقيب في التحريات؟ أيخبر النقيب سيلفا بشكوكه هذه؟ من الأفضل

الانتظار إلى أن يصبح ذلك كله أقل ضبابية ويتخذ شكلاً متكاملاً.

ومع ذلك فإن أول ما فعله في صباح اليوم التالي هو رواية كل ما جرى لرئيسه. استمع إليه النقيب سيلفا باهتمام، دون أن يقاطعه، وهو يدون ملاحظات في دفتر جيب وبقلم رصاص صغير جداً يختفي بين أصابعه. وأخيراً دمدم: «يبدو لي أنه لا وجود لشيء جدّيّ هنا. لا يوجد أي أثر يمكن تتبعه يا ليتوما. ابنا عمك ليون يبدوان نظيفين لا غبار عليهما ولا قش». ولكن ظل ساهماً، صامتاً، يعض قلم الرصاص كما لو أنه سيجارة. وفجأة اتخذ قراراً:

ـ أتدري يا ليتوما؟ سوف نتبادل الحديث مجدداً مع ابني دون فيليثيتو. بعد ما رويته لي صرت أرى أننا لم نستخرج من هذا الثنائي بعد كل ما لديه من عصارة. يجب عصرهما أكثر قليلاً. حدد لهما موعداً في الغد، وكل منهما على حدة بالطبع.

في تلك اللحظة طرق حارس مدخل المفوضيةِ بابَ المقصورة وأطل بوجهه الشاب والأمرد من فتحة البابِ الضيقة: السيد فيليثيتو ياناكيه يتصل هاتفياً يا سيدي النقيب. كان الاتصال مستعجلاً جداً. رأى ليتوما المفوض وهو يرفع سماعة جهاز الهاتف القديم، سمعه يدمدم: «صباح الخير يا دون». ورأى وجهه يشرق كما لو أنه تلقى خبر فوزه بجائزة اليانصيب الكبرى. «سنتوجه إلى هناك فوراً»، صاح وأغلق الهاتف.

ـ لقد ظهرت مابيل يا ليتوما. إنها في بيتها الصغير في كاستيليّا. هيا بنا، أسرع. ألم أقل لك؟ لقد ابتلعوا القصة! لقد أطلقوا سراحها!

كان سعيداً كما لو أنه قد ألقى القبض على مافيا العنكبوت.

X

ـ هذه مفاجأة حقيقية ـ صاح الأب أودونوفان حين رأى ريغوبيرتو يظهر عند باب حجرة المقدسات، حيث كان الكاهن قد انتهى للتو من خلع الرداء الذي قاد به قداس الساعة الثامنة ـ أنت هنا يا ذا الأذنين الكبيرتين؟ تأتي إليّ بعد كل هذا الزمن الطويل. لا أكاد أصدق.

كان رجلاً طويلاً، متيناً، بهيجاً، له عينان لطيفتان، تلمعان وراء نظارة إطارها من دروع السلاحف، وصلعة متقدمة. بدا كأنه يشغل كامل الحيز في المكان الضيق ذي الجدران المقشرة، منزوعة الطلاء، والأرضية المثلمة التي يصلها ضوء النهار من خلال نافذة في السقف تتدلى منها شِباك عنكبوت.

تعانقا بالحميمية القديمة نفسها؛ فهما لم يلتقيا منذ شهور، ربما منذ عام. لقد تلقيا التعليم معاً في مدرسة ريكوليتا، منذ السنة الأولى الابتدائية حتى السنة الخامسة المتوسطة، كانا صديقين حميمين، وكانا في إحدى السنوات زميلين في المقعد نفسه. بعد ذلك، حين دخل كلاهما إلى الجامعة الكاثوليكية لدراسة الحقوق، تواصلت لقاءاتهما بكثرة. وكانا عضوين في منظمة العمل الكاثوليكي، كما أنهما كانا يختاران الفصول الدراسية نفسها، ويدرسان معاً. إلى أن قدّم بيبين أودونوفان، ذات يوم، إلى صديقه ريعوبيرتو مفاجأة حياته.

ـ لا تقل لي إن ظهورك هنا يعني أنك قد تحوّلت وجئت إليّ لأتلقى

اعترافاتك يا كبير الأذنين ـ قال الأب أودونوفان ساخراً وهو يقوده من ذراعه نحو حجرة مكتبه الصغيرة في الكنيسة. قدم إليه كرسياً. كانت هناك رفوف كتب وملفات، ورسمٌ للمصلوب، وصورة للبابا وصورة أخرى لأبوي بيبين. جزء من السقف كان خرباً ويُظهر مزيج القصب والطين اللذين شُيِّد بهما. هل هذه الكنيسة من بقايا العهد الاستعماري؟ إنها متداعية ويمكن لها أن تنهار في أية لحظة.

ـ جئت لرؤيتك لأني بحاجة إلى مساعدتك، هكذا بكل بساطة ـ ترك ريغوبيرتو نفسه يهوي على المقعد الذي طقطق وهو يتلقى ثقله، ثم زفر بضيق. بيبين هو الشخص الوحيد الذي مازال يدعوه بلقب أيام المدرسة: «كبير الأذنين» و«ذو الأذنين». وكان اللقب يسبب له عقدة إلى حد ما في مراهقته. ولكن ذلك لم يعد يهمه الآن.

في ذلك الصباح البعيد، في كافيتريا الجامعة الكاثوليكية، مع بدء السنة الثانية من دراستهما الحقوق، حين أعلن له بيبين أودونوفان فجأة، بتلقائية من يعلق على أحد دروس القانون المدني أو على مباراة كرة القدم الأخيرة بين فريق أليانثا وفريق الجامعة، أنهما لن يلتقيا لبعض الوقت، لأنه سيغادر في تلك الليلة بالذات إلى سنتياغو دي تشيلي لبدء حياته كراهب مستجد. ظن ريغوبيرتو أن صديقه يمزح. «أتعني أنك ستتحول إلى كاهن؟ دعك من المزاح يا رجل». صحيح أن كليهما كان عضواً في منظمة العمل الكاثوليكي، ولكن بيبين لم يُلمّح قطّ لصديقه ذي الأذنين الكبيرتين بأنه قد شعر بالنداء. وما يقوله له ليس مزاحاً بأي حال، بل هو قرار فكّر فيه بعمق، في الوحدة والصمت، طوال سنوات. ثم عرف ريغوبيرتو في ما بعد أن بيبين تعرض لمشاكل كثيرة مع أبويه، لأن الأسرة حاولت بكل الوسائل أن تثنيه عن دخول المدرسة الدينية.

ـ أجل يا رجل، بالطبع ـ قال الأب أودونوفان ـ إذا كان بإمكاني مساعدتك، فسأفعل بكل سرور يا ريغوبيرتو، هذا أقل ما يمكن عمله.

لم يعد بيبين بأي حال واحداً من أولئك الصبية المتدينين الذين يشاركون في كل قداديس المدرسة، ممن كان الكهنة يحثونهم ويحاولون إقناعهم بأن لهم ميولاً دينية، وأن الرب قد اختارهم للكهنوت. لقد كان أحد أكثر الصبيان طبيعية في العالم: رياضي، محب للحفلات والتودد إلى البنات، بل كانت له محبوبة لبعض الوقت، خوليتا ماير، فتاة كثيرة النمش ولاعبة كرة طائرة، تدرس في مدرسة سانتا أورسولا. وكان بيبين يقوم بواجب الذهاب إلى القداس، مثل جميع تلاميذ مدرسة ريكوليتا، وكان عضواً دؤوباً في منظمة العمل الكاثوليكي، ولكنه لم يكن، على ما يتذكر ريغوبيرتو، أشد تديناً من الآخرين، ولا كثير الاهتمام بالمناقشات المكرسة للتوجهات الدينية. بل إنه لم يكن يتردد على الخلوات التي ينظمها الكهنة بين حين وآخر في بيت ـــ مزرعة يملكونه في تشوسيكا. لا، لم يكن مزاحاً، بل قراراً لا رجعة عنه. لقد شعر بالنداء منذ طفولته وفكر بالأمر طويلاً، دون أن يخبر أحداً، قبل أن يخطو الخطوة الكبرى الحاسمة. والآن لم يعد هنالك مجال للتراجع. وفي تلك الليلة بالذات سافر إلى تشيلي. المرة التالية التي التقيا فيها، بعد عدد لا بأس به من السنوات، كان بيبين قد تحول إلى الأب أودونوفان، وكان يرتدي ملابس كاهن، ويضع نظارة، وله صلعة مبكرة، ويبدأ مسيرته كدرَّاج مهووس. مازال شخصاً بسيطاً ولطيفاً، ويبدو كلما التقيا بأنه قد تحول أكثر فأكثر إلى نوع من الإيقاع الثابت، فكان ريغوبيرتو يقول له: «لحسن الحظ أنك لم تتغير يا بيبين، لحسن الحظ أنك لا تبدو كاهناً على الرغم من أنك كذلك». فيرد عليه هذا ساخراً على الدوام من اللقب الذي كانوا ينادونه به في أيام الشباب:

«وأنت أيضاً مازالت تنمو لك أذنا الحمار هاتين يا ذا الأذنين الكبيرتين، ما هو السبب يا ترى؟».

ـ الموضوع لا يتعلق بي ـ أوضح له ريغوبيرتو ـ بل بفونتشيتو. لم نعد أنا ولوكريثيا نعرف ماذا علينا أن نفعل مع هذا الصبي يا بيبين. إنه يتسبب لنا بظهور شعر شائب أخضر اللون حقاً.

واصلا اللقاء بشيء من التواتر. وكان الأب أودونوفان هو من زوّج ريغوبيرتو من إليسيا، امرأته الأولى، أم فونتشيتو المتوفاة، وبعد ترمله، زوّجه أيضاً من لوكريثيا، في حفل حميم اقتصر على حفنة من الأصدقاء. وهو من عمّد فونتشيتو، كما أنه يذهب بين حين وآخر لتناول الغداء وسماع الموسيقى في بيتهم بحي بارانكو، حيث يستقبلونه بكثير من المودة. وقد ساعده ريغبيرتو في بعض المرات بتبرعات (منه شخصياً أو من شركة التأمين) لأعمال الإحسان في أبرشيته. وعندما يلتقيان يتحدثان، بصورة خاصة، عن الموسيقى التي أحبها بيبين أودونوفان كثيراً على الدوام. وقد دعاه ريغوبيرتو ولوكريثيا أكثر من مرة إلى حضور حفلات موسيقية تقيمها جمعية ليما الفيلارمونيكا في قاعة سانتا أورسولا.

ـ لا تقلق يا رجل، ليس هنالك ما يستدعي القلق ـ قال الأب أودونوفان ـ جميع الفتيان في العالم لديهم مشكلات ويسببون المشاكل في سن الخامسة عشرة. وإذا لم تكن لديهم مشاكل، فلأنهم حمقى. الأمر طبيعي.

ـ يكون الأمر طبيعياً لو أنه مال إلى السُّكْر، أو ذهب إلى المومسات، أو دخن لفافة ماريجوانا، أو قام بفظاعات مثل تلك التي كنا نقوم بها أنا وأنت حين كنا في عمر فرخ البط ـ قال ريغوبيرتو محزوناً ـ ولكن لا يا صديقي العجوز، فونتشيتو لم يتوجه إلى شيء من ذلك. وباختصار ـ

أعرف أنك سوف تضحك ـ، لقد استقر في رأسه منذ بعض الوقت أن الشيطان يظهر له.

حاول الأب أودونوفان كبح نفسه، ولكنه لم يستطع وأفلت قهقهة مدوية.

ـ لست أضحك من فونتشيتو، وإنما منك أنت ـ أوضح وهو لا يزال يضحك ـ. أضحك من أنك أنت يا ذا الأذنين الكبيرتين تتكلم عن الشيطان. اسم هذه الشخصية يبدو غريباً في فمك. يبدو ناشزاً.

ـ لا أدري إن كان الشيطان، لم أقل لك قطّ من هو، لم أستخدم قطّ هذه الكلمة، لا أدري لماذا تستخدمها أنت يا أبي ـ احتج فونتشيتو بصوت ضعيف إلى حدّ اضطر معه أبوه، كيلا يفقد كلمة مما يقوله الصبي، إلى الانحناء وتقريب رأسه منه.

ـ لا بأس، اعذرني يا بني ـ قال معتذراً ـ. أطلب منك أن تخبرني شيئاً واحداً فقط. إنني أكلمك بجد يا فونتشيتو. هل تشعر ببرودة في كل مرة يظهر لك فيها إديلبيرتو توريس؟ أتشعر بأن هبة ريح جليدية تصل معه حيث تكون؟

ـ أية حماقات تقولها يا بابا ـ فتح فونتشيتو عينيه على اتساعهما، متردداً بين أن يضحك أو يواصل إبداء الجدّ ـ أأنت تسخر مني أم ماذا؟

ـ هل يظهر له الشيطان مثلما كان يظهر للأب أوراكا المشهور، في هيئة سيدة عارية؟ ـ وعاد الأب أودونوفان إلى الضحك ـ أظن أنك قد قرأت هذه القصة التراثية لريكاردو بالما يا ذا الأذنين، إنها من أكثر قصصه متعة.

ـ حسنٌ، حسن ـ اعتذر ريغوبيرتو من فونتشيتو مجدداً ـ أنت على حق، أنت لم تقل لي قطّ أن المدعو إديلبيرتو توريس هو الشيطان.

أطلب منك المعذرة، وأعرف أنه يجب عدم المزاح في هذه القضية. مسألة البرد هذه هي من رواية لتوماس مان، وفيها يظهر الشيطان للشخصية الرئيسة، وهو مؤلف موسيقي. انس سؤالي. فأنا لا أدري كيف أدعو ذلك الشخص يا بني. شخص يظهر ويختفي على هذا النحو، ويتجسد في أمكنة لا تخطر على البال، لا يمكن له أن يكون من لحم وعظم، لا يمكن أن يكون مثلك ومثلي. إنني أكلمك وقلبي في يدي. وإذا لم يكن الشيطان، فلا بد أنه ملاك إذاً.

ـ بل إنك تسخر مني بالطبع يا بابا، ألا ترى ذلك؟ ـ احتج فوتشيتو ـ لم أقل إنه الشيطان ولم أقل كذلك إنه ملاك. فأنا لدي اعتقاد بأنه شخص مثلي ومثلك، من لحم وعظم بالطبع، وهو طبيعي جداً. إذا رغبت يمكننا قطع المحادثة وعدم العودة إلى الكلام أبداً عن السيد إيديلبيرتو توريس.

ـ ليس الأمر لعباً، لا يبدو كذلك ـ قال ريغوبيرتو بجدّية تامة. وكان الأب أودونوفان قد توقف عن الضحك وصار يستمع إليه الآن باهتمام ـ فالصبي متوتر تماماً بسبب هذه المسألة، وإن كان لا يقول ذلك. إنه شخص آخر يا بيبين. لقد كان يتمتع بشهية جيدة على الدوام، ولم يُثر من قبل أية مشاكل بشأن الطعام، وهو الآن يكاد لا يتذوق لقمة واحدة. تخلى عن ممارسة الرياضة، يأتي أصدقاؤه بحثاً عنه فيختلق ذرائع كيلا يذهب معهم. أضطر أنا ولوكريثيا لدفعه من أجل الخروج. أصبح قليل الكلام، انطوائياً، منعزلاً، بعد أن كان اجتماعياً وثرثاراً. يظل طيلة النهار والليل منطوياً على نفسه كما لو أن هماً عظيماً ينهشه من الداخل. لم أعد أتعرف على ابني. أخذناه إلى طبيبة نفسانية، أجرت له جميع أنواع الاختبارات. وشخصت الحالة بأنه لا يعاني أي شيء، وأنه أكثر طفل طبيعي في العالم. أقسم لك إننا لم نعد نعرف ما علينا عمله يا بيبين.

ـ إذا ما أخبرتك بأعداد الناس الذين يرون رؤى يا ريغوبيرتو فسوف تهوي ساقطاً على ظهرك ـ حاول الأب أودونوفان أن يطمئنه ـ إنهن نساء مسنات في معظم الأحيان، أما الأطفال فنادراً ما يحدث لهم ذلك. هؤلاء تنتابهم أفكار خبيثة أكثر من أي شيء آخر.

ـ ألا يمكنك أن تتحدث إليه أيها العجوز؟ ـ لم يكن ريغوبيرتو في حالة تسمح له بالمزاح ـ ألا يمكنك نصحه؟ لا أدري بماذا ستنصحه في نهاية المطاف. لقد خطرت للوكريثيا فكرة المجيء إليك وليس لي. إنها تفكر في أنه قد يفتح قلبه معك أكثر مما يفعل معنا.

ـ المرة الأخيرة كانت في سينما لاركومار يا أبي ـ خفض فونتشيتو نظره وتردد في الكلام ـ. ليلة الجمعة، حين ذهبتُ مع صديقي تشاتو بيثولو لمشاهدة فيلم جيمس بوند الأخير. كنتُ مستغرقاً بعمق في الفيلم، وفجأة، فجأة...

ـ وفجأة ماذا؟ ـ حثه دون ريغوبيرتو.

ـ فجأة رأيته، هناك، جالساً إلى جانبي ـ قال فوتشيتو وهو يخفض رأسه ويتنفس بعمق ـ كان هو، بلا أدنى شك. أقسم لك يا بابا، كان هناك. هو نفسه... السيد إديلبيرتو توريس. كانت عيناه تلمعان، وعندئذ رأيت دموعاً تسيل على خديه. لا يمكن أن يكون الفيلم هو السبب يا بابا، فلم يكن يحدث أي شيء محزن على الشاشة، وكل ما كان هنالك كثير من تبادل الضرب، والقبلات والمغامرات. أي إنه كان يبكي لسبب آخر. وعندئذ، لا أدري كيف أقول ذلك، ولكن خطر لي أنه حزين بسببي. أعني أنه يبكي من أجلي.

ـ من أجلك أنت؟ ـ صاغ ريغوبيرتو العبارة بصعوبة ـ. ولماذا سيبكي ذلك السيد من أجلك أنت يا فونتشيتو؟ ما الذي سيحزنه فيك؟

ـ هذا ما لا أعرفه يا بابا، إنني أتكهن وحسب. ولكن لماذا تظنه

كان يبكي وهو جالس إلى جانبي؟

ـ وعندما انتهى الفيلم وأضيئت الأنوار، ظل إديلبيرتو توريس جالساً في المقعد المجاور لمقعدك؟ ـ سأل ريغوبيرتو وهو يعرف الجواب تماماً.

ـ لا يا بابا. كان قد انصرف. لست أدري في أية لحظة نهض وانصرف. لم أره.

ـ حسنٌ، حسن، سأتحدث إليه طبعاً ـ قال الأب أودونوفان ـ إذا كان فونتشيتو يريد التحدث معي. يجب ألا تحاول إجباره أولاً وقبل كل شيء. لا يخطر لك إجباره على المجيء إلي. لا شيء من هذا. فليأتِ برغبته، إن كان يرغب. وسنتحدث كصديقين، قل له هذا. ولا تضفي على الأمر أهمية كبيرة يا ريغوبيرتو. أراهنك على أنها مجرد حماقة صبيانية، لا شيء أكثر من ذلك.

ـ لم أُوْل الأمر أهمية في البداية ـ أكد ريغوبيرتو ـ كنت أظن أنا ولوكريثيا أنه يختلق تلك القصة، لأنه صبي واسع المخيلة، كي يضفي أهمية على نفسه، ويبقينا معلقين به.

ـ ولكن هل المدعو إديلبيرتو توريس موجود أم أنه مجرد اختلاق منه؟ ـ سأل الأب أودونوفان.

ـ هذا ما أرغب في اكتشافه يا بيبين، ولهذا جئت للقائك. لم أتوصل إلى معرفة ذلك حتى الآن. أقول أجل أعرف، وفي اليوم التالي أقول لا. يبدو لي في بعض اللحظات أن الصبي يقول لي الحقيقة. وفي لحظات أخرى يخيل إليّ أنه يتلاعب بنا... أنه يخدعنا.

لم يفهم ريغوبيرتو قطّ السبب في أن الأب أودونوفان، بدلاً من أن يتوجه نحو التعليم ويقوم ضمن الكنيسة بمسيرة دارس ثقافي ولاهوتي ـ وهو المثقف الحساس، المحب للأفكار والمطالعة والفنون، ومن يقرأ كثيراً ـ، ارتضى لنفسه بعناد مهمته الرعوية في كنيسة تحت الجسر

المتواضعة هذه، ولا بد أن من يقطنون في محيطها هم أناس قليلو التعلم، أي إنه عَالَمٌ يبدو كما لو أن مواهبه تتبدد فيه. لقد تجرأ ذات مرة وحدثه في هذا الشأن، لماذا لا تكتب أو تلقي محاضرات يا بيبين؟ لماذا لا تُدرّس في الجامعة مثلاً؟ إذا كان هناك شخص بين معارفك يتمتع بميول ثقافية واضحة، وبشغف إلى الأفكار، فإنه أنت يا بيبين.

ـ لأن المكان الذي يحتاج إليَّ هو كنيسة تحت الجسر ـ اكتفى بيبين أودونوفان بهز كتفيه ـ إننا بحاجة إلى كهنة رعاة؛ أما المثقفون ففائضون عن الحاجة يا ذا الأذنين الكبيرتين. وأنت مخطئ إذا كنت تظن أنني أجد مشقة في عمل ما أقوم به. فالعمل في الكنيسة يشجعني كثيراً، إنه يُدخلني بقدمي وبرأسي في الحياة الواقعية. يمكن للمرء، في المكتبات، أن ينعزل كثيراً في بعض الأحيان عن عالم كل يوم، عن الناس العاديين. أنا لا أؤمن بفضاءاتك المتحضرة التي تُبعدك عن الآخرين وتحولك إلى ناسك، وقد تحدثنا وناقشنا هذا الموضوع كثيراً من قبل.

لم يكن يبدو كاهناً، لأنه لا يتطرق أبداً إلى موضوعات دينية في أحاديثه مع زميل مدرسته القديم. وهو يعرف أن ريغوبيرتو لم يعد مؤمناً في سنوات دراسته الجامعية، ولا يبدو عليه أنه يشعر بأدنى ضيق من معاشرة شخص لا أدريّ. في المرات القليلة التي ذهب لتناول الغداء في بيت صديقه في بارانكو، كان ينزوي مع ريغوبيرتو، بعد تنظيف المنضدة، في حجرة المكتب، حيث يضعان قرصاً مضغوطاً، يكون لباخ بصورة عامة، لأن بيبين أودونوفان يفضل موسيقى باخ على الأرغن.

ـ كنتُ مقتنعاً بأن هذه الرؤى كلها ليست سوى اختلاق منه ـ أكد ريغوبيرتو ـ ولكن تلك الطبيبة النفسية التي عاينت فونتشيتو، الدكتورة أوغوستا ديلميرا ثيسبيديس، لا بد أنك سمعت عنها، أليس

كذلك؟ يبدو أنها مشهورة جداً، وقد جعلتني أعود إلى الشك. قالت لي وللوكريثيا بطريقة حاسمة إن فونتشيتو لا يكذب، وإنه يقول الحقيقة. فإديلبيرتو توريس موجود. لقد أربكتنا كما يمكن لك أن تتصور.

أخبر ريغوبيرتو الأب أودونوفان أنه، بعد كثير من التردد، قرر هو ولوكريثيا البحث عن وكالة متخصصة. (فسأله الكاهن ساخراً: «من تلك التي يتعاقد معها الأزواج الغيورون للتجسس على زوجاتهم المتماديات؟»، وأكد ريغوبيرتو ذلك: «هي نفسها») من أجل متابعة فونتشيتو خطوة خطوة، لمدة أسبوع، كلما خرج إلى الشارع، سواء أكان وحده أم مع أصدقائه. فجاء تقرير الوكالة ــ «وأقول بالمناسبة إنه كلفني مبلغاً كبيراً» ــ بليغاً في التعبير ومتناقضاً: لم يحدث في أية لحظة، أو في أي مكان، أن التقى الصبي بأي أشخاص بالغين، لا في السينما، ولا في حفلة آل آرغوييّس، لا في طريق ذهابه إلى المدرسة ولا أثناء عودته منها، ولا في زيارته السريعة العابرة كذلك، مع صديقه بيثولو، لإحدى صالات الرقص في سان إسيدرو. ومع ذلك، ففي صالة الرقص تلك، لدى دخول فونتسيتو إلى الحمام للتبول، حدث لقاء غير متوقع: كان هناك ذلك السيد المذكور يغسل يديه. (وهذا ما لم يقله التقرير بالطبع).

ـ مرحبا فوتشيتو. قال إديلبيرتو توريس.

ـ في صالة الرقص؟ سألَ دون ريغوبيرتو.

ـ في حمّام صالة الرقص يا بابا ـ حدّد فونتشيتو. وكان يتكلم بثقة، ولكن لسانه بدا مثقلاً، وكان نطق كل كلمة يكلفه جهداً كبيراً.

ـ هل أتيت للاستمتاع هنا مع صديقك بيثولو؟ بدا السيد مغموماً. كان قد غسل يديه وراح ينشفهما بقطعة ورق انتزعها من العلبة الصغيرة المعلقة على الجدار. وكان يرتدي الكنزة البنفسجية كما في المرات الأخرى، ولكن ليس البدلة الرمادية بل بدلة أخرى زرقاء.

ـ لماذا تبكي أيها السيد؟ تجرأ فونتشيتو على سؤاله.

ـ هل كان إديلبيرتو توريس يبكي هناك في الحمّام أيضاً؟ ـ جفل دون ريغوبيرتو ـ. مثلما حدث يوم رأيتَه جالساً إلى جانبك في سينما لاركومار؟

ـ في السينما رأيته في الظلمة، ويمكن أن أكون قد أخطأت ـ أجاب فونتشيتو دون تردد ـ أما في حمّام صالة الرقص فلا. فقد كانت الإضاءة كافية. لقد كان يبكي. تخرج الدموع من عينيه وتسيل على وجهه. كان... كان... لا أدري كيف أعبر عن ذلك يا بابا. كان حزيناً، حزيناً جداً، أقسم لك. رؤيته يبكي بصمت، دون أن يقول شيئاً، ينظر إليّ بأسى شديد. بدا أنه يعاني كثيراً.. ما أشعرني بالحرج.

ـ المعذرة، عليّ أن أنصرف أيها السيد ـ تلعثم فونتشيتو ـ. صديقي تشاتو بيثولو ينتظرني في الخارج. إن إحساساً، لا أدري ما هو، ينتابني وأنا أراك تبكي أيها السيد.

ـ وكما ترى يا بيبين، لا يمكن أخذ الأمر على محمل المزاح ـ أنهى ريغوبيرتو ـ أتراه يروي لنا الحكاية؟ أم أنها هذيانات؟ أم رؤى؟ وباستثناء هذا الموضوع، يبدو الصبي طبيعياً جداً حين يتكلم في أمور أخرى. درجاته في المدرسة هذا الشهر كانت جيدة كالعادة. لم نعد أنا ولوكريثيا ندري ماذا نفكر. أتراه آخذ بالجنون؟ أهي أزمة مراهقة عصبية عابرة؟ أتراه يريد تخويفنا ودفعنا إلى التعلق به؟ لهذا السبب جئت إليك أيها العجوز، لهذا فكرنا بك. سأكون ممتناً إذا مددت لنا يد المساعدة. وكما قلتُ لك، لوكريثيا هي من خطرت لها الفكرة: «يمكن أن يكون الأب أودونوفان هو الحلّ». فهي مؤمنة كما تعلم.

ـ سأساعدك طبعاً، هذا أقل ما يمكن عمله يا ريغوبيرتو ـ عاد صديقه للتأكيد ـ. ولكن إذا وافق الصبي على التحدث معي. هذا هو

شرطي الوحيد. يمكنني الذهاب لرؤيته في بيتكم. ويمكن له أن يأتي إلى الكنيسة. أو يمكن لنا أن نلتقي في مكان آخر. في أي يوم من أيام هذا الأسبوع. أرى أن الموضوع مهم جداً بالنسبة لكما. أعدك بأن أفعل كل ما أستطيعه. والشيء الوحيد الذي أطلبه، ألا تجبره على اللقاء بي. اقترحْ عليه ذلك، وليقرر بنفسه إن كان يوافق على تبادل الحديث معي أم لا.

ـ سأكون مستعداً حتى للتحول إلى التدين إذا ما أخرجتني من هذه القضية يا بيبين.

ـ ولا بأي حال ـ وقام الأب أودونوفان بحركة كمن يُبعد الشيطان عنه ـ لا نريد في الكنيسة خاطئين مرهفين من أمثالك يا ذا الأذنين.

لم يدريا كيف يعرضان الأمر على فونتشيتو. وكانت لوكريثيا هي التي تجرأت أخيراً على التحدث معه. ارتبك الصغير قليلاً في البدء، ثم أخذ الأمر على محمل المزاح. «ولكن... كيف ذلك يا خالتي، ألم يكن أبي لاأدرياً؟ أهو من خطر له أن أتحدث إلى كاهن؟ أيريدني أن أعترف؟». أوضحت له أن الأب أودونوفان رجل واسع التجربة في الحياة، وشخص مترع بالحكمة، سواء أكان أسقفاً أم لم يكن. «وماذا إذا تمكن من إقناعي بدخول المدرسة الدينية لأصير كاهناً، ماذا ستقولان عندئذ أنت وأبي؟»، واصل الطفل المزاح. «هذا أمر غير مقبول يا فونتشيتو، لا تقل هذا ولو مزاحاً. أتصير أنت كاهناً؟ فليُنجنا الرب!».

وافق الصبي، مثلما وافق من قبل على لقاء الدكتورة ديلميرا ثيسبيديس، وقال إنه يفضل الذهاب إلى كنيسة تحت الجسر. وقد أوصله ريغوبيرتو نفسه بسيارته. تركه هناك ثم ذهب لأخذه بعد نحو ساعتين.

ـ صديقك هذا شخص لطيف جداً. اقتصر فونتشيتو على هذا التعليق.

ـ أيعني هذا أن حديثك معه كان جديراً بالاهتمام؟ حاول ريغوبيرتو تقصي الوضع.

ـ كان الحديث جيداً جداً يا بابا. لقد كانت فكرتك عظيمة. تعلمتُ أشياء كثيرة من هذا الحديث مع الأب أودونوفان. لا يبدو كاهناً، فهو لا ينصحك، بل يستمع إليك. لقد كنتَ على حق يا أبي.

ولكنه لم يشأ تقديم أي توضيح آخر له أو لخالته، على الرغم من توسلات كليهما. اكتفى بالعموميات، مثل رائحة بول القطط التي تعبق بها الكنيسة الصغيرة («ألم تلحظ ذلك يا بابا؟»)، على الرغم من أن الكاهن أكّد له أنه لم يكن لديه أي هرٍّ قطُّ، بل هنالك فئران تظهر أحياناً في حجرة المقدسات.

سرعان ما استنتج ريغوبيرتو أن شيئاً غريباً، وربما خطيراً، قد حدث في الساعتين اللتين تبادل فيهما بيبين الحديث مع فونتشيتو. وإلا ما السبب في أن الأب أودونوفان ظلّ يتفاداه طيلة أربعة أيام متعللاً بمختلف أنواع الذرائع، كما لو أنه يخشى اللقاء به وإخباره عن حديثه مع الصبي. فهو يتذرع بأن لديه مواعيد، وواجبات في الكنيسة، واجتماع مع المطران، وبأن عليه الذهاب إلى الطبيب من أجل إجراء فحص. وبلاهات من هذا النوع ليتجنب اللقاء به.

ـ هل تبحث عن ذرائع كيلا تخبرني كيف كان حديثك مع فونتشيتو؟ ـ واجهه في اليوم الخامس، حين تنازل الكاهن وردّ على اتصاله الهاتفي.

ساد صمتٌ لبضع ثوان في سماعة الهاتف، وأخيراً سمع ريغوبيرتو الكاهنَ يقول شيئاً أذهله:

ـ أجل يا ريغوبيرتو. في الحقيقة، نعم. لقد كنت أتجنب مقابلتك. فما سأقوله لك أمر لا تتوقعه ـ أكد الأب أودونوفان بغموض ـ. ولكن، بما أنه لا مفر من ذلك، سوف نتحدث في الأمر. سأحضر للغداء في بيتكم يوم السبت أو الأحد. أي يوم منهما تفضل؟

ـ السبت، فمن عادة فونتشيتو الذهاب في هذا اليوم للغداء في بيت صديقه بيثولو ـ قال ريغوبيرتو ـ. ما قلته لي سيظل يؤرقني حتى يوم السبت يا بيبين. وستكون الحال أسوأ بالنسبة للوكريثيا.

ـ وهذا ما ظللتُ أنا عليه مذ خطر لك أن تحدثني عن ابنك ـ قال الكاهن بجفاء ـ إلى اللقاء يوم السبت إذاً يا ذا الأذنين.

لا بد أن الأب أودونوفان هو رجل الدين الوحيد الذي لا يتنقل في اتساعات مدينة ليما بحافلات النقل العام أو الفانات الصغيرة، وإنما على الدراجة. يقول إنها التمارين الوحيدة التي يمارسها، ولكنه يمارسها بمواظبة تبقيه في حالة بدنية ممتازة. أضف إلى ذلك أنه يحب تحريك ساقية على الدراجة. وبينما هو يفعل ذلك يفكر في تحضير مواعظه، وكتابة رسائله، وبرمجة أعماله اليومية. وعليه، مع ذلك، أن يكون متيقظاً جداً طيلة الوقت، وبصورة خاصة عند التقاطعات وعند إشارات المرور التي لا يحترمها أحد في هذه المدينة، حيث يقود السائقون سياراتهم بنية صدم المشاة وراكبي الدراجات أكثر مما بنية الوصول بسيارتهم إلى بر السلامة. لكنه كان محظوظاً مع ذلك، فخلال أكثر من عشرين عاماً من تجواله عبر أرجاء المدينة على عجلتين، لم يصدموه سوى مرة واحدة، ودون نتائج خطرة، وسُرقت له دراجة واحدة فقط. إنها حصيلة باهرة!

يوم السبت، قرابة منتصف النهار، كان ريغوبيرتو ولوكريثيا يرصدان الشارع من شرفة الطابق الأخير الذي يعيشان فيه، ورأيا ظهور

الأب أودونوفان وهو يقود دراجته بنزق عبر كورنيش بول هاريس في حي بارانكو. أحسا براحة كبيرة. بدا لهما غريباً جداً تأخير رجل الدين كثيراً لموعد إطلاعهما على حديثه مع فونتشيتو، حتى إنهما خشيا أن يختلق ذريعة في اللحظة الأخيرة كيلا يحضر. ما الذي يمكن أن يكون قد جرى في تلك المحادثة حتى يبدي الكاهن كل ذلك التحفظ في إخبارهما؟

نزلت خوستينيانا إلى الشارع لتطلب من البواب أن يسمح للأب أودونوفان بإدخال دراجته إلى العمارة، كي تبقى بمنجى من اللصوص؛ ورافقت الكاهن في المصعد. بادر بيبين إلى معانقة ريغوبيرتو، ثم قبّل خدّ لوكريثيا واستأذن للذهاب إلى الحمّام كي يغسل يديه ووجهه، إذ إنه وصل متعرقاً.

ـ كم من الوقت احتجت للوصول، على دراجتك، من «تحت الجسر» إلى هنا؟ ـ سألته لوكريثيا.

ـ أقل من نصف ساعة ـ قال الكاهن ـ ففي هذه الاحتقانات المرورية في ليما، يصل أحدنا على الدراجة أسرع من سيارة.

طلب عصير فاكهة لفتح الشهية، ونظر إليهما ببطء وهو يبتسم.

ـ أعرف أنكما كنتما تتفوهان بكلمات قبيحة عني، لأني لم أخبركما كيف كان الأمر ـ قال لهما.

ـ أجل يا بيبين، هكذا بالضبط، كلمات قبيحة وضفادع، وأفاع أيضاً. أنت تعرف كم تُبقينا هذه المسألة متوترين. إنك سادي.

ـ كيف جرى الأمر؟ ـ سألته دونيا لوكريثيا بجزع ـ. هل تحدثَ إليك بصراحة؟ هل أخبركَ بكل شيء؟ ما رأيُكَ في الحالة؟

تنفس الأب أودونوفان بعمق، وقد اتخذ مظهراً جدّياً الآن. ودمدم قائلاً إن نصف الساعة ذاك في قيادة الدراجة قد أتعبته أكثر مما يريد

تقبله. ثم صمت طويلاً.

ـ أتريدان أن أخبركما شيئاً؟ ـ نظر إليهما بوجه ما بين محزون ومُتَحَدٍ ـ. الحقيقة أنني لا أشعر بأي قدر من الراحة في هذه الحديث الذي سنخوض فيه.

ـ وأنا أيضاً يا أبتاه ـ قال فونتشيتو ـ. لا يوجد ما يسوغ الراحة. فأنا أعرف جيداً أن أعصاب والدي متوترة بسببي. إذا كنت ترغب قُمْ بما عليك عمله، وأعرني مجلة أتصفحها، حتى لو كانت مجلة دينية. وبعد ذلك سنقول لأبي وخالتي بأننا تبادلنا الحديث معاً، ونختلق أي شيء يمكن له أن يطمئنهما. وينتهي الأمر.

ـ ما هذا، ما هذا ـ قال الأب أودونوفان ـ هذا الغصن من ذلك الجذع يا فونتشيتو. أتعرف أن أباك وهو في مثل سنك، في مدرسة لاريكوليتا، كان مخادعاً كبيراً؟

ـ هل توصلتَ إلى التكلم معه في الموضوع؟ ـ سأله ريغوبيرتو دون أن يخفي جزعه ـ. هل فتح قلبه لك؟

ـ الحقيقة أنني لا أعرف ـ قال الأب أودونوفان ـ هذا الصبي مثل الزئبق، بدا لي أنه ينزلق متملصاً طيلة الوقت. ولكن اطمئنا. فهنالك أمر واحد على الأقل أشعر بأنني متأكد منه. إنه غير مجنون، وهو لا يهذي، ولا يسخر. بدا لي أنه أكثر الصبيان سلامة ذهنية وتركيزاً في الدنيا. وتلك الطبيبة النفسية التي التقت به أخبرتكما بالحقيقة الصارمة: إنه لا يعاني من أية مشكلة نفسية. هذا ما يمكنني الحكم به، ضمن حدودي طبعاً، فأنا لست طبيباً نفسانياً، ولست متخصصاً في علم النفس.

ـ ولكن... حالات ظهور ذلك الشخص له ـ قاطعته لوكريثيا ـ هل استطعتَ الخروج بشيء واضح بشأنه؟ هل لإديلبيرتو توريس وجود أم

لا وجود له؟

ـ مع أن القول إنه طبيعي ليس بالتوصيف الدقيق تماماً ـ صحح الأب أودونوفان لنفسه متهرباً من الإجابة ـ لأن في هذا الطفل شيء استثنائي، شيء يميزه عن الآخرين. ولست أعني أنه ذكي وحسب. إنه كذلك، أجل. وأنا لا أبالغ مقدار ذرة واحدة يا ريغوبيرتو، ولا أقول هذا الكلام لأتملقك. ولكن لدى الصبي فوق ذلك، في ذهنه، في روحه، شيء يلفت الانتباه. لديه حساسية خاصة جداً، ينفرد بها ولا نمتلكها نحن البشر الفانون العاديون. مثلما تسمعان. ولا أدري إن كان ذلك سبباً للسعادة أم الفزع. ولست أستبعد كذلك أنه رغب في أن يبهرني، وقد توصل إلى ذلك، مثلما يمكن لمثل بارع أن يفعل. لقد ترددتُ كثيراً في المجيء لقول هذا الكلام لكما. ولكنني رأيت أنه من الأفضل أن أفعل.

ـ أيمكننا التوجه إلى لبّ الموضوع يا بيبين؟ ـ فَقَدَ دون ريغوبيرتو صبره ـ دعك من التفلت من الحديث في الموضوع. ومن أجل أن تقول ما يجب قوله بوضوح، لا تواصل هذه الفهلويات ولنتوجه إلى جوهر المشكلة. تكلم بوضوح ودعك من إزاحة الإلية لتجنب إبرة الحقنة، أرجوك.

ـ ما هذه الكلمات يا ريغوبيرتو ـ وبختـه لوكريثيا ـ. المشكلة أننا قلقان جداً يا بيبين. اعذره. أظن أنها المرة الأولى التي أسمعُ فيها صديقك ذا الأذنين يتكلم كحوذي.

ـ حسن، المعذرة يا بيبين، ولكن أخبرني دفعة واحدة يا صديقي ـ ألح ريغوبيرتو ـ هل للمدعو إديلبيرتو توريس وجود؟ أيظهر له في السينما، وفي حمامات صالة الرقص، وفي ملعب المدرسة؟ أيمكن أن تكون كل تلك البلاهة حقيقية؟

بدأ الأب أدونوفان يتعرق بغزارة من جديد، وفكر ريغوبيرتو بأن سبب تعرقه الآن ليس ركوب الدراجة، وإنما التوتر الذي يسببه له اضطراره إلى إصدار حكم حول الموضوع. ولكن، أي شياطين هذه؟ ما الذي يحدث له؟

ـ فلنتقبل الأمر على هذا النحو يا ريغوبيرتو ـ قال الكاهن منتقياً كلماته بحذر بالغ، كما لو أن فيها أشواكاً ـ فونشيتو يعتقد أنه يراه وأنه يتكلم إليه. هذا أمر يبدو لي غير قابل للجدال. حسنٌ، أظن أنه يؤمن بذلك إيماناً راسخاً، مثلما يؤمن بأنه لا يكذب حين يخبرك بما رآه وبما تبادله من كلام معه. وإن كان ذلك الظهور والاختفاء يبدو عبثياً، وهو كذلك حقاً. هل تفهمان ما أحاول قوله لكما؟

نظر ريغوبيرتو ولوكريثيا إلى الأب أودونوفان بصمت. وبدا الكاهن الآن في حالة من الارتباك لا تقل عما هما فيه. لقد كان مغموماً وبدا عليه أنه هو أيضاً غير راض عن إجابته. ولكن بدا واضحاً كذلك أنه لا وجود لديه لإجابة أخرى، وأنه لا يعرف، ولا يستطيع، أن يقدم تفسيراً أفضل مما قدمه.

ـ إنني أفهم، طبعاً، ولكن هذا الذي تقوله لي لا يعني شيئاً يا بيبين ـ قال ريغوبيرتو شاكياً ـ القول إن فونتشيتو لا يحاول خداعنا هو افتراض قائم بالطبع. وأنه يخدع نفسه، يقوم بالإيحاء لنفسه. هل هذا هو ما تظنه؟

ـ أعرف أن ما أقوله يخيب أملكما، وأنكما تنتظران شيئاً أكثر تحديداً، أكثر حسماً ـ واصل الأب أودونوفان ـ متأسف، ولكنني لا أستطيع أن أكون أكثر دقة يا ذا الأذنين. لا أستطيع ذلك. وهذا هو كل ما استطعت التوصل إليه. إن الصبي لا يكذب. إنه مؤمن بأنه يرى ذلك السيد، وربما، ربما يكون من المحتمل أنه يراه. وأنه يراه هو وحده ولا

يراه الآخرون. لا يمكن الذهاب إلى ما هو أبعد في هذا الشأن. هذا مجرد افتراض. وأكرر أنني لا أستبعد أيضاً أن يكون ابنك قد خدعني. وبكلمات أخرى أن يكون أكثر مكراً وبراعة مني. ربما يكون قد خرج على شاكلتك يا ذا الأذنين. هل تتذكر أن الأب لاغنير، في مدرسة ريكوليتا كان يدعوك مختلق الأكاذيب؟

ـ ولكن ما استنتجته ليس فيه أي وضوح، بل هو أشد غموضاً يا بيبين ـ دمدم ريغوبيرتو.

ـ أتراها تكون رؤى؟ أوهام؟ ـ حاولت لوكريثيا أن تحدد الحالة.

ـ يمكن تسميتها هكذا، ولكن هذه الكلمات لا تعني عدم الاتزان، ولا تعني مرضاً ذهنياً ـ أكد الكاهن ـ الانطباع الذي تشكّل لدي هو أن فونتشيتو يسيطر تماماً على قواه الذهنية والعصبية. إنه طفل متزن، يميز بوضوح بين الواقع والخيال. هذا أمر يمكنني تأكيده حقاً، ومستعد لوضع يدي في النار مؤكداً على سلامته الذهنية. وبكلمات أخرى، هذه حالة لا يمكن حلّها عند طبيب نفساني.

ـ أعتقد أنك لا تتحدث عن معجزات ـ قال ريغوبيرتو بنزق وسخرية ـ لأنه إذا كان فونتشيتو هو الشخص الوحيد الذي يرى إديلبيرتو توريس ويتكلم معه، فإنك تحدثني عن قدرات إعجازية. هل سقطنا إلى هذا الدرك يا بيبين؟

ـ لستُ أتكلم عن معجزات طبعاً يا ذا الأذنين، ولا فونتشيتو يتكلم عنها كذلك ـ قال الكاهن بدوره بنزق ـ. إنني أتكلم عن شيء لا أدري كيف أسميه بكل بساطة. هذا الطفل يعيش تجربة خاصة جداً. وهي تجربة، لا أقول إنها دينية، لأنك لا تعرف ولا تريد أن تعرف شيئاً في هذا الشأن، فلنستبدل كلمة دينية إذاً بروحية. وبحساسية، أو بتحسس مفرط. إنه شيء ليست له إلا علاقة غير مباشرة جداً بالعالم المادي

والعقلاني الذي نتحرك فيه. إديلبيرتو توريس يرمز في نظره إلى المعاناة البشرية كلها. أعرفُ أنك لا تفهمني. ولهذا السبب كنت أخشى كثيراً المجيء لإخبارك عن حديثي مع فونتشيتو.

ـ تجربة روحية؟ ـ كررت دونيا لوكريثيا ـ. ما الذي تعنيه بالضبط؟ ألا يمكنك أن توضح ما تعنيه يا بيبين؟

ـ أتعني أن الشيطان يظهر له، وأنه يُدعى إديلبيرتو توريس وهو بيرويّ ـ اختصر ريغوبيرتو بسخرية وغضب ـ. هذا هو في العمق ما تقوله لنا بكل هذه الثرثرة التافهة، إنها ثرثرة كاهن معجزات، يا بيبين.

ـ الغداء جاهز ـ قالت من عند الباب خوستينيانا التي تأتي دوماً في الوقت المناسب ـ. يمكنكم الانتقال إلى المائدة متى شئتم.

ـ في البدء لم يكن يزعجني، كان يفاجئني وحسب ـ قال فونتشيتو ـ أما الآن فبلى. وإن تكن كلمة إزعاج ليست هي الكلمة الدقيقة يا أبتاه. من الأدق القول إنه يسبب لي الغم، يجعلني أمر بلحظة عصيبة، يثير فيّ الأسى. مذ بدأتُ أراه يبكي، هل تلحظ ذلك؟ ففي المرات الأولى لم يكن يبكي، كان يريد تبادل الحديث وحسب. ومع أنه لا يقول لي لماذا يبكي، إلا أنني أشعر أن السبب في بكائه هو كل ما يحدث من شرور. وأنه يبكي من أجلي أيضاً. وهذا ما يسبب لي المزيد من الحزن.

ساد صمت طويل، وأخيراً قال الأب أودونوفان إن القريديس كان لذيذاً جداً، ويبدو واضحاً أن مصدره نهر ماخيس. هل يجب تهنئة لوكريثيا أم خوستينيانا على إعداد هذا الطبق الشهي؟

ـ ليس أياً منهما، وإنما الطاهية ـ أجابت لوكريثيا ـ. اسمها ناتيفيداد، وهي من اريكيبا طبعاً.

ـ متى كانت آخر مرة رأيتَ فيها ذلك الشخص؟ ـ سأله الكاهن. وكان قد فقد المزاج الواثق والآمن الذي ظل يحتفظ به حتى تلك

اللحظة، وصار يبدو عصبياً بعض الشيء. وقد وجه السؤال بتذلل عميق.

ـ يوم أمس، حين كنت أجتاز جسر التنهدات، في بارانكو يا أبتاه ـ ردّ فونتشيتو على الفور ـ. كنت أمشي على الجسر وكان هناك ثلاثة أشخاص آخرين حولي، حسب تقديري. وفجأة، رأيته هناك، يجلس على حاجز الجسر.

ـ وكان يبكي كالعادة؟ سأله الأب أودونوفان.

ـ لا أدري، فقد رأيته للحظة فقط، لدى مروري. لم أتوقف، واصلت طريقي بخطىً مسرعة ـ أوضح الصغير وقد بدا مذعوراً الآن ـ لا أدري إن كان يبكي. ولكنني أعرف أنه كان بذلك الوجه شديد الحزن. لا أدري كيف أعبر عن ذلك يا أبتاه. لم أرَ مثل حزن السيد توريس على أحد، أقسم لك. إن عدواه تنتقل إليّ، أظل مضطرباً لوقت طويل، أكاد أموت حزناً، دون أن أدري ما يمكنني عمله. أحب أن أعرف سبب بكائه. أحب أن أعرف ما الذي يريدني أن أفعله. أقول لنفسي أحياناً إنه يبكي من أجل الناس الذين يعانون جميعاً. من أجل المرضى، من أجل العميان، من أجل من يطلبون الصدقات في الشوارع. حسن، لستُ أدري، تخطر لذهني أشياء كثيرة كلما رأيته. والأمر الوحيد الذي لا أعرفه هو كيف أعبر عن تلك الأشياء يا أبتاه.

ـ إنك تعبر عنها بصورة جيدة يا فونتشيتو ـ اعترف الأب أودونوفان ـ لا تقلق بهذا الشأن.

ـ ولكن، ماذا علينا أن نفعل؟ سألته لوكريثيا.

ـ انصحنا يا بيبين ـ أضاف ريغوبيرتو ـ. أشعر بأنني مشلول تماماً. إذا كان الأمر مثلما تقول، فإن هذا الطفل يملك نوعاً من الموهبة، ولديه نوع من الحساسية العالية، بحيث يرى ما لا يراه أحد سواه. هذه هي

الحال، أليس كذلك؟ هل عليَّ أن أكلمه في الموضوع؟ هل عليّ أن أظل صامتاً؟ القضية تقلقني، تخيفني. لا أدري ماذا أفعل.

ـ امنحه الحنان واتركه بسلام ـ قال الأب أودونوفان ـ. من المؤكد أن ذلك الشخص، سواء أكان له وجود أم لم يكن، ليس بالشخص المنحرف الفاسد، وهو لا يريد إلحاق أي أذى بابنك. وسواء أكان له وجود أم لم يكن، فإن له علاقة بروح فونتشيتو، حسن، له علاقة بنفس فونتشيتو إن كنت تفضل هذا القول، أكثر مما له علاقة بجسده.

ـ أهي مسألة صوفية؟ ـ تدخلت لوكريثيا ـ. أتكون هكذا؟ ولكن فونتشيتو لم يكن متديناً قطّ. بل يمكنني القول إنه على العكس من ذلك تماماً.

ـ أرغب في أن أكون أكثر دقة، ولكنني غير قادر ـ اعترفَ الأب أودونوفان مرة أخرى وهو يبدي ملامح الهزيمة ـ. هنالك شيء ليس له تفسير عقلاني يحدث لهذا الصغير. إننا لا نعرف كل ما فينا نحن بالذات يا ذا الأذنين. فنحن الكائنات البشرية، كل شخص منا، هاويات عميقة مترعة بالظلال. لدى بعض الرجال، وبعض النساء، حساسية أشد زخماً مما لدى غيرهم، يشعرون ويتوجسون أموراً تمر دون انتباه على الآخرين. أيمكن أن تكون ناتجة عن تخيلاتهم وحسب؟ ربما نعم. ولكنها قد تكون شيئاً آخر لا أجرؤ على تسميته يا ريغوبيرتو. ابنك يعيش هذه التجربة بزخم شديد، وبحقيقية بالغة إلى حدّ لا أريد أن أصدق معه أن المسألة محض تخيلات. ولست أريد أن أقول أكثر من هذا.

صمت وراح ينظر إلى طبق سمك غراب البحر والرز نظرة هجينة ما بين الخبل والحنان. لم تتذوق لوكريثيا ولا ريغوبيرتو لقمة واحدة منه.

ـ أشعر بأني لم أقدم لكما فائدة تذكر ـ أضاف الكاهن محزوناً ـ فبدل أن أساعدكما على الخروج من هذه المتاهة، علقتُ بها أنا نفسي أيضاً.

ظل صامتاً لبعض الوقت ونظر إلى أحدهما ثم إلى الآخر بجزع.

ـ لست أبالغ إذا قلت لكما إنها المرة الأولى في حياتي التي أواجه فيها أمراً لستُ مهيأً له ـ دمدم بجدّية كبيرة ـ. إنه أمرٌ ليس له، في نظري، تفسير عقلاني. ومع هذا فقد أخبرتكما من قبل بأنني لا أستبعد كذلك أن تكون لدي الصبي قدرة استثنائية على الخداع، وأنه جعلني أصدق قصة محكمة الحبكة. ليس هذا مستحيلاً. لقد فكرتُ كثيراً في الأمر. ولكن لا، لا أظن ذلك. أعتقد أنه صادق.

ـ لن تتركنا مطمئنين جداً ونحن نعلم أن لابني تجارة يومية من عالم الغيب ـ قال ريغوبيرتو وهو يهز كتفيه ـ. وأن فونتشيتو هو أشبه براعية لورديس التي ظهرت لها السيدة العذراء. لقد كانت راعية، أليس كذلك؟

ـ أنت سوف تضحك، أنتما الاثنان ستضحكان ـ قال الأب أودونوفان وهو يداعب الشوكة، دون أن ينقض على سمكة غراب البحر ـ ولكنني لم أتوقف في هذه الأيام عن التفكير لحظة واحدة في هذا الطفل. فمن بين جميع الأشخاص الذين عرفتهم طيلة حياتي، وهم كُثر، أظن أن فونتشيتو هو الأقرب إلى ما نسميه، نحن المؤمنين، الكائن النقي. وليس ذلك لوسامته فقط.

ـ ها قد ظهر الكاهن الذي فيك يا بيبين ـ غضب ريغوبيرتو ـ هل تريد الإيحاء إلى أنه يمكن لابني أن يكون ملاكاً؟

ـ إنه ملاك بلا أجنحة على أي حال. ضحكت لوكريثيا، وقد فعلت ذلك الآن بسعادة صريحة وبعينين تتأججان خبثاً.

ـ أقول هذا وأكرره حتى لو أضحككما ـ أكد الأب أودونوفان وهو يضحك أيضاً ـ. أجل يا ذا الأذنين، أجل يا لوكريثيا، مثلما تسمعان. حتى لو بدا الأمر لكما ظرافة: إنه ملاك صغير، ولم لا.

XI

حين وصلا إلى «البيت الصغير» في كاستييّا، على الضفة الأخرى للنهر، حيث تعيش مابيل، كان الرقيب ليتوما والنقيب سيلفا يتعرقان بغزارة. فالشمس تضرب بقسوة من سماء بلا غيوم، حيث ترسم نسور الرخمة دوائر في تحليقها. ولم تكن هناك ولو هبة نسيم خفيفة تخفف من حدّة الحرّ. على امتداد الطريق كله منذ خروجهما من المفوضية، كان ليتوما يتساءل. في أي حال سيجدون الفتاة الفاتنة؟ أيكون أولئك الأوغاد قد أساؤوا إلى عشيقة فيليثيتو ياناكيه؟ أيكونون قد ضربوها؟ أيكونون قد اغتصبوها؟ هذا احتمال وارد جداً بالنظر إلى جمال الشابة، وكيف لن يستغلوا الفرصة وهم يحتجزونها تحت رحمتهم ليلاً ونهاراً.

فتح لهما السيد فيليثيتو نفسه باب بيت مابيل الصغير. وقد بدا منشرحاً، سعيداً. لقد تبدل وجهه العابس الذي كان يراه عليه ليتوما دوماً، وتلاشت الملامح التراجيكوميدية التي كان عليها في الأيام الأخيرة. إنه يبتسم الآن ابتسامة تملأ وجهه وتمتد ما بين أُذنيه، وتلمع عيناه من السعادة. يبدو كمن استعاد شبابه. كان بلا جاكيت البدلة، وأزرار صداره مفتوحة كلها. كم هو نحيل، يكاد صدره وظهره أن يتلاصقا، ويا له من شرغوف ضئيل؛ فقد بدا لليتوما أشبه بقزم. ما إن رأى الشرطيين حتى أقدم على شيء غير مألوف من رجل غير معتاد على إظهار مشاعره: فتح ذراعيه وعانق النقيب سيلفا.

ـ لقد جرت الأمور مثلما توقعتَها أنت أيها النقيب ـ وكان يربت على ظهره بانشراح ـ لقد أطلقوا سراحها، أفلتوها. كنتَ محقاً أيها السيد المفوض. لا أجد كلمات كافية لشكرك. إنني أحيا من جديد بفضلك. وبفضلك أنت أيضاً أيها الرقيب. الشكر لكما، أشكركما أنتما الاثنين.

كانت عيناه مخضلتين بدموع التأثر. مابيل تستحم، ستخرج الآن. أجلسَهما في الصالة الصغيرة، تحت صورة قلب يسوع، قبالة المنضدة الصغيرة حيث توجد منحوتة لاما وعلم البيرو. كانت هناك مروحة مشغّلة تُصدر صريراً غير منتظم بينما تيار الهواء الصادر عنها يهز الزهور البلاستيكية. كان صاحب شركة النقل يجيب على أسئلة الضابط بانفتاح وسعادة: أجل، أجل، إنها على ما يرام، لقد كان رعباً عظيماً بالطبع، ولكنهم لم يضربوها لحسن الحظ، والحمد لله أنهم لم يغتصبوها. أبقوها معصوبة العينين ومقيدة اليدين طيلة هذه الأيام، يا لهم من قساة، جلفين. ستخبرهما مابيل نفسها كل التفاصيل حين تخرج الآن. وبين لحظة وأخرى، كان فيليثيتو يرفع يديه إلى السماء: «لو أن شيئاً أصابها لما سامحتُ نفسي إلى الأبد. يا للمسكينة! درب الآلام هذا كله بسببي. لم أكن متديناً قطّ، ولكنني عاهدت الرب على أنني لن أتخلف، منذ الآن، عن الذهاب إلى القداس كل يوم أحد». وفكر ليتوما: «إنه مغرم بها حتى النخاع». لا ريب في أنه يضاجعها بصورة رائعة. وذكرته هذه الفكرة بوحدته، وبالوقت الطويل الذي أمضاه بلا امرأة. أحس بالحسد تجاه دون فيليثيتو وبالغضب من نفسه.

خرجت مابيل لمصافحتهما برداء حمام مزين بأزهار، وكانت تنتعل خفاً، وتضع منشفة على شكل عمامة فوق رأسها. بدت لليتوما وهي على تلك الحال، بلا مكياج وشاحبة وبعينين مازالتا

مذعورتين، أقل جمالاً مما كانت عليه يوم ذهبت إلى المفوضية لتدلي بأقوالها. ولكنه أُعجب بارتعاشة فتحتي أنفها المدببة، وبكاحليها الحساسين، وانحناءة ظاهر قدميها. وبدت له بشرة ساقيها أكثر بياضاً من يديها وذراعيها.

ـ يؤسفني أنني لا أستطيع أن أقدم أي شيء لكما ـ قالت وهي تومئ إليهما أن يجلسا. بل إنها حاولت أن تقدم إليهما دعابة: ـ يمكنكما أن تتخيلا أنني لم أستطع القيام بمشترياتي خلال هذه الأيام، ولم يبق في ثلاجتي ولو علبة كوكا كولا واحدة.

ـ يؤسفنا جداً ما حدث لك يا سيدتي ـ وانحنى لها النقيب سيلفا انحناءة احترام بالغة الاحتفالية ـ. لقد أخبرَنا السيد ياناكيه بأنهم لم يسيئوا إليك، أليس كذلك؟

قامت مابيل بتكشيرة غريبة، نصف ابتسامة ونصف تكشيرة.

ـ حسن، إلى حدّ معين وحسب. لم يضربوني ولم يغتصبوني لحسن الحظ. ولكن لا يمكن القول إنهم لم يسيئوا إليّ. لم أشعر قطّ بمثل ذلك الخوف في حياتي أيها السيد. لم أنم قطّ كل ذلك العدد من الليالي وأنا على الأرض، بلا فراش ولا وسادة. بعينين معصوبتين ويدين مقيدتين. أليس هذا كله سوء معاملة؟ ولكنني مازلت حية في نهاية المطاف، أجل.

كان صوتها يرتعش ويطل من عينيها السوداوين، للحظات، خوفٌ عميق تبذل جهداً للسيطرة عليه. «لتحلَّ اللعنة عليهم أبناء العاهرة» فكّر ليتوما. كان يشعر بالحزن والغضب لما تعرضت له مابيل. «يجب أن يدفعوا الثمن، يا للعنة».

ـ أنتِ لا تعلمين كم نشعر بالأسف لمجيئنا وازعاجك في هذه اللحظات، لأنك ترغبين في الراحة ـ اعتذر النقيب سيلفا وهو يلعب

بقبعته ـ ولكن أرجو أن تتفهمي وضعنا. لا يمكن لنا إضاعة الوقت يا سيدتي. هل يزعجك أن نوجه إليك بعض الأسئلة الصغيرة؟ إنها مسألة لابد منها، قبل أن تختفي آثار أولئك الأشخاص تماماً.

ـ طبعاً، طبعاً، أتفهمك جيداً ـ وافقت مابيل وهي تبدي ملامح الرضا، ولكن دون أن تخفي معارضتها تماماً ـ اسأل ما تريد أيها السيد.

كان ليتوما مبهوراً بحركات الحنان التي يبديها فيليثيتو ياناكيه تجاه أنثاه. فهو يمر بيده على وجهها بعذوبة، كما لو أنها كلبته المدللة؛ يزيح خصل الشعر المفلتة على جبهتها ويدسها تحت المنشفة العمامة، يهش الحشرات الطيارة التي تقترب منها. ينظر إليها بحنان ولا يرفع بصره عنها. أمسك إحدى يديها واستبقاها بين يديه.

ـ هل استطعتِ رؤية وجوههم ـ سألها النقيب ـ هل يمكنك التعرف عليهم إذا ما رأيتِهم مجدداً؟

ـ لا أظن ذلك ـ نفت مابيل برأسها، ولكنها لم تكن تبدو متأكدة مما تقوله ـ، لم أر سوى واحدٍ منهم، وبصورة خاطفة. من كان يقف بجانب الشجرة، شجرة البونثيانا ذات الأزهار الحمراء، حين وصلتُ إلى البيت تلك الليلة. لم أكد أدقق في ملامحه. كان يقف جانبياً، هكذا بدا لي، وفي الظلام. وفي تلك اللحظة بالذات، حين استدار ليقول لي شيئاً واستطعت النظر إليه، ألقوا غطاء فوق رأسي. كمَّموني. ولم أعد أرى شيئاً حتى صباح هذا اليوم، حين...

قطعتْ كلامها بوجه ممتقع وأدرك ليتوما أنها تبذل جهوداً كبيرة كيلا تجهش في البكاء. كانت تحاول مواصلة الكلام ولكن صوتها لم يكن يخرج. راح فيليثيتو يتضرع إليهما بعينيه بأن يشفقا على مابيل.

ـ اهدئي، اهدئي ـ واساها النقيب سيلفا ـ. أنت امرأة شجاعة جداً

يا سيدتي. لقد مررتِ بتجربة رهيبة ولم يستطيعوا كسرك. أطلب منكِ فقط أن تبذلي مجهوداً أخيراً، أرجوكِ. كنا نفضل طبعاً عدم التحدث في الأمر، ومساعدتك على دفن ذكرياتك السيئة. ولكن المجرمين الذين اختطفوك يجب أن يكونوا وراء القضبان، وأن يُعاقبوا على ما فعلوه. وأنت وحدك من تستطيعين مساعدتنا في الوصول إليهم.

هزت مابيل رأسها موافقة وهي تبتسم ابتسامة مغمومة. وتابعت الكلام متغلبة على كربها. بدت قصتها لليتوما متماسكة ومتدفقة، وإن كانت تنتابها بين حين وآخر ارتعاش وخزات رعب تجعلها تصمت مرتجفة لبضع ثوان. فيشحب وجهها، وتصطك أسنانها. أتراها تستعيد لحظات الكابوس، ذلك الرعب العظيم الذي لا بد أن تكون قد أحست به نهاراً وليلاً على امتداد أسبوع أمضته في قبضة المافيا؟ ولكنها تعود بعد ذلك لسرد قصتها، يقاطعها بين فينة وأخرى النقيب سيلفا، و(«بأي تهذب شديد الأدب»، فكر ليتوما متفاجئاً) يطلب منها تفصيلاً معيناً حول ما ترويه.

عملية الاختطاف جرت قبل سبعة أيام، بعد الحفل الموسيقي لكورال الأخوية المريمية بكنيسة سان فرانثيسكو في شارع ليما، وقد حضرته مابيل مع صديقتها فلورا دياث التي تملك محل ملبوسات في شارع خونين، يسمى محل **إبداعات فلوريتا**. إنهما صديقتان منذ زمن وتذهبان معاً إلى السينما في بعض الأحيان، أو لتناول وجبة خفيفة وللمشتريات. ومن عادتهما في مساء أيام الجمعة أن تذهبا إلى كنيسة سان فرانثيسكو، وهي المكان الذي أُعلن فيه استقلال بيورا، إذ تقام هناك حفلات موسيقية، وكورالات، ورقص وعروض فرق محترفين. وفي يوم الجمعة ذاك أنشد كورال الأخوية المريمية أناشيد دينية، كثير منها باللاتينية، أو هكذا كانت تبدو. فشعرت فلورا ومابيل بالضجر،

وخرجتا قبل انتهاء الحفل. تبادلتا الوداع عند الجسر المعلق، ورجعت مابيل إلى بيتها ماشية، لأنها كانت قريبة جداً. لم تلحظ شيئاً غريباً أثناء سيرها، لم تلحظ أحداً، ولم تلاحظ أن إحدى السيارات تتبعها. لا شيء مطلقاً. كلاب الشوارع وحدها، وأسراب صبية صغار يلهون، وأناس يستمتعون ببرودة الجو ويتبادلون الحديث على كراسٍ عادية وكراسٍ هزازة، أخرجوها أمام أبواب البيوت والحانات والدكاكين والمطاعم، مع الزبائن وأجهزة راديوهاتهم التي تطلق بأعلى صوت موسيقاها، فتختلط مالئة الجو بصخب يبعث على الصمم. («أكان هناك قمر؟» سأل النقيب سيلفا، فارتبكت مابيل للحظات: «أكان؟ المعذرة، لا أتذكر».)

كان شارع بيتها مقفراً، تظن أنها تتذكر. ولم تكد تلحظ تلك الهيئة الذكورية شبه المستندة إلى شجرة البونثيانا. كانت تحمل مفتاح البيت في يدها، ولو أن ذلك الشخص حاول الاقتراب منها لكانت صرخت طالبة النجدة وانطلقت راكضة. لكنها لم تلحظ قيامه بأي حركة. أدخلت المفتاح في قفل الباب وكان عليها أن تعالجة بشيء من القوة ـ «وقال لهما فيليثيتو عندئذ إن المفتاح يعاند قليلاً على الدوام» ـ وحين أحستْ بظل يقترب منها. لم تجد وقتاً للقيام بأي ردّ فعل. أحست بأنهم يُلقون غطاء على رأسها، وأن عدة أذرع تمسك بها في الوقت نفسه. («كم كان عدد تلك الأذرع؟»، «أربع أذرع... ست، لا أدري».) ثم حملوها وكمموا فمها ليُخمدوا صراخها. بدا لها أن ذلك كله قد حدث في ثانية واحدة. كان ذلك أشبه بزلزال، وكانت هي في مركز تلك الهزة الأرضية. وعلى الرغم من هلعها العظيم، حاولت أن ترفس بقدميها وأن تحرك ذراعيها، إلى أن أحست بأنهم يطرحونها أرضاً في سيارة، يمكن أن تكون سيارة كبيرة أو شاحنة صغيرة؛ وكبح أولئك

الأشخاص حركتها بتثبيتها من قدميها ويديها ورأسها. عندئذ سمعت تلك الجملة التي مازالت ترن في مسمعيها: «التزمي الهدوء والصمت إذا أردتِ البقاء حية». أحستْ بمرور شيء بارد على وجهها، ربما هي سكين، وربما مقبض مسدس أو سبطانته. انطلقت السيارة؛ ومع اهتزازها راح بدنها يُصفع بالأرضية. عندئذ تكورت على نفسها وظلتْ صامتة تفكر: «سأموت». لم تكن لديها حماسة حتى للصلاة. وبلا شكوى أو مقاومة، سمحت بأن يربطوا عصابة على عينيها، ويُلبسوا رأسها كيساً، وأن يقيدوا يديها. لم ترَ وجوههم لأنهم فعلوا ذلك كله في الظلام، بينما هم يمضون، ربما، على الطريق العام. لم تكن هناك أنوار كهربائية وكان كل شيء ظلاماً مطبقاً. لابد أن الجو كان ضبابياً، إذ لم يكن هنالك حتى قمر. قاموا بجولات وجولات لوقت بدا لها ساعات... قروناً، وربما لم تكن سوى دقائق قليلة. فبعينيها المعصوبتين ويديها المقيدتين وخوفها، فقدتْ الإحساس بالزمن. ومنذ تلك اللحظة لم تعد تعرف في أي يوم هي، وما إذا كان الوقت ليلاً، وإذا كان هناك من يحرسها أم أنهم تركوها وحدها في تلك الحجرة. الأرضية التي مددوها عليها كانت قاسية جداً. وكانت تشعر أحياناً بحشرات تمشي على ساقيها، ربما هي تلك الصراصير الفظيعة التي تكرهها أكثر من كرهها للعناكب والفئران. أنزلوها من الشاحنة ممسكين بها من ذراعيها، ومشت متلمسة موطئ قدميها ومتعثرة، فدخلت بيتاً حيث كان مذياع يبث موسيقى كريولية، نزلت درجاً. وبعد أن طرحوها أرضاً على حصير، تركوها وانصرفوا. ظلت ترتجف هناك في الظلام. لقد تمكنت عندئذ من الصلاة. طلبت من السيدة العذراء ومن جميع القديسين الذين تتذكرهم، ومنهم القديسة روسا دي ليما وسيد أياباكا الكاوتيفو طبعاً، أن يحموها. وألا يتركوها تموت بتلك الحال، وأن ينتهي ذلك العذاب.

خلال أيام اختطافها السبعة، لم يجر أي حديث بينها وبين خاطفيها. لم يُخرجوها قطّ من تلك الحجرة. لم تعدّ لرؤية الضوء قطّ، لأنهم لم ينزعوا العصابة عن عينيها مطلقاً. كان هناك إناء أو دلو يمكنها أن تقضي فيه حاجتها، بالتلمس، مرتين في اليوم. أحدٌ ما كان يأخذه ويعيده نظيفاً دون أن يتوجه إليها بالكلام. مرتان في اليوم، الشخص نفسه أو شخص مختلف، يظل صامتاً دوماً، يأتيها بطبق أرز مع يخنة خضار ولحم وحساء، ومرطب مياه غازية شبه ساخنة أو قارورة مياه معدنية. ومن أجل أن تتمكن من الأكل، كانوا ينزعون الكيس عن رأسها ويفكون قيد يديها، ولكنهم لا ينزعون العصابة عن عينيها أبداً. وكلما توسلت مابيل إليهم متضرعة أن يخبروها ماذا سيفعلون بها، ولماذا اختطفوها، يردّ عليها دوماً الصوت القوي والآمر نفسه: «اصمتي! إنك تقامرين بحياتك حين تسألين». لم تستطع الاستحمام قطّ، ولا حتى أن تغتسل. ولهذا كان أول ما فعلته، حين استعادت حريتها، هو الدخول للاستحمام والبقاء تحت ماء الدوش طويلاً، ودلك بدنها بالليفة والصابون إلى أن تسلخت بشرتها، وبعد خلعها كل تلك الملابس التي كانت ترتديها خلال تلك الأيام الرهيبة. ستضعها كلها في حزمة ـ بما في ذلك الحذاء ـ وتقدمها هدية لفقراء سان خوان دي ديوس.

في صباح هذا اليوم دخل إلى حجرة سجنها عدة أشخاص، قدّرت ذلك من وقع الخطوات. ودون أن يقولوا أي شيء، كالعادة، أوقفوها في ما بينهم على قدميها وجعلوها تمشي، تصعد درجاً، وأعادوا طرحها على أرضية عربة، لا بد أنها السيارة أو الشاحنة نفسها التي اختطفوها فيها. وظلت السيارة تقوم بجولات وجولات لوقت طويل، بينما عظام بدنها كلها تتخلع من الاهتزاز المتواصل، إلى أن توقفت

أخيراً. فكوا وثاق يديها وأمروها: «عدّي حتى المئة قبل أن تنزعي العصابة عن عينيك. إذا ما نزعتِها قبل ذلك ستقضي عليك رصاصة». انصاعت لما طلبوه. وحين رفعت العصابة اكتشفت أنهم تركوها في وسط الرملة بالقرب من لا ليغوا. مشت أكثر من ساعة حتى وصلت إلى أول البيوت في حيّ كاستيا. وهناك تمكنت من العثور على سيارة أجرة أوصلتها إلى البيت.

بينما مابيل تروي أوديستها، كان ليتوما يتابع قصتها باهتمام شديد، ولكن دون أن يهمل مظاهر المحبة التي يبديها دون فيليثيتو لعشيقته. كان هنالك شيء طفولي، مراهق، ملائكي، في الطريقة التي يمر بها صاحب شركة النقل بيده على جبهتها، وينظر إليها بورع ديني، ويتمتم «مسكينة، مسكينة يا حبي». في بعض اللحظات كان ليتوما يشعر بالضيق من تلك الحركات، وتبدو له مبالغاً فيها، ومضحكة بعض الشيء في مثل تلك السن. وفكّر: «لا بد أنه أكبر منها بثلاثين عاماً. يمكن لهذه الفتاة أن تكون ابنته». لقد كان العجوز يرتجف حتى النخاع. أتكون مابيليتا من الناريات أم من الباردات؟ إنها من الناريات طبعاً.

ـ لقد اقترحتُ عليها أن تنتقل من هنا لبعض الوقت ـ قال فيليثيتو ياناكيه للشرطيين ـ. أن تذهب إلى تشيكلايو، أو تروخيو أو إلى ليما. إلى أي مكان. ريثما تنتهي هذه القضية. لا أريد أن يحدث لها أي شيء. ألا تبدو لك فكرة جيدة أيها النقيب؟

هز الضابط كتفيه.

ـ لا أظن أنه سيحدث لها أي شيء ببقائها هنا ـ قال مفكراً ـ. الجناة يعرفون أنها محمية الآن ولن يكونوا مجانين بالاقتراب منها وهم يعرفون ما الذي يعرِّضون أنفسهم له. أشكرك يا سيدة مابيل على

شهادتك. أؤكد لك أنها ستكون مفيدة لنا. هل تسمحين بأن أوجه إليك بعض الأسئلة الأخرى؟

ـ إنها متعبة ـ احتج دون فيليثيتو ـ. لماذا لا تتركها الآن بهدوء أيها النقيب؟ ولتستجوبها غداً أو بعد غد. أريد أخذها إلى طبيب، وإدخالها المستشفى بضعة أيام لإجراء فحوصات شاملة.

ـ لا تقلق يا عجوزي، سأستريح في ما بعد ـ تدخلت مابيل ـ. اسألني ما تشاء أيها السيد.

بعد عشر قائق، قال ليتوما لنفسه إن رئيسه يبالغ. فصاحب شركة النقل على حق؛ لأن المرأة المسكينة تعرضت لتجربة رهيبة، اعتقدتْ أنها ستموت، لقد كانت تلك الأيام السبعة بالنسبة لها عذاباً فظيعاً. كيف يريد النقيب من مابيل أن تتذكر التفاصيل التافهة، شديدة البلاهة، التي يركز أسئلته عليها؟ إنه لا يفهم ذلك. لماذا يريد رئيسه أن يعرف إن كانت قد سمعت وهي في سجنها صياح ديكة أو صوت دجاج، أو مواء قطط أو نباح كلاب؟ وكيف ستتمكن مابيل من أن تحدد عدد الخاطفين من خلال أصواتهم، وإذا كانوا جميعهم من بيورا أم أن بينهم من يتكلم بلهجة ليما، أو اللهجة الجبلية أو بلهجة شرق البلاد؟ كانت مابيل تفعل كل ما بوسعها، تفرك يديها، تتشكك، ومن الطبيعي أن تلتبس عليها الأمور أحياناً وتبدي ملامح الذهول. هذا شيء لا أتذكره يا سيدي، لم أدقق في هذا الأمر، يا للأسف. وتعتذر وهي تهز كتفيها، وتفرك يديها: «كم كنتُ بلهاء، كان عليّ أن أفكر في هذه الأمور، وأن أحاول الانتباه والتذكر. ولكن... لقد كنت في حالة ذهول شديد أيها السيد».

ـ لا تقلقي، من الطبيعي أن يكون ذهنك مشغولاً، ومن المستحيل حفظ كل شيء في الذاكرة ـ شجعها النقيب سيلفا ـ. ولكن حاولي القيام

مع ذلك بجهد أخير. فكل ما تتذكرينه سيكون مفيداً جداً لنا يا سيدتي. قد تبدو لكِ بعض أسئلتي مجرد كلام لا فائدة منه، ولكن لا تظني ذلك، ففي بعض الأحيان يظهر من هذه التفاهات عديمة الأهمية طرف خيط يقودنا إلى الهدف.

وما بدا لليتوما أكثر غرابة هو أن النقيب سيلفا كان يلح كثيراً على أن تتذكر مابيل ظروف وتفاصيل الليلة التي اختُطفت فيها. هل هي متأكدة من أن أحداً من جيرانها لم يكن يستمتع ببرودة الجو في الشارع؟ ولم تكن أي جارة تطل بنصف جسدها من نافذة مستمعة إلى سيرناتا أو تتبادل الحديث مع حبيبها؟ تظن مابيل أن لا، ولكن ربما نعم، لا، لا، لم يكن هناك أحد في ذلك الركن من الشارع لدى عودتها من حفلة الأخوية المريمية. ربما كان هناك أحد، أمر ممكن، كل ما في الأمر أنها لم تدقق، لم تنتبه، يا لي من بلهاء. ليتوما والنقيب كانا يعرفان جيداً أنه لم يكن هنالك أي شاهد على عملية الاختطاف لأنهما كانا قد استجوبا جميع الجيران. لم يرَ أحد أي شيء، لم يسمع أحدٌ شيئاً غريباً في تلك الليلة. ربما كان ذلك صحيحاً، أو ربما، كما قال النقيب، لا أحد يريد التورط. «الجميع يرتجفون خوفاً أمام المافيا. ولهذا يفضلون عدم رؤية أو معرفة أي شيء، هكذا هم هؤلاء الأنذال المغلقين على أنفسهم».

أخيراً منح المفوض نَفَساً لمالك شركة النقل، وانتقل إلى سؤال عادي.

ـ ما الذي تظنين، يا سيدتي، أن الخاطفين كانوا سيفعلونه بك لو لم يُشعِرهم دون فيليثيتو بأنه سيدفع الفدية؟

فتحت مابيل عينيها على اتساعهما، وبدل أن تجيب على سؤال الضابط، التفتت إلى عشيقها:

ـ هل طلبوا منك فدية مقابلي؟ لم تخبرني بذلك يا عجوزي.

ـ لم يطلبوا مني فدية مقابلك ـ أوضح لها وهو يقبّل يدها مرة أخرى ـ. لقد اختطفوكِ كي يجبروني على دفع الإتاوة التي يطلبونها من ناريهوالا للنقل. وأطلقوا سراحك لأني جعلتهم يعتقدون أنني وافقت على ابتزازهم. كان عليّ أن أنشر إعلاناً في «*التيمبو*»، أشكر فيه معجزة حققها لي السيد كاوتيفو دي أياباكا. كانت هذه هي الاشارة التي ينتظرونها. ولهذا أطلقوا سراحك.

رأى ليتوما أن وجه مابيل قد شحب من جديد. كانت ترتجف وراحت أسنانها تصطك مرة أخرى.

ـ أتعني أنك ستدفع لهم تلك الإتاوة؟ تلعثمت.

ـ لن أفعل ولو مت ياحبيبتي ـ شخر دون فيليثيتو وهو ينفي بحركة نشطة من رأسه ويديه ـ. لن أفعل ذلك أبداً.

ـ سوف يقتلونني إذاً ـ همست مابيل ـ. وأنت أيضاً يا عجوزي. ما الذي سيجري الآن أيها السيد؟ هل سيقتلوننا نحن الاثنين؟

أفلتت إجهاشة نحيب رافعة يديها إلى وجهها.

ـ لا تقلقي يا سيدتي. ستتوافر لكِ حماية على مدار الأربع والعشرين ساعة يومياً. ولن يكون ذلك لوقت طويل، لأنه لن يكون ضرورياً، وسوف ترين. لقد صارت أيام هؤلاء اللصوص معدودة، أقسم لك.

ـ لا تبكِ، لا تبكِ يا حبيبتي ـ واساها دون فيليثيتو وهو يحنو عليها ويحتضنها ـ أقسم لك إنه لن يصيبك أي سوء مرة أخرى. لن أسمح بحدوث ذلك أبداً. أقسم لك يا حياتي، صدقيني. الأفضل أن تغادري هذه المدينة لبعض الوقت مثلما طلبتُ منك، اعملي بنصيحتي.

نهض النقيب سيلفا واقفاً، وحذا ليتوما حذوه. «سنخصص لكِ حماية دائمة»، أعاد المفوض التأكيد على سبيل الوداع. «اطمئني يا سيدتي». لم يرافقهما أي من مابيل أو دون فيليثيتو حتى الباب؛ بل

ظلّ كلاهما في الصالة، هي تبكي وهو يواسيها.

وفي الخارج، كانت تنتظر الشرطيين شمس حارقة والمشهد المعهود: صبية بثياب رثة يتبادلون ركل كرة، وكلاب أليفة تنبح، وأكوام زبالة عند النواصي، وباعة متجولون، وصف عربات وشاحنات ودرجات نارية ودراجات هوائية تتنازع الطريق. لم تكن طيور الرخمة تحلق في السماء فقط، بل إن اثنين من تلك الطيور حطت أرضاً وراحت تبش في أكوام القمامة.

ـ ما رأيك يا سيادة النقيب؟

أخرج رئيسه علبة سجائر تبغ أسود، قدم واحدة للرقيب، وأخذ واحدة لنفسه وأشعل الاثنتين بولاعة قديمة خضراء ضاربة إلى السواد. أخذ نفساً طويلاً، ثم أطلق الدخان على شكل حلقات. وكانت تبدو عليه ملامح الرضا.

ـ لقد وقعوا يا ليتوما ـ قال وهو يوجه لكمة زائفة إلى مساعده ـ لقد اقترف الأنذال خطأهم الأول، وهو ما كنتُ أنتظره. وأوقعوا أنفسهم! هلم بنا إلى «التشالان»، إنني أدعوك إلى عصير فواكه مع كثير من الثلج للاحتفال بالمناسبة.

كانت ابتسامته تمتد من أذن إلى الأخرى وهو يفرك يديه مثلما يفعل حين يكسب جولة في لعب البوكر أو النرد، أو حين يكسب جولة في الداما.

ـ اعترافات هذه الأنثى تبر ذهب خالص يا ليتوما ـ أضاف وهو يدخن ويطلق الدخان باستمتاع ـ وأعتقد أنك قد لاحظت ذلك.

ـ لم ألاحظ أي شيء يا سيادة النقيب ـ اعترف ليتوما مشوشاً ـ هل تتكلم بجد أم أنك تريد السخرية مني؟ إذا كانت المرأة المسكينة لم تتمكن حتى من رؤية وجوههم.

ـ يا للعنة العاهرة! كم أنت شرطي سيئ يا ليتوما، وأنت أكثر سوءاً في الأمور النفسانية ـ قال النقيب ساخراً وهو ينظر إليه من أعلى إلى أسفل ويضحك بارتياح ـ. لا أدري كيف وصلت إلى رتبة رقيب، يا للعنة. وأن تصير فوق ذلك مساعدي، وهو أمر يعني الكثير.

ثم تمتم لنفسه من جديد: «تبرُ ذهبٍ خالص، أجل يا سيدي». كانا يجتازان الجسر المعلق ورأى ليتوما جماعة صبيان يسبحون ويلعبطون في الماء عند ضفاف النهر الرملية. هذه الأمور نفسها كان يقوم بها مع ابني عمه ليون، منذ كثير من السنوات.

ـ لا تقل لي إنك لم تنتبه إلى أن هذه المدعوة مابيليتا لم تنطق بكلمة حقيقية واحدة يا ليتوما ـ أضاف النقيب وهو يبدي الجديّة التامة. وكان يمج السيجارة، وينفث الدخان كمن يتحدى السماء، وفي صوته وعينيه حسُّ الانتصار ـ. إنها لم تفعل شيئاً سوى التناقض ورواية حكاية خرقاء. لقد أرادت أن تخدعنا وأن تدس إصبعها في فمنا... وفي مؤخرتنا أيضاً. كما لو أننا، أنا وأنت، مجرد زوج من البلهاء يا ليتوما.

توقف الرقيب فجأة وقد سيطر عليه الذهول.

ـ هذا الذي تقوله لا تعنيه بجد يا سيادة النقيب، أو أنك تخدعني؟

ـ لا تقل لي إنك لم تنتبه إلى ما هو جلي وشديد الوضوح يا ليتوما ـ أدرك الرقيب أن رئيسه يتكلم بكل جدية، وبقناعة مطلقة. يفعل ذلك بحماسة وسعادة وهو ينظر إلى السماء، ويرمش دون توقف من الشمس ـ. لا تقل لي إنك لم تنتبه إلى أن مابيليتا ذات المؤخرة الكئيبة لم تكن مخطوفة قطّ. وأنها متواطئة مع المبتزين، وشاركت في مسرحية الاختطاف التهريجية من أجل تليين موقف دون فيليثيتو المسكين الذي تريد هي أيضاً أن تنتف ريشه. لا تقل لي إنك لم تنتبه إلى أنه بفضل تمادي أبناء العاهرة هؤلاء، صارت القضية شبه محلولة عملياً يا ليتوما.

يمكن الآن لرسكاتشوتشا أن ينام مطمئناً ويتوقف عن إزعاج صبرنا. لقد صار الفراش مرتباً ولم يبق علينا الآن سوى مداهمتهم والقبض عليهم.

ألقى عقب السيجارة إلى النهر وبدأ يضحك مقهقهاً وهو يهرش إبطيه.

كان ليتوما قد خلع قبعته وراح يمسد شعره.

ـ إما أنني غبي أكثر مما أبدو عليه أو أنك أنت عبقري يا سيدي النقيب ـ أكد بمعنويات موهنة ـ. أو أن حضرتك أكثر جنوناً من عنزة، أقول هذا مع الاعتذار.

ـ إنني عبقري يا ليتوما، عليك أن تقتنع بذلك، كما أنني أتقن دارسة سيكولوجية الناس ـ أكد النقيب مبتهجاً ـ. يمكن لي أن أقدم لك تنبؤاً إذا أنت رغبت. في اليوم الذي سنلقي القبض على هؤلاء العتاة، وهو يوم قريب جداً، سوف أمزق فرج السيدة خوسيفيتا حبيبة روحي، وسأجعلها تصرخ طيلة الليل. فلتحيا الحياة، يا للعنة!

XII

ـ هل وجدتَ نرسيس المسكين؟ ـ سألته السيدة لوكريثيا ـ، ماذا جرى له؟

أكد دون ريغوبيرتو ذلك بهز رأسه وانهار على مقعد الصالة في بيته مستنفداً.

ـ أوديسة حقيقية ـ قال متنهداً ـ يا لهذا الجميل العظيم الذي قدمه لنا إسماعيل بإدخالنا في مشكلة فِراشه وابنيه، يا حبي.

كان أحد أقرباء نرسيس، سائق إسماعيل كاريرا، قد حدّد له موعداً في محطة الوقود الأولى عند مدخل تشينتشا. قاد ريغوبيرتو السيارة في الطريق إلى هناك طوال ساعتين، ولكنه حين وصل لم يجد أحداً بانتظاره في محطة الوقود المذكورة. وبعد أن وقف تحت الشمس لوقت لا بأس به وهو يرى مرور الشاحنات والحافلات، ويبتلع الغبار الذي تحمله ريح خفيفة ساخنة تهب من الجبال وتصفع به وجهه، وحين أصابه الضجر والتعب، وكان على وشك اتخاذ طريق الرجوع إلى ليما، ظهر صبي قال إنه ابن أخ نرسيس. كان زنجياً صغيراً، نزقاً وحافياً، له عينان واسعتان ثرثارتان ومتآمرتان. تحدث إليه متخذاً الكثير من الاحتياطات، بحيث لم يكن دون ريغوبيرتو يفهم جيداً ما يقوله. وأخيراً اتضح أن هناك تغييراً في الخطط؛ فعمه نرسيس ينتظره في غروسيو برادو، عند باب البيت نفسه الذي عاشت فيه، وحققت

معجزاتها، وماتت فيه الراهبة ميلتشوريتا (حين نطق الصبي اسمها رسم إشارة الصليب). نصف ساعة أخرى من قيادة السيارة في طريق يعج بالتراب والحفر، وسط كروم عنب وبساتين فواكه للتصدير. عند باب بيت- متحف- مصلى الراهبة التقية في ساحة غروسيو برادو، ظهر سائق إسماعيل أخيراً.

ـ كان شبه متنكر بنوع من العباءة وبقلنسوة متعبد كيلا يتعرف عليه أحد، ويكاد يموت خوفاً بالطبع ـ تذكر ريغوبيرتو باسماً ـ لقد كان ذلك الزنجي أبيض شاحباً من الرعب يا لوكريثيا. والحقيقة أن هذا أقل ما هو متوقع. فالضبعان يلاحقانه نهاراً وليلاً، وأكثر مما كنت أتوقعه.

لقد أرسلوا إليه في أول الأمر محامياً، أو متشدقاً ثرثاراً بعبارة أدق، في محاولة لرشوته. إذا ما مَثُل أمام القاضي وقال إنه قد أُجبر على أن يكون شاهداً على زواج رب عمله، وأنه يرى أن السيد إسماعيل كاريرا لم يكن بكامل قواه العقلية يوم زواجه، فسوف يقدمون له مقابل ذلك مكافأة بمبلغ عشرين ألف سول. وعندما أجابه الزنجي بأنه سيفكر في الأمر، ولكنه يفضل بادئ ذي بدء ألا تكون له أية علاقة بالسلطة القضائية ولا بالحكومة، عندئذ جاءت الشرطة إلى منزل عائلته في تشينتشا، لتدعوه إلى المثول في مفوضية الشرطة. فقد رفع التوءمان شكوى ضده بتهمة التواطؤ وجنايات أخرى، منها تهمة التآمر واختطاف رب عمله!

ـ لم يبق أمامه سوى الاختفاء من جديد ـ أضاف ريغوبيرتو ـ. لحسن الحظ أن لنرسيس أصدقاء وأقرباء في كل أنحاء تشينتشا. ومن حسن حظ إسماعيل أن هذا الزنجي هو الشخص الأكثر نزاهة ووفاء في العالم. وعلى الرغم من الرعب الذي يشعر به، إلا أنني أشك في أن يتمكن الجلفان من كسر إرادته. لقد دفعتُ له راتبه، وتركت له مبلغاً

إضافياً تحسباً لأي أمر غير متوقع. هذه القضية ستتعقد أكثر فأكثر كل يوم يا حبي.

تمطى دون ريغوبيرتو وتثاءب على أريكة الصالة الصغيرة، وبينما كانت دونيا لوكريثيا تُعدّ له كأس ليمونادة، استغرق مطولاً في تأمل بحر بارانكو من النافذة. كان مساء بلا رياح وكان في الجو عدد من هواة التحليق الشراعي يقومون بحركات بهلوانية. مرّ أحدهم قريباً جداً من النافذة، إلى حدّ تمكن معه ريغوبيرتو من أن يرى بوضوح رأسه الغاطس في خوذة. يا للمسألة اللعينة. وتأتي لتسقط عليه الآن بالذات، مع بدء تقاعد. كان يظن أنه سيكون في راحة، يمضي الوقت بين فن ورحلات، أي في متعة خالصة. الأمور لا تجري أبداً مثلما تم التخطيط لها: إنها قاعدة بلا استثناءات. «لم أتصور قطّ أن الصداقة مع إسماعيل ستكون باهظة الكلفة إلى هذا الحد»، فكّر «ولم أتصور بأي حال أنه سيكون عليّ أن أضحي من أجلها بحيزي الحضاري الصغير». لو كانت هنالك شمس، لكان هذا الوقت هو الساعة الساحرة في ليما. دقائق من الجمال المطلق. كرة النار تغطس في البحر هناك في الأفق وراء جزر سان لورينثو والفرونتون، مشعلة السماء، وصابغة العيون بلون وردي وعارضة، لبضع دقائق، ذلك المشهد الذي يجمع ما بين السكينة والقيامة ليعلن بدء الليل.

ـ ماذا قلت له؟ ـ سألته دونيا لوكريثيا وهي تجلس إلى جانبه ـ يا لنرسيس المسكين من هذا الوضع الذي ورط نفسه فيه لمجرد كونه شخصاً طيباً مع رب عمله.

ـ حاولتُ طمأنته ـ أخبرها دون ريغوبيرتو وهو يتذوق الليمونادة بتلذذ ـ. وطلبتُ منه ألا يرتعب، فلن يحدث أي شيء له أو لي بسبب كوننا شاهدين على الزواج. وأننا لم نرتكب أية جناية بذلك. ثم إن

إسماعيل سيخرج منتصراً من هذا الصراع مع الضبعين. وأن حملة اسكوبيتا وميكي وغضبهما لا يستندان إلى أية قاعدة قانونية. وأنه إذا أراد الشعور بمزيد من الطمأنينة، فليستشر بشأن وضعه محامياً من تشينتشا يثق به ويرسل إليّ الفاتورة. وباختصار، فعلت كل ما استطعته. إنه رجل صلب الإرادة، وأكرر القول لك إن هذين الجلفين لن يقدرا عليه. ولكنهما يجعلانه يمر بلحظات عصيبة، هذا صحيح.

ـ ونحن، ألسنا كذلك؟ ـ قالت دونيا لوكريثيا شاكية ـ. أقول لك إنني، منذ بدأتْ هذه المزحة الثقيلة، صرتُ أخاف حتى من الخروج إلى الشارع. الجميع يسألونني عن العريسين، كما لو أنه ليس هناك ما هو أكثر أهمية لأهالي ليما. صرت أرى أن للناس جميعاً وجه صحفي. لا تعرف كم أكرههم حين أسمع أو أقرأ تلك البلاهات والخبريات الزائفة التي يكتبونها.

«إنها مذعورة أيضاً»، فكر دون ريغوبيرتو. امرأته تبتسم له ولكنه يستطيع أن يلمح ذلك البريق الخافت المتهرب الذي يطل من عينيها، والطريقة القلقة التي تفرك بها يديها طيلة الوقت. مسكينة لوكريثيا. لم تُلغَ رحلتها إلى أوروبا وكل ما بنته عليها من أحلام وحسب، بل جاءت هذه الفضيحة لتحلّ بها فوق ذلك. بينما العجوز إسماعيل مازال يقضي شهر عسله في أوروبا، دون أن يرسل أية إشارة تدل على أنه حيّ، وبينما ابناه في ليما يجعلون الحياة مستحيلة على نرسيس وعليه هو نفسه وعلى لوكريثيا، ويضعون شركة التأمين نفسها في حالة من الاضطراب.

ـ ماذا جرى لك يا ريغوبيرتو ـ فوجئت لوكريثيا ـ. من يضحك على انفراد، فإنه إنما يتذكر أعماله الخبيثة.

ـ أضحكُ من إسماعيل ـ أوضح ريغوبيرتو ـ. يكاد يكمل شهراً في

رحلة شهر العسل. وهو قد تجاوز الثمانين! لقد تأكدتُ من الأمر، فهو ليس سبعينياً بل ثمانيني! هل تلاحظين يا لوكريثيا؟ كثرة الفياغرا ستؤدي إلى جفاف دماغه، وسوف يتم إثبات صحة ادعاء الضبعين بأنه مختل العقل. لا بد أن تكون آرميدا متوحشة.. إنها تجففه!

ـ لا تكن مبتذلاً يا ريغوبيرتو ـ تظاهرت زوجته بانتقاده ضاحكة.

«إنها تُحسن إظهار وجه مرح في الأجواء السيئة»، فكر ريغوبيرتو بحنان. فلوكريثيا لم تُبدِ الجزع خلال هذه الأيام، بينما حملة التخويف التي شنها التوءمان تملأ البيت باستدعاءات قضائية وبوليسية وبأخبار سيئة ـ وأسوأ الأخبار: لقد تمكنا من وقف إجراءات تقاعده في شركة التأمين عبر حيلة قانونية ـ، إنها لم تبدِ أدنى مظاهر الضعف. فقد دعمته روحاً وجسداً في قراره بعدم الرضوخ لابتزاز الضبعين والحفاظ على وفائه لصديقه ورئيسه في العمل.

ـ الشيء الوحيد الذي يزعجني ـ قالت لوكريثيا قارئة أفكاره ـ هو أن إسماعيل لم يقم ولو باتصال هاتفي أو بإرسال بضعة سطور. ألم يلفت انتباهك ذلك؟ أتراه يعلم بأوجاع الرأس التي تصيبنا؟ هل يعلم بما يحدث للمسكين نرسيس؟

ـ إنه يعرف كل شيء ـ أكد ريغوبيرتو ـ. فأرنييّاس على اتصال به ويُطلعه على كل شيء. وقد أخبرني بأنهما يتبادلان الحديث كل يوم.

الدكتور كلوديو أرنييّاس هو محامي إسماعيل كاريرا منذ سنوات طويلة، وهو الآن الوسيط بين ريغوبيرتو ورئيسه السابق. وحسب قوله فإن إسماعيل وآرميدا يتجولان في أوروبا، وسوف يرجعان قريباً إلى ليما. ويؤكد أن استراتيجية ابني إسماعيل كاريرا لإبطال الزواج، والحصول على قرار حجز على شركة التأمين، لأنها محكومة بأعظم فشل مدوٍ بسبب عجز أبيهما وإصابته بخرف الشيخوخة. ويكفي أن

يحضر إسماعيل، ويخضع للفحوص الطبية والنفسية المطلوبة حتى تسقط تلك الدعوى بصورة تلقائية.

ـ ولكن، إذا كان الأمر على هذه الحال، فأنا لا أفهم لماذا لا يقوم به وننتهي يا دكتور أرنييّاس ـ هتف دون ريغوبيرتو ـ. لا بد أن هذه الفضيحة ستكون أشد وطأة على إسماعيل مما هي علينا.

ـ أوتدري لماذا؟ ـ أوضح الدكتور أرنييّا متخذاً نبرة ميكافيلية، بينما إبهاما يديه يندسان تحت حمالتي السروال اللتين تثبتان بنطاله ـ، لأنه يريد أن يواصل التوءمان إنفاق ما لا يملكانه. النقود التي لا بد أنهم يستدينونها من هنا وهناك كي يدفعوا لهذا الجيش من المحامين الفاشلين، والرشى التي تسهل لهم الطريق لدى الشرطة والمحاكم... لا بد أنهم يسلخونهما حيين، وهذا هو الاحتمال الأكبر، وإسماعيل يريدهم أن يفلسوا تماماً. هذا أمر خطط له السيد كاريرا بكل تفصيل، هل أدركت ذلك؟

لقد صار دون ريغوبيرتو يدرك جيداً الآن أن ضغية إسماعيل كاريرا على الضبعين، منذ ذلك اليوم الذي اكتشف فيه أنهما ينتظران موته بفارغ الصبر، ويتلهفان لوراثته، هي ضغينة مَرَضية ولا رجعة عنها. لم يتصور قطّ أن تكون لدى إسماعيل الوديع القدرة على حقد انتقامي بهذا الحجم، وأقل من ذلك أن يكون حقده موجهاً ضد ابنيه بالذات. هل سيصل الأمر بفونتشيتو إلى تمني موته ذات يوم؟ وبالمناسبة، أين هو الصبي؟

ـ لقد خرج مع صديقه بيثولو إلى السينما على ما أظن ـ أخبرته لوكريثيا ـ. ألم تلاحظ أنه صار أحسن منذ أيام؟ كما لو أنه قد نسي إديلبيرتو توريس.

أجل، فمنذ أسبوع على الأقل لم يعد يرى تلك الشخصية الغامضة.

هذا ما قاله لهما على كل حال، ودون ريغوبيرتو لم يكتشف كذبة واحدة في كلام ابنه.

ـ كل هذه التعقيدات ضيعت علينا الرحلة التي خططنا لها طويلاً ـ تنهدت دونيا لوكريثيا محزونة فجأة ـ. إسبانيا، إيطاليا، فرنسا. يا للأسف يا ريغوبيرتو. كنت أحلم بالقيام بها. وهل تعرف لماذا؟ أنت المذنب. بسبب الطريقة التفصيلية، شديدة النزوية، التي تخبرني بها بالرحلة. الزيارات إلى المتاحف، والحفلات الموسيقية، والمطاعم. ولكن ليس بيدنا عمل أي شيء... الصبر.

وافقها ريغوبيرتو:

ـ إنه تأجيل فقط يا حبي ـ واساها، وقبّل شعرها ـ بما أننا لن نستطيع الذهاب في الربيع، فسوف نذهب في الخريف. إنها فترة بديعة أيضاً، مع الأشجار المذهبة وأوراق الشجر التي تشكل سجادة على الشوارع. إنها أجمل فترة في العام من أجل ارتياد دور الأوبرا والحفلات الموسيقية.

ـ أتعتقد أن مشكلة الضبعين ستكون قد انتهت حتى تشرين الأول؟

ـ إنهما لا يملكان أموالاً، وينفقان القليل المتبقي لديهما في محاولة إبطال هذا الزواج وإعلان الحجر على أبيهما ـ أكد ريغوبيرتو ـ. لن يتوصلا إلى ذلك وسوف يُفلسان. أتعلمين أمراً؟ لم أتصور قطّ أن إسماعيل قادر على فعل ما يقوم بفعله. أولاً، زواجه من آرميدا. وثانياً، التخطيط لانتقام متقن من ابنيه، ميكي وإسكوبيتا. صحيح بالفعل أنه من غير الممكن معرفة الأشخاص بعمق، فللجميع أعماق لا يمكن سبر غورها.

ظلا يتبادلان الحديث لوقت لا بأس به، وحين بدأ الظلام يخيم، راحت تُضاء أنوار المدينة. لم يعودا قادرين على رؤية البحر والسماء،

وامتلأ الليل بأضواء صغيرة كأنها الحباحب. روت لوكريثيا لريغوبيرتو أنها قد قرأت موضوع تعبير كتبه فونتشيتو للمدرسة، وقد أذهلها. لا يمكنها نزعه من رأسها.

ـ هل عرضه عليكِ هو نفسه؟ ـ استفزها ريغوبيرتو ـ أم أنك كنت تنبشين في منضدته؟

ـ حسن، كنت هناك، ورأيت الموضوع، فاستثار فضولي. ولهذا قرأته.

ـ تصرف سيئ قراءتك لأشيائه دون إذن منه ومن وراء ظهره. تظاهر ريغوبيرتو بتأنيبها.

ـ لقد دفعني إلى التفكير ـ واصلت لوكريثيا، دون أن تعيره اهتماماً ـ إنه نصٌ نصف فلسفي ونصف ديني. حول الحرية والشر.

ـ أهو في متناول يدك؟ ـ أبدى ريغوبيرتو اهتماماً ـ. أحب أنا أيضاً أن ألقي عليه نظرة.

ـ لقد استنسخته أيها السيد النمام ـ قالت لوكريثيا ـ وقد تركتُ النسخة لك على منضدة مكتبك.

انزوى دون ريغوبيرتو بين كتبه ولوحاته ليقرأ موضوع إنشاء فونتشيتو. «الحرية والشر» كان نصاً قصيراً جداً. يؤكد على أنه من المحتمل أن الرب حين خلق الإنسان، قرر ألا يكون كائناً آلياً، حياته مبرمجة منذ الولادة حتى الممات، مثلما هي حيوات النباتات والحيوانات، وإنما أراده كائناً مزوداً بحرية الاختيار، وقادراً على تقرير أفعاله بمشيئته الخاصة. وبهذه الطريقة ولدت الحرية. لكن هذه القدرة التي زُود بها سمحت للكائن البشري اختيار الشر، وربما خَلْقه، وفِعل أشياء تتناقض مع كل ما يصدر عن الرب، وهي أقرب إلى أن تكون تمثيلاً لسبب وجود الشيطان، ومسوغاً لوجوده. وهكذا إذاً يكون الشر

ابناً للحرية، وقد خُلق على يد البشر. وهذا لا يعني أن الحرية سيئة بذاتها؛ لا، لقد كانت هبة سمحت باكتشافات علمية وتقنية عظيمة، وبالتقدم الاجتماعي، وباختفاء العبودية والاستعمار، وبحقوق الإنسان، وغيرها. ولكنها كانت كذلك الأصل في القسوة والمعاناة الفظيعة التي لا تتوقف أبداً بل هي ترافق التقدم كظله.

ظلّ دون ريغوبيرتو قلقاً. خطر له أن أفكار هذا النص كلها تلتقي بطريقة ما مع حالات ظهور إديلبيرتو توريس ونواحه. أم أن هذا النص هو نتيجة محادثات فونتشيتو مع الأب أودونوفان؟ هل عاد بيبين للقاء بابنه؟ وفي هذه اللحظة اقتحمت خوستينيانا غرفة المكتب منفعلة جداً. جئت لأخبرك أن «العريس الجديد» يتصل بك هاتفياً.

ـ هذا ما قال لي أن أخبرك به يا دون ريغوبيرتو ـ أوضحت الفتاة ـ «قولي له يا خوستينيانا إن العريس الجديد يتصل بك».

ـ إسماعيل! ـ خرج دون ريغوبيرتو مسرعاً من مكتبه ـ ألو؟ ألو؟ أهذا أنت؟ هل عدّتَ إلى ليما؟ متى رجعت؟

ـ لم أرجع بعد يا ريغوبيرتو ـ قال صوت لعوب عرف فيه صوت رئيسه في العمل ـ إنني أتصل من مكان لن أخبرك به طبعاً، لأن عصفوراً أخبرني بأن هاتفك مراقب من قبل من تعرفهم. ولكنني في مكان جميل، ولتَمُتْ أنت حسداً.

أطلق ضحكة سعادة مجلجلة، فباغت ريغوبيرتو المذعور إحساس شك مفاجئ بأن رئيسه وصديقه مخبول حقاً، وأنه خرف تماماً. أيكون الضبعان قد كلفا إحدى وكالات التجسس بأن تراقب هاتفه؟ مستحيل، المادة الرمادية لا تسمح له بكل هذا. أم أنها تتيح ذلك ربما؟

ـ حسن، حسن، ماذا تريد أكثر من هذا ـ ردّ عليه ـ. هذا أفضل لك يا إسماعيل. أرى أن شهر العسل يمضي مع رياح مواتية، وأنه مازال

لديك بعض قوة النفخ. أو أنك ما تزال حياً على الأقل. وهذا يسعدني أيها العجوز.

ـ إنني في كامل لياقتي يا ريغوبيرتو. دعني أقول لك أمراً: لم أشعر من قبل قطّ بأنني أفضل حالاً وأكثر سعادة مما أنا عليه في هذه الأيام.

ـ رائع إذاً ـ كرر ريغوبيرتو ـ حسن، لا أريد أن أبلغك أخباراً سيئة، ولا سيما بالهاتف. ولكنني أفترض أنك على علم بما أشعلته هنا. وما الذي يمطر علينا هنا.

ـ كلاوديو أرنييّاس يطلعني على الأمور أولاً بأول مع أدق التفاصيل، ويرسل لي قصاصات الصحف. إنني أستمتع كثيراً بقراءة أخبار عن أنه جرى اختطافي، وأنني أعاني خرف الشيخوخة. ويبدو أنك أنت ونرسيس كنتما من المتواطئين في عملية اختطافي، أليس كذلك؟

أطلق قهقهة أخرى، طويلة وساخرة جداً.

ـ كم هو جيد أنك تأخذ هذه الأمور بمزاج طيب ـ دمدم ريغوبيرتو ـ. أنا ونرسيس استمتعنا كثيراً، كما يمكنك أن تتصور. الأخوان أوصلا سائقك إلى حافة الجنون بمكائدهما وتهديداتهما. وقد نلنا نحن أيضاً مثل ذلك.

ـ متأسف جداً للازعاجات التي سببتها لكم يا أخي ـ حاول إسماعيل إصلاح الموقف بإبداء الجدّ ــ لقد أوقفوا إجراءات تقاعدك، وألغوا رحلتك إلى أوروبا. إنني أعرف كل شيء يا ريغوبيرتو. أطلب ألف معذرة منك ومن لوكريثيا بسبب هذه المشاكل. لن يستمر هذا كله لوقت طويل، أقسم لك.

ـ وما أهمية التقاعد والرحلة إلى أوروبا بالمقارنة مع صداقة شخص مثلك ـ قال دون ريغوبيرتو بسخرية ـ. ومن الأفضل ألا أخبرك بالاستدعاءات إلى المحكمة لتقديم أقوالي كمتواطئ مزعوم في التستر

والاختطاف، كيلا أفسد عليك شهر عسلك البديع. وباختصار، آمل أن يتحول هذا كله قريباً إلى مادة لإضحاكنا ولرواية طرائف.

أطلق إسماعيل قهقهة أخرى، كما لو أن ذلك كله أمر لا علاقة له به.

ـ أنت من أولئك الأصدقاء الذين لم يعد لهم وجود يا ريغوبيرتو. لقد كنتُ أعرف ذلك على الدوام.

ـ لا بد أن أزنييًا أخبرك بأن سائقك قد اضطر إلى الاختباء. لقد أرسل التوءمان إليه الشرطة، ولا أستغرب، في حالة الاختلال التي هما عليها، أن يرسلوا إليه كذلك اثنان من القتلة المأجورين ليقطعوا له ذلك الذي تعرفه.

ـ لن يتورعوا عن عمل ذلك ـ اعترف إسماعيل ـ. هذا الزنجي يساوي وزنه ذهباً. طمئنه بألا يقلق. قل له إن وفاءه سيلقى المكافأة المستحقة يا ريغوبيرتو.

ـ هل سترجع قريباً أم ستواصل شهر عسلك إلى أن ينفجر قلبك وترتعش ساقك؟

ـ إنني أنهي مسألة ستعجبك جداً يا ريغوبيرتو. وفور إنهائها سأعود إلى ليما كي أعيد الأمور إلى نصابها. وسترى كيف أن هذه المشكلة ستُحل بكل سهولة. متأسف حقاً لأوجاع الرأس التي أسببها لك. لهذا السبب اتصلت بك فقط. سنلتقي قريباً. قبلاتي للوكريثيا وعناق كبير لك.

ـ ومثله مني إليك، وقبلاتي لآرميدا ـ قال دون ريغوبيرتو مودعاً.

وعندما أغلق الهاتف، ظل يتأمل الجهاز. فينيسيا؟ كوستا أثول؟ كابري؟ أين هما فرخا الحمام؟ أيكونان في مكان غرائبي مثل أندونيسيا أو تايلندا؟ هل إسماعيل سعيد جداً مثلما يقول؟ أجل، دون شك، إذا ما حكمنا من خلال قهقهاته الشبابية. لقد اكتشف في الثمانين أن

الحياة ليست عملاً وحسب، وإنما اقتراف أعمال جنونية كذلك. الجموح وتجاوز الحدود، تذوق متع الجنس والانتقام. هذا أفضل له. وبينما هو يفكر في ذلك دخلت لوكريثيا إلى غرفة مكتبه متلهفة:

ـ ماذا جرى؟ ماذا قال لك إسماعيل؟ أخبرني، أخبرني.

ـ يبدو أنه سعيد جداً. يأخذ كل شيء على محمل المزاح والضحك، ما رأيك ـ أوجزَ لها. وعادت الشكوك تداهمه ـ: أتدرين يا لوكريثيا؟ وماذا إذا كان قد أصيب بخرف الشيخوخة حقاً؟ وإذا كان لا يدرك حقيقة الأعمال الجنونية التي يقترفها؟

ـ أتتكلم بجد أم تمزح يا ريغوبيرتو؟

ـ حتى الآن يبدو لي أنه واعٍ تماماً ومسيطر على نفسه ـ قال متشككاً ـ ولكنني حين كنت أسمع قهقهاته في الهاتف، رحت أفكر. لماذا هو مبتهج جداً بكل ما يحدث، كما لو أنه لا يهتم قدر قلامة ظفر بالفضيحة وبالمشكلة التي أدخلنا فيها. باختصار، لا أدري، ربما أكون متأثراً بعض الشيء. أتدركين الوضع الذي سنكون فيه إذا ما كان خرف الشيخوخة قد أصاب إسماعيل بين ليلة وضحاها؟

ـ إنك تدس هذه الفكرة في رأسي في أسوأ وقت يا ريغوبيرتو. لن أتخلص منها طيلة الليل. سيكون الحال أسوأ بالنسبة إليك إذا ما أصابني الأرق، إنني أحذرك.

ـ لا تهتمي بما قلته، إنها مجرد حماقات، إنها تعويذات كيلا يحدث ما أقول إنه ممكن الحدوث ـ طمأنها ريغوبيرتو ـ. ولكنني لم أكن أنتظر في الحقيقة أن أجده غير قلق إلى هذا الحدّ. كما لو أنه لا علاقة له بهذا كله. اعذريني، اعذريني. لقد عرفت الآن ما جرى له. إنه سعيد. هذا هو السر في كل شيء. فلأول مرة في حياته عرف إسماعيل ما هي المضاجعة الحقيقية يا لوكريثيا. لأن ما كان يفعله مع

كلوتيلدي لم يكن سوى تمضية وقت في واجبات زوجية. أما مع آماندا فدخلت الخطيئة أيضاً، وهذا يجعل الأمر أفضل.

ـ مرة أخرى مع قذاراتك ـ اعترضت امرأته ـ. ثم إنني لا أدري ماذا لديك ضد تمضية الوقت في واجبات زوجية. أنا أرى أن علاقتنا تمضي على خير ما يرام.

ـ طبعاً يا حبي، إنها تمضي بصورة رائعة ـ قال وهو يقبّل يد لوكريثيا وأذنها ـ. من الأفضل لنا أن نفعل مثله، ولا نولي الموضوع أي اهتمام. أن نتسلح بالصبر وننتظر مرور العاصفة.

ـ ألا تريد أن نخرج يا ريغوبيرتو؟ فلنذهب إلى السينما أو لتناول شيء في الخارج.

ـ فلنشاهد فيلماً هنا، أفضل من الخروج ـ أجابها زوجها ـ. فمجرد فكرة أن يظهر واحد من أولئك الصحفيين مع آلة تسجيله، ويلتقط لي صوراً ويوجه أسئلة عن إسماعيل والتوءمين، يسبب لي ارتخاءً في المعدة.

منذ استحوذت الصحافة على خبر زواج إسماعيل من آماندا، وعلى أعمال ابنيه لدى الشرطة والقضاء من أجل إبطال زواجه واعتباره غير مؤهل لذلك، لم يعد هناك أي حديث آخر للصحف والإذاعات وبرامج التلفزيون، وكذلك شبكات التواصل الاجتماعي والمدونات. الوقائع تختفي تحت الدوي الجنوني للمبالغات والاختلافات والنمائم والافتراءات والنذالات، حيث خرج إلى السطح على ما يبدو كل ما في الناس من خبث، وجهل، وفساد، وأحقاد، وضغائن. ولو لم يجد دون ريغوبيرتو نفسه منساقاً إلى أن يكون جزءاً من ذلك الهياج الصحفي، ومطلوباً على الدوام من قبل صحفيين يعوضون عن جهلهم بفتورهم وعجرفتهم، لقال إن هذا الاستعراض الذي تحول فيه إسماعيل كاريرا

وآرميدا إلى تسلية المدينة الكبرى، حيث يغرقان في القذارة المكتوبة والمذاعة والمتلفزة، ويشويان دون توقف في محارق أشعلها ميكي وإسكوبيتا اللذان يؤججانها يومياً بتصريحات ومقابلات وتخيلات ودورات، لكان الأمر مسلياً له، إضافة إلى كونه تعليمياً وتدريبياً. حول هذه البلاد، وهذه المدينة، وحول الروح البشرية بصورة عامة. وحول هذا الشر نفسه الذي يُقلق الآن فونتشيتو من خلال ما يتبدى في موضوع تعبيره. «تعليمي وتدريبي، أجل»، فكر من جديد. حول أمور كثيرة. وظيفة الصحافة في هذا الزمان، أو على الأقل في هذا المجتمع، ليس تقديم الأخبار، وإنما إخفاء أي شكل من أشكال التمييز بين الكذب والحقيقة، استبدال الواقع بخيال تتبدى فيه الكتلة الهائلة من العقد، والإحباط، والأحقاد والصدمات النفسية لجمهور تنهشه الضغينة والحسد. وهذا دليل آخر على أنه لا يمكن لفضاءات الحضارة الصغيرة أن تتغلب أبداً على الهمجية الراسخة.

المحادثة التليفونية مع رئيسه السابق وصديقه خلفته مكتئباً. لم يكن نادماً لأنه قدم له المساعدة بقبوله أن يكون شاهداً على زواجه. ولكن بدأت تثقل عليه نتائج توقيعه على وثيقة الزواج تلك. فليست التعقيدات القانونية والبوليسية، ولا تأخير إجراءات تقاعده هي ما يضايقه، لأنه يفكر (بلمس خشب، يمكن لكل شيء أن ينقضي) أن ذلك كله، مهما بلغ سوءه، يمكن حله. ويمكن له وللوكريثيا أن يقوما بالرحلة إلى أوروبا. لكن الأسوأ هو الفضيحة العامة التي يجد نفسه مدفوعاً إلى التورط فيها. فهو يظهر الآن بصورة شبه يومية في صحافة المجارير، ملوثاً بنتانة صفراء. وتساءل بمرارة: «بماذا أفادك هذا الملجأ الصغير الذي يضم الكتب واللوحات والأسطوانات، وكل هذه الأشياء الجميلة، المرهفة، الذكية التي جمعتها بكثير من الدأب معتقداً أنك في هذا الفضاء الحضاري الضيق

ستكون محصناً ضد الجهل والتفاهة والبلاهة والفراغ؟». فكرته القديمة بأنه يجب إقامة هذة الجزر والحصون الثقافية وسط العاصفة، بغض النظر عن همجية المحيط، ليست مجدية. فالفضيحة التي أثارها صديقه إسماعيل والضبعان قد تسربت أحماضها، وقيحها، وسمومها إلى مكتبه، إلى هذا الحيز الذي يعتزل فيه، منذ سنوات طويلة ـ أهي عشرون، خمسة وعشرون، ثلاثون عاماً؟ ـ، كي يعيش الحياة الحقيقية. الحياة التي تعوضه عن بوالص التأمين وعقود الشركة، عن مكايد ودناءات السياسة المحلية، عن أكاذيب وبلاهة الناس الذين عليه التعامل معهم كل يوم. والآن، مع الفضيحة، لم يعد ينفعه في شيء البحث عن عزلة مكتبه. لقد فعل ذلك عشية أمس. وضع في الغراموفون تسجيلاً بديعاً، عمل أرثر هونغر الموسيقي الملحمي الديني «*أوراتوريو الملك داود*»، المسجل في كاتدرائية نوتردام باريس والذي طالما أثر فيه. لم يستطع في هذه المرة التركيز على الموسيقى ولو لحظة واحدة. كان يسهو، تعيده ذاكرته إلى صور وقلق الأيام الأخيرة، المفاجأة، الاستياء الصفراوي في كل مرة يجد اسمه في الأخبار، مع أنه لا يشتري تلك الصحف، لكن أصدقاءه يوصلونها إليه أو أنهم يأتون على ذكرها بصورة لجوجة، مسممين بذلك حياته وحياة لوكريثيا. اضطر إلى إطفاء جهاز الموسيقى والبقاء هادئاً، مغمض العينين، يسمع نبضات قلبه، مع طعم ملوحة في فمه. واستخلص: «في هذه البلاد لا يمكن إقامة فضاء حضاري ولو بأضيق الحدود. سينتهي الأمر بأن تكنس الهمجية كل شيء». وقال لنفسه مرة أخرى، مثلما يفعل كلما أحس بالإحباط، كم كان مخطئاً في شبابه حين قرر عدم الهجرة والبقاء هنا، في ليما الفظيعة، مقتنعاً بأنه حتى لو اضطر لأسباب تتعلق بعملية التغذية إلى قضاء ساعات طويلة من اليوم غارقاً في الصخب الدنيوي لبيرويي الطبقة العليا، إلا أنه سيتمكن من تنظيم حياته

بطريقة تتيح لـه العـيش حقـاً في هـذا الحيـز النقـي، الجميـل، الراقـي، المكون من أشياء سامية يصنعها بنفسه كبديل للنير اليومي. وكان أن أتتـه حينذاك فكرة الفضاءات الإنقاذية، فكرة أن الحضارة لم تكن قط حركـة أو حالة أمور عامة، ولم تكن جواً يحتضن كل المجتمع، وإنما قـلاع صـغيرة جداً، مقامة على امتداد الزمان والمكان، تصد الهجوم المتواصل لتلك القـوة الغريزة، العنيفة، الفظة، القبيحة، المدمرة، البهيميـة الـتي تسـيطر علـى العالم والتي دخلت الآن إلى بيته بالذات.

في تلك الليلة، بعد الانتهاء من تناول الطعام، سأل فونتشيتو عما إذا كان متعباً.

ـ لا ـ أجاب ابنه ـ. لماذا يا بابا؟

ـ أحب أن أتحدث معك قليلاً إذا لم يكن هذا يضايقك.

ـ إذا لم يكن للأمر علاقة بإديلبيرتو توريس، فسوف يسعدني ـ قـال فونتشيتو بخبث ـ. لم أعد أراه، فاطمئن.

ـ أعدك ألا نتحدث عنه. أجابه دون ريغوبيرتو، وفعل مثلمـا اعتـاد أن يفعل وهو صغير، قاطع إصبعين على شكل صـليب وقبلـهما قـائلاً: أقسم بالله.

ـ لا تستخدم اسم الله باطلاً، فأنا مؤمنة ـ أنبتـه دونيـا لوكريثيـا ـ. اذهبا إلى حجرة المكتب. وسأقول لخوستينيانا أن تأخذ لكمـا المثلجـات إلى هناك.

وبينما هما يتذوقان مثلجـات لوكريثيـا في غرفـة المكتـب، كـان دون ريغوبيرتو يراقب فونتشيتو بين لقمة وأخرى. إنه يجلس أمامه، متقاطع الساقين، يتناول مثلجاته بملاعق بطيئة، ويبدو مستغرقاً في فكرة بعيدة ما. لم يعد طفلاً. منذ متى بدأ يحلق ذقنه؟ وجهه حليق، وشـعر رأسـه مشعث؛ إنه لا يمارس الرياضة كثيراً، ولكنه يبدو كذلك، لأن له جسداً

نحيلاً ورياضياً. إنه فتى وسيم، لا بد أن البنات يمتن من أجله. الجميع يقولون ذلك. ولكن ابنه لا يبدو مهتماً بهذه الأمور، بل يمضي مشغولاً بتهيؤات واهتمامات دينية. أهذا جيد أم سيئ؟ أكان يفضل أن يكون فونتشيتو صبياً عادياً؟ «عادياً»، فكّر متخيلاً ابنه يتكلم بعامية تحذف حروفاً من الكلمات، وشبيهة بلغة القردة التي يتكلمها فتيانٌ من جيله، ممن يسكرون في نهاية الأسبوع، ويدخنون لفافات ماريجوانا، ويتنشقون الكوكائين أو يبتلعون حبوب النشوة في صالات رقص مركز الاستجمام الأسيوي، عند الكيلومتر مئة على الطريق العابر لأميركا، مثلما يفعل كثيرون من الأولاد المرفهين في ليما. جابت بدنه قشعريرة. أفضّلُ ألف مرة أن يرى ابني أشباحاً أو يرى الشيطان نفسه وأن يكتب مقالات عن الحرية والشر.

ـ قرأتُ ما كتبته عن الحرية والشر ـ قال له ـ كان هناك، على منضدتك وأصابني الفضول. آمل ألا يضايقك تصرفي. لقد أثّر فيَّ ما كتبته كثيراً، أقول الحقيقة. إنه مكتوب بطريقة جيدة وممتلئ بأفكار شخصية. من أجل أية مادة دراسية كتبته؟

ـ من أجل مادة اللغة ـ قال فونتشيتو دون أن يولي الأمر أهمية ـ. طلب منا الأستاذ إتورياغا كتابة موضوع حرّ. فخطر لي هذا الموضوع. ولكنه مسودة فقط. مازال عليّ أن أصححه كله.

ـ لقد فاجأني، لأني لم أكن أعرف أنك مهتم إلى هذا الحدّ بالدين.

ـ هل بدا لك نصاً دينياً؟ ـ استغرب فونتشيتو ـ. كنت أظن أنه أقرب إلى الفلسفة. حسن، لا أدري، فالفلسفة والدين يختلطان، أليس كذلك. أولم تهتم أنت قطّ بالدين يا بابا؟

ـ لقد درست في مدرسة لاريكوليتا، وهي مدرسة رهبان ـ قال دون ريغوبيرتو ـ. وكنتُ بعد ذلك في «العمل الكاثوليكي»، مع بيبين

أودونوفان، لبعض الوقت. لقد أثار الدين اهتمامي كثيراً بالطبع، حين كنت شاباً. ولكنني فقدت الإيمان ذات يوم، ولم أستعده بعدها قطّ. أظن أنني فقدته حين بدأت أفكر. فلكي تكون مؤمناً لا يناسبك أن تفكر كثيراً.

ـ هذا يعني أنك ملحد. تعتقد أنه لا وجود لأي شيء قبل هذه الحياة أو بعدها. هكذا تكون ملحداً، أليس كذلك؟

ـ إننا نتوغل عميقاً ـ هتف دون ريغوبيرتو ـ. أنا لست ملحداً، فالملحد مؤمن أيضاً. يؤمن بأن الرب لا وجود له، أليس هذا صحيحاً؟ أنا لا أدريّ، هذا إذا ما كنتُ شيئاً. إنني شخص يعلن أنه حائر، غير قادر على الإيمان بأن الرب موجود أو بأنه غير موجود.

ـ لا خمر ولا ليمونادة ـ قال فونتشيتو ضاحكاً ـ. إنها طريقة مريحة جداً للتخلص من المشكلة يا بابا.

إن له ضحكة طازجة، صحية، وفكّر دون ريغوبيرتو بأنه فتى جيد. إنه يمر بأزمة مراهقة، يعاني من شكوكٍ وعدم يقين حول الماورائيات والواقع الذي يتكلم عنه جيداً. كم هو راغب في مساعدته. ولكن كيف، كيف يمكنه فعل ذلك.

ـ شيء من هذا القبيل، وإن تكن السخرية زائدة ـ قال موافقاً ـ أتريد أن أخبرك شيئاً يا فونتشيتو؟ أنا أحسد المؤمنين. ولكن غير المتعصبين بكل تأكيد، لأن المتعصبين يسببون لي الرعب. ولكنني أعني المؤمنين الحقيقيين. ممن لديهم إيمان ويحاولون تنظيم حياتهم بما يتفق مع معتقداتهم. باعتدال ودون تظاهر أو تهريج. لا أعرف كثيرين، ولكنني أعرف البعض. وهم يبدون لي مثيرين للحسد. وبالمناسبة، هل أنت مؤمن؟

اتخذ فونتشيتو مظهراً جدياً وفكر لحظة قبل أن يجيب.

ـ أحب أن أعرف شيئاً عن الدين، لأنهم لم يعلموني قطّ أي شيء من ذلك ـ تفادى الإجابة بنبرة تأنيب ـ. ولهذا انضممنا أنا وتشاتو بيثولو إلى جماعة لقراءة الكتاب المقدس. نحن نلتقي أيام الجمعة، بعد انتهاء الدروس.

ـ فكرة رائعة ـ ابتهج دون ريغوبيرتو ـ. الكتاب المقدس كتاب رائع، على الجميع أن يقرؤوه، سواء أكانوا مؤمنين أو غير مؤمنين. كثقافة عامة قبل أي شيء آخر. ولكن من أجل فهم أفضل كذلك للعالم الذي نعيش فيه. أشياء كثيرة تحدث في ما حولنا تأتي مباشرة أو بصورة غير مباشرة من الكتاب المقدس.

ـ أهذا هو الموضوع الذي تريد أن نتحدث فيه يا بابا؟

ـ في الواقع، لا ـ قال دون ريغوبيرتو ـ. كنت أريد الحديث عن إسماعيل والفضيحة التي نحن فيها. لا بد أن يكون هذا الأمر قد وصل إلى مدرستك أيضاً.

عاد فونتشيتو إلى الضحك.

ـ لقد سألوني ألف مرة عما إذا كان صحيحاً أنك ساعدته على الزواج من طاهيته، مثلما تقول الصحف. وأنت تظهر على الدوام في المدونات عالقاً في هذه الورطة.

ـ آرميدا لم تكن طاهيته قطّ ـ أوضح دون ريغوبيرتو ـ. بل كانت مديرة بيته. تتولى تنظيف البيت وإدارته. وخاصة منذ ترمل إسماعيل.

ـ لقد كنتُ في بيته مرتين أو ثلاث مرات ولا أتذكرها بأي حال ـ قال فونتشيتو ـ. هل هي جميلة على الأقل؟

ـ فلنقل إنها مقبولة ـ أقر دون ريغوبيرتو بطريقة سليمانية ـ. وأكثر شباباً بكثير من إسماعيل. لا أظنك تصدق كل البلاهات التي تقولها الصحافة. عن أنه قد اختُطف، وأنه خرف، وأنه لا يعرف ما الذي

يفعله. فإسماعيل بكامل قواه العقلية، ولهذا وافقتُ على أن أكون شاهده. ولم أكن أتوقع بالطبع أن المشكة ستكبر إلى هذا الحجم. لكن كل شيء سينقضي. كنت أريد أن أخبرك بأنهم قد أوقفوا إجراءات تقاعدي في الشركة. التوءمان قدما شكوى يتهمانني فيها بالتواطؤ في عملية اختطاف لم تحدث قطّ. ولهذا فإنني الآن مقيد هنا، في ليما، باستدعاءات ومحامين. هذا هو الموضوع. إننا نمر بمرحلة صعبة، وإلى أن يتم التوصل إلى حلّ، سيكون علينا أن نشدّ الأحزمة قليلاً. لأنه من غير المناسب أيضاً تصفية كافة المدخرات التي يعتمد عليها مستقبلنا نحن الثلاثة. وبصورة خاصة مستقبلك أنت. أريدك أن تكون على اطلاع.

ـ أجل بالطبع يا بابا ـ قال فونتشيتو مشجعاً إياه ـ. لا تقلق. وإذا تطلب الوضع يمكنك أن توقف مصروفي إلى أن تمر هذه المرحلة.

ـ ليس إلى هذا الحد ـ ابتسم دون ريغوبيرتو ـ. فمن أجل نفقاتك لدينا ما يكفي ويزيد. عندك في المدرسة، ما الذي يقال بين الأساتذة والتلاميذ حول هذا الموضوع.

ـ الأغلبية العظمى تقف مع التوءمين بالطبع.

ـ مع الضبعين؟ من الواضح أنهم لا يعرفونهما.

ـ كل ما في الأمر أنهم عنصريون ـ أكد فونتشيتو ـ لا يغفرون للسيد إسماعيل أنه تزوج من خلاسية تشولا. يعتقدون أنه لا يمكن لشخص عاقل أن يفعل ذلك وأن الشيء الوحيد الذي تريده آرميدا هو الاستحواذ على الأموال. أنت لا تدري مع كم منهم تشاجرت دفاعاً عن زواج صديقك يا بابا. بيثولو وحده هو الذي يدعمني، ولكنه يفعل ذلك بدافع الصداقة وليس لأنه مؤمن بأنني على حق.

ـ إنك تدافع عن قضية حميدة يا بني ـ ربت دون ريغوبيرتو على

ركبتيه ـ حتى لو لم يصدق أحد ذلك، فإن زواج إسماعيل كان بدافع الحب.

ـ هل يمكنني أن أوجه إليك سؤالاً يا بابا؟ ـ قال الصبي فجأة، حين بدا أنه يستعد للخروج من المكتب.

ـ طبعاً يا بني. يمكنك أن تسأل ما تشاء.

ـ هنالك شيء لا أفهمه ـ غامر فونتشيتو بقلق ـ. بشأنك أنت يا بابا. لقد كنتَ محباً على الدوام للفن، للرسم، للموسيقى، للكتب. وهذا هو الأمر الوحيد الذي تتحدث عنه بشغف شديد. فلماذا إذاً صرت محامياً؟ لماذا كرست حياتك كلها للعمل في شركة تأمين؟ كان عليك أن تكون رساماً، موسيقياً، وباختصار... لا أدري. لماذا لم تتبع ميولك؟

هز دون ريغوبيرتو رأسه موافقاً، وفكّر هنيهة قبل أن يجيب.

ـ لأني جبان يا بني ـ دمدم أخيراً ـ. لعدم إيماني بنفسي. لم أؤمن قط بأن لدي موهبة أن أكون فناناً حقيقياً. أو ربما أن هذا الاعتقاد كان ذريعة لعدم المحاولة. قررت ألا أكون مبدعاً، وإنما مجرد مستهلك للفن، ومتلذذ بالثقافة. لأنني كنت جباناً، هذه هي الحقيقة المحزنة. وها أنت تعرفها الآن. لا تتبع مثالي. ومهما كانت ميولك، اتبعها بعمق ولا تفعل مثلي، لا تخن ميولك.

ـ أرجو ألا أكون قد أزعجتك يا بابا. إنه سؤال رغبتُ بتوجيهه إليك منذ زمن.

ـ وهو سؤال أوجهه لنفسي منذ سنوات طويلة يا فونتشيتو. لقد أجبرتني على الإجابة عنه، وأنا شاكر لك هذا. هيا، امض، طابت ليلتك.

ذهب للنوم بمعنويات أفضل بعد حديثه مع فونتشيتو. روى لدونيا لوكريثيا كم شعر بالتحسن في استماعه إلى ابنه، شديد التعقل، بعد أن

كان معكر المزاج، ومدى الضيق الذي كان يشعر به طيلة المساء. لكنه تجنب إخبارها بالجزء الأخير من الحديث مع ابنه.

ـ لقد أُعجبت برؤيته هادئاً جداً وناضجاً يا لوكريثيا. إنه منضم إلى جماعة لقراءة الكتاب المقدس، تصوري. كم من الفتية في مثل عمره يفعلون أشياء كهذه؟ قلة قليلة جداً. هل قرأتِ أنتِ الكتاب المقدس؟ أعترف لك أنني لم أقرأ سوى مقاطع منه، ومنذ سنوات طويلة. ألا ترغبين في أن نقرأه، كمن يلعب، ونناقشه؟ إنه كتاب بديع.

ـ سأفعل ذلك بكل سعادة، فلربما تتحول ثانية وترجع إلى الكنيسة ـ قالت لوكريثيا، ثم أضافت بعد بضع ثوانٍ من التفكير: ـ آمل ألا تكون قراءة الكتاب المقدس متعارضة مع ممارسة الحب يا ذا الأذنين الكبيرتين.

ـ الكتاب المقدس هو أكثر الكتب إيروتيكية في العالم ـ سمعته يقول باندفاع ـ. سوف ترين، حين نقرأ *نشيد الإنشاد*، الممارسات الرهيبة التي يقوم بها شمشون مع دليلة، ودليلة مع شمشون، سوف ترين.

XIII

ـ على الرغم من أننا نرتدي الزي الرسمي، إلا أن زيارتنا هذه ليست زيارة رسمية ـ قال النقيب سيلفا وهو ينحني انحناءة تهذب نفخت كرشه وجعدت قميص زيه الخاكي ـ. إنها زيارة أصدقاء يا سيدتي.

ـ طبعاً، حسن جداً ـ قالت مابيل وهي تفتح لهما الباب. كانت تنظر إلى الشرطيين متفاجئة مذعورة، وبعينين ترمشان ـ. تفضلا، تفضلا، رجاء.

لقد وصل النقيب والرقيب فجأة، بينما هي مستغرقة في التفكير، تعترف مرة أخرى، بأنها متأثرة لما يبديه العجوز من مظاهر العاطفية. إنها تشعر بالمحبة دوماً نحو فيليثيتو ياناكيه. أو إنها لم تشعر نحوه بالرهاب قطّ، على الرغم من مرور ثمانية أعوام على كونها عشيقته، ولم تشعر بالانزعاج البدني أو المعنوي الذي كان يدفعها، في الماضي، إلى قطع علاقتها فجأة مع عاشقين أو حُمَاةٍ عابرين كانوا يسببون لها أوجاع رأس بغيرتهم، أو بمطالبهم ونزواتهم، أو بسبب زعلهم واستيائهم. وكان قطع بعض تلك العلاقات يعني لها خسارة مادية جسيمة. لكن الأمر كان أقوى منها. فعندما تصل بها الحال إلى الضجر من رجل، لا تعود قادرة على مواصلة النوم معه. تصاب بحساسية، وتأتيها أوجاع رأس ونوبات قشعريرة، وتبدأ بتذكر زوج أمها، وتتمكن بصعوبة من كبح رغبتها في التقيؤ كلما وجدت نفسها مضطرة إلى التعري

من أجله، والانصياع لرغباته في الفراش. ولهذا، كانت تقول لنفسها، على الرغم من أنها قد ضاجعت رجالاً كثيرين مذ كانت صبية صغيرة ـ فقد هربت من بيتها إلى حيث يقيم أقارب لها، حين حدثت تلك القصة مع زوج أمها ـ، ولكنها لم تكن قطّ ما يسمونها عاهرة. لأن العاهرات يعرفن كيف يتصنعن وهنّ في الفراش مع زبائنهنّ، أما هي فلا. فمن أجل أن تضاجع مابيل أحدهم يجب أن تشعر على الأقل بشيء من الإلفة مع الرجل، إضافة إلى الانسجام المسبق بطريقة ما، كما يقول أهالي بيورا بالعامية: دعوات، نزهات، هدايا، وأساليب ترتيب المضاجعة، وإضفاء مظهر العلاقة العاطفية عليها.

ـ شكراً سيدتي ـ قال النقيب سيلفا رافعاً يده إلى واقية قبعته في محاكاة لتحية عسكرية ـ. سنحاول ألا نأخذ الكثير من وقتك.

وقام الرقيب ليتوما بمحاكاة صدى لقول قائده: «شكراً سيدتي».

أجلستهما مابيل في الصالة وجاءتهما بزجاجتي إنكاكولا باردتين. وكي تخفي عصبيتها، كانت تحاول ألا تتكلم؛ وأن تكتفي بالانتظار مبتسمة. خلع الشرطيان قبعتيهما، واستقرا على المقعدين. انتبهت مابيل إلى أن العرق يبلل جبهتي الشرطيين وشعريهما. فكرت في أنه عليها أن تشغل المروحة، ولكنها لم تفعل؛ كانت تخشى، إذا ما نهضت عن المقعد، أن يلحظ النقيب والرقيب الارتجاف الذي بدأ يهز ساقيها ويديها. أي تفسير ستقدم لهما إذا ما بدأت أسنانها تصطك أيضاً؟ «إنني شبه مريضة ولدي قليل من الحرارة، بسبب... بسبب ما يصيبنا نحن النساء... حضرتكما تعرفان ما الذي أعنيه». هل سيصدقانها؟

ـ ما نريده يا سيدتي ـ أضفى النقيب سيلفا بعد العذوبة على صوته ـ، ليس استجوابك، وإنما إجراء محادثة ودّيّة. وهما أمران مختلفان

تماماً، حضرتكِ تفهمينني. لقد قلتُ ودّية وأكرر ذلك.

خلال السنوات الثماني الماضية لم تصل قطّ إلى الشعور بالحساسية من فيليثيو. لأن العجوز كان دون شك شخصاً طيباً جداً. أجل، إذا كانت تشعر في يوم زيارته بأنها متوعكة بعض الشيء، بسبب الدورة الشهرية أو لأنها لا تجد، بكل بساطة، رغبة في فتح ساقيها للسيد، فإن صاحب شركة ناريهوالا للنقل لم يكن يلح عليها. بل على العكس تماماً؛ كان يقلق عليها، يريد أخذها إلى الطبيب، يذهب إلى الصيدلية لشراء أدوية لها، يأتيها بميزان الحرارة. هل كان واقعاً في حبها؟ لقد فكرت مابيل ألف مرة أنه كذلك. فالعجوز على كل حال لم يكن يدفع الإيجار الشهري لهذا البيت ويقدم لها بضعة آلاف سول كل شهر، من أجل مرة أو مرتين كل أسبوع. وإضافة إلى قيامه بواجباته تلك، فإنه يأتيها دوماً بهدايا، في عيد ميلادها، وفي أعياد الميلاد، وكذلك في مناسبات لا يقدِّم أحدٌ فيها أية هدايا، كالأعياد الوطنية أو خلال الاحتفالات بأسبوع مدينة بيورا في شهر تشرين الأول/أكتوبر. وحتى في طريقته بالنوم معها، كان يُثبت لها في كل مرة بأن ما يهمه ليس الجنس وحده. كان يهمس في أذنها بكلمات عاشق، ويقبلها بحنان، ويظلّ ينظر إليها مفتوناً، وبامتنان بينما هو يجثو أمامها كما لو أنه فتى أمرد. أليس هذا حباً؟ لقد فكرت مابيل مرات كثيرة في أنه يمكن لها، إذا ما حاولت، أن تتوصل إلى جعل فيليثيتو يترك زوجته، تلك الخلاسية التشولا المترهلة التي تبدو أشبه بشبح منها بكائن بشري، وأن يتزوج منها. ويمكن أن يكون ذلك سهلاً جداً. يكفي أن تحبل مثلاً، وتنفلت في البكاء، وتضعه في المرمى: «أعتقد أنك لا ترغب في أن يكون ابنك نغلاً، أليس كذلك يا عجوزي؟». ولكنها لم تحاول ذلك قطّ ولن تحاوله، لأن مابيل تقدّر كثيراً حريتها، استقلالها. ولن تضحي

بها مقابل أمان نسبي: أضف إلى ذلك أنها لا تجد ظرافة في تحوّلها بعد سنوات قليلة إلى ممرضة وراعية لعجوز يجب تنظيف ريالته وملاءات فراشه التي يبول عليها أثناء نومه.

ـ أعدك ألا نأخذ الكثير من وقتك يا سيدتي ـ كرر النقيب سيلفا، وهو يلف ويدور دون أن يتحمس لأن يشرح لها بوضوح سبب هذه الزيارة المفاجئة. وكان ينظر إليها بطريقة، فكرت مابيل، تُكذِّب أسلوب كلامه المهذب ـ. وفي اللحظة التي تشعرين بالتعب منا، أخبرينا بذلك بكل صراحة وسننصرف ونذهب بإزعاجنا إلى مكان آخر.

لماذا يبالغ الشرطي في التهذب إلى هذه الحدود المضحكة؟ ما الذي يحمله على ذلك؟ إنه يريد طمأنتها طبعاً، ولكن تكلّفه وأسلوبه المعسول وابتساماته المتصنعة تزيد من ارتياب مابيل. ما الذي يريده هذا الثنائي؟ ولم يكن الرقيب قادراً، خلافاً لقائده، على مواراة أنه قلق بعض الشيء. يتأملها بطريقة غريبة، غير مطمئنة، وبحذر، كما لو أن لديه شيء من الخوف مما يمكن أن يحدث، وهو يروز لغده دون توقف، بحركة شبه عصبية من أصابعه.

ـ كما يمكنكِ أن تري بعينيك، لم نأت معنا بأية آلة تسجيل ـ أضاف النقيب سيلفا وهو يفتح يديه ويربت بهما على جيوبه بطريقة مسرحية ـ. ولا حتى بورقة وقلم. يمكنك أن تكوني مطمئنة: لن يبقى أي أثر لما نقوله هنا. سيكون سرياً. بين حضرتكِ وبيننا. ولا أحد سوانا.

في الأيام التي تلت أسبوع الاختطاف، بدا فيليثيتو حنوناً وودوداً بصورة غير معقولة، حتى إن مابيل صارت تشعر بالإرهاق. تلقت باقة ورود حمراء ضخمة ملفوفة بورق سيلوفان مع بطاقة مكتوبة بخط يده تقول: «مع كل حبي، ومع حزني للتجربة القاسية التي جعلتُكِ تمرين

بها يا مابيليتا الحبيبة. يرسل لك هذه الورود الرجل الذي يحبك: حبيبك فيليثيتو». كانت تلك أكبر باقة أزهار رأتها في حياتها. وحين قرأت البطاقة اغرورقت عيناها وتبلبلت يداها، وهو شيء لا يحدث لها حين تأتيها كوابيس. أتوافق على عرض العجوز بمغادرة بيورا إلى أن تنقضي هذه المشكلة برمتها؟ لديها شكوك. لقد كانت مطالبة ملحة أكثر من كونها عرضاً. كان فيليثيتو مرتعباً، يعتقد أنه يمكن لهم إلحاق الأذى بها، ويتوسل إليها أن تسافر إلى مدينة تروخييّو، إلى تشيكلايو، إلى ليما، أو الذهاب للتعرف على مدينة كوسكو إذا كانت تفضّل ذلك، أو أي مكان ترغب في الذهاب إليه لتكون بعيدة عن مبتزي العنكبوت اللعينين. كان يعدها بالذهب والفضة: لن ينقصها أي شيء، ستتمتع بكل وسائل الراحة طيلة رحلتها. لكنها لم تحسم أمرها. ليس لأنها لم تكن خائفة، لا شيء من هذا القبيل. فالخوف ــ خلافاً لكثير من الناس الخوافين الذين عرفتهم ـ شيء شعرت به مابيل مرة واحدة فقط من قبل، حين كانت صبية صغيرة، يوم دخل زوج أمها حجرتها مستغلاً ذهاب الأم إلى السوق، ودفعها إلى السرير وحاول أن يعريها. لقد دافعت عن نفسها، خمشته، وخرجت راكضة وهي شبه عارية إلى الشارع مطلقة الولولات. في تلك المرة عرفت ما هو الرعب حقاً. ولم تعد بعد ذلك إلى تجربة شيء مشابة.. حتى الآن. الخوف أصبح في هذه الأيام هلعاً شديداً، عميقاً، دائماً، استقر مجدداً في حياتها. طوال الأربع والعشرين ساعة. نهاراً وليلاً، مساء وصباحاً، نائمة ومستيقظة. كانت مابيل تفكر في أنها لن تستطيع التخلص منه أبداً حتى موتها. حين تخرج إلى الشارع يراودها الإحساس بأنها مُراقَبة؛ وحتى حين تكون في البيت، حبيسة جدرانه وراء أربعة أقفال، تداهمها أحاسيس مفاجئة تجمد جسدها وتقطع أنفاسها. فتسيطر عليها عندئذ فكرة أن دمها قد

توقف عن الدوران في أوردتها. على الرغم من معرفتها أنها محمية، وربما بسبب ذلك. أكانت محمية حقاً؟ لقد أكد لها فيليثيتو ذلك، بعد أن تحدث مع النقيب سيلفا. صحيح أن هنالك حارس أمام بيتها، وحين تخرج إلى الشارع يتبعها، على مسافة معينة، شرطيان بملابس مدنية، رجل وامرأة، دون أن يُتيحا لأحد ملاحظة وجودهما. ولكن هذه الحراسة بالذات، المتواصلة على امتداد أربع وعشرين ساعة يومياً، هي ما تضاعف من حدة عصبيتها، وكذلك ثقة النقيب سيلفا من أن من اختطفوها لن يكونوا متهورين ولا مغفلين ليحاولوا مهاجمتها مرة أخرى، وهم يعرفون أن الشرطة تحيط بها ليلاً ونهاراً. وعلى الرغم من ذلك كله لم يكن العجوز يصدق أنها بمنجى من الخطر. لأن الخاطفين، حسب رأيه، حين يدركون أنه قد كذب عليهم، وأنه نشر إعلان جريدة «**التيمبو**» الذي يشكر فيه معجزة السيد الكاوتيبو دي اياباكا من أجل أن يطلقوا سراحها وحسب، وأنه لا يفكر في أن يدفع لهم الإتاوة، سوف يغضبون ويحاولون الانتقام بالنيل من أحد أعزائه المقربين. ولأنهم يعرفون أشياء كثيرة عنه، فإنهم يعرفون أن أعز الأشخاص إلى فيليثيتو في الدنيا هي مابيل. ولهذا يجب أن تغادر بيورا، وأن تختفي لبعض الوقت، لأنه لن يغفر لنفسه قطّ إذا ما ألحق بها أولئك التعساء الأذى من جديد.

ظلت مابيل صامتة لإحساسها بأن قلبها سيخرج من مكانه. ومن فوق رأسي الشرطيين، وتحت رسم قلب يسوع، رأت وجهها معكوساً في المرآة وفوجئت بشحوبه. كانت بيضاء شاحبة مثل واحد من تلكَ الأشباح التي تظهر في أفلام الرعب.

ـ أرجوكِ أن تستمعي إليَّ بلا عصبية ولا رعب ـ أضاف النقيب سيلفا بعد وقفة صمت طويلة. كان يتكلم بنعومة، خافضاً صوته كثيراً

كما لو أنه سيبوح لها بسر ـ لأن هذا الإجراء الخاص الذي جئنا من أجله، وأكرر: الخاص، هو لمصلحتك حتى لو لم يبدُ كذلك.

ـ قلْ لي دفعة واحدة ما الذي جرى، ما الذي تريده ـ تمكنت مابيل من القول وهي تختنق. فقد أغضبها لف ودوران النقيب وتحفظاته المنافقة ـ. قل لي ما الذي جئت تخبرني به. أنا لستُ بلهاء. فلا تُضيّعْ مزيداً من الوقت أيها السيد.

ـ فلندخل في الموضوع إذاً يا مابيل ـ قال المفوض متحولاً. واختفت فجأة أساليبه الطيبة ومزاجه السخي. لقد رفع صوته ونظر الآن بحزم، وبطريقة فوقية وآمرة. والأدهى من ذلك أنه توجه إليها من دون كلفة:ـ متأسف جداً من أجلك، ولكننا نعرف كل شيء، مثلما تسمعين يا مابيليتا. كل شيء، الأمر كله، كله. نحن نعرف مثلاً أنك لا تكتفين، منذ زمن لا بأس به، بالسيد فيليثيتو ياناكيه عشيقاً، بل لديك شخص آخر. شخص أكثر وسامة وشباباً من العجوز ذي القبعة والصدار الذي يدفع لك نفقات هذا البيت.

ـ كيف تتجرأ حضرتك على هذا الكلام! ـ احتجت مابيل وقد احمرَّ وجهها بشدة ـ لا أسمح لك بهذا! ولا بمثل هذا الافتراء!

ـ من الأفضل أن تتركينني أكمل، وألا تكوني كثيرة الاعتراض ـ قاطعها بجفاء صوت النقيب سيلفا وإيماءاته المتوعدة ـ. ستقولين في ما بعد كل ما ترغبين فيه، وسيكون بإمكانك أن تبكي وأن تضربي الأرض بقدميك كما تشائين، إذا كنت أزعجك. أما الآن فاصمتي. أنا وحدي من له حق الكلام الآن، وعليك أن تطبقي فمك. مفهوم يا مابيليتا؟

ربما سيكون عليها أن تغادر بيورا. ولكن فكرة العيش وحيدة، في مدينة لا تعرفها تحبط معنوياتها ـ لم تكن قد خرجت من هذه المدينة إلا للذهاب إلى سويّانا ولوبيتوس وبايتا وياسيل، لم تتجاوز قطّ حدود

المقاطعة، لا باتجاه الشمال ولا باتجاه الجنوب، ولم تصعد سلسلة الجبال ـ ما الذي ستفعله روحها وحيدة في مكان لا أقارب لها فيه ولا أصدقاء؟ ستكون الحماية المتوافرة لها هناك أقل مما هي عليه هنا. هل ستقضي الوقت وهي تنتظر مجيء فيليثيتو لزيارتها؟ ستعيش في فندق، تعاني الضجر صباحَ مساء، ولا سلوى لها سوى التلفزيون، إذا كان هناك تلفزيون، والانتظار والانتظار. ولا يروق لها كذلك أن يكون هنالك، ليلاً ونهاراً، شرطي رجل أو امرأة، يراقب خطواتها، يسجل مع من تتكلم، ومن تحيي، من يقترب منها. فأكثر من شعورها بالحماية، ستشعر بأنها هدف للتجسس، وبدل أن يطمئنها ذلك، يجعلها متوترة وغير آمنة.

صمت النقيب سيلفا لحظة كي يشعل سيجارة بهدوء. وأطلق دون تسرع دفقة طويلة من الدخان الذي طفا في الجو وملأ الصالة الصغيرة برائحة تبغ لاذعة.

ـ هذا شأنك يا مابيل، فالشرطة لا تهمها حياتك الخاصة بأي حال ـ واصل المفوض وهو ينفض الرماد على الأرض ويتخذ مظهراً يجمع بين الفيلسوف والقاتل ـ ليس ما يهمنا هو أن يكون لك عشيقان أو عشرة عشاق؛ بل اقترافك جنون الاتفاق مع واحد منهم لابتزاز دون فيليثيتو ياناكيه، العجوز المسكين الذي يحبك كثيراً جداً فوق هذا. كم كنتِ جاحدة يا مابيليتا!

ـ ماذا تقول! ماذا تقول! ـ نهضت واقفة، وكانت ترتجف الآن من الغضب، ورفعت صوتها أيضاً، وقبضة يدها ـ لن أنطق بأية كلمة أخرى قبل أن يكون هنالك محامٍ إلى جانبي. عليك أن تعلم أنني أعرف حقوقي. أنا...

يا لشدة عناد فيليثيتو! لم تتخيل مابيل قطّ أن العجوز مستعد

للموت قبل أن يعطي الإتاوة للمبتزين. إنه يبدو ليناً، شديد التفهم، ولكنه أثبت فجأة، أمام بيورا بأسرها، أنه ذو إرادة فولاذية. في اليوم التالي لتحررها، دار بينها وبين فيليثيتو حديث طويل. وفي إحدى اللحظات، سألته مابيل فجأة ومباشرة:

ـ لو قال لك الخاطفون إنهم سيقتلونني إذا لم تعطهم الإتاوة الشهرية، هل كنت ستتركهم يقتلونني؟

ـ أنت ترين أن الأمر لم يكن كذلك يا حبي. تلعثم صاحب شركة النقل بضيق شديد.

ـ أجبني بصراحة يا فيليثيتو ـ ألحت عليه ـ. هل كنت ستتركهم يقتلونني؟

ـ وكنت سأقتل نفسي بعد ذلك مباشرة ـ أكد بصوت محزون وهو يبدي ملامح مثيرة للأسى جعلتها تشفق عليه ـ اعذريني يا مابيل. ولكنني لن أدفع إتاوة أبداً لأي مبتز. حتى لو قتلوني أو قتلوا أعز من لدي في الدنيا، وهي أنتِ.

ـ ولكنك أنت نفسك قلت لي إن جميع زملائك في بيورا يدفعون لهم. ردّت عليه مابيل.

ـ وكثيرون من التجار ورجال الأعمال أيضاً، على ما يبدو ـ اعترف فيليثيتو ـ. أجل، لقد علمت بذلك الآن من فيغنولو. هذا شأنهم. لا أنتقدهم. كل شخص يعرف ما يفعله وكيف يحمي مصالحه. ولكنني لستُ مثلهم يا مابيل. لا يمكنني عمل ذلك. لا أستطيع خيانة ذكرى أبي.

وعندئذ، بعينين مغرورقتين بالدموع، راح صاحب شركة النقل يتكلم عن أبيه أمام مابيل المتفاجئة. لم تسمعه قطّ خلال السنوات التي أمضياها معاً يتكلم بتلك الطريقة الحساسة عن أبيه. بتأثر، بحساسية،

مثلما يفعل وهو يقول لها كلمات رقيقة تطفح بالعذوبة في علاقاتهما الحميمة. لقد كان رجلاً فقيراً جداً، رجلاً ريفياً ذا أصول هندية، من ريف تشولوكاناس. وصار في ما بعد، هنا في بيورا، حمالاً وزبالاً بلدياً. لم يتعلم القراءة والكتابة قطّ، وقد أمضى الشطر الأعظم من حياته بلا حذاء، وهو أمر كان يُلحظ فيه حين تركا تشولوكاناس وجاءا إلى المدينة كي يتمكن فيليثيتو من الذهاب إلى المدرسة. عندئذ اضطر إلى انتعال حذاء، ولوحظ كيف أنه يبدو غريباً في مشيته، وأن قدميه تؤلمانه لأنهما حُبستا في الحذاء. لم يكن رجلاً يظهر عاطفته بمعانقة ابنه وتقبيله، ولا بالقول له تلك العبارات الحانية التي يقولها الآباء عادة لصغارهم. كان صارماً، قاسياً، وحتى إنه طويل اليد أيضاً حين يغضب. ولكنه أثبت له أنه يحبه بدفعه إلى الدراسة، وتوفير الملبس والمأكل له، على الرغم من أنه هو نفسه لم يكن لديه ما يلبسه أو ما يضعه في فمه، ثم أدخله إلى أكاديمية لتعليم السائقين كي يتعلم فيليثيتو السياقة ويستخرج رخصته. بفضل ذلك الريفي الأمي وُجِدَتْ شركة ناريهوالا للنقل. صحيح أن أباه كان فقيراً، ولكنه كان عظيماً باستقامة روحه، لأنه لم يسبب الأذى لأحد قطّ، ولم يخالف القوانين، ولم يحقد على المرأة التي هجرته تاركة له طفلاً حديث الولادة ليتولى تربيته. وإذا كان صحيحاً ذلك الذي يقال عن الخطيئة والشر والحياة الأخرى؛ فلا بد أنه الآن في الفردوس السماوي. لم يكن لديه الوقت حتى لاقتراف الشر، فقد كان عليه طيلة حياته أن يعمل مثل حيوان، في أسوأ الأعمال أجراً. يتذكر فيليثيتو أنه كان يراه ينهار كالميت تعباً في الليل. لكنه لم يكن يسمح لأحد بأن يُذلّه. لأن ذلك، حسب رأيه، هو ما يجعل للإنسان قيمة ما أو يجعله مجرد خرقة بالية. وهذه هي النصيحة التي وجهها إليه قبل موته على سرير بلا فراش في المستشفى العمالي: «لا تسمح أبداً لأحد

بأن يُذلك يا بني». وقد عمل فيليثيتو بنصيحة ذلك الأب، بالرغم من أنه لم يستطع، لافتقاره إلى النقود، من دفنه في قبر، ولا الحيلولة دون أن يلقوا به في قبر جماعي.

ـ أترين يا مابيل؟ ليس المهم هي الخمسمئة دولار التي يطلبها مني هؤلاء المافياويون. ليست هذه هي المسألة. ولكنني إذا أعطيتهم إياها، فإنني أكون قد سمحت بأن يُذلوني، وأن يحولوني إلى خرقة. أخبريني ما رأيك يا حبي.

لم تستطع مابيل فهمه، ولكنها تأثرت وهي تسمعه يقول تلك الأشياء. وعندئذ فقط، على الرغم من أنها قد أمضت معه زمناً طويلاً، انتبهت إلى أن تحت مظهره كرجل ضئيل القيمة، شديد النحول، وبالغ الضآلة، هنالك في فيليثيتو طبع صارم وإرادة لا يثنيها الرصاص. ومن المؤكد أنه كان سيتركهم يقتلونها دون أن يسمح لهم بلَيِّ ذراعه.

ـ اصمتي واجلسي ـ أمر الضابطُ وصمتت مابيل، ثم تهاوت مجدداً على المقعد مهزومة ـ. لستِ بحاجة إلى أي محام *حتى الآن*. فهذه محادثة ودية وسرية، لقد نبهتُكِ إلى ذلك. وخير لك أن تضعي هذا الأمر في رأسك دفعة واحدة. وهكذا، دعيني أتكلم يا مابيليتا، واستوعبي جيداً ما أقوله لك.

ولكنه قبل أن يواصل الكلام، أخذ نفساً طويلاً أخر من سيجارته وأعاد نفث الدخان ببطء، مشكلاً به حلقات. «يريد تعذيبي، ومن أجل هذا جاء»، فكرت مابيل. كانت تشعر بالنعاس وبأنها مستنفدة القوى، كما لو أنه يمكن لها أن تغفو في أية لحظة. وبينما هو جالس على المقعد، كان الرقيب ليتوما ينحني قليلاً إلى الأمام وكأنه لا يريد أن يضيع حرفاً واحداً مما يقوله رئيسه، لم يكن يتكلم ولا يتحرك. ولم يكن يرفع بصره كذلك عنها ولو ثانية واحدة.

ـ التُّهم عديدة وبالجملة ـ واصل النقيب وهو ينظر إلى عينيها كمن يريد تنويمها مغناطيسياً ـ. لقد حاولتِ أن تجعلينا نصدق أنك قد اختُطفت، ولم يكن ذلك كله سوى تهريجاً، دبرتِه أنت ورفيقك من أجل الضغط على فيليثيتو، الرجل الشهم الذي يموت حباً بك. لم تنجحا، لأنكما لا تتمتعان بتصميم هذا السيد على عدم الرضوخ للابتزاز. عندئذ، ومن أجل تلين موقفه، أحرقتما مقر شركة ناريهوالا للنقل في جادة سانتشيث سيرّو. ولكن محاولتكما لم تنجح أيضاً.

ـ أأنا أحرقتها؟ أهذا ما تتهمني به؟ بإشعال حريق أيضاً؟ ـ اعترضت مابيل وهي تحاول دون جدوى الوقوف من جديد، ولكن كان يمنعها ضعفها أو نظرة النقيب الحربية وإيماءته العدوانية. انهارت مرة أخرى على المقعد وانكمشت على نفسها مقاطعة ذراعيها. فإضافة إلى النعاس، صار لديها حرارة الآن وأخذت بالتعرق. كانت تشعر أن يديها تقطران خوفاً وعرقاً ـ. أنا إذاً من أحرق مقر ناريهوالا للنقل؟

ـ لدينا تفاصيل أخرى، ولكن هذه التهم هي الأخطر في ما يتعلق بكِ ـ قال النقيب، والتفت بهدوء إلى مرؤوسه ـ. هيا أيها الرقيب، أخبر السيدة بالتهم التي يمكن تُحاكم عليها وما العقوبة التي يمكن أن تتلقاها.

تحمس ليتوما، تململ في مقعده، بلل شفتيه بلسانه، أخرج ورقة صغيرة من جيب قميصه، فتحها، تنحنح. ثم قرأ مثل تلميذ يتلو درساً أمام معلم:

ـ مشاركة في جمعية غير شرعية لتنفيذ جريمة اختطاف مع إرسال رسائل مغفلة وتهديدات ابتزاز. مشاركة في منظمة غير شرعية لتدمير مقر تجاري بالمتفجرات، مع المجازفة بتعريض بيوت ومحلات وأشخاص في الجوار للخطر. المشاركة الفعالة في اختطاف مزيف

لتخويف رجل أعمال بهدف إجباره على دفع الإتاوة الشهرية المطلوبة. التستر والتزييف والخداع أمام السلطات خلال التحقيق حول عملية الاختطاف الزائفة ـ أعاد الورقة إلى جيبه وأضاف :ـ هذه التهم الأساسية ضد السيدة، أيها النقيب. ويمكن للنيابة العامة أن تضيف تهماً أخرى أقل خطورة، مثل الممارسة السرية للدعارة.

ـ وما هو المدى الذي يمكن أن تصله العقوبة إذا ما أدينت السيدة يا ليتوما؟ ـ سأله النقيب وعيناه الساخرتان مصوبتان إلى مابيل.

ـ بين ثمانية وعشرة أعوام سجن ـ أجاب الرقيب ـ حسب الوسائل المخففة أو المتشددة طبعاً.

ـ أنتما تحاولان إخافتي، ولكنكما مخطئين ـ تلعثمت مابيل وهي تقوم بمجهود هائل من أجل أن يتمكن لسانها الجاف والخشن كلسان عظاءة إغوانا من الكلام ـ لن أردّ على أي من هذه الافتراءات ما لم يحضر محام.

ـ لم يوجه أحد إليك أسئلة *حتى الآن* ـ قال النقيب سيلفا ساخراً ـ. الشيء الوحيد الذي طُلب منك الآن هو الاستماع. مفهوم يا مابيليتا؟

ظل يراقبها بنظرة خبيثة اضطرتها إلى إنزال عينيها. وبيأس وهزيمة هزت رأسها موافقة.

وبسبب الأعصاب، والرعب، وفكرة أن الشرطيين سيكونان وراءها في كل خطوة تخطوها، ظلت خمسة أيام دون أن تخرج من البيت عملياً. كانت تصل إلى الشارع لتذهب راكضة إلى حيث الصيني الذي عند الناصية من أجل مشترياتها، وإلى مصبغة الكواء وإلى المصرف. وترجع راكضة لتغرق في غمِّها وأفكارها القلقة. وفي اليوم السادس لم تعد قادرة على تحمل المزيد. فالعيش في تلك الحال هو أشبه بالعيش في سجن، ولم تكن مابيل تصلح لأي شكل من أشكال الحبس. إنها بحاجة إلى

الشارع، بحاجة لرؤية السماء، لشم المدينة وسماعها والمشي فيها، والإحساس بجلبة الرجال والنساء، ونهيق الحمير ونباح الكلاب. لم تكن ولن تكون أبداً راهبة معتكفة. اتصلت هاتفياً بصديقتها زويلا واقترحت عليها الذهاب إلى السينما، حفلة بعد الظهر.

ـ وأي فيلم سنرى يا تشوليتا ـ سألتها زويلا.

ـ أي فيلم، ما يعرضونه ـ أجابتها مابيل ـ. أحتاج إلى رؤية ناس، التحدث قليلاً. إنني أختنق هنا.

التقيتا قبالة فندق لوس بورتاليس، في ساحة السلاح. تناولتا وجبة خفيفة في التشالان، ودخلتا إلى مجمع دور السينما في مركز أوبن بلازا التجاري، المجاور لجامعة بيورا. شاهدتا فيلماً قوياً بعض الشيء، فيه نساء عاريات. وزويلا التي تتصنع العفة كانت ترسم إشارة الصليب كلما ظهرت مشاهد في الفراش. إنها سمجة، لأنها في حياتها الشخصية تمنح نفسها الكثير من الحريات، تبدل خطيبها كل شهرين أو ثلاثة شهور، بل إنها تتباهى بعمليات التبديل تلك: «طالما الجسد يتحمل، يجب استغلاله يا بنية». لم تكن جميلة جداً ولكنها ذات جسد جيد، وتتجمل بتأنق وذوق حسن. لهذا السبب، ولأساليبها المتحررة والمنفتحة، كانت تحقق نجاحاً مع الرجال. عند خروجهما من السينما، اقترحت على مابيل أن تذهبا لتناول شيء في بيتها، لكن هذه لم توافق، لأنها لا تريد العودة وحيدة إلى حي كاستيليا في وقت متأخر.

ركبت سيارة أجرة، وبينما السيارة العتيقة تغوص في الحي شبه المظلم، قالت مابيل لنفسها إنها محظوظة في نهاية المطاف، لأن الشرطة أخفت واقعة الاختطاف عن الصحافة. فهم يعتقدون أنهم يُربكون المبتزين بذلك، ويصير اصطيادهم أسهل. لكنها كانت تعيش مقتنعة بأن الخبر سيصل في أية لحظة إلى الصحف، والإذاعة

والتلفزيون. ما الذي ستتحول إليه حياتها إذا ما انفجرت الفضيحة؟ ربما من الأفضل العمل بنصيحة فيليثيتو ومغادرة بيورا لبعض الوقت. لماذا لا تذهب إلى تروخييّو؟ يقولون إنها مدينة كبيرة، حديثة، قوية، وذات شاطئ بديع وبيوت وحدائق كولونيالية. ومسابقة رقصة المارينيرا التي تقام هناك في صيف كل عام تستحق أن تُرى. أيكون الشرطيان اللذان بملابس مدنية يلاحقانها الآن في سيارة أو على دراجة نارية؟ نظرت من خلال نافذة السيارة الخلفية ثم إلى الجانبين ولم ترَ أية مركبة. ربما تكون مسألة الحماية كلها مجرد أكذوبة. لا بد أن تكون بلهاء بالكامل كي تصدق وعود الشرطيين.

نزلت من سيارة الأجرة، دفعت للسائق ومشت العشرين خطوة من الناصية حتى بيتها في منتصف شارع خاوٍ، مع أن أضواء الحي الشاحبة كانت تلمع في جميع أبواب ونوافذ البيوت المجاورة. كانت تُلمح أشباح الناس في الداخل. وكان مفتاح البيت جاهزاً في يدها. فتحت الباب، دخلت، وحين مدّت يدها نحو مفتاح النور، أحست أن يداً آخرى تعترضها، توقفها، تغلق فمها، تخنق صرختها، بينما جسد ذكوري يلتصق في الوقت ذاته بجسدها وصوت معروف يهمس في أذنها: «إنني أنا، لا تخافي».

ـ ما الذي تفعله هنا؟ ـ احتجت مابيل مرتجفة. كانت تشعر بأنها ستنهار على الأرض لو لم يكن يمسك بها ويثبتها ـ. هل رجعت أيها المجنون، يا شقفة الـ...؟ هل رجعت يا مجنون؟

ـ أحتاج إلى مضاجعتك ـ قال ميغيل، وأحست مابيل بشفتيه المحمومتين في أذنها، في عنقها، مندفعتين، نهمتين، وبذراعيه القويين يشدانها ويداه تتلمسان كل أنحاء جسدها.

ـ أبله، أحمق، أيها القمامة الغليظ ـ احتجت، دافعت عن نفسها

غاضبة. كانت تشعر بارتدادات السخط والرعب الذي سيطر عليها ـ. ألا تعلم بأن هناك حارس يراقب البيت؟ ألا تدري ما يمكن أن يحدث لنا بسببك أيها البراز الغبي؟

ـ لم يرني أحد وأنا أدخل، الشرطي في حانة الناصية يتناول قهوة، لم يكن هنالك أحد في الشارع ـ وكان ميغيل يواصل احتضانها وتقبيلها وإلصاق جسده بجسدها والاحتكاك بها ـ. تعالي، فلنذهب إلى الفراش، سأضاجعك وأغادر. تعالي يا تشوليتا.

ـ أيها الوغد التعيس السافل، كيف تجرأت على المجيء، أنت مجنون ـ كانا في الظلام، وكانت تحاول المقاومة وإبعاده عنها، غاضبة ومذعورة، بينما هي تشعر، على الرغم من الغضب، بأن جسدها بدأ يتراخى ـ. ألا تلاحظ أنك تدمر حياتي أيها اللعين؟ وتدمر حياتك أنت أيضاً أيها الشقي التعيس.

ـ أقسم لكِ إن أحداً لم يرني أدخل، اتخذتُ كل الاحتياطات ـ كان يردد وهو يشد ملابسها كي يعريها ـ. تعالي، تعالي. لدي شهوة، لدي جوع إليك، أريدك أن تصرخي، أحبك.

توقفت عن المقاومة أخيراً. وبينما هي ضجرة، ومنهوكة في الظلام، سمحت له أن يعريها، وأن يطرحها على الفراش، واستسلمت بضع دقائق للمتعة. هل يمكن تسمية ذلك متعة؟ لقد كان شيئاً مختلفاً جداً عن المرات الأخرى على أي حال. إنه شيء مجهد، متشنج، مؤلم. حتى وهي في ذروة النشوة، حين كانت على وشك الانتهاء، لم تستطع أن تزيح من ذهنها صورة فيليثيتو، والشرطيين اللذين استجوباها في المفوضية، والفضيحة التي ستنفجر إذا ما وصل الخبر إلى الصحافة.

ـ انصرف الآن، ولا تعدْ لوضع قدمك في هذا البيت إلى أن تنتهي هذه المسألة كلها ـ أمرته حين أحست أن ميغيل يفلتها ويستلقي على

السرير ـ إذا ما أدت أعمالك الجنونية هذه إلى معرفة أبوك بالأمر، فسوف أنتقم. أقسم لك إنك ستتضرر. أقسم إنك ستندم طوال حياتك يا ميغيل.

ـ قلتُ لكِ إن أحداً لم يرني. أقسم لك لم يرني أحد. أخبريني على الأقل إذا كان ما فعلناه قد أعجبك.

ـ لم يعجبني أي شيء، وصرت أكرهك من أعماق روحي، يجب أن تعرف هذا ـ قالت مابيل وهي تتخلص من يدي ميغيل وتنهض ـ. هيا انصرف ولا تدع أحداً يراك وأنت تخرج. لا ترجع إلى هنا أيها الأبله. سيرسلونك إلى السجن أيها التعيس، كيف لا تلاحظ ذلك.

ـ حسن، سوف أذهب، لا تغضبي هكذا ـ قال ميغيل وهو ينهض ـ. أتحمل شتائمك لأنك في حالة عصبية. وإلا لكنت جعلتك تبتلعين هذه الشتائم كلها أيتها الصغيرة.

شعرت وهي في شبه الظلمة بأن ميغيل يرتدي ملابسه. وأخيراً انحنى ليقبلها بينما هو يقول لها، بالفظاظة التي تنضح من كل مسامات جسده في تلك المناسبات الحميمة:

ـ طالما أنت تروقين لي سوف آتي كلما طلب مني السفود ذلك أيتها التشوليتا.

ـ من ثمانية إلى عشرة أعوام سجن هي سنوات طويلة يا مابيليتا ـ قال النقيب سيلفا مبدلاً صوته مرة أخرى؛ فهو يبدو الآن حزيناً ومشفقاً ـ ولاسيما إذا أمضيتِ العقوبة في سجن سويّانا للنساء. إنه جحيم. أنا أستطيع أن أخبرك بوضعه، إنني أعرفه مثلما أعرف راحة يدي. لا وجود للماء والكهرباء في معظم الأوقات. السجينات ينمن مكدسات كل اثنتين أو ثلاث في سرير ضيق واحد، ومعهن أبناءهن، وكثيرات ينمن على الأرض العابقة برائحة البراز والبول، ولأن الوصول إلى الحمامات

صعب المنال في معظم الأحيان، فإنهن يقضين حاجاتهن في دلاء أو في أكياس بلاستيكية يمكنهن رميها مرة واحدة في اليوم. لا وجود لجسم قادر على تحمل ذلك النظام لوقت طويل. فما بالك بامرأة مثلك، معتادة على نوع آخر من الحياة.

على الرغم من رغبتها في الصراخ والشتم، إلا أن مابيل ظلت صامتة. لم تدخل قطّ إلى سجن سويّانا للنساء، ولكنها رأته من الخارج لدى مرورها. وحدست أن النقيب لا يبالغ ولو قليلاً في وصفه.

ـ بعد سنة أو سنة ونصف في مثل تلك الحياة، بين عاهرات، وقاتلات، ولصات، وتاجرات مخدرات، كثيرات منهن أصابهن الجنون في السجن، تتحول امرأة شابة، وجميلة مثلك، إلى عجوز قبيحة وعصابية. لا أتمنى لك ذلك يا مابيليتا.

تنهد النقيب مشفقاً من ذلك المصير المحتمل لصاحبة البيت.

ـ ستقولين إنه من الخبث قول هذه الأمور لك وتصوير مثل هذا المشهد ـ واصل المفوض دون هوادة ـ. إنك مخطئة. فلستُ أنا ولا الرقيب ساديين. لا نريد إخافتك. ماذا تقول أنت يا ليتوما.

ـ طبعاً لا، بل على العكس تماماً ـ أكد الرقيب وهو يتململ مرة أخرى في المقعد ـ. لقد جئنا بنوايا حميدة أيتها السيدة.

ـ نريد أن نوفر عليك هذه الأهوال ـ كشّر النقيب بطريقة شوهت وجهه، كما لو أنه يرى تهيؤات مروعة، ورفع يديه مرعوباً:ـ الفضيحة، المحاكمة، الاستجوابات، الوقوف وراء القضبان الحديدية. هل تتخيلين ذلك يا مابيل؟ ما نريده هو ألا تدفعي عقوبة التواطؤ مع أولئك اللصوص، وأن تظلي نظيفة من الغبار والقذى، وتواصلي الحياة المريحة التي تعيشينها منذ سنوات. أتدركين لماذا قلتُ لك إن زيارتنا من أجل مصلحتك؟ إنها كذلك يا مابيليتا، اقتنعي بما أقول.

كانت تهجس، ماذا في الأمر. لقد تحولتْ من الرعب إلى الغضب، ومن الغضب إلى القُنوط. شعرت بثقل جفونها، وشعرت مجدداً بنعاس يجبرها على إغماض عينيها للحظات. كم هو رائع النوم، فقدان الوعي، الإحساس بأن شيئاً من هذا كله لم يحدث، وأن الحياة تتواصل كما في السابق.

قرّبت مابيل وجهها من زجاج النافذة ورأت، على الفور، خروج ميغيل من باب بيتها، ثم رأته يختفي، تبتلعه الظلمة، بعد أمتار قليلة. راقبت محيط المكان بحذر. إنها لا ترى أحداً. لكن ذلك لم يطمئنها. قد يكون الحارس متربصاً في مدخل بيت مجاور، ويكون قد رآه من هناك. سيقدم تقريراً إلى رؤسائه، وستبلغ الشرطة دون فيليثيتو ياناكيه: «ابنك والموظف لديك ميغيل ياناكيه، يزور في الليل بيت عشيقتك». ستنفجر الفضيحة. ما الذي سيحدث لها؟ وبينما هي تغتسل في الحمام، وبينما هي تبدل شراشف السرير، وبعد ذلك، بينما هي منبطحة، والمصباح الذي بجانب السرير مضاء، كانت تتساءل مرة أخرى، مثلما تساءلت كثيراً خلال السنتين ونصف السنة الأخيرة التي اعتادت أن تلتقي فيها خفية بميغيل، كيف سيكون ردّ فعل فيليثيتو إذا علم بالأمر. فهو ليس من أولئك الذين يستلون سكيناً أو مسدساً لغسل العار، ليس ممن يؤمنون بأن عار الفراش لا يمحى إلا بالدم. ولكنه سيتخلى عنها. وستنتهي إلى الشارع. مدخراتها تكاد لا تكفي معيشتها لأكثر من بضعة شهور، مع تقليص شديد في النفقات. لن يكون من السهل عليها، بعد هذا كله، أن تجد علاقة مريحة مثل علاقتها مع صاحب شركة ناريهوالا للنقل. لقد كانت غبية. بلهاء. هي المذنبة. كانت تعرف أنها، عاجلاً أو آجلاً، ستدفع ثمن ذلك غالياً. كانت قانطة إلى حدّ غادرها معه النعاس. ستكون ليلة أخرى من الأرق والكوابيس.

نامت للحظات متفرقة، تتخللها نوبات رعب. إنها امرأة عملية، لم تضيع الوقت قطّ في الرثاء لحالها أو الندم على أخطائها. الشيء الوحيد الذي تندم عليه في الحياة هو رضوخها للإلحاح الذي لاحقها وبحث عنها وعشقها به هذا الرجل الشاب الذي انصاعت له دون يخامرها الشك في أن يكون ابن فيليثيتو. لقد بدأ الأمر قبل سنتين ونصف، حين لاحظت أنها تصادف بكثرة في طريقها، في شوارع وسط بيورا ومتاجرها ومطاعمها ومقاهيها، هذا الشاب الأبيض، الرياضي، الوسيم وحسن الملبس الذي يوجه إليها نظرات موحية وابتسامات مغازلة. لم تعرف من هو إلا حين قبلت منه، بعد كثير من التوسل، عصير فاكهة في كافتيريا، والخروج لتناول الطعام معه، والذهاب للرقص مرتين في صالة رقص بجوار النهر، ووافقت على الذهاب إلى الفراش معه في نُزل بأتارخيا. لم تقع في حب ميغيل قطّ. حسن، مابيل لم تحب أحداً مذ كانت بنت صغيرة، ربما لأن طبعها هكذا وربما بسبب ما حدث لها مع زوج أمها وهي في الثالثة عشرة من عمرها. لقد تعرضت لكثير من الخيبات في صباها مع عشاقها الأوائل، ومنذ ذلك الحين اقتصرت علاقاتها على مغامرات، بعضها أطول أمداً من غيرها، وبعضها قصيرة جداً، ولكن قلبها لم يكن يشارك مطلقاً في تلك المغامرات، وإنما جسدها وعقلها فقط. وظنت أن مغامرة ميغيل ستكون على ذلك المنوال نفسه، وأن المغامرة ستنتهي حين تقرر هي ذلك، بعد لقائين أو ثلاثة. ولكن الأمر لم يكن كذلك في هذه المرة. لقد وقع الشاب في الحب. تعلق بها مثل تعلق حلزون بقوقعته. انتبهت مابيل إلى أن هذه العلاقة قد تحولت إلى مشكلة وأرادت قطعها. لم تستطع. المرة الوحيدة التي لم تستطع التخلص فيها من عشيق. عشيق؟ ليس هكذا بالضبط، لأنه فقير أو بخيل، لم يقدم لها هدايا إلا نادراً، ولم يأخذها إلى أمكنة جيدة، حتى

إنه نبهها إلى أنهما لن يصلا أبداً إلى علاقة رسمية، لأنه ليس من أولئك الرجال الذين يحبون التكاثر وتأسيس أسرة. أي إنها لا تهمه إلا في الفراش.

حين أرادت القطيعة قسراً، هددها بأنه سيخبر أباه بكل شيء. منذ تلك اللحظة أدركت أن هذه القصة ستنتهي نهاية سيئة، وأنها ستكون الخاسر الأكبر بين الثلاثة.

ـ تعاون فعال مع العدالة ـ أوضح النقيب سيلفا وهو يبتسم بحماسة ـ هكذا تسمى باللغة الحقوقية يا مابيليتا. الكلمة المفصلية ليست التعاون وإنما كلمة «فعال». هذا يعني أنه لا بد للتعاون من أن يكون مفيداً ويعطي نتائج. إذا ما تعاونتي بإخلاص وأتاحتْ لنا مساعدتك أن نلقي القبض على المجرمين الذين ورطوكِ في هذه الطبخة، فسوف تتخلصين من السجن، وستتخلصين حتى من الخضوع للمحاكمة. والسبب جلي جداً، لأنك أنت أيضاً ضحية أولئك اللصوص. ستكونين نظيفة من الغبار والقش يا مابيليتا! تصوري ما الذي يعنيه هذا!

أخذ النقيب مجتين من سيجارته، ورأت هي كيف كانت سحب الدخان تزيد من كثافة جو الصالة المخلخل ثم تنقشع شيئاً فشيئاً.

ـ لابد أنك تتساءلين عن نوع التعاون الذي نريده منك. لماذا لا تشرح لها ذلك يا ليتوما.

هز الرقيب رأسه موافقاً.

ـ ما نريده منكِ حالياً هو أن تواصلي التظاهر يا سيدتي ـ قال باحترام شديد ـ مثلما كنت تتظاهرين طيلة هذا الوقت مع السيد ياناكيه ومعنا. مثلما كنت بالضبط. ميغيل لا يعرف أننا صرنا نعرف كل شيء، وبدل أن تخبريه حضرتك، ستواصلين التصرف كما لو أن أحاديثنا هذه لم تحدث قطّ.

ـ هذا هو بالضبط ما نريده منك ـ دخل النقيب سيلفا على الخط ـ. سأكون صريحاً معك، وأقدم لك دليلاً آخر على الثقة. يمكن لتعاونك معنا أن يكون مفيداً جداً لنا. ليس للقبض على ميغيل ياناكيه. فهذا صار عالقاً تماماً ولا يمكنه القيام بخطوة واحدة دون أن نعلم بها. ولكن ليس واضحاً لدينا بالمقابل ولا نعرف من هم المتواطئين. وبمساعدتك سننصب لهم فخاً ونرسلهم إلى حيث يجب أن يكون المافياويون، في السجن وليس في الشارع يعرقلون حياة الناس المحترمين. ستقدمين لنا خدمة عظيمة. وسنعاملك بالمثل، وننسب إليك خدمة عظيمة أخرى. وبلساني هذا لا تتكلم الشرطة الوطنية وحدها، وإنما العدالة كذلك. اقتراحي يحظى بتأييد النائب العام. مثلما تسمعين يا مابيليتا. تأييد السيد النائب العام الدكتور إرناندو سيمولا! لقد كسبتِ اليانصيب معي يا فتاة.

منذ ذلك الحين، ظلت مع ميغيل فقط كيلا ينفذ تهديده بالوشاية بغرامياتها لفيليثيتو «حتى لو وصل الأمر بالعجوز إلى إطلاق رصاصة عليكِ ورصاصة أخرى عليَّ يا تشوليتا». وهي تعرف الحماقات التي يمكن أن يقدم عليها رجل غيور. كانت تنتظر في أعماق قلبها أن يحدث شيء ما، حادث، مرض، أي شيء يُخرجها من هذه الورطة. حاولت إبقاء ميغيل بعيداً، وكانت تختلق الذرائع كيلا تخرج معه وكيلا تمتعه. ولكن لم تكن تجد مناصاً بين وقت وآخر، وإن كانت تفعل ذلك دون رغبة وبخوف. كانا يخرجان لتناول الطعام في أمكنة بائسة، والرقص في صالات رقص تعيسة، النوم في فنادق تؤجر غرفها بالساعة في الطريق إلى كاتاكاوس. وفي مرات قليلة جداً سمحت له بزيارتها في بيتها الصغير بحي كاستيليّا. وفي مساء أحد الأيام، دخلت مع صديقتها زوليا إلى كافيتريا التشالان لتناول الشاي، فوجدت مابيل

نفسها وجهاً لوجه مع ميغيل. كان مع فتاة صغيرة وغريبة المظهر، وكانا يبدوان مغرمين جداً ويمسك كل منهما بيدي الآخر. ورأت كيف ارتبك الشاب واحمر لونه وأدار وجهه كيلا يسلم عليها. وبدل إحساسها بالغيرة، شعرت مابيل بالراحة. فسوف تكون القطيعة معه الآن سهلة جداً. ولكنهما حين التقيا في في المرة التالية، أخذ ميغيل يتباكى، وطلب منها المغفرة، وأقسم إنه يشعر بالندم، وأن مابيل هي حب حياته، إلى آخره. فغفرت له هي البلهاء.

في هذا الصباح، ودون أن تكون قد أغمضت عينيها تقريباً، مثلما هي حالها في الفترة الأخيرة، كانت مابيل تشعر بالانهيار، رأسها ممتلئ بالترقب. كانت تشعر بالأسى كذلك على العجوز. فهي لم تكن تريد إلحاق الأذى به. وما كانت لترتبط قطّ بميغيل لو عرفت أنه ابنه. ولكم هو غريب أن يكون قد أنجب ابناً أبيض ووسيماً إلى هذا الحد. لم يكن العجوز من صنف الرجال الذين يمكن لامرأة أن تعشقه، ولكنه يمتلك الصفات التي يمكن أن تدفع امرأة إلى أن تحب رجلاً. ولقد اعتادت عليه. إنها لا تنظر إليه كعشيق، وإنما كصديق ثقة. يمنحها الأمان، يجعلها تفكر في أنه، مادام قريباً منها، سيُخرجها من أية مشكلة تقع فيها. إنه شخص وقور وطيب المشاعر، واحد من أولئك الرجال الذين يمكن الثقة بهم. يؤسفها جداً أن تسبب له المرارة، أن تجرحه، أو تُغضبه. لأنه سيعاني كثيراً حين يعلم أنها قد نامت مع ميغيل.

وفي حوالي منتصف النهار، حين طرقوا الباب، أحست بأن التهديد الذي كانت تهجس به منذ الليلة السابقة سوف يتجسد الآن. ذهبت لتفتح الباب ووجدت نفسها أمام النقيب سيلفا والرقيب ليتوما عند العتبة. رباه، رباه، ما الذي سيحدث.

ـ أنت تعرفين ما هو الاتفاق يا مابيليتا ـ قال النقيب سيلفا. ثم نظر

إلى الساعة كما لو أنه قد تذكر شيئاً، ونهض واقفاً ـ لستِ مضطرة إلى أن تـردي عليّ الآن طبعاً. سأمنحك وقتاً حتى الغد، في مثل هذه الساعة. فكري بالأمر. وإذا جاء المجنون ميغيل في زيارة أخرى لك، لا تفكري في أن تخبريه بما تحدثنا فيه. لأن إقدامك على ذلك يعني أنك قررت الوقوف إلى جانب المافياويين ضدنا. وهذا سيزيد من خطورة لائحة الاتهام ضدك يا مابيليتا. أليس كذلك يا ليتوما؟

حين توجه النقيب والرقيب نحو الباب، سألتهما:

ـ هل يعلم فيليثيتو بأنكما قد جئتما لتقديم هذا العرض لي؟

ـ السيد ياناكيه لا يعلم أي شيء عن مجيئنا، ولا يعرف بعد أي شيء عن أن مبتز العنكبوت هو ابنه ميغيل، وأنك أنت شريكته المتواطئة معه ـ ردّ عليها النقيب ـ. عندما سيعلم بالأمر سيغمى عليه. ولكن هكذا هي الحياة، وأنت تعرفين ذلك أكثر من الجميع. فعند اللعب بالنار، سيحترق أحد ما. فكري في عرضنا، تشاوري بشأنه مع وسادتك وسترين أنه مناسب لك. سوف نتحدث غداً يا مابيليتا.

عندما انصرف الشرطيان، أغلقت الباب وأسندت ظهرها إلى الجدار. كان قلبها ينبض بقوة. «لقد وقعت. لقد وقعت. أوقعتِ نفسك يا مابيل». ومستندة إلى الجدار، جرجرت نفسها حتى الصالة ـ كانت ساقاها ترتجفان، ومازال النعاس يثقل عليها بصورة لا تُقاوَم ـ وتهاوت على أقرب أريكة. أغمضت عينيها ونامت على الفور أو أغمي عليها. رأت كابوساً كانت قد رأته في مرات سابقة. رأت نفسها تقع في رمال متحركة وتأخذ بالغوص في ذلك السطح الترابي الذي غارت فيه ساقاها، وراحت تلتف عليهما خيوط لزجة. وببذلها جهوداً عظيمة تتمكن من التقدم باتجاه أقرب ضفة إليها، ولكن ذلك لم يكن الخلاص بأي حال، إذ كان يقبع على الضفة، بانتظارها، وحش

كثيف الشعر، تنين أفلام له أسنان حادة وعينان واخزتان لا تتوقفان عن رصدها وانتظارها.

حين استيقظت، كانت تشعر بآلام في حلقها ورأسها وظهرها وكانت مبللة بالعرق. ذهبت إلى المطبخ وشربت كأس ماء على جرعات. «يجب أن تهدئي. وأن يكون رأسك بارداً. عليكِ أن تفكري بهدوء في ما ستفعلينه». ذهبت لتستلقي على السرير، دون أن تخلع عنها سوى الحذاء. لم تكن لديها رغبة في التفكير. كانت تريد أن تركب سيارة، حافلة، طائرة، وأن تغادر إلى أبعد مكان ممكن عن بيورا، إلى مدينة لا يعرفها فيها أحد. وأن تبدأ حياة جديدة من الصفر. لكن ذلك مستحيل، فأينما ذهبت ستصل الشرطة إليها، وسيزيد الهروب من خطورة ذنوبها. أليست ضحية أيضاً؟ لقد قال النقيب ذلك، وهذه حقيقة خالصة. أهي صاحبة الفكرة؟ لا شيء من هذا. بل إنها جادلت المجنون ميغيل حين عرفت بما جاء يعرضه عليها. ولم تقبل الاستماع إلى تهريج عملية الاختطاف إلا بعد أن هددها ـ مرة أخرى ـ بأنه سيخبر العجوز بغرامياتهما: «سيرميك مثل كلبة يا تشوليتا. وكيف ستعيشين حياة منعمة كالتي تعيشينها الآن؟».

لقد أجبرها، وليس لديها أي سبب لأن تكون وفيه لابن عاهرة مثله. ربما الشيء الوحيد المتبقي لها هو التعاون مع الشرطة والنائب العام. لن تكون حياتها سهلة بالطبع. سيكون هنالك انتقام، ستتحول إلى هدف، سيطلقون عليها رصاصة أو يطعنونها بخنجر. أيهما أفضل؟ هذا أم السجن؟

ظلت طوال ما تبقى من النهار وتلك الليلة دون خروج من البيت، تنهشها الشكوك. كان رأسها عش جُداجد. الشيء الوحيد الواضح لديها هو أنها قد تخوزقت وستبقى كذلك بسبب خطئها في التواطؤ مع

ميغيل والقبول بذلك التهريج.

لم تأكل شيئاً في الليل، على الرغم من أنها أعدّت سندوتش جامبون وجبن دون أن تتذوقه. استلقت للنوم وهي تفكر في أن الشرطيين سيعودان في الصباح ليسألاها ما هو جوابها. أمضت الليل كله تفكر، تبدل في خططها. كان النوم يأتيها في بعض اللحظات، ولكنها لا تكاد تغفو حتى تستيقظ مذعورة. عندما داهمت بيت كاستييّا أول أنوار اليوم الجديد، أحست بأنها تهدأ. بدأت ترى بوضوح. وبعد قليل، كانت قد اتخذت قرارها.

XIV

ذلك الثلاثاء من شتاء ليما الذي سيعتبره دون ريغوبيرتو ودونيا لوكريثيا أسوأ يوم في حياتيهما، أشرق بسماء صافية وبإعلان عن ظهور الشمس، بعد أسبوعين من ضباب لجوج ورطوبة ورذاذ مطر لا يكاد يبلل، لكنه يتسلل إلى العظام. مثل هذا الاستيقاظ يبدو فألاً طيباً.

كان الموعد في مكتب قاضي التحقيق في الساعة العاشرة صباحاً. مرَّ الدكتور كلاوديو أرنييّاس في الساعة التاسعة، بحمَّالات بنطاله المزركشة المعهودة وخطوات مشيته العرجاء، لمرافقة ريغوبيرتو مثلما اتفقا مسبقاً. كان هذا الأخير يظن أن التحقيق الجديد أمام القاضي سيكون مجرد إضاعة وقت مثل التحقيقات السابقة، أسئلة بلهاء حول وظائفه وكفاءاته كمدير في شركة التأمين، يجيب عنها بما يناسبها من عبارات التعقل الجلية وببلاهات معادلة لها. لكنه في هذه المرة وجد أن التوءمين قد رفعا من وتيرة الحصار القضائي؛ ففضلاً عن إيقاف إجراءات تقاعده بحجة فحص مسؤولياته ومداخيله خلال سنوات عمله في الشركة، وجد أنهما فتحا ضده تحقيقاً قضائياً جديداً حول عملية تدليس مزعومة تضر بشركة التأمين، وأنه هو نفسه كان متستراً عليها ومستفيداً منها ومتواطئاً فيها.

يكاد دون ريغوبيرتو لا يتذكر تلك الواقعة التي حدثت قبل ثلاث سنوات. فالزبون هو مكسيكي مقيم في ليما، يملك قطعة أرض زراعية

ومصنعاً لمشتقات الحليب في وادي تشييّون، وقد وقع ضحية حريق أودى بممتلكاته. وبعد التقرير الشَّرطي وحكم القاضي، جرى تعويضه عن الخسائر التي تعرض لها وفق التأمين الذي لديه. وعندما اتُهم الرجل، من خلال شريك له، بأنه هو نفسه من افتعل الحريق كي يتقاضى بصورة احتيالية قيمة بوليصة التأمين، كان ذلك الشخص قد غادر البلاد دون أن يخلف أثراً يدل على مستقره الجديد، ولم تستطع الشركة تعويض تلك الخديعة. ويقول التوءمان الآن إن لديهما أدلة على أن ريغوبيرتو، مدير الشركة، قد تصرف بطريقة متهاونة ومريبة في القضية كلها. والأدلة تتمثل في شهادة موظف سابق في الشركة، فُصل من العمل فيها بسبب عدم الكفاءة، ويؤكد أنه قادر على إثبات أن المدير قد تصرف بما يتناسب مع مصلحة المحتال. لم يكن الأمر برمته سوى أكذوبة لا سند لها، وقد أكد له الدكتور أرنييّاس الذي رفع دعوى افتراء وتشهير معاكسة ضد التوءمين وشاهدهما المزيف، أكد له أن تلك القضية ستنهار كانهيار قلعة من رمل؛ وسيكون على ميكي وإسكوبيتا أن يدفعا عطلاً وضرراً لإهانتهما كرامته، وتقديمهما شهادة مزيفة ومحاولتهما تضليل العدالة.

شغلت الإجراءات طيلة فترة الصباح. كانت القاعة الضيقة والخانقة تغلي حَراً وتغص بالذباب، وجدرانها تغص بكتابات وتشطيب لكتابات. كان ريغوبيرتو جالساً على كرسي صغير ومخلع، يكاد لا يتسع لنصف إليتيه، بينما هو يحاول طيلة الوقت التوازن كيلا يقع على الأرض، ويرد على أسئلة القاضي شديدة التعسف والسخافة إلى حدّ تدفعه إلى القول بينه وبين نفسه إنه لا هدف لها سوى تعكير مزاجه وهدر وقته وصبره. أيكون هذا القاضي مرتشياً من ابني إسماعيل أيضاً؟ فهذان الماجنان يضيفان إليه كل يوم مزيداً من المضايقات لإجباره

على الشهادة بأن أباهما لم يكن بكامل قواه العقلية حين تزوج من خادمته. ففضلاً عن تجميد إجراءات تقاعده، هاهما يخرجان له الآن بهذه القضية. التوءمان يعرفان جيداً أنه يمكن لهذا الاتهام أن ينقلب ضدهما. لماذا يتقدمان به؟ هل كل هذا الحقد الأعمى، والرغبة العنيدة في الانتقام منه لا سبب آخر لها سوى أنه تواطأ في ذلك الزواج؟ ربما هي عملية تحول فرويدية؟ كانا مغتاظين وخارجين عن طورهما، يستشرسان ضده لأنهما لا يستطيعان عمل شيء لإسماعيل وآرميدا اللذين يستمتعان على هواهما، هناك في أوروبا. إنهما مخطئان. لن يستطيعا إجباره على الرضوخ. ولنرَ من الذي سيضحك أخيراً في هذه الحرب التي أعلناها.

كان القاضي رجلاً ضئيلاً، مشوشاً، يلبس بصورة بائسة، يتكلم دون أن ينظر إلى عينيّ محدثه، وبصوت شديد الخفوت والتردد ما ضاعف من استياء دون ريغوبيرتو للحظات. هل هناك من يسجل الاستجواب؟ ظاهرياً لا. هنالك كاتب ينزوي بين القاضي والجدار، رأسه غارق في ملف ضخم، ولكن لا تظهر أي آلة تسجيل. وليس لدى القاضي من جهته سوى دفتر صغير يُدون فيه، بين حين وآخر، ملاحظة سريعة لا يمكن لها أن تكون حتى تلخيصاً مقتضباً لأقواله. أي إن هذا الاستجواب كله ليس سوى مهزلة، ولا هدف له سوى إزعاجه. كان مُستَفزاً إلى حدّ اضطر معه إلى بذل مجهود كبير للتجاوب مع تلك التمثيلية الإيمائية المضحكة، وكيلا ينفجر في نوبة غضب. ولكن الدكتور أرنييّاس قال له، لدى الخروج، إنه عليه أن يكون سعيداً وليس غاضباً، فإبداء قاضي التحقيق الكثير من الضجر في الاستجواب، يشير بوضوح إلى أنه لا يأخذ اتهامات الضبعين على محمل الجد. وسوف يعتبرها باطلة وغير متوافقة بكل تأكيد.

وصل ريغوبيرتو إلى بيته متعباً، معكر المزاج، وبلا رغبة في تناول الغداء. وكانت تكفيه رؤيته وجه دونيا لوكريثيا الممتقع كي يدرك أن خبراً سيئاً آخر ينتظره.

ـ ماذا جرى؟ ـ سألها بينما هو يخلع الجاكيت ويعلقه في خزانة الملابس بغرفة النوم. ولأن زوجته تأخرت في الرد عليه، التفت لينظر إليها.

ـ ما هو الخبر السيئ يا حبي؟

فتلعثمت دونيا لوكريثيا بصوت مكتوم ومرتعش:

ـ إديلبيرتو توريس، تصور. أفلتت منها شبه شكوى وأضافت: لقد ظهر له في حافلة. مرة أخرى يا ريغوبيرتو. رباه، مرة أخرى!

ـ أين؟ متى؟

ـ في حافلة ليما- تشوريبَوس يا خالتي ـ روى فونتشيتو بهدوء شديد، متوسلاً إليها ألا تعطي الموضوع أية أهمية ـ. صعدتُ إلى الحافلة الصغيرة في باسيو ديلا ريبوبليكا، بالقرب من شارع غراو. وفي الموقف التالي، موقف الثانخون، صعد هو.

ـ هو؟ هو نفسه؟ هو؟ ـ صاحت وهي تقرِّب وجهها منه متفحصة إياه ـ. هل أنت متأكد مما تقوله لي يا فونتشيتو؟

ـ تحية أيها الفتى الصديق ـ حَيَّاهُ السيد إديلبيرتو توريس، وهو ينحني له بواحدة من انحناءة احترامه المعهودة ـ يا للمصادفة، انظر أين نلتقي. تسعدني رؤيتك يا فونتشيتو.

ـ كان يرتدي ملابس رمادية، مع جاكيت وربطة عنق، وكنزته ذات اللون الرماني ـ أوضح الصبي ـ. وكان شعره مُسرَّحاً وذقنه حليقة على أحسن وجه، وشديد اللطف. لقد كان هو طبعاً يا خالتي. ولحسن الحظ أنه لم يبكِ هذه المرة.

ـ يبدو لي أنك كبرت قليلاً عما كنت عليه في آخر مرة التقينا بها ـ أكد إديلبيرتو توريس وهو يتفحصه من أعلى إلى أسفل ـ ليس بدنياً فقط. فأنت لك الآن نظرة أكثر صفاء مما كنت عليه من قبل، وأكثر ثقة بالنفس. نظرة شخص شبه راشد يا فونتشيتو.

ـ لقد منعني أبي من التكلم مع حضرتك أيها السيد. متأسف، ولكن يجب عليّ أن أطيعه.

ـ وهل أخبرك بسبب هذا المنع؟ ـ سأله السيد توريس، دون أن يبدو عليه أدنى تأثر. كان يتأمله بفضول، وبابتسامة خفيفة.

ـ أبي وزوجة أبي يظنون أنك الشيطان يا سيدي.

لم يبدُ على إديلبيرتو توريس أنه قد فوجئ كثيراً، ولكن المفاجأة بدت على سائق الحافلة. فقد داس قليلاً على مكبح السيارة، والتفت ليلقي نظرة إلى الراكبين في المقعد الخلفي. وحين رأى وجهيهما، اطمأن. اتسعت ابتسامة السيد توريس أكثر، ولكنه لم يفلت قهقهة. وهز رأسه معتبراً الأمر مزاحاً.

ـ كل شيء ممكن في هذه الأزمنة التي نعيشها ـ علّق بالطريقة المتقنة بالنّطق كمحاضر وهو يهز كتفيه ـ بما في ذلك أن يكون الشيطان طليقاً في شوارع ليما، ويتنقل بحافلة نقل صغيرة. وبمناسبة الحديث عن الشيطان، لقد علمتُ أنك توصلت إلى تفاهم جيد مع الأب أودونوفان يا فونتشيتو. أجل، كاهن الكنيسة الصغيرة تحت الجسر، ومن سيكون سواه. هل أنت على تفاهم جيد معه؟

ـ لقد كان يسخر منكِ، ألم تلاحظي ذلك يا لوكريثيا؟ ـ أكد دون ريغوبيرتو ـ الأمر مزاح منذ اللحظة الأولى لظهوره له مجدداً في تلك الحافلة. ولأنه من المستحيل تماماً أن يذكر الرجل اسم بيبين. لقد كان يسخر منكِ بكل بساطة. وقد كان يسخر منا منذ بداية القصة، هذه هي الحقيقة.

ـ ما كنت لتقول هذا لو أنك رأيت كيف كان وجهه يا ريغوبيرتو. أظن أنني أعرفه جيداً بحيث يمكنني أن أعرف متى يكذب ومتى لا يكذب.

ـ هل تعرف الأب أودونوفان أيها السيد؟

ـ إنني أذهب في بعض أيام الآحاد للاستماع إلى قداسه، على الرغم من أن كنيسته بعيدة جداً عن مكان سكني ـ أجابه إديلبيرتو توريس ـ. أقطع المسافة إلى هناك لأن مواعظه تروق لي. إنها مواعظ رجل مثقف، ذكي، يتكلم إلى الجميع، وليس إلى المؤمنين وحدهم. ألا يعطك هذا الانطباع حين تتحدث معه؟

ـ لم أسمع مواعظه قطّ ـ أوضح فونتشيتو ـ. ولكنه بدا لي ذكياً جداً بالفعل. لديه خبرة في الحياة، ولاسيما في أمور الدين.

ـ يجب أن تسمعه حين يتحدث على المنبر ـ نصحة إديلبيرتو توريس ـ ولاسيما الآن، بعد أن صرت تهتم بشؤون روحانية. إنه متحدث بارع، أنيق وكلماته مفعمة بالحكمة. لابدّ أنه أحد آخر الخطباء الجيدين لدى الكنيسة. لأن الخطابة المقدسة التي كانت مهمة جداً في الماضي، دخلت في مرحلة انحطاط منذ زمن طويل.

ـ ولكنه لا يعرف حضرتك ـ تجرأ فونتشيتو على القول ـ. لقد كلمتُ الأب أودونوفان عنك، ولم يكن يعرف حتى من تكون.

ـ إنني بالنسبة إليه لستُ سوى وجهٍ آخر بين رواد كنيسته ـ ردّ إديلبيرتو توريس دون أن يطرأ عليه أي تبدل ـ. وجهٌ ضائع بين وجوه كثيرة أخرى. كم هو جيد أن تكون مهتماً الآن بالدين يا فونتشيتو. لقد سمعت أنك انضممت إلى جماعة تجتمع مرة كل أسبوع لقراءة الكتاب المقدس. هل تجد متعة في عمل ذلك؟

ـ إنك تكذبُ عليَّ يا قلبي ـ قالت له دونيا لوكريثيا مؤنبة بمحبة،

ومحاولة مداراة مفاجأتها ـ لا يمكن أن يكون قد قال لك هذا. لا يمكن أن يكون السيد توريس عارفاً بأمر فريق دراسة الكتاب المقدس.

ـ بل إنه يعرف كذلك أننا أنهينا الأسبوع الماضي قراءة سفر التكوين وبدأنا بسفر الخروج ـ وأبدى الصبي في هذه اللحظة ملامح قلق عظيم. فقد بدا هو نفسه مذهولاً أيضاً ـ إنه يعرف حتى هذا التفصيل، أقسم لكِ. لقد فاجأني بطريقة لم أستطع معها إلا أن أقول له ذلك يا خالتي.

ـ يجب ألا تُفاجأ يا فونتشيتو ـ ابتسم له إديلبيرتو توريس ـ إنني أشعر نحوك بتقدير كبير ويهمني أن أعرف كيف تمضي أمورك، في المدرسة، في أسرتك، وفي الحياة. ولهذا أهتم بالتحري عما تفعله ومع من تلتقي. إنه إعراب عن المحبة لك، لا شيء أكثر. يجب عدم البحث عن ثلاث قوائم للقط ونحن نعرف أن له أربع قوائم: هل تعرف هذا المثل؟

ـ سوف يسمع تأنيباً مني حين يرجع من المدرسة ـ قال دون ريغوبيرتو، وقد داهمه الغضب فجأة ـ. لا يمكن لفونتشيتو أن يواصل التلاعب بنا بهذه الطريقة. لقد تعبتُ من أنه يريدنا أن نبتلع كل هذه الخدع والاحتيالات.

توجه منزعجاً إلى الحمام وغسل وجهه بماء بارد. كان يشعر بشيء مثير للقلق، ويحدس بمضايقات جديدة. لم يعتقد قطّ أن قدر البشر مكتوب، وأن الحياة ما هي إلا سيناريو مهيأ مسبقاً، يمثله البشر دون أن يطلعوا عليه، ولكنه منذ زواج إسماعيل المنحوس، وعودة ظهور إديلبيرتو توريس المزعومة في حياة فونتشيتو، صار لديه إحساس بأنه قد ضبط إطلالة مسبقة في حياته. أيمكن لأيامه أن تكون مشاهد قررتها مسبقاً قوةٌ خارقة مثلما يعتقد الكلفينيون؟ وأسوأ ما في هذا الثلاثاء المشؤوم هي أوجاع الرأس العائلية التي بدأت للتو.

جلسا إلى المائدة. ظل ريغوبيرتو ولوكريثيا صامتين وبوجهين مأتميين، ينبشان في طبق السلطة بلا رغبة، فاقدين الشهية تماماً. وفي هذه الأثناء اقتحمت خوستينيانا غرفة الطعام دون استئذان:

ـ اتصال هاتفي يا سيدي ـ كانت منفعلة جداً، وعيناها تطلقان شرراً، كما في المناسبات الكبرى ـ. إنه السيد إسماعيل كاريرا بالذات!

نهض ريغوبيرتو قافزاً. شبه متعثر، وذهب لتلقي المكالمة في مكتبه.

ـ إسماعيل؟ ـ سأل بجزع ـ. أنت إسماعيل؟ من أين تتكلم؟

ـ من هنا، من ليما، من أين سيكون ـ ردّ عليه رئيسه السابق وصديقه بالنبرة المستهترة والمرحة نفسها التي كلمه بها في مكالمته الأخيرة ـ. وصلنا في الليل ونحن ننتظر رؤيتكما بفارغ الصبر. ولكن بما أن لدينا، أنت وأنا، أشياء كثيرة يجب التكلم فيها، فلماذا لا نلتقي نحن وحدنا فوراً. هل تناولت الغداء؟ حسن، تعال لتناول القهوة معي إذاً. أجل، الآن، إنني بانتظارك في بيتي.

ـ سآتيك طائراً ـ ودّعه ريغوبيرتو كإنسان آلي. «يا له من يوم، يا له من يوم».

لم يشأ تناول ولو لقمة واحدة أخرى. خرج كدوامة وهو يعد لوكريثيا بأن يرجع فوراً ليخبرها بحديثه مع إسماعيل. فعودة صديقه الذي هو مصدر كل النزاعات التي يجد نفسه غارقاً فيها مع التوءمين، جعلته ينسى اللقاء مع قاضي التحقيق، وعودة ظهور إديلبيرتو توريس في حافلة ليما ـ تشوريبّوس.

لقد عاد العجوز وزوجته الجديدة أخيراً من شهر عسلهما. أهو مطلع حقاً على كل المشاكل التي يلاحقه بها الضبعان، ويخبره بها يومياً كلاوديو أرنيبّاس؟ سيتحدث إليه بكل صراحة؛ سيقول له كفى، لأنه مذ وافق على أن يكون شاهده، تحولت حياته إلى كابوس قضائي

وبوليسي، وعليه أن يفعل شيئاً على الفور كي يوقف ميكي وإسكوبيتا حصارهما له.

ولكنه حين وصل إلى الدار الكبيرة المشيدة على الطراز النيوكولونيالي في حي سان إيسيدرو، وشبه المحاصرة بعمارات شاهقة في ما حولها، استقبله إسماعيل وآرميدا بكثير من مظاهر المودة، بحيث انهارت نواياه المسبقة في التكلم بوضوح وحزم. أذهلته طمأنينة الزوجين وسعادتهما وأناقتهما. كان إسماعيل يرتدي ملابس سبورت، مع منديل حريري حول عنقه وصندل يبدو ككفاز لقدميه؛ وسترته الجلدية تتناسب مع القميص ذي الياقة المفتوحة الذي يبرز منه وجهه الباسم، الحليق لتوه والمعطر بعطر يانسون خفيف. غير أن التحول الذي طرأ على آرميدا كان أعظم. فقد بدت كما لو أنها خارجة للتو من بين يدي مصففات شعر، وخبيرات مكياج ومنيكور. شعرها الأسود القديم صار الآن كستنائياً مع تموجات لطيفة حلت محل الشعر المترهل الذاوي. وترتدي ثوباً خفيفاً من قطعتين، مُطَبَّعاً بأزهار ملونة، مع شال ليلكي على الكتفين وحذاء بيتي من اللون نفسه بنصف كعب. كل شيء فيها: يداها المعتنى بهما، أظفارها المطلية بطلاء أحمر شاحب، القرطان، السلسلة الذهبية، والميدالية المتدلية على الصدر، وحتى أساليبها التلقائية ـ كانت قد سلّمت على ريغوبيرتو وهي تقرّب خدها منه ليقبله ـ بدت أساليب سيدة أمضت حياتها بين أناس جيدي التربية، أثرياء ووجوه مجتمع، لا هم لها سوى العناية بجسدها وأناقتها. لم يكن قد بقي فيها، للوهلة الأولى، أي أثر من العاملة المنزلية القديمة. أتراها كرّست شهور شهر العسل هذه في أوروبا لتلقي دروساً في الأساليب الراقية؟

ما إن انتهوا من تبادل التحية حتى أدخلوه إلى الصالة الصغيرة المجاورة لغرفة الطعام. من خلال النافذة الواسعة كانت تظهر الحديقة

المتلئة بنباتات زينة من الكروتينيات والجهنميات والخبازيات والزنبقيات. لاحظ ريغوبيرتو أنه إلى جانب المنضدة حيث توجد الفناجين وإبريق القهوة وطبق البسكويت والحلويات، هنالك عدة حزم وعلب ملفوفة بعناية بأوراق وشرائط ملونة. أهي هدايا؟ أجل. لقد أحضرها إسماعيل وآرميدا لريغوبيرتو ولوكريثيا وفونتشيتو، وحتى لخوستينيانا كذلك، في لفتة امتنان لما أبدوه من محبة للعروسين: قمصان وبيجاما من الحرير لريغوبيرتو، بلوزات وشالات للوكريثيا، ملابس وأحذية رياضية لفونتشيتو، مئزر وصندل لخوستينيانا، إضافة إلى أحزمة وأزرار قمصان ومفكرات ودفاتر مذكرات مصنوعة يدوياً، ولوحات وشوكولاته وكتب فن ولوحة رسم غزلي لتعليقها في الحمام أو الحجرة الحميمة في البيت.

كان يراهما كمن استعادا الشباب، واثقين من نفسيهما، سعيدين وهادئين إلى حدّ أحس ريغوبيرتو بعدوى طمأنينة وطيب مزاج العروسين تنتقل إليه. لا بد أن إسماعيل يشعر بثقة تامة بما يفعله، وأنه بمنجى من كل مكايد ابنيه. ومثلما قال له سابقاً خلال ذلك الغداء في مطعم «روسا ناوتيكا»، لا بد أنه ينفق نقوداً أكثر منهما من أجل إحباط مؤامراتهما. ولا بد أنه يتحكم بكل شيء. لحسن الحظ. لماذا يقلق هو إذاً؟ فمع وجود إسماعيل في ليما، سوف تُحل المشكلة التي أثارها التوءمان. ربما بمصالحة إذا ما وافق رب عمله السابق على تقديم بعض الأموال الإضافية إلى الأرعنين. وستنتهي كافة المكايد التي تثقل عليه خلال أيام قليلة، وسيستعيد حياته السرية، وحيزه المتحضر. وفكّر: «سأستعيد سيادتي وحريتي».

بعد تناول القهوة، استمع ريغوبيرتو إلى بعض طرائف رحلة العروسين إلى إيطاليا. فآرميدا التي يكاد لا يتذكر أنه سمع صوتها من

قبل، استعادت الآن موهبة اللغة. إنها تعبر عن نفسها بطلاقة وتدفق، وبقدر أقل من الأخطاء في الصياغة اللغوية وبمزاج ممتاز. بعد قليل انسحبت «كي يتكلم الرجلان في شؤونهما المهمة». أوضحت أنها لم تنم أية قيلولة في حياتها قطّ، ولكن إسماعيل علّمها الآن الاستلقاء حوالي خمس عشرة دقيقة بعينين مغمضتين بعد الغداء، وأنها تشعر بعد ذلك أنها على ما يرام بفضل هذه الاستراحة القصيرة.

ـ لا تقلق لأي شيء يا عزيزي ريغوبيرتو ـ قال له إسماعيل، وهو يربت على كتفه فور بقائهما وحيدين ـ أتريد فنجان قهوة آخر؟ كأس كونياك صغير؟

ـ تبهجني رؤيتك سعيداً هكذا يا إسماعيل ـ رفض ريغوبيرتو العرض بحركة من رأسه ـ. تبهجني رؤيتكما أنتما الاثنين على أحسن حال. الحقيقة أنكما، أنت وآرميدا، مُشرقين. وهذا دليل على أن الزواج يمضي على خير ما يرام. يسعدني هذا كثيراً بالطبع، ولكن، ولكن...

ـ ولكن هذين الشيطانين جعلا شَيْبَ شعرك أخضرَ، أعرف ذلك جيداً ـ أكمل إسماعيل كاريرا جملة صديقه وهو يربت على كتفه من جديد، دون أن يتوقف عن الابتسام له وللحياة ـ. لا تقلق يا ريغوبيرتو، صدقني. إنني هنا الآن وسوف أتولى الأمور كلها بنفسي. أعرف كيف أواجه هذه المشاكل وأحلّها. أطلب منك ألف معذرة على الإزعاجات الكثيرة التي جلبها لك كرمُك معي. غداً سأعمل طيلة اليوم في هذه القضية مع كلاوديو أرنييّا والمحامين الآخرين في مكتبه. سأزيح عن كاهلك دعاوى المحاكمات والمشاكل، أعدك بهذا. أما الآن فاجلس واستمع. لدي أخبار أقدمها إليك، وهي تهمك. ألا تريد أن نتناول هذا القليل من الكونياك يا صديقي العجوز؟

سارع هو نفسه إلى سكب كأسين. رفع كأسه. قرعا الكأسين وبللا

شفاههما ولسانيهما بالمشروب الذي يلمع قرمزياً في قاع الكريستال، وله شذى ذكرى خشب سنديان البرميل. انتبه ريغوبيرتو إلى أن إسماعيل يراقبه بمكر. وأن ابتسامة خبيثة، ساخرة، تبث الحماسة في عينيه المجعدتين. أتراه أصلح أسنانه الاصطناعية في أثناء شهر عسله؟ لقد كانت تتحرك في فمه من قبل، أما الآن فتبدو ثابتة جداً على لثتيه.

ـ لقد بعتُ أسهمي في الشركة كلها لشركة أسيغورزيوني جنرالي، أفضل وأكبر شركة تأمين إيطاليه يا ريغوبيرتو ـ هتف وهو يفتح ذراعيه ويطلق قهقهة صاخبة ـ. أنت تعرفها جيداً، أليس كذلك؟ لقد عملنا معهم مرات عديدة. مقرها الرئيسي في تريستي، لكنها موجودة في العالم كله. صفقة ممتازة. ها أنت ترى، شهر عسلي لم يكن رحلة متعة وحسب. وإنما رحلة عمل أيضاً.

كان يحتفي بالأمر بمرح وسعادة طفل يفتح هدايا بابا نويل. لم يكن دون ريغوبيرتو قد استوعب الخبر بعد. وتذكر بصورة غامضة أنه كان قد قرأ، قبل أسابيع، في الإيكونوميست، أن لدى شركة أسيغورزيوني جنرالي خطط للتمدد في أميركا الجنوبية.

ـ أبعتَ الشركة التي أسسها أبوك، والتي عملتَ فيها طيلة حياتك؟ ـ سأله أخيراً وهو مشوش ـ بعتها إلى شركة إيطالية عابرة للقارات؟ منذ متى وأنت تتفاوض معها على هذا الأمر يا إسماعيل؟

ـ منذ حوالي ستة أشهر ـ أوضح صديقه وهو يهز كأس الكونياك ببطء ـ. لقد كانت مفاوضات سريعة، بلا تعقيدات، وجيدة جداً، أكرر لك. لقد أنجزتُ صفقة جيدة. خذ راحتك واستمع. لأسباب معروفة وجلية، وقبل الوصول إلى نهاية حميدة، كان لا بد لهذا الموضوع من أن يظل سرياً. هذا هو سبب تدقيق الحسابات الذي فوضتُ الشركة الإيطالية به وكان قد لفت اهتمامك كثيراً في العام الماضي. ها أنت

تعرف الآن ما الذي كان وراء ذلك: أرادوا أن يتفحصوا شركتنا بعدسة مكبرة. لم أوصي أنا بتلك المهمة ولم أدفع تكاليفها، وإنما أسيغورزيوني جنرالي هي من فعلت ذلك. وبما أن انتقال الملكية قد أُنجز، فإنني أستطيع أن أخبرك الآن بكل شيء.

تكلم إسماعيل كاريرا قرابة الساعة دون أن يقاطعه ريغوبيرتو، اللهم إلا في مرات قليلة ليطلب منه بعض التوضيحات. كان يستمع إلى صديقه معجباً بذاكرته، إذ راح يشرح أمامه بإسهاب، ودون أي تردد، كمن يبسط طيات رق جلدي، أحداث تلك الشهور بما فيها من عروض وعروض مضادة. كانَ مذهولاً. بدا له من غير المعقول أن مفاوضاتٍ بتلك الحساسية أمكن لها أن تتحقق، وأن تصل إلى نهايتها بكل تلك السرية، بحيث لم يستطع هو نفسه، المدير العام للشركة، أن يعلم بها. كانت لقاءات المتفاوضين تتم في ليما وتريستي ونيويورك وميلان؛ وكان يشارك فيها محامون ومساهمون رئيسيون ووكلاء مفوضون ومستشارون ومصرفيون من عدة بلدان، غير أنه جرى استبعاد جميع موظفي إسماعيل كاريرا البيرويين بصورة خاصة، وكذلك ميكي وإسكوبيتا طبعاً. فهذان اللذان تلقيا ميراثهما سلفاً، حين طردهما دون إسماعيل من الشركة، كانا قد باعا جزءاً كبيراً من أسهمهما، ولم يعلم ريغوبيرتو إلا الآن بالذات أن من اشتراها، من خلال أشخاص آخرين، هو إسماعيل نفسه. ومازال الضبعان يحتفظان بحصة ضئيلة من الأسهم، وقد تحولا الآن إلى مساهمين صغيرين (بل صغيرين جداً في الواقع) في الفرع البيروي لشركة أسيغورزيوني جنرالي. كيف سيكون ردّ فعلهما؟ هز إسماعيل كتفيه بازدراء: «سيكون سيئاً بالطبع. وماذا في ذلك؟». فليصرخوا. عملية البيع التزمت بكافة الاجراءات الرسمية الوطنية والأجنبية. وقد صادقتْ على نقل الملكية الأجهزة الإدارية في إيطاليا

والبيرو والولايات المتحدة. وتم تسديد الضرائب المترتبة حتى آخر سنت منها. كل شيء قانوني ونظامي.

ـ ما رأيك يا ريغوبيرتو؟ ـ أنهى إسماعيل كاريرا عرضه. وفتح ذراعيه مجدداً كأنه مهرج يحيي الجمهور وينتظر التصفيق ـ. هل ما أزال حياً وأتصرف كرجل أعمال أم لا؟

هز ريغوبيرتو رأسه موافقاً. كان مشوشاً لا يدري ما الذي يمكنه قوله. بينما صديقه ينظر إليه باسماً وراضياً عن نفسه.

ـ الحقيقة أنك لا تتوقف عن إثارة إعجابي يا إسماعيل ـ قال أخيراً ـ. إنك تعيش مرحلة شباب ثانية، هذا ما أراه. هل آرميدا هي من أعادت بعثك؟ مازال رأسي لا يتسع لمسألة أنك قد تخلصت بكل هذه السهولة من الشركة التي أسسها أبوك، وواصلت أنت ترسيخها باذلاً الدم والعرق والدموع على امتداد نصف قرن. قد يبدو لك كلامي سخيفاً، ولكنني أشعر بالحزن، كما لو أنني فقدتُ شيئاً يخصني. بينما أنت سعيد كمخمور!

ـ لم يكن الأمر سهلاً ـ صحح له إسماعيل مبدياً الجدّيّة ـ. خامرتني شكوك كثيرة في البدء. وقد أحزنني الأمر أيضاً. ولكنه الحلّ الأخير في ظل الوضع الذي صارت إليه الأمور. لو كان لي ورثة آخرون... ولكن، لماذا الحديث في أمور حزينة. أنت وأنا نعرف جيداً ما الذي كان سيحدث لو أن ابنيَّ ورثا الشركة. سيغرقانها قبل صياح الديك. وفي أحسن الحالات سيبيعانها بطريقة سيئة. بين أيدي الإيطاليين ستواصل الشركة وجودها وازدهارها. يمكن لك أن تتقاضى تقاعدك دون أية حسميات، بل مع مكافآت يا صديقي العجوز. لقد رتبتُ كل شيء.

بدا لريغوبيرتو أن ابتسامة صديقة تحولت إلى الكآبة. تنهد إسماعيل واجتاز عينيه ظل قاتم.

ـ ما الذي ستفعله بكل هذه النقود يا إسماعيل؟

ـ قضاء سنواتي الأخيرة بهدوء وسعادة ـ أجاب على الفور ـ. وآمل أن أقضيها معافى كذلك. أستمتع قليلاً بالحياة إلى جانب زوجتي. فالوصول متأخراً أفضل من عدم الوصول يا ريغوبيرتو. أنت تعرف أكثر من أي شخص آخر أنني لم أعش، حتى الآن، إلا من أجل العمل.

ـ إنها فلسفة جيدة، فلسفة اللذة يا إسماعيل ـ وافقه ريغوبيرتو ـ. إنه مذهبي فوق ذلك. لم أستطع تطبيقه إلا جزئياً حتى الآن في حياتي. لكنني آمل أن أجاريك حين يتركني التوءمان بسلام ونستطيع، أنا ولوكريثيا، القيام برحلتنا التي خططنا لها إلى أوروبا. لقد أصيبت لوكريثيا بخيبة أمل حين اضطررنا إلى إلغاء خططنا بسبب دعاوى ابنيك.

ـ غداً سأتولى هذا الأمر، مثلما قلت لك. إنه أول بند في مفكرتي يا ريغوبيرتو ـ قال إسماعيل وهو ينهض واقفاً ـ. سأتصل بك بعد الانتهاء من الاجتماع في مكتب المحامي أرينييّاس. ولنر إن كنا نحدد يوماً لتناول الطعام معاً، ومعنا آرميدا ولوكريثيا.

بينما هو في طريق العودة إلى بيته، مستنداً إلى مقود السيارة، كانت كل أنواع الأفكار تفور مختلطة في ذهن دون ريغوبيرتو مثل مياه نافورة. كم من الأموال حصل عليها إسماعيل من بيع أسهمه؟ ملايين كثيرة. ثروة على أي حال. ومهما كانت أعمال الشركة سيئة في الأزمنة الأخيرة، إلا أنها تظل مؤسسة قوية، ذات محفظة عظيمة، وسمعة من الطراز الأول، في البيرو وفي الخارج. ومن الصحيح فعلاً أن شخصاً ثمانينياً مثل إسماعيل لم يعد قادراً على تحمل مسؤوليات الأعمال. لقد وضع رأس ماله في استثمارات آمنة، سندات خزينة، صناديق تقاعد، مؤسسات في أفضل الجِنان الضريبية المعتمدة. إمارة

ليختنشتاين، أو جزيرة غيرنزي أو جزيرة جيرسي. وربما سنغافورا أو دبي. الفوائد وحدها تكفيه هو وآرميدا لأن يعيشا كملكين في أي مكان من العالم. ما الذي سيفعله التوءمان؟ الصراع مع المالكين الجدد؟ إنهما معتوهان إلى حدّ لا يمكن معه استبعاد ذلك. سيتم سحقهما كصرصارين. لقد حان الوقت. لا، ربما سيحاولان قضم بعض النقود من ثمن البيع. لابد أن إسماعيل يحتفظ بالنقود في مكان آمن. ولا شك في أنهما سيُذعنان إذا ما لان أبوهما وألقى إليهما ببعض الفتات كي يتوقفا عن الإزعاج. عندئذ سيجري كل شيء على ما يرام. وربما يتم ذلك بأسرع ما يمكن. فهكذا سيتمكن من تجسيد خططه بتقاعد ممتع، غني بالملذات المادية والفكرية والفنية.

ولكنه لا يستطيع، في دخيلة نفسه، الاقتناع بأن كل شيء سيخرج على ما يرام لإسماعيل. فالشك يخامره في أن الأمور ستزداد تعقيداً بدلاً من تسويتها، وأنه بدل الإفلات من العقيدات الشرطية والقضائية التي احتجزه فيها ميكي وإسكوبيتا، سيجد نفسه عالقاً أكثر فأكثر حتى آخر أيام حياته. أم أن سبب هذا التشاؤم هو عودة ظهور إدلبيرتو توريس المفاجئة في حياة فونتشيتو؟

ما إن وصل إلى بيته في حي بارانكو حتى قدم تقريراً مفصلاً لزوجته عن آخر الأحداث. يجب عدم القلق لبيع شركة التأمين إلى شركة تأمين إيطالية، لأنه يمكن لهذا التحول، في ما يتعلق بهما، أن يساعد في حلّ الأمور، إذا ما أقدم إسماعيل، بالاتفاق مع المالكين الجدد، على تهدئة التوأمين ببعض النقود لكي يتركا ريغوبيرتو وزوجته بسلام. ما أثر في لوكريثيا أكثر هو معرفتها أن آرميدا قد رجعت من رحلة زفافها وقد تحولت إلى سيدة اجتماعية، أنيقة، وراقية. «سأتصل بها لتهنئتها بالعودة وترتيب موعد غداء أو عشاء بأسرع وقت يا حبي. أكاد أموت

تلهفاً لرؤيتها متحولة إلى سيدة راقية».

اعتكف ريغوبيرتو في مكتبه ليراجع على كمبيوتره كل ما هو موجود حول شركة أسيغورزيوني جنرالي ش.م. بالفعل، إنها أكبر شركة تأمين في إيطاليا. وقد كان هو نفسه على اتصال بها، وبشركات تابعة لها، في عدة مناسبات. لقد توسعت كثيراً خلال السنوات الأخيرة في شرق أوروبا، وفي الشرقين الأوسط والأقصى، وبصورة محدودة أكثر في أميركا اللاتينية، حيث تتركز عملياتها في بنما. إنها فرصة جيدة للشركة من أجل الدخول إلى أميركا الجنوبية مستخدمة البيرو كمنصة. فالبلاد تمضي الآن على ما يرام، بقوانين مستقرة واستثمارات متنامية.

كان غارقاً في هذه الأبحاث حين سمع وصول فونتشيتو عائداً من المدرسة. أغلق الكمبيوتر وانتظر بفارغ الصبر مجيء ابنه ليحييه تحية المساء. حين دخل الصبي إلى المكتب واقترب منه ليقبله، بينما لا تزال حقيبة مدرسة ماركهام معلقة على كتفيه، قرر ريغوبيرتو أن يدخل في الموضوع مباشرة.

ـ لقد عاد إديلبيرتو توريس إلى الظهور إذاً ـ قال له متضايقاً ـ. ظننت أننا قد تحررنا منه إلى الأبد يا فونتشيتو.

ـ وأنا أيضاً يا بابا ـ ردّ ابنه بصراحة مثيرة للذعر. نزع الحقيبة عن ظهره ووضعها على الأرض، ثم جلس قبالة منضدة مكتب أبيه ـ لقد جرت بيننا محادثة قصيرة جداً. ألم تخبرك خالتي؟ الوقت الذي احتاجته الحافلة للوصول إلى ميرافلوريس. فقد نزل عند الطريق المحوري، بجانب الحديقة. ألم تخبرك؟

ـ بلى، أخبرتني طبعاً، ولكنني أحب أن تخبرني أنت أيضاً ـ لاحظَ أن هنالك لطخات حبر على أصابع فونتشيتو، وأن ربطة عنقه مفلتة ـ ماذا قال لك؟ عمَّ تحدثتما؟

ـ عن الشيطان ـ ضحك فونتشيتو ـ. أجل، أجل، لا تضحك. إنها الحقيقة يا بابا. وفي هذه المرة لم يبكِ لحسن الحظ. قلت له إنك أنت وخالتي تظنون أنه الشيطان شخصياً.

كان يتكلم بتلقائية شديدة الوضوح، وكان فيه شيء هادئ وحقيقي جعل ريغوبيرتو يفكر، كيف يمكن عدم تصديقه.

ـ أمازالا يؤمنان بالشيطان حتى الآن؟ ـ فوجئ إديلبيرتو توريس. وكان يتوجه إليه بصوت خافت ـ يبدو لي أنه لم يعد هناك أناس كثيرون يؤمنون بوجود هذا السيد في أيامنا. هل أخبرك أبواك لماذا لديهما مثل هذه الفكرة البائسة عني؟

ـ بسبب أنك تظهر وتختفي بصورة غامضة جداً أيها السيد ـ أوضح فونتشيتو وهو يخفض صوته أيضاً، لأن الموضوع استحوذ كما يبدو على اهتمام ركاب الحافلة الصغيرة الآخرين الذين راحوا يراقبونهما بطرف أعينهم خفية ـ. يجب ألا أخوض في هذا الحديث معك. فقد أخبرتك بأنهما حظرا عليّ ذلك.

ـ قل لهما على لساني أن ينزعا عنهما هذه المخاوف، وأنه يمكن لهما أن يناما مطمئنين جداً ـ أكد إديلبيرتو توريس بصوت يكاد لا يُسمع ـ. لستُ الشيطان ولا أي شيء شبيه بذلك، وإنما أنا شخص عادي، مثلك ومثلهما. ومثل جميع الأشخاص في هذه الحافلة. أضف إلى ذلك أنك مخطئ، فأنا لا أظهر وأختفي بصورة إعجازية. فلقاءاتنا تحدث دون ترتيب. بمحض الصدفة.

ـ سأكلمك بكل صراحة يا فونتشيتو ـ ظل ريغوبيرتو ينظر مطولاً إلى عيني الصبي الذي تحمَّل نظراته دون أن يرمش ـ. أرغب في أن أصدقك. أعرف أنك لست كاذباً، وأنك لم تكن كذلك قطّ. أعرف جيداً أنك كنت تقول لي الحقيقة على الدوام، حتى لو كانت تضر بك. ولكن

في هذه الحالة، أعني في حالة إديلبيرتو توريس اللعينة...

ـ لماذا هي لعينة يا بابا؟ ـ قاطعه فونتشيتو ـ. ما الذي فعله لك هذا الرجل حتى تقول عنه مثل هذه الكلمة الرهيبة؟

ـ ماذا فعل لي؟ ـ هتف دون ريغوبيرتو ـ. لقد توصل لدفعي إلى الشك بابني لأول مرة في حياتي، وإلى أنني غير قادر على الاعتقاد بأنك مازلت تقول لي الحقيقة. هل تفهمني يا فونتشيتو؟ هكذا هو الأمر. في كل مرة أسمعك تحدثني عن لقاءاتك مع إديلبيرتو توريس، لا أستطيع أن أصدق أن ما تقوله صحيح، مهما بذلتُ من جهد لإقناع نفسي بأنه كذلك. ليس هذا تأنيباً، حاول أن تفهمني. هذا هو ما يحدث لي الآن معك، وهو يحزنني... يُحبطني كثيراً. انتظر، انتظر، دعني أكمل. أنا لا أقول إنك تريد أن تكذب عليّ، وأن تخدعني. أعرف أنك لن تفعل ذلك أبداً. لا، لن تفعل ذلك، على الأقل بصورة قصدية ومتعمدة. ولكنني أرجوك أن تفكر لحظة في ما سأقوله بكل المحبة التي أكنّها لك. فكر في الأمر. ألا يمكن أن يكون هذا الذي ترويه لي وللوكريثيا عن إديلبيرتو توريس مجرد تخيل.. نوع من حلم اليقظة يا فونتشيتو؟ هذه أمور تحدث للناس أحياناً.

صمت لأنه رأى شحوب ابنه. وأن وجهه قد اكتسى بكآبة كاسحة. أحس ريغوبيرتو بتأنيب الضمير.

ـ هذا يعني أنني صرت مجنوناً وأرى رُؤى.. أشياء لا وجود لها. أهذا ما تقوله لي يا بابا؟

ـ لم أقل إنك مجنون، لا طبعاً ـ هتف ريغوبيرتو ـ. لم يخطر ذلك ببالي. ولكن ليس من المستحيل يا فونتشيتو أن يكون ذلك الشخص مجرد فكرة ثابتة متسلطة على العقل، مجرد كابوس تراه وأنت مستيقظ. لا تنظر إليّ بهذه الطريقة الساخرة. أؤكد لك أن ما أقوله

ممكن. وسأخبرك السبب. في الحياة الواقعية، في العالم الذي نعيش فيه، لا يمكن حدوث أن يظهر لك شخص هكذا، فجأة، في أمكنة متفرقة ومختلفة، في ملعب كرة القدم بمدرستك، في دورة المياه بصالةٍ للرقص، في حافلة ليما- تشوريّوس. وأن يكون هذا الشخص عارفاً كل شيء عنك، وعن أسرتك، ما تفعله وما لا تفعله. هذا غير ممكن، أليس كذلك؟

ـ ماذا سأفعل إذا كنت لا تصدقني يا بابا ـ قال الصبي بتأثر وأسى ـ. وأنا أيضاً لا أريد أن أسبب لك الحزن. ولكن كيف سأوافقك الرأي في أنني مُهلّس؟ أنا متأكد من أن السيد توريس من لحم وعظم وليس شبحاً. سيكون من الأفضل ألا أحدثك عنه بعد اليوم.

ـ لا، لا يا فونتشيتو، أريد منك أن تُبقيني على اطلاع حول هذه اللقاءات ـ ألح ريغوبيرتو ـ. على الرغم من أنني أجد صعوبة في تقبّل ما تقوله عنه، إنني واثق من أنك تعتقد بأنك تخبرني بالحقيقة. كن على ثقة من هذا. وإذا كنت تكذب عليّ، فإنك تفعل دون رغبة منك ودون أن تنتبه إلى ذلك. حسن، لديك واجبات مدرسية عليك إنجازها، أليس كذلك؟ اذهب لإنجازها إذاً، سنواصل الحديث في ما بعد.

التقط فونتشيتو حقيبته المدرسية عن الأرض وخطا خطوتين نحو باب حجرة المكتب. ولكنه قبل أن يفتحه، وكما لو أنه تذكر شيئاً، التفت نحو أبيه:

ـ أنت لديك فكرة بالغة السوء عنه، بينما لدى السيد توريس بالمقابل فكرة طيبة جداً عنك يا بابا.

ـ لماذا تقول هذا يا فونتشيتو؟

ـ لأنني أظن أني عرفت أن أباك لديه مشاكل مع الشرطة، ومع العدالة، أنت على علم بها ـ قال إديلبيرتو توريس على سبيل الوداع،

بعد أن كان قد أشار إلى السائق أنه سينزل في الموقف التالي ـ. أنا واثق من أن ريغوبيرتو رجل نظيف ومتأكد من أن ما يحدث له فيه إجحاف كبير. إذا كان بإمكاني عمل أي شيء من أجله، فسوف أكون سعيداً بمد يد المساعدة إليه. انقل إليه هذا عني يا فونتشيتو.

لم يدرِ دون ريغوبيرتو كيف يرد. كان يتأمل، بصمت، الصبي الذي مازال هناك ينظر إليه بهدوء وينتظر ردّ فعله.

ـ أقال لك هذا؟ ـ تلعثم بعد لحظات ـ. هذا يعني أنه أرسل إليّ رسالة. وأنه على علم بورطاتي القضائية ويريد مساعدتي. أليس كذلك؟

ـ هكذا بالضبط يا بابا. وها أنت ترى كيف أن لديه رأي طيب فيك.

ـ قل له إنني موافق؛ وبكل سعادة على قبول مساعدته ـ استعاد ريغوبيرتو أخيراً السيطرة على نفسه ـ بكل تأكيد. حين يظهر لك في المرة القادمة، قدم إليه شكري وقل له إنه يسعدني تبادل الحديث معه. حيث يشاء. وليتصل بي هاتفياً. ربما لديه طريقة لمد يد المساعدة إليّ، في ساعة طيبة. فأكثر ما أرغب فيه هو رؤية إديلبيرتو توريس شخصاً والتحدث إليه يا بني.

ـ أوكي يا بابا، سأخبره إذا ما رأيته مجدداً. أعدك بذلك. وسوف ترى أنه ليس روحاً وإنما هو لحم وعظم. سأذهب الآن لإنجاز واجباتي المدرسية، لدي واجبات كثيرة جداً.

حين خرج فونتشيتو من المكتب، حاول ريغوبيرتو أن يفتح الكمبيوتر من جديد، ولكنه أعاد إغلاقه على الفور. لقد فقد أدنى اهتمام بشركة أسيغورزيوني جنرالي ش.م. وبعمليات إسماعيل المالية الأفعوانية. أيمكن أن يكون إديلبيرتو توريس قد قال ذلك لفونتشيتو؟ أيمكن أن يكون مطلعاً على ورطاته القضائية؟ غير ممكن بالطبع. لقد نصب له هذا الصبي فخاً جديداً هذه المرة، وها هو يقع فيه كأبله. وماذا لو حدد له

إديلبيرتو توريس موعداً؟ وفكر: «سأعود عندئذ إلى الدين، سأتحول وأدخل دير رهبان كرتوزيين طوال ما تبقى من حياتي». ضحك وهو يدمدم بين أسنانه: «يا للضجر اللامتناهي. كم من أقيانوسات البلاهة في هذا العالم».

نهض وذهب ليلقي نظرة على أقرب رفٍّ إليه، حيث توجد كتب وكتالوغات الفن المفضلة لديه. وبينما هو يتفحصها راح يتذكر المعارض التي اشتراها منها. نيويورك، باريس، مدريد، ميلان، مكسيكو. كم هو شاق تبديد الوقت في اللقاء مع محامين وقضاة والتفكير في هذين الأميين الوظيفيين، التوءمين، بدل الغوص صباحاً ومساء في هذه الملذات واللوحات والتصاميم، والاستماع إلى موسيقى جيدة، والتخييل معها، والسفر في الزمن، وعيش مغامرات استثنائية، والانفعال، الحزن، الاستمتاع، البكاء، التحمُّس والتهيُّج. وفكر: «بفضل ديلاكروا شهدتُ موت ساردنبال محاطاً بنساء عاريات، وبفضل جورج كروستس الشاب ذبحتهن في برلين وألوط بهن في الوقت نفسه بعضو ذكري ضخم. وبفضل بوتشيلي كنتُ سيدة من عصر النهضة. وبفضل غويا كنت مسخاً شهوانياً يلتهم أبناءه بدءاً من ربلات سيقانهم. وبفضل أوبري بياردسلي كنت حلقة مع وردة في المؤخرة. وبفضل بيات موندريان كنت مثلثاً متساوي الساقين».

بدأ يستمتع، ولكن دون أن يعي ذلك تماماً بعد، ها قد وجدت يداه ما كان يبحث عنه، بدأ تفحص الرفّ: كاتالوغ المعرض الاستعادي الذي أقامته الأكاديمية الملكية تكريماً لتمارا دي ليمبيكا من أيار/مايو حتى آب/أغسطس 2004 وزاره هو شخصياً في المرة الأخيرة التي ذهب فيها إلى إنكلترا. وهناك، بين ساقي بنطاله، أحس ببداية دغدغة واعدة في حميمية خصيتيه، بينما هو يتأثر ويمتلئ في الوقت

نفسه بالحنين والامتنان. الآن، إضافة إلى الدغدغات، أحس بحرقة خفيفة في مقدمة عضوه. اتجه والكتاب بين يديه ليستقر على أريكة القراءة وأضاء المصباح الذي يتيح له نوره أن يستمتع بكل تفاصيل صور اللوحات. وكانت عدسة التكبير في متناول يده. أيكون صحيحاً أن رماد الفنانة البولونية- الروسية تمارا دي ليمبيكا قد نُثر من طائرة هيلوكبتر، وفق رغباتها الأخيرة، بواسطة ابنتها كيزيت، على فوهة ذلك البركان المكسيكي، بركان بوبوكاتيبتل؟ إنها طريقة أولمبية، كارثية، عظيمة لوداع هذا العالم من قبل تلك المرأة التي لم تكن تتقن الرسم وحسب وإنما الاستمتاع أيضاً، مثلما تشهد لوحاتها، إنها فنانة تبثُ أصابعها شبقاً مهيجاً ـ وجليدياً في الوقت نفسه ـ في لوحات الأجساد العارية المطواعة، المتلوية، البصلية، المنعمة التي تمر تحت عينيه: ***روثم، رافائلا الجميلة، ميروت، المودبل، السلافية***. لوحاته الخمس المفضلة. من قال إن الآرت ديكو والأيروسية لا يلتقيان؟ في سنوات العشرينات والثلاثينات عَمَدَت الروسية- البولونية ذات الحاجبين المنتوفين والعينين المتأججتين والنهمتين والفم الحسي واليدين الغليظتين، إلى ملء لوحاتها بشهوانية زخمة، جليدية في المظهر فقط، لأن مخيلةَ وحساسيةَ مُشاهدٍ مُتنبه تلاشي جمود اللوحة النحتي، وتدب الحيوية في الشخصيات، فتختلط، وتتزاحم، وتتبادل المداعبة، وتلتحم، وتتحابب، وتستمتع بفجور كامل. إنه جميل، بديع، ومثير مشهد أولئك النساء اللاتي رسمتهن تمارا دي ليمبيكا أو اختلقتهن في باريس، وميلان، ونيويورك وهوليوود، ثم في عزلتها الأخيرة في كويرناباكا. منفوخات، لحميات، ممتلئات، أنيقات، يعرضن بفخر سرُرهن المثلثة التي لا بد أن تمارا تشعر نحوها بتفضيل خاص، كذلك الإلهام الذي توحي لها به الأفخاذ الوافرة، الغضة،

للأرستقراطيات الماجنات اللواتي تعريهن كي تُلبسهن الشبق والمجون الجسدي. «هي من منحت جدارة وسمعة حسنة للسحاق ولأسلوب «الغارسون»، وجعلتهما مقبولين وراقيين بعرضهما في الصالونات الباريسية والنيويوركية»، وفكّر. «لا أستغرب أبداً أن ينتصب من أجلها العضو المجنون لغابريلي دي أنونزيو ويحاول اغتصابها في بيته بفيتوريالي، في بحيرة غاردا، حيث أخذها بذريعة رسم صورة له، ولكنه في أعماقه كان مجنوناً بالرغبة في مضاجعتها. هل تراها ستهرب عبر إحدى النوافذ؟». كان يقلب صفحات الكتاب ببطء، متمهلاً قليلاً عند الأرستقراطيين المتكلفين ذوي الآذان الزرقاء المتدرنة، ومتوقفاً عند الشخصيات الأنثوية البديعة، ذوات العيون الناتئة، الناعسة، والشعور المكبسة كأنها قلنسوات والأظفار القرمزية، والنهود المنتصبة والأرداف المهيبة، اللاتي يظهرن على الدوام تقريباً متلويات مثل قطط في نزوتها. ظلَ لوقت طويل مستغرقاً في الوهم، يشعر بعودة فيض تلك الرغبة التي تلاشت منذ أيام عديدة وأسابيع، مذ بدأت هذه المشاكل السوقية مع الضبعين. كان منتشياً بجمال أولئك السيدات المزدانات بأثواب شفافة وواسعة فتحة الصدر، مع مجوهرات زاهية البريق، وجميعهن تستحوذ عليهن رغبة عميقة تصارع للخروج عبر بريق عيونهن الكبيرة. فكر: «انتقالٌ من الآرت ديكو إلى التجريد، يا له من جنون يا تمارا». على الرغم من أن لوحات تمارا دي ليمبيكا تعكس أيضاً حسية سرية غامضة. وبتأثر وسعادة، أحس بحركة خفيفة في أسفل بطنه، إشارة إلى بداية انتصاب.

وفي تلك اللحظة، عاد إلى الواقع الدنيوي، ورأى أن دونيا لوكريثيا قد دخلت إلى حجرة المكتب دون أن يشعر بأنها فتحت الباب. ماذا حدث؟ إنها تقف بجانبه، بعينين مضمختين وشفتين منفرجتين

ومرتعشتين. تحاول أن تتكلم واللسان لا يطاوعها، لا تخرج منها كلمات وإنما لعثمات غير مفهومة.

ـ أي خبر سيئ لديك يا لوكريثيا؟ ـ سأل مرعوباً وهو يفكر بإديلبيرتو توريس، بفونتشيتو ـ. مرة أخرى؟

ـ لقد اتصلتْ آرميدا باكية كمجنونة ـ أجهشت دونيا لوكريثيا ـ. بعد وداعك إسماعيل ومغادرتك بيته، أغمي عليه في الحديقة. نقلوه إلى المستشفى الأمريكي. وقد توفى للتو يا ريغوبيرتو! أجل، أجل، لقد مات للتو!

XV

ـ ماذا جرى يا فيليثيتو ـ كررت التقية وهي تنحني باتجاهه وتهوي بمروحة يدوية من القش، عتيقة ومثقوبة ـ ألا تشعر بأنك على ما يرام؟

كان صاحب شركة النقل يرى القلق الذي تشي به عينا آديلايدا الكبيرتين، ووسط ضبابية رأسه، خطر له أن يفكر بأنه لا بد لها، باعتبارها عرافة، من أن تعرف جيداً ما جرى له. لكنه لم يجد القوة ليرد عليها؛ كان دائخاً ويشعر بأنه سيغيب عن الوعي في أية لحظة. لم يهتم. الاستغراق في نوم عميق، نسيان كل شيء، عدم التفكير: يا للروعة. فكر بتشوش في طلب عون السيد الكاوتيفو دي اياباكا الذي تؤمن خيرترووديس بقدراته. ولكنه لم يعرف كيف يفعل ذلك.

ـ أتريد أن أحضر لك كأس ماء بارد خارج للتو من حجر التقطير يا فيليثيتو؟

لماذا تكلمه آديلايدا بصوت مرتفع جداً، كما لو أنه قد أصيب بالصمم؟ وافق بهز رأسه ورأى ـ وهو ما يزال في ضبابيته ـ الخلاسية الملتفة بعباءتها التي بلون الطين تهرع راكضة بقدميها الحافيتين إلى عمق دكان الأعشاب والقديسين. أطبق عينيه وفكر: «عليك أن تكون قوياً يا فيليثيتو. لا يمكنك أن تموت الآن يا فيليثيتو ياناكيه. يا للعنة يا رجل! يا للعنة!». كان يشعر بفمه جافاً وبقلبه يدفع بقوة كي يكبر أكثر وسط أربطة صدره وعظامه وعضلاته. ففكر: «إنه يكاد يخرج من

فمي». وانتبه على الفور إلى مدى دقة تلك العبارة. ليس الأمر مستحيلاً، تشي غو. فقلبه، هذا الحشي، يُدَوّي باندفاع شديد وبصورة غير منضبطة داخل قفصه الصدري، بحيث يمكن له أن يفلت فجأة، ويهرب من السجن الذي هو بدنه، ويصعد عبر الحنجرة ليخرج مقذوفاً إلى الخارج مع قيء مرارة ودم عظيم. سيرى قلبه الصغير يرتطم بالأرض الترابية في بيت التقية، مفلطحاً، ساكناً، عند قدميه، وربما محاطاً بصراصير متحركة لها لون الشوكولاته. وسيكون هذا هو آخر ما يتذكره من الحياة. وحين تنفتح عيون الروح، ستكون أمام الرب. أو ربما أمام الشيطان يا فيليثيتو.

ـ ما الذي يحدث؟ ـ سأل بقلق. لأنه ما إن رآهما حتى أدرك أن هنالك شيئاً خطيراً يحدث؛ وأن هذا هو السبب في استدعائه المتعجل إلى مفوضية الشرطة وسبب الملامح القلقة، والنظرات المتفلتة، وشبه الابتسامات الزائفة التي يبديها النقيب سيلفا والرقيب ليتوما. لقد أصاب البكم والتحجر الشرطيين حين رآياه يدخل إلى الحجرة الضيقة.

ـ ها هو يا فيليثيتو، إنه بارد. افتح فمك واشربه ببطء، في جرعات صغيرة يا باباثيتو. سترى كيف سيجعلك أفضل حالاً.

هز رأسه موافقاً، ودون أن يفتح عينيه، باعد ما بين شفتيه وتلقى، بإحساس بالراحة، السائل البارد الذي راحت آديلايدا تعطيه إياه في فمه، كما لطفل رضيع. بدا له أن الماء يطفئ لهيب حلقه ولسانه، وبالرغم من أنه لم يكن قادراً على الكلام ولا راغباً فيه، إلا أنه فكر: «شكراً آديلايدا». شبه الظلمة الهادئة التي تسود دكان التقية على الدوام هدأت أعصابه قليلاً.

ـ أمور مهمة يا صديقي ـ قال أخيراً النقيب سيلفا مبدياً الجدية وهو ينهض واقفاً ليصافحه في حركة انفتاح غير معهودة ـ. هلموا بنا لنتناول

قهوة في مكان أكثر برودة، في الجادة العريضة. هناك سنتبادل الحديث أفضل من هنا. فالحر في هذا الكهف خانق، ألا ترى ذلك يا دون فيليثيتو؟

وقبل أن يتاح له الوقت للرد، التقط المفوض قبعته عن المشجب، وتبعه لتوما الذي كان يبدو أشبه برجل آلي، يتفادى النظر إلى عينيه، واتجه نحو الباب. ما الذي أصابهما؟ ما هي الأمور المهمة؟ ما الذي حدث؟ أي ذبابة لسعت هذين الشرطيين؟

ـ هل تشعر بالتحسن يا فيليثيتو؟ سألته التقية.

ـ أجل ـ تمكن من التلعثم بصعوبة. يشعر بألم في لسانه وحلقه وأسنانه. ولكن كأس الماء البارد جعلته أحسن حالاً، أعادت إليه قليلاً من تلك الطاقة التي راحت تنسل خارجة من جسمه ـ شكراً يا آديلايدا.

ـ أخيراً، هيا، لحسن الحظ ـ هتفت الخلاسية وهي ترسم إشارة الصليب وتبتسم ـ يا للرعب الذي سببته لي يا فيليثيتو. كم أنت شاحب! آي، *تشي غوا!* حين رأيتك تدخل وتتهاوى على الكرسي الهزاز مثل كيس، كنتَ تبدو أشبه بجثة. ماذا أصابك، ومن مات لنا.

ـ إنك تسبب لي الجزع أيها النقيب بهذا الغموض كله ـ ألح فيليثيتو وقد بدأ يشعر بالخوف ـ. ما هي هذه الأمور الخطيرة إذا كان يمكن لي أن أعرف؟

ـ فنجان قهوة ثقيل جداً لي ـ أمرَ النقيبُ سيلفا النادل ـ. وقهوة مع قليل من الحليب للرقيب. وأنت يا دون فيليثيتو، ماذا ستشرب؟

ـ مياه غازية، كوكاكولا، كوكا إنكا، أي شيء ـ فقد صبره، وبدأ يضرب بقبضته على المنضدة ـ. حسن، فلنتحدث في الأمر مباشرة. إنني رجل قادر على تقبل الأخبار السيئة، لقد بدأت أعتاد على هذا الأمر.

أخبراني بالمشكلة دفعة واحدة.

ـ لقد حُلّتْ القضية. قال النقيب وهو ينظر إلى عينيه. ولكنه ينظر إليه بلا سعادة، بل هي نظرات حزن وأقرب إلى الشفقة. والمفاجئ في الأمر أنه صمتَ بدل أن يواصل الكلام.

ـ حُلّتْ القضية؟ ـ صاح فيليثيتو ـ أتعني أنكم قد أمسكتم بهم؟

رأى أن النقيب والرقيب يؤكدان ذلك بهز رأسيهما، بحرج شديد وبإبداء وقار مضحك. لماذا يتأملانه بهذه الطريقة الغريبة، كما لو أنه يوحي إليهما بالأسى؟ كان هناك صخب جهنمي في جادة سانتشيث سيرو، أناس يذهبون ويأتون، أبواق سيارات، صراخ، نباح ونهيق. يُسمع عزف موسيقى فالس، ولكن ليس للمغنية عذوبة صوت سيسيليا بارَّاسا، وإنما صوت عجوز مخمور.

ـ أتتذكرين المرة الأخيرة التي جئتُ فيها إلى هنا يا آديلايدا؟ ـ كان فيليثيتو يتكلم بصوت خافت، باحثاً عن الكلمات، خائفاً من أن يفقد صوته. وكان قد فتح أزرار الصديري وحلحل ربطة عنقه كي يتنفس بصورة أفضل ـ حين قرأتُ لكِ رسالة العنكبوت الأولى.

ـ أجل يا فيليثيتو، أتذكر ذلك جيداً ـ قالت التقية وهي تسبره بعينيها الهائلتين والقلقتين.

ـ وهل تتذكرين أنني حين بدأت أودعك، جاءك الوحي فجأة وطلبتِ مني أن أرضيهم، وأن أقدم لهم الإتاوة التي يطلبونها؟ هل تتذكرين هذا أيضاً يا آديلايدا؟

ـ أتذكره طبعاً يا فيليثيتو، بالتأكيد، كيف يمكن ألا أتذكره. ألن تقول لي أخيراً ما الذي جرى لك؟ لماذا أنت شاحب هكذا ودائخ؟

ـ لقد كنتِ محقة يا آديلايدا. مثلما يحدث على الدوام، أنت على حق. وكان من الأفضل لي أن أعمل بنصيحتك. لأن، لأن...

لم يستطع أن يكمل. فقد انقطع صوته وسط إجهاشة نحيب وانفجر في البكاء. لم يفعل ذلك منذ أزمنة بعيدة جداً، أمنذ ذلك اليوم الذي الذي مات فيه أبوه، في ذلك الركن الضيق والمظلم من قاعة الطوارئ في مستشفى بيورا العمالي؟ أو ربما منذ تلك الليلة التي نام فيها أول مرة مع مابيل؟ ولكن هذا الخيار الأخير لا ينفع لأنه كان بكاء سعادة يومذاك. أما الآن بالمقابل، فدموعه تسيل طيلة الوقت.

ـ لقد حُلَّ الأمر كله وسوف نشرح لك الآن يا دون فيليثيتو ـ تحمس النقيب أخيراً، مكرراً ما كان قد قاله من قبل ـ. أخشى كثيراً من أن ما ستسمعه لن يروق لك.

سوّى جلسته على المقعد وانتظر بكل حواسه المتأهبة. راوده إحساس بتلاشي الناس في البار الصغير، وبأن ضجة الشارع قد خمدت. شيء ما جعله يشك في أن ما سيأتي أسوأ من كل الكوارث التي تتوالى عليه منذ بعض الوقت. بدأت ساقاه ترتعشان.

ـ آديلايدا، آديلايدا ـ أنَّ بينما هو يمسح عينيه ـ كان لابد لي من أن أُفرِّج عن نفسي بطريقة ما. لم أستطع كبح دموعي. أقسم لك إن البكاء ليس عادتي، اعذريني.

ـ لا تقلق يا فيليثيتو ـ ابتسمت له التقية وهي تربت على يده بحنان ـ من المفيد لنا جميعاً أن نسكب بعض الدموع بين حين وآخر. أنا أيضاً يداهمني البكاء في بعض الأحيان.

ـ تكلم وحسب أيها النقيب، إنني مستعد ـ أكد صاحب شركة النقل ـ. تكلم بوضوح وقوة من فضلك.

ـ فلنمض بالتسلسل ـ تنحنح النقيب سيلفا لكسب الوقت؛ رفع فنجان القهوة إلى فمه، تناول رشفة منه ثم واصل:ـ من الأفضل أن تأخذ حضرتك باكتشاف المكيدة منذ البداية، مثلما اكتشفناها نحن. ما

اسم الحارس الذي كان يوفر الحماية للسيدة مابيل يا ليتوما؟

كانديلاريو بيلاندو، ثلاثة وعشرون عاماً، من مدينة تومبيس. انضم منذ سنتين إلى سلك الشرطة، وكانت هذه هي المرة الأولى التي ألبسه فيها رؤساؤه الملابس المدنية من أجل القيام بمهمة. حددوا له موقعاً قبالة بيت السيدة، في الشارع المسدود بحي كاستييّا المجاور للنهر ولمدرسة دون خوان بوسكو لرهبان طائفة الساليسيانيين، وأمروه بالانتباه كيلا يحدث شيء لسيدة البيت. وعليه أن ينجدها إذا تطلب الأمر، وأن يسجل ملاحظة عن كل من يأتون لزيارتها، وأن يتبعها دون إثارة الانتباه، ويسجل مع من تلتقي، ومن تزور، وما الذي تفعله أو تمتنع عن فعله. أعطوه سلاحه النظامي مع ذخيرة من عشرين طلقة، وآلة تصوير فوتوغرافي، ودفتر ملاحظات، وقلم رصاص، وهاتف خليوي لاستخدامه في حالات الضرورة القصوى فقط وليس للاتصالات الشخصية بأي حال.

ـ مابيل؟ ـ فتحت التقية عينيها شبه المجنونتين على اتساعهما ـ صديقتك؟ هي بالذات؟

هز فيليثيتو رأسه موافقاً. كانت كأس الماء فارغة، ولكنه لم ينتبه إلى ذلك كما يبدو، لأنه كان يواصل بين الفينة والفينة رفع الكأس إلى فمه وتحريك شفتيه وحنجرته كما لو أنه يبتلع جرعة ماء.

ـ هي نفسها يا آديلايدا ـ هز رأسه عدة مرات ـ مابيل، أجل. مازلتُ غير قادر على تصديق ذلك.

لقد كان شرطياً جيداً، ينجز مهمته بحذافيرها وبكل دقة. إنه يحب المهنة ويرفض حتى الآن قبول أية إكراميات. ولكنه كان متعباً جداً في تلك الليلة، فقد أمضى أربع عشرة ساعة في متابعة السيدة في الشارع ومراقبة بيتها، وما إن جلس في ذلك الركن الذي لا يصله

الضوء وأسند ظهره إلى الجدار، حتى غلبه النعاس ونام. لم يدر كم من الوقت؛ لا بد أنه وقت لا بأس به، لأنه عندما استيقظ متفاجئاً كان الصمت يخيم على الشارع الصغير، وكان الصبية الذين يلعبون بالدوامات قد اختفوا، وكانت البيوت قد أطفأت أنوارها وأقفلت أبوابها. حتى الكلاب كانت قد توقفت عن التراكض والنباح. بدا أن الجوار كله قد نام. نهض مذهولاً، واقترب ملتصقاً بالجدران من بيت السيدة. سمع أصواتاً. ألصق أذنه بإحدى النوافذ. بدا أنه جدال. لم يفهم كلمة واحدة مما كان يقال، ولكن لم يكن لديه شك بأن هنالك رجل وامرأة يتشاجران. هرع ليربض بجوار نافذة أخرى، واستطاع من هناك أن يسمع بصورة أفضل. كانا يتبادلان السُّباب بتجريح، ولكن دون الوصول إلى الضرب، ليس بعد. صمتٌ طويل فقط، وبعد ذلك أصوات أكثر ليناً. يمكن القول إن المرأة كانت تتساهل. إنها تتلقى زيارة كما يبدو، والزائر يضاجعها. عرف كانديلاريو بيلاندو على الفور أن ذلك الشخص ليس السيد فيليثيو ياناكيه. أهنالك عشيق آخر إذاً للسيدة؟ ساد البيت أخيراً صمت تام.

انسحب كانديلاريو إلى الناصية حيث كان قد غفا من قبل. عاد للجلوس وأشعل سيجارة، أسند ظهره إلى الجدار وراح ينتظر. لم ينم هذه المرة ولم يهمل المراقبة. كان واثقاً من أن الزائر سيظهر في أي لحظة. وبالفعل، لقد خرج بعد انتظار لا بأس به، وكان يتخذ احتياطات تفضحه: يفتح الباب قليلاً، يطل برأسه فقط، وينظر إلى اليمين وإلى اليسار. وحين اعتقد أنه لا يمكن لأحد أن يراه، خرج ماشياً. رآه كانديلاريو بكامل قامته وتأكد من خلال هيئته وحركاته أنه لا يمكن أن يكون العجوز شبه القزم صاحب شركة ناريهوالا للنقل. فهذا رجل شاب. لم يستطع تمييز وجهه، بسبب الظلمة.

حين رآه يبتعد باتجاه الجسر المعلق، لحق به. كان يمشي ببطء، محاولاً عدم الظهور، وعلى مسافة بعيدة بعض الشيء، ولكن دون أن يغيب عن نظره. اقترب منه قليلاً بعد اجتياز الجسر المعلق لأنه كان هناك بعض الساهرين الذين يمكن له أن يختفي بينهم. رآه يسلك أحد الدروب المؤدية إلى ساحة السلاح ويختفي في بار فندق لوس بورتالس. انتظر هنيهة ودخل أيضاً. وجده جالساً إلى منضدة الكونتوار ـ إنه شاب، أبيض، ناضج، له خصلة شعر منتصبة على طريقة الفيس بريسلي ـ وكان يشرب مباشرة من زجاجة خمر بيسكو. عندئذ عرفه. إذ كان قد رآه عندما حضر إلى مفوضية الشرطة في شارع سانتشيث سيرو لتقديم أقواله.

ـ هل أنت متأكد من أنه هو يا كانديلاريو؟ سأله الرقيب ليتوما وهو يبدي وجهاً بملامح متشككة.

ـ إنه ميغيل، وبكل تأكيد ـ قال النقيب سيلفا بجفاء وهو يرفع من جديد فنجان القهوة إلى فمه. بدا متضايقاً جداً من قول ما قاله له ـ. أجل يا سيد ياناكيه. مع أسفي الشديد. ولكنه ميغيل.

ـ ابني ميغيل؟ ـ كرر صاحب شركة النقل بسرعة كبيرة، وكان يرمش دون توقف، ويهز إحدى يديه؛ وشحب وجهه بصورة مفاجئة ـ في منتصف الليل؟ حيث تقيم مابيل؟

ـ كانا في ذروة نزاع يا حضرة الرقيب ـ أوضح الشرطي كانديلاريو بيلاندو للرقيب ليتوما ـ كانا يتشاجران حقاً، مع شتائم مثل عاهرة، ويابن العاهرة وما هو أسوأ. وبعد ذلك ساد صمت طويل. فتخيلتُ عندئذ ما تتخيله أنت الآن: جاءت المصالحة واندسا في الفراش. وما الذي سيفعلانه سوى المضاجعة؟ هذا الأمر الأخير لم أسمعه ولم أره. إنه فرضية.

ـ من الأفضل ألا تروي لي هذه الأمور ـ قالت آديلايدا متململة وهي تخفض بصرها. كانت رموشها طويلة وحريرية، وقد حزنت. ربتت بيدها بحنان على ركبة صاحب شركة النقل ـ اللهم إلا إذا كنت ستشعر بالراحة إذا ما رويت لي ذلك. افعل ما تفضله يا فيليثيتو. قل ما تشاء. فلسبب ما أنا صديقتك، تشي غوا.

ـ فرضية تكشف أن ذهنك متعفن جداً يا كانديلاريو ـ ابتسم له ليتوما ـ لا بأس يا فتى. لقد نجحت. فمادامت هنالك مؤخرات فسوف تروق قصتك للنقيب.

ـ كان هذا طرف الخيط أخيراً. وبدأنا نشده ونفك الكبة. لقد شممتُ شيئاً منذ الاستجواب بعد عملية الاختطاف. لقد وقعتْ مابيل في تناقضات كثيرة، فهي لا تتقن التصنع. هكذا هو الأمر يا سيد ياناكيه ـ أضاف المفوض ـ لا تظن أن ذلك كان سهلاً بالنسبة لنا. أعني إطلاعك على هذا الخبر الرهيب. أعرف أن وقعه عليك أشبه بطعنة في الظهر. ولكن هذا واجبنا، وستعذرني حضرتك.

صمت لأن صاحب شركة النقل رفع يده، بقبضة منكمشة.

ـ ألا يوجد احتمال خطأ؟ ـ دمدم الآن بصوت أجش ومتضرع قليلاً ـ ولا احتمال واحد؟

ـ لا وجود لأي احتمال ـ أكد النقيب سيلفا دون رحمة ـ الأمر مؤكد ومثبت إلى حدّ الإنهاك. السيدة مابيل وابنك ميغيل يخدعانك منذ زمن طويل أيها السيد. ومن هنا تبدأ قصة العنكبوت. إننا متأسفون من أعماق روحنا يا سيد ياناكيه.

ـ الذنب يتحمله ابنك ميغيل أكثر من السيدة مابيل ـ دس ليتوما أنفه، ثم اعتذر على الفور:ـ المعذرة، لم أشأ المقاطعة.

لم يعد يبدو أن فيليثيتو ياناكيه يسمع شيئاً مما يقوله الشرطيان. فقد

ازدادت حدّة شحوبه؛ وراح ينظر إلى الفراغ كما لو أنه تجسد شبحاً. وكان طرف ذقنه يرتعش.

ـ أعرف جيداً ما الذي تشعر به يا فيليثيتو وأشعر بالحزن من أجلك ـ كانت التقية قد وضعت يدها على صدرها ـ أجل، معك حق. الفضفضة ستريحك. ومن هنا لن يخرج أي شيء مما ترويه لي يا باباثيتو، وأنت تعرف ذلك.

ضرب فيليثيتو على صدره وفكر: «يا للأمر الغريب، رنّ كفارغ». وأحس بالخجل لأن عينيه تمتلئان بالدموع مجدداً.

ـ إنه هو العنكبوت ـ أكدّ النقيب سيلفا بحزم ـ. إنه ابنك، الأبيض. ميغيل. ويبدو أنه لم يُقدِم على فعل ذلك من أجل المال فقط، وإنما من أجل شيء أكثر إلتواء. وربما...ربما لهذا السبب نفسه أحب مابيل. لديه شيء شخصي ضدك. حقد، ضغينة... هذه الأمور المعقدة التي تسمم أرواح الناس.

ـ لأنك أجبرته على أداء الخدمة العسكرية كما يبدو ـ عاد ليتوما للتدخل. وقد اعتذر في هذه المرة أيضاً: ـ المعذرة. هذا ما جعلنا هو نفسه نفهمه منه على الأقل.

ـ هل تسمع ما نقوله لك يا دون فيليثيتو؟ ـ انحنى النقيب باتجاه صاحب شركة النقل. أمسك به من ذراعه: ـ هل تشعر بالتوعك؟

ـ أشعر بأنني على ما يرام ـ أبدى صاحب شركة النقل ابتسامة مغتصبة. كانت شفتاه ترتعشان، وكذلك فتحتي أنفه. ويداه اللتان تمسكان بزجاجة الإنكا كولا الفارغة. كانت دائرة صفراء تحيط ببياض عينيه وكان صوته خيطاً نحيلاً ـ واصل أيها النقيب. ولكن، المعذرة، أرغب في معرفة أمر محدد إذا كان ممكناً. هل تيبورثيو، ابني الآخر، متورط أيضاً؟

ـ لا شيء من هذا، ميغيل وحده فقط ـ حاول النقيب تشجيعه ـ. أؤكد لك بصورة جازمة. يمكنك أن تكوم مطمئناً من هذه الناحية يا سيد ياناكيه. تيبورثيو غير متورط في المسألة وليس على علم بكلمة واحدة في هذه القضية. وعندما سيعلم سوف يفاجأ مثلما فوجئت حضرتك.

ـ لكل هذا الرعب جانبه الطيب يا آديلايدا ـ زمجر صاحب شركة النقل بعد صمت طويل ـ حتى لو لم تصدقي، هنالك جانب طيب.

ـ أصدق هذا يا فيليثيتو ـ قالت التقية وهي تفتح فمها كثيراً كاشفة عن لسانها ـ هكذا هي الحياة دوماً. الأمور الطيبة لها جانبها الخبيث دوماً، وللأمور الخبيثة جانبها الطيب. ما هو الجانب الطيب في هذه الحالة؟

ـ لقد توصلتُ إلى حلٍّ لشكوكٍ كانت تنهش روحي مذ تزوجتُ يا آديلايدا ـ دمدم فيليثيتو ياناكيه. بدا في تلك اللحظة كما لو أنه قد تعافى: لقد استعاد صوته، ألوانه، وشيء من الثقة بالنفس أثناء الكلام ـ. توصلتُ إلى أن ميغيل ليس ابني. وأنه لم يكن ابني قطّ. لقد أجبرتني خيرترورديس وأمها على الزواج بالقوة، بقصة الحَبَل. صحيح أنها كانت حبلى. ولكن ليس مني، بل من شخص آخر. وهو ابنه إذاً. لقد ألصقوا بي ابناً لزوجتي على أنه ابني، وهكذا نجت خيرترورديس من عار أن تكون أماً عازبة. كيف يمكن أن يكون ابناً لي ذلك الأبيض ذو العينين الزرقاوين، هل لكِ أن تخبرينني؟ لقد كنت في شك على الدوام من أن هناك قطّاً مخبأ في هذه المسألة. والآن، توصلتُ أخيراً إلى الحقيقة الجلية، وإن متأخراً. إنه ليس ابني، ولا تسري دمائي في عروقه. فلو كان ابني ومن دمي لما فعل بأي حال ما فعله بي. أترين؟ أتلاحظين يا آديلايدا؟

ـ أرى ذلك يا باباثيتو، وألاحظه ـ وافقته التقية ـ. أعطني كأسك

هذه، سأملؤها لك مجدداً بماء بارد من حجر التقطير. لستُ أدري ما الذي أشعر به وأنا أراك تشرب الماء من كأس فارغة، تشي غوا.

ـ ومابيل؟ ـ تلعثم صاحب شركة النقل وهو يخفض بصرة ـ. هل كانت على علم بمؤامرة العنكبوت منذ البدء؟ هل كانت كذلك؟

ـ أجل، كانت كذلك، ولكن مكرهة ـ خفف النقيب سيلفا من وطأة الأمر، كمن هو مرغم ـ. لقد كانت على علم بالأمر. ولم يَرُق لها عمل ذلك قطّ، وهي تقول إنها حاولت في أول الأمر ثني ميغيل عن ذلك، وقد فعلت ما تستطيعه. ولكن لابنك طبعه و...

ـ هو ليس ابني ـ قاطعه فيليثيتو ياناكيه وهو ينظر إلى عينيه مباشرة ـ. اعذرني، أنا أعرف ما أقوله. تابع، قل ما لديك أيها النقيب.

ـ لقد كانت ضجرة من ميغيل وتريد قطع علاقتها به، ولكنه لم يسمح لها، كان يهددها بأنه سيخبرك عن غرامياتهما ـ تدخل ليتوما من جديد ـ. ولأنه ورطها في تلك المكيدة، بدأت تكرهه.

ـ أتعني أنكما قد تكلمتما مع مابيل؟ ـ سأل صاحب شركة النقل مشوشاً ـ. وما الذي اعترفتْ به؟

ـ إنها تتعاون معنا يا سيد ياناكيه ـ أكد النقيب ـ. لقد كانت شهادتها حاسمة لمعرفة مكيدة العنكبوت برمتها. ما قاله لك الرقيب صحيح. ففي البدء، حين بدأت مع ميغيل، لم تكن تعرف أنه ابنك. وحين عرفت ذلك، حاولت التخلص منه، ولكن كان الوقت قد فات. لم تستطع لأن ميغيل كان يبتزها.

ـ كان يهددها بإخبارك بكل شيء يا سيد ياناكيه، كي تقتلها أو تضربها على الأقل ـ عاد الرقيب ليتوما إلى التدخل.

ـ وكي تتركها في الشارع وليس لديها فلس واحد، وهذا هو الأهم ـ دخل النقيب على الخط ـ. مثل ما قلت لك من قبل أيها السيد. ميغيل

يكرهك، يكنُّ لك حقداً عظيماً. يقول إنه يشعر بذلك لأنك أجبرته على أداء الخدمة العسكرية ولم تفعل ذلك مع أخوه تيبورثيو. لكنني أشعر أن هنالك ما هو أكثر. ربما هذا العداء آت مما هو قبل ذلك، منذ طفولته. حضرتك تعرف أكثر.

ـ لا بد أنه كان يرتاب كذلك في أنه ليس ابني يا آديلايدا ـ أضاف صاحب شركة النقل. كان يشرب، في رشفات، كأسَ الماء الجديدة التي جاءته بها آديلايدا للتو ـ لقد كان يرى وجهه في المرآة، فيدرك أن ما يسري في عروقه ليست دمائي، ولا يمكن لها أن تكون دمائي. وهكذا بدأ يكرهني، وهو ما بقي له. الغريب أنه أخفى ذلك دوماً، ولم يُظهره قط. أترين؟

ـ ماذا تريدني أن أرى يا فيليثيتو ـ هتفت المداوية ـ. كل شيء واضح تماماً، ويمكن حتى للأعمى أن يراه. هي فتاة شابة وأنت عجوز. هل كنت تظن أن مابيل ستظل وفيّه لك حتى الموت؟ ولا سيما أن لك زوجتك وأسرتك، وهي تعرف جيداً أنه لا يمكن لها أن تكون أكثر من عشيقة لك. الحياة هي الحياة يا فيليثيتو، لابد أنك تعرف هذا. أنت آت من أسفل وتعرف ما هي المعاناة، مثلي ومثل فقراء بيورا الكثيرين.

ـ طبعاً، فالاختطاف لم يكن اختطافاً قطّ وإنما مجرد تهريج ـ قال النقيب ـ. من أجل الضغط عليك في مشاعرك أيها السيد.

ـ كنت أعرف ذلك يا آديلايدا. لم تكن لديَّ أوهام قطّ. لماذا تظنين إذاً أنني كنت أفضّل غض النظر دوماً، وعدم التحري عما تفعله مابيل؟ لكنني لم أتخيل قطّ أنه يمكن لها أن تفعل ذلك مع ابني بالذات!

ـ وهل هو ابنك؟ ـ صححت له التقية ساخرة ـ. ما أهمية مع من فعلت ذلك يا فيليثيتو. ماذا يمكن أن يسبب لك هذا كله الآن. لا تفكر أكثر في الأمر يا صاحبي. اقلب الصفحة، فالأمر قد مضى. هذا أفضل ما

يمكن عمله، اعمل بنصيحتي.

ـ أتدرين ما الذي أفكر به الآن بغم حقيقي يا آديلايدا؟ ـ فرغت كأسة مرة أخرى. وكان فيليثيتو يشعر بقشعريرة ـ. إنها الفضيحة. قد يبدو لك هذا مجرد حماقة، ولكنه أكثر ما يعذبني. سيخرج الخبر غداً في الصحف، في الإذاعات، في التلفزيون. وسيأتي التصيد الصحفي عندئذ. ستكون حياتي سيركاً مرة أخرى. ملاحقة الصحفيين، فضول الناس في الشارع، في المكتب. لم يعد لدي صبر ولا قدرة على تحمل كل هذا من جديد يا آديلايدا. لم أعد قادراً.

ـ لقد غلب النوم السيد يا حضرة النقيب ـ همس ليتوما مشيراً إلى صاحب شركة النقل الذي أغمض عينيه وأحنى رأسه.

ـ هذا ما أظنه ـ وافقه الضابط ـ. لقد دمره الخبر. الابن والعشيقة. بعد القرون ضربٌ بالعصيّ. هذا أقل ما يمكن أن يصيبه، يا للعنة!

كان فيليثيتو يسمعهما ولكن دون سماعهما. لا يريد فتح عينيه، ولا حتى للحظة واحدة. كان يتناوم، وكان يسمع صخب وجلبة جادة سانتشيث سيرو. لو لم يحدث هذا كله لكان الأن في مقر ناريهوالا للنقل، يراجع حركة الحافلات والشاحنات وسيارات الفترة الصباحية، ويدرس حركة اليوم ويقارنها بحركة الأمس، ويملي رسائل على السيدة خوسيفيتا، يلغي أو يقبض كبياليات في المصرف، ويستعد للعودة إلى بيته لتناول الغداء. أحس بحزن شديد سبب له رعشة حمى ثلاثية من أخمص قدميه حتى رأسه. لن تعود حياته أبداً إلى إيقاعها القديم الهادئ، ولا إلى أن يكون ماراً عادياً ومجهولاً. سيكون منذ الآن معروفاً على الدوام في الشوارع، لدى رؤيته يدخل إلى صالة سينما أو إلى مطعم ستتعالى الهمسات والدمدمات، والنظرات الوقحة، والوشوشات، والأيدي المشيرة. هذه الليلة بالذات، أو في صباح الغد

على أبعد تقدير، سيكون الخبر عاماً، تعرفه بيورا بأسرها. وسينبعث عندئذ ذلك الجحيم.

ـ هل تشعر بالتحسن مع هذه الغفوة أيها السيد؟ سأله النقيب سيلفا وهو يربت بمودة على ذراعه.

ـ لقد غفوت قليلاً، متأسف ـ قال وهو يفتح عينيه ـ. اعذراني. انفعالات كثيرة في آن واحد.

ـ طبعاً، طبعاً ـ طمأنه الضابط ـ. أتريد أن نواصل أم نترك الأمر إلى وقت آخر يا دون فيليثيتو؟

هز رأسه مدمدماً: «نواصل». خلال الدقائق التي ظل فيها مغمض العينين، امتلأ البار بالناس، وخاصة الرجال. كانوا يدخنون، ويطلبون سندوتشات، ومياهاً غازية أو بيرة أو فناجين قهوة. أخفض النقيب صوته كيلا يسمعه من يجلسون حول المنضدة المجاورة.

ـ ميغيل ومابيل معتقلان منذ الليلة الماضية، وقاضي التحقيق يتابع القضية. لقد حددنا موعداً للصحافة في الساعة السادسة مساء. لا أظن أن حضرتك ترغب في حضور هذا اللقاء، أليس كذلك يا دون فيليثيتو؟

ـ ولا بأي حال ـ صاح صاحب شركة النقل مرعوباً ـ. طبعاً لا!

ـ ليس ضرورياً أن تأتي ـ طمأنه النقيب ـ ولكن عليك أن تعرف وتكون مستعداً. الصحفيون سوف يسببون لك الجنون.

ـ هل اعترف ميغيل بالتهم كلها؟ سأله فيليثيتو.

ـ لقد أنكرها في البدء، ولكنه حين عرف أن مابيل قد خانته وأنها ستكون شاهد اتهام ضده، اضطر إلى الاعتراف بالواقع. لقد قلتُ هذا، إن شهادتها ساحقة.

ـ بفضل السيدة مابيل انتهى به الأمر إلى الاعتراف بكل شيء ـ أضاف الرقيب ليتوما ـ. لقد سَهلتْ علينا عملنا. إننا نحرر التقرير.

وغداً على أبعد تقدير سيكون بين يدي قاضي التحقيق.

ـ هل سيكون عليّ أن أراه ـ كان فيليثيتو يتكلم بصوت خافت جداً؛ فاضطر الشرطيان إلى تقريب رأسيهما منه كي يسمعاه ـ. أقصد ميغيل.

ـ ستكون موجوداً في المحاكمة على أي حال ـ أكد النقيب ـ. وستكون حضرتك الشاهد النجم. إنك الضحية، تذكر هذا.

ـ وقبل المكاكمة؟ ألح صاحب شركة النقل.

ـ يمكن لقاضي التحقيق أو النائب العام أن يطلب مواجهة ـ أوضح النقيب ـ. في هذه الحالة ستقابله، أجل. نحن لا نحتاج إلى ذلك، لأن ميغيل، مثلما قال لك ليتوما، قد اعترف بالتهم كلها. يمكن لمحاميه أن يعمد إلى استراتيجية أخرى ويُكَذِّب كل شيء متذرعاً بأن اعترافاته باطلة لأنها انتزعت منه بوسائل غير شرعية. وباختصار سيفعلون مثلما يحدث عادة. ولكنني لا أظن أنه سيجد مهرباً. مادامت مابيل تتعاون مع العدالة فإنه واقع لا محالة.

ـ كم ستكون مدة الحكم عليه؟ ـ سأل صاحب شركة النقل.

ـ الأمر يعتمد على المحامي الذي سيدافع عنه، وعلى ما يمكن أن ينفقه في دفاعه ـ قال المفوض الشرطي وهو يبدي تكشيرة متشككة ـ. لن تكون مدة طويلة. لم يكن هنالك عنف باستثناء الحريق الصغير في شركتك. أما الابتزاز، وعملية الاختطاف المزيفة، وعصبة الإجرام فليست جرائم خطرة، في هذه الظروف. لأنها لم تتمخض عن شيء عملي، وإنما كانت مجرد تصنع. سنتان أو ثلاث سنوات في أفضل الحالات، أشك في أن يكون الحكم أكثر. والأخذ في الاعتبار أنه جانح مبتدئ، وبلا سوابق، يمكن له أن ينجو من السجن.

ـ وهي؟ سأله صاحب شركة النقل وهو يمر بلسانه على شفتيه.

ـ بما أنها تعاونت مع العدالة، فإن الحكم عليها سيكون مخففاً جداً

يا دون فيليثيتو. ربما تخرج نظيفة لا قش ولا غبار عليها. فقد كانت، في نهاية المطاف، ضحية الشاب الأبيض أيضاً. هذا ما يمكن أن يتذرع به محاميها، ومعه بعض الحق في ذلك.

ـ أتلاحظين يا آديلايدا؟ ـ تنهد فيليثيتو ياناكيه ـ. لقد جعلوني أقضي أسابيع من الغم، وأحرقوا المكان في جادة سانتشيث سيرّو، وكانت الخسائر كبيرة، فالخوف الذي تسبب به المبتزون بإلقائهم قنبلة على حافلاتي، جعل زبائن كثيرين يبتعدون عنا. ومن المحتمل أن يخرج الاثنان إلى بيتهما طليقين، وأن يعيشا حياة النعيم. أترين ما هي العدالة في هذه البلاد؟

صمتَ لأنه لاحظ أن شيئاً ما قد تبدل في عيني التقية. كانت تنظر إليه بثبات، بحدقتين متسعتين، وبجدية كبيرة وتركيز، كما لو أنها ترى فيه، أو من خلاله، شيئاً مثيراً للقلق. أمسكت إحدى يديه بين يديها الكبيرتين والخشنتين ومتسختي الأظفار. راحت تضغط على يده بقوة كبيرة. ارتعش فيليثيتو وهو يكاد يموت خوفاً.

ـ أهو وحي يا آديلايدا؟ ـ تلعثم محاولاً سحب يده ـ. ماذا ترين، ما الذي يحدث لكِ، أرجوكِ يا صديقتي.

ـ هنالك شيء يحدث لك يا فيليثيتو ـ قالت له وهي تضغط بشدة أكبر على يده، وتنظر إليه بعينيها العميقتين اللتين تحولتا الآن إلى محمومتين ـ. لا أدري ماذا هنالك، لعله ما حدث لك هذا الصباح مع الشرطيين، وربما شيء آخر. شيء أسوأ أو أفضل، لست أدري. شيء رهيب، قوي جداً، هزة ستبدل حياتك كلها.

ـ أتعنين أنه شيء مختلف عن كل ما يحدث لي؟ أشياء أسوأ مما حدث؟ ألا يكفيني الصليب الذي أجرجره؟

هزت رأسها كمن أصابها مس ولم يبدُ عليها أنها تسمعه. رفعت

صوتها كثيراً:

ـ لست أدري إن كان أفضل أو أسوأ يا فيليثيتو ـ صرخت مذعورة ـ. ولكنه أهم من كل ما حدث لك حتى اليوم. إنها ثورة في حياتك، هذا هو ما أستشعره.

ـ أعظم مما أنا فيه؟ ـ كرر ـ. ألا يمكنك إخباري بأي شيء محدد يا آديلايدا؟

ـ لا، لا أستطيع ـ أفلتت التقية يده وراحت تستعيد شيئاً فشيئاً ملامحها وأساليبها المعهودة. رآها تزفر، تمر بيدها على وجهها كما لو أنها تزيح حشرة عنه ـ. أقول لك ما أشعر به فقط، ما يجعلني الوحي أشعر به. أعرف أن الأمر معقد. وهو كذلك بالنسبة لي أيضاً يا فيليثيتو. لا ذنب لي أنا، هذا ما أراد لي الرب أن أشعر به. هو من يأمر. هذا كل ما يمكنني أن أقوله. كن مستعداً، هنالك ما سيحدث لك. شيء سيفاجئك. ربما لا يكون شيئاً أسوأ يا باباثيتو.

ـ أسوأ؟ ـ هتف صاحب شركة النقل ـ. الشيء الوحيد الأسوأ الذي يمكن أن يحدث لي هو موتي سحقاً تحت سيارة، أو عَضّاً بأنياب كلب مصاب بالسُّعار. ربما يكون هذا هو ما يناسبني. أن أموت يا آديلايدا.

ـ لن تموت بعد، أؤكد لك. فليس موتك هو ما قاله لي الوحي.

بدت التقية مستنفدة. وكانت ماتزال على الأرض، جالسة على كعبي قدميها وهي تفرك يديها وذراعيها ببطء، كما لو أنها تنفض عنها الغبار. قرر فيليثيتو الانصراف. لقد انقضت نصف فترة ما بعد الظهر. لم يكن قد تناول ولو لقمة واحدة في الظهيرة، ولكنه ليس جائعاً. مجرد فكرة الجلوس لتناول الطعام كانت تسبب له القرف. نهض عن أرجوحة النوم بمشقة وأخرج محفظة نقوده.

ـ لا حاجة لأن تعطيني أي شيء ـ قالت التقية وهي جالسة على

الأرض ـ. اليوم لا يا فيليثيتو.

ـ بلى، اليوم ضروري ـ قال صاحب شركة النقل وهو يترك خمسين سولاً على منضدة قريبة ـ. ليس مقابل هذا الوحي المشوش، وإنما لأنك واسيتني ونصحتني بحنان شديد. أنت صديقتي المفضلة يا آديلايدا. ولهذا أنا أثق بك على الدوام.

خرج إلى الشارع وهو يزرر الصدار، ويعيد تسوية ربطة عنقه، وقبعته. أحس مجدداً بحر شديد. كانت تثقل عليه الحشود التي تملأ شوارع مركز بيورا. كان بعض الأشخاص يتعرفون عليه فيحيونه بإيماءة أو يتهامسون وهم يشيرون إليه. ويلتقط له آخرون صوراً بهواتفهم الخليوية. قرر المرور على ناريهوالا للنقل ليرى إن كانت هناك مستجدات حديثة. نظر إلى ساعته: الخامسة مساء. المؤتمر الصحفي في مفوضية الشرطة سيكون في السادسة. ساعة واحدة كي تسري الأخبار كالبارود. ستنفجر في الإذاعات، وفي شبكة الانترنت، وستنشرها المدونات، وطبعات الجرائد الديجيتال، وأخبار التلفزيون. وسيكون، من جديد، الرجل الأوسع شهرة في بيورا. «ضحية خداع ابنه وعشيقته»، «ابنه وعشيقته أرادا ابتزازه»، «العنكبوتان هما ابنه وعشيقته، وكانا فوق ذلك عشيقين!». أحس بالغثيان وهو يتخيل العناوين، ورسوم الكاريكتير التي تصوره في أوضاع مضحكة، بقرنين يصلان إلى السحاب. يا للأوغاد! يا للجاحدين، ناكري الجميل! سلوك ميغيل يسبب له غضباً أقل. لأن شكوكه تأكدت بفضل ابتزاز العنكبوت: إنه ليس ابنه. من تراه يكون أبوه الحقيقي؟ أتعرفه خيرترورديس؟ في ذلك الوقت كان أي واحد من زبائن النزل يضاجعها، هنالك مرشحون كثر لهذه الأبوة. هل سينفصل عنها؟ أيتطلقان؟ لم يشأ ذلك قطّ، أما الآن، وبعد مرور كل هذا الزمن، لم يعد قادراً حتى على

الحقد عليها. لم تكن امرأة سيئة؛ وخلال هذه السنوات كلها لم تكن تشوب سلوكها أية شائبة، وكانت تعيش من أجل بيتها وتَدَيّنها وحسب. سيهزها الخبر طبعاً. فصورة لميغيل مقيد اليدين، ووراء القضبان، لأنه أراد ابتزاز أبيه فضلاً عن وضع قرون له مع عشيقته، هي أمور لا تتحملها الأم بسهولة. ستبكي وستهرع إلى الكاتدرائية كي يواسيها الكهنة.

موضوع مابيل كان أشد قسوة. يفكر بها فتنفتح فجوة في معدته. لقد كانت المرأة الوحيدة التي أحبها حباً حقيقياً في حياته. قدم لها كل شيء. البيت، المعاش، الهدايا. والحرية التي لا يمنحها أي رجل لامرأة يُنفق عليها. لماذا تندس في الفراش مع ابنه! لماذا تحاول هذه اللعينة البائسة ابتزازه! لن يقتلها، بل إنه لن يوجه إليها ولو صفعة واحدة على وجهها ككاذبة. لن يعود لرؤيتها. فلتكسب عيشها من التعهر. ولنرَ إن كانت ستجد عشيقاً معتبراً مثله.

بدل أن ينزل عبر شارع ليما، انحرف عند مستوى الجسر المعلق باتجاه كورنيش إغيغورين. هناك كان يتواجد أناس أقل، ويمكن له أن يمشي بطمأنينة أكبر، دون أن يُفاجأ بمعرفة أنهم ينظرون ويشيرون إليه. تذكر البيوت الكبيرة القديمة التي كانت تحف بهذا الكورنيش النهري حين كان صبياً صغيراً. وقد راحت تتداعى بيتاً بعد آخر بفعل الأضرار التي سببها النينيو، والأمطار وفيضانات النهر الذي كان قد فاض وغمر الحي كله. وبدل إعادة بنائها، قام البيض ببناء بيوتهم الجديدة في ضاحية ألتشيبه، بعيداً عن مركز المدينة.

ما الذي سيفعله الآن؟ أيواصل عمله في ناريهوالا للنقل وكأن شيئاً لم يحدث؟ مسكين تيبورثيو. سيشعر بكل تأكيد باستياء عظيم. فأخوه ميغيل الذي كان ملتصقاً به جداً على الدوام يتحول إلى مجرم أراد أن

يسطو على أبيه بالتواطؤ مع العشيقة. لقد كان تيبورثيو شخصاً طيباً جداً. ربما هو ليس شديد الذكاء، ولكنه مستقيم، وفيّ، وغير قادر على اقتراف نذالة مثل أخيه. سوف يحطمه الخبر.

كان منسوب نهر بيورا مرتفعاً جداً، ويجر معه أغصاناً، وشجيرات صغيرة، وأوراقاً، وقناني وبلاستيك. لمياهه لون طيني كما لو أنها محملة بانهيارات ترابية حدثت في سلسلة الجبال. ولم يكن هنالك أحد يسبح في مياهه.

حين صعد من الكورنيش إلى جادة سانتشيث سيرو قرر عدم الذهاب إلى المكتب. مازالت هنالك خمس عشرة دقيقة فقط لبلوغ الساعة السادسة، وسوف يهرع الصحفيون كالذباب إلى ناريهوالا للنقل فور اطلاعهم على الخبر. من الأفضل له التزام البيت، وإقفال الباب الخارجي وعدم الخروج طوال عدة أيام، إلى أن تهدأ العاصفة. التفكير في الفضيحة يجعله يشعر كما لو أن ثعابين تزحف على ظهره.

سلك شارع اريكيبا متوجهاً نحو بيته، وكان يشعر أن الغم قد بدأ يضغط مجدداً على صدره، ويجعل تنفسه أصعب. ميغيل يكنّ له الحقد، بل إنه يكرهه منذ ما قبل إجباره على الانضمام إلى الخدمة العسكرية. لقد كان شعوراً متبادلاً. لا، هذا زائف، فهو لم يكره قطّ هذا الابن النغل. شيء آخر هو أنه لم يحبه قطّ، لأنه كان يدرك أنه ليس من دمه نفسه. ولكنه لا يذكر أنه فضّل تيبورثيو عليه. لقد كان أباً عادلاً، يحاول منح كليهما معاملة متماثلة. صحيح أنه أجبر ميغيل على قضاء سنة في الثكنة عسكرية. كان ذلك من أجل مصلحته. كي يضعوه في الطريق السليم. فقد كان تلميذاً سيئاً جداً، لا يحب سوى اللهو، وركل الكرة وشرب الخمور في الحانات. لقد فاجأه وهو يشرب في باراتٍ ونُزلٍ سيئة السمعة مع أصدقاء خبيثي المظهر، وينفق

مصروفه في الماخور. هذا الطريق سيودي به إلى مصير سيئ. وقد حذره: «إذا ما واصلتَ هكذا، سأُدخلك إلى الجيش». فواصل، وأدخله إلى الجيش. يضحك فيليثيتو. حسن، يمكن القول إن حاله لم تصلح كثيراً بالنظر إلى إقدامه على ما انتهى إلى فعله. فليذهب إلى السجن ليعرف ما الذي يعنيه هذا. ولنر من الذي سيوفر له عملاً بعد ذلك، وهو بمثل هذا السجل. سيخرج من هناك كقاطع طريق أكثر مما كان عليه لدى دخوله، مثل جميع من يمرون عبر جامعات الجريمة التي هي السجون.

كان قبالة بيته. وقبل أن يفتح البوابة الكبيرة المزينة بمسامير ضخمة، خطا بضع خطوات حتى الناصية وألقى بضع قطع نقدية في علبة الأعمى:

ـ مساء الخير يا لوثيانو.

ـ مساء الخير يا دون فيليثيتو. فليكافئك الرب.

رجع وهو يشعر بانقباض في قلبه، وبأنه يتنفس بصعوبة. فتح البوابة ثم أغلقها وراءه. ومن البهو سمع أصواتاً في الصالة. هذا ما كان ينقص. لدينا زيارة! أمر غريب، فخيرترووديس ليس لها صديقات يأتين دون إخبار مسبق، لا تقيم لقاءات شاي أبداً. كان يقف في البهو، متردداً، حين رأى هيئة امرأته المشوشة تظهر من عتبة الصالة. كانت محشورة في واحد من تلك الأثواب التي تبدو كمسوح راهبات، رآها تتقدم باتجاهه مستعجلة كثيراً بطريقتها تلك الشاقة في المشي. لماذا هي بهذا الوجه؟ لقد علمت بالخبر إذاً.

ـ هذا يعني أنكِ قد علمتِ بكل شيء. دمدم.

ولكنها لم تتح له الوقت ليكمل. بل أشارت إلى الصالة، وراحت تتكلم بتعثر:

ـ آسفه، آسفة جداً يا فيليثيتو. اضطررتُ إلى إيوائها هنا في البيت. لم يكن بإمكاني عمل أي شيء آخر. ستبقى بضعة أيام فقط. جاءت هاربة. يمكن لهم أن يقتلوها كما يبدو. قصة لا تُصدق. تعال، ستخبرك هي نفسها.

كان صدر فيليثيتو ياناكيه طبلاً. راح ينظر إلى خيرترروديس دون أن يفهم جيداً ما تقوله، ولكن بدلاً من وجه زوجته كان يرى وجه آديلايدا متحولاً ومشوهاً بسبب رؤى الوحي.

XVI

لماذا تتأخر لوكريثيا كل هذا الوقت؟ يقوم دون ريغوبيرتو بالدوران كوحش حبيس أمام باب شقته في بارانكو. زوجته لم تخرج بعد من حجرة النوم. إنه يرتدي ملابس حداد صارمة، ولا يريد الوصول متأخراً إلى جنازة إسماعيل، لكن لوكريثيا بنزواتها في التأخر، بالبحث عن ذرائع شديدة السخافة لتأخير الخروج، ستجعلهما يصلان إلى الكنيسة حين يكون الموكب قد انطلق باتجاه المقبرة. هو لا يريد استثارة الملاحظة بظهوره في مقبرة «حدائق السلام» وقد بدأت مراسم الجنازة، وأن يجتذب بذلك نظرات جميع الحاضرين. سيكون هناك أناس كثيرون جداً دون شك، مثلما كانت عليه الحال أثناء السهر على الجثمان في الليلة الماضية، ليس لروابط صداقتهم بالمتوفى وحسب، وإنما بدافع فضول أهالي ليما الخبيث في التمكن أخيراً من رؤية الأرملة التي أثيرت الفضيحة بسببها.

لكن دون ريغوبيرتو كان يعرف أنه ليس بإمكانه عمل أي شيء سوى الاستسلام والانتظار. ربما كان السبب الوحيد للمشادات التي وقعت له مع امرأته، على امتداد سنوات زواجهما، هو تأخر لوكريثيا دوماً لدى خروجهما إلى أي مكان، سواء إلى السينما أو إلى دعوة لتناول الطعام، أو إلى معرض، أو لمعاملة مصرفية، أو رحلة. في البدء، حين كانا حديثي الزواج، وبدأا العيش معاً، كان يظن أن زوجته تتأخر

لمجرد انعدام الرغبة وازدراء منها لدقة المواعيد. وقد تسبب ذلك بجدل بينهما، وزعل، ومماحكات. وشيئاً فشيئاً، ومن خلال مراقبتها، والتفكير في الأمر، انتبه دون ريغوبييرتو إلى أن تأخر زوجته لدى الخروج إلى أي التزام لم يكن حدثاً سطحياً، ينم على إهمال سيدة متعجرفة. بل هو استجابة لشيء أعمق بكثير، لحالة معنوية أو كيانية، لأنها ـ ودون أن تعي ما الذي يحدث ـ في كل مرة تضطر فيها إلى مغادرة مكان ما، مثل بيتها، أو بيت صديقة ذهبت لزيارتها، أو المطعم الذي تناولت العشاء فيه، يسيطر عليها قلق خفي، نوع من انعدام الأمان، خوف غامض، بدائي، يدفعها إلى عدم الذهاب، المغادرة، تبديل المكان، وتختلق عندئذ كل أنواع الذرائع ـ إخراج منديل، تبديل المحفظة، البحث عن المفاتيح، التأكد من أن النوافذ مغلقة، أو أن التلفزيون مطفأ، وإذا لم يكن الطباخ قد بقي مشتعلاً، أو الهاتف مرفوع السماعة ـ أي شيء يؤخر الانصراف أو المغادرة المرعبة لدقائق أو لثوان.

هل كانت هكذا على الدوام؟ وحين كانت طفلة أيضاً؟ لم يتجرأ على سؤالها عن ذلك. ولكن ثبت له، مع مرور السنوات، أن هذه الرغبة الجامحة، أو النزوة أو الحتمية تزداد حدّة، حتى إن ريغوبيرتو كان يفكر أحياناً، وهو يرتعش، بأن الأمر قد يصل بلوكريثيا ذات يوم إلى أن تصاب بعدوى السبات أو الخمول الميتافيزيقي الذي أصاب شخصية بارتلباي في قصة ميلفيل نفسها، وتُقرر عندئذ عدم التحرك من بيتها، وربما من غرفتها أو حتى من سريرها. «لخوفها من فقدان الكينونة، من فقدان كينونتها، من البقاء دون كينونتها»، عاد يقول لنفسه. وهذا هو التشخيص الذي توصل إليه بشأن تأخر زوجته. كانت الثواني تمر دون أن تُطل لوكريثيا. لقد ناداها ثلاث مرات بصوت عالٍ مُذكراً إياها بأن الوقت قد تأخر. مما لا شك فيه، مع ما أصابها من غمٍّ وتوتر أعصاب

مذ تلقت مكالمة آرميدا التي أخبرتها بموت إسماعيل المفاجئ، أن ذلك الخوف من بقائها دون كينونة، وتركه منسياً مثل مظلة أو معطف مطري إذا ما ذهبت، آخذ بالازدياد. ستواصل التأخر وسيصلان متأخرين إلى الجنازة.

وأخيراً خرجت لوكريثيا من غرفة النوم. كانت ترتدي ثوباً أسود، وتضع نظارة سوداء. سارع ريغوبيرتو إلى فتح الباب لها. كان وجه زوجته لا يزال ممتقعاً بسبب الحزن والقلق. ماذا سيحدث لهما الآن؟ في الليلة السابقة، أثناء السهر على الجثمان في كنيسة سانتا ماريا رينا، رآها ريغوبيرتو تجهش بالبكاء وهي تعانق آرميدا، بجانب النعش المفتوح الذي يُسجى فيه جسد إسماعيل، وقد عُقد منديل على رأسه كيلا يتدلى فكه السفلي. وكان على ريغوبيرتو نفسه أن يبذل في تلك اللحظة جهداً عظيماً كي يكبح رغبته في البكاء. لقد مات إسماعيل بعد أن ظن أنه قد كسب المعارك كلها، وصار يشعر أنه أسعد رجل في الخليقة. أتكون السعادة هي التي قتلته؟ لأن إسماعيل كاريرا لم يكن معتاداً عليها.

نزلا في المصعد مباشرة إلى الكراج، وخرجا منه بسرعة، وبعد جلوس ريغوبيرتو وراء المقود، توجها نحو كنيسة سانتا ماريا رينا، في حي سان إيسيدرو، حيث سينطلق الموكب إلى مقبرة حدائق السلام، في حي لامولينا.

ـ هل انتبهتَ إلى أن أياً من ميكي أو إسكوبيتا لم يقترب ولو مرة واحدة من آرميدا خلال السهر على الجثمان؟ ـ علقت لوكريثيا ـ. ولا مرة واحدة. يا لانعدام التقدير. إنهما شخصان خبيثان حقاً.

لقد لاحظ ريغوبيرتو ذلك، ولاحظه بالطبع معظم الناس الذين ظلوا طوال ساعات، حتى منتصف الليل تقريباً، يمرون من حجرة التسجية

المأتمية المغطاة بالأزهار. كانت الأكاليل والباقات والصلبان وبطاقات التعزية تملأ الردهة وتنتشر في الفناء حتى تصل الشارع. هنالك أناس كثيرون يحبون إسماعيل ويحترمونه، وهاهو ذا الدليل: مئات الأشخاص يودعونه. وستكون هناك أعداد مماثلة أو أكثر الآن، في موكب الجنازة، صباحاً. ولكن كان هناك في الليل، وكذلك الآن، من قالوا الأقاويل عنه لأنه تزوج من خادمته، وحتى أولئك الذين أيدوا ميكي وإسكوبيتا في القضية القضائية التي رفعها هذان الأخيران من أجل أن يُبطل القضاء ذلك الزواج. ومثلما هي حاله وحال لوكريثيا، كانت نظرات جميع من سهروا على الجثمان مركزة على الضبعين وعلى آرميدا. كان التوءمان اللذان يرتديان ملابس حداد صارمة، دون أن ينزعا نظارتيهما السوداوين، يبدوان أشبه بأوغاد الأفلام. وكان يفصل بين الأرملة وابني المتوفى أمتار قليلة، لم يحاول أي منهما اجتيازها في أية لحظة. بدا المشهد مضحكاً أحياناً. فآرميدا المسربلة بالحداد من رأسها حتى قدميها، مع قبعة وخمار أسودين، تجلس على مقربة من النعش، وتحمل في يدها منديلاً ومسبحة تحرك خرزاتها ببطء بينما هي تحرك شفتيها في صلاة صامتة. وبين لحظة وأخرى تمسح دموعها. وتنهض من وقت لآخر، بمساعدة رجلين قويين، لهما ملامح قطاع الطرق، يقفان طيلة الوقت وراءها، فتقف على قدميها، وتقترب من النعش، وتنحني فوق الزجاج وهي تصلي أو تبكي. وتواصل بعد ذلك تقبل التعازي من الداخلين الجدد. عندئذ يتحرك الضبعان، يقتربان من النعش ويظلان أمامه للحظات يرسمان إشارة الصليب بحزن، دون أن يديرا رأسيهما ولو مرة واحدة إلى حيث تقف الأرملة.

ـ هل أنت متأكد من أن الشخصين القويين اللذين لهما ملامح الملاكمين، وكانا طيلة الليل إلى جانب آرميدا، هما حارسان شخصيان؟

ـ سألته لوكريثيا ـ. يمكن لهما أن يكونا من أقربائها. لا تسرع أكثر، أرجوك. يكفينا ميت واحد الآن.

ـ إنني متأكد جداً ـ قال ريغوبيرتو ـ. لقد أكد لي ذلك كلاوديو أرنييّاس. لأن محامي إسماعيل صار محاميها الآن. إنهما حارساها الشخصيان.

ـ ألا يبدو لك الأمر مضحكاً بعض الشيء؟ ـ علقت لوكريثيا ـ. أود أن أعرف ما هي حاجة آرميدا إلى حراس شخصيين.

ـ إنها بحاجة إليهم الآن أكثر من أي وقت آخر ـ ردّ دون ريغوبيرتو وهو يخفف من سرعة السيارة ـ. يمكن للضبعين أن يتعاقدا مع قاتل مأجور ويكلفاه بقتلها. إنها أمور تحدث الآن في ليما. أخشى أن يدمر المتهتكان هذه المرأة. لا يمكنك تخيل الثروة التي ورثتها الأرملة الجديدة يا لوكريثيا.

ـ إذا ما واصلتَ قيادة السيارة على هذا النحو فسوف أنزل منها ـ حذرته زوجته ـ. آه، هذا هو السبب إذاً، ظننتُ في البدء أن الغرور قد أصابها وتعاقدت مع هذين الشخصين كي تضفي أهمية على نفسها وحسب.

عندما وصلا إلى كنيسة سانتا ماريا رينا، عند منحنى غوتيرّيث دي سان إيسيدرو، كان موكب الجنازة قد بدأ انطلاقه، فانضما إلى القافلة دون النزول من السيارة. كان رتل السيارات بلا نهاية. وقد رأى دون ريغوبرتو أن مارة كثيرين يتوقفون ويرسمون إشارة الصليب لدى مرور عربة النعش، وفكر: «إنه الخوف من الموت». هو لا يتذكر أبداً أنه خاف من الموت. «حتى الآن على الأقل»، صحح لنفسه. «مدينة ليما بأسرها موجودة هنا».

وبالفعل، ليما كانت هناك عن بكرة أبيها. ليما كبار رجال الأعمال،

وأصحاب المصارف، وشركات التأمين، وشركات المناجم والصيد البحري والبناء، والتلفزيونات، والصحف، والمؤسسات العقارية والمالية، ومعهم عدد كبير من موظفي الشركة التي قادها إسماعيل إلى من قبل أسابيع قليلة، بل هنالك بعض الأشخاص المتواضعين ممن عملوا لديه أو ممن يدينون له بجميل قدمه إليهم. وكان هناك أيضاً ضابط عسكري بوشاح، ربما هو مرافق عسكري لرئيس الجمهورية، ووزيرا الاقتصاد والتجارة الخارجية. وقد وقع حادث صغير حين أنزلوا النعش من العربة الجنائزية وحاول ميكي وإسكوبيتا أن يتصدرا الموكب. وقد توصلا إلى ذلك لبضع ثوان فقط. فبعد أن ترجلت آرميدا من سيارتها وتأبطت ذراع الدكتور أرنييّاس، يحيط بها ليس اثنان وإنما أربعة حراس شخصيين، قام هؤلاء بشق الطريق لها، دون أية اعتبارات، وأوصلوها إلى مقدمة الموكب وأبعدوا التوءمين بحزم. فما كان من ميكي وإسكوبيتا، بعد لحظة ارتباك، إلا أن تنازلا عن المكان للأرملة واتخذا مكاناً لهما على جانبي النعش. أمسكا بالشرائط القماشية وسارا في الموكب وهما يحنيان رأسيهما. معظم الحضور كانوا رجالاً، ولكن كان هناك أيضاً عدد لا بأس به من السيدات الأنيقات اللواتي لم يتوقفن، خلال تحدث الكاهن، عن النظر إلى آرميدا بوقاحة. لم يستطعن رؤية شيء عظيم. فهي ترتدي السواد وتضع قبعة ونظارة قاتمة تغطي جزءاً كبيراً من وجهها. وكان كلاوديو أرنييّاس ـ بحمّالات بنطاله متعددة الألوان المعهودة تحت سترته الرمادية ـــ يقف إلى جانبها، بينما الحراس الشخصيون الأربعة يشكلون وراء ظهريهما جدار حماية لا يمكن لأحد اختراقه.

عندما انتهت المراسم ووضع النعش أخيراً في كوة أُغلقت بلوحة رخامية تحمل اسم إسماعيل كاريرا، بحروف مذهبة، مع تاريخ ميلاده

ووفاته ـ لقد مات قبل ثلاثة أسابيع من إكماله الثانية والثمانين من العمر ـ، اقتاد الدكتور أرنييّاس آرميدا بمشية أكثر اضطراباً من المعهود، بسبب تسرعه، وأوصلها ومعه الحراس الأربعة إلى المخرج، دون أن يسمحوا لأحد بالاقتراب منها. أما ريغوبيرو فرأى، بعد مغادرة الأرملة، أن ميكي وإسكوبيتا قد ظلا واقفين بجانب القبر، وأن أشخاصاً كثيرين راحوا يقتربون منهما ويعانقونهما. فانصرف هو ولوكريثيا دون أن يفعلا ذلك. (ففي الليلة السابقة، أثناء السهر على الجثمان، اقتربا لتقديم التعازي للتوءمين فكان الشدّ على الأيدي جليدياً).

ـ فلنمرَّ على بيت إسماعيل ـ اقترحت دونيا لوكريثيا على زوجها ـ. ولو للحظة واحدة، لعلنا نستطيع تبادل الحديث مع آرميدا.

ـ حسناً، فلنحاول.

عند وصولهما إلى البيت في سان إيسيدرو فوجئا بعدم رؤية حشد سيارات متوقفة عند الباب. ترجل ريغوبيرتو، وأعلن عن نفسه، وبعد عدة دقائق من الانتظار أدخلوهما إلى الحديقة. وهناك استقبلهما الدكتور أرنييّاس. كان يبدو كما لو أنه قد صار يتحكم بالوضع، ولكنه لا يمسك بزمام الأمور جميعها. ويُلاحَظ أنه غير واثق من نفسه.

ـ ألف اعتذار من آرميدا ـ قال لهما ـ. أمضتْ الليل كله مستيقظة، في السهر على الجثمان، وقد أجبرناها الآن على النوم. فقد أصر الطبيب على أن تستريح قليلاً. ولكن تفضلا، فلنذهب إلى صالة الحديقة لتناول شراباً مرطباً.

انقبض قلب ريغوبيرتو قليلاً حين رأى أن المحامي يقتادهما إلى الحجرة التي رأي فيها صديقه آخر مرة، قبل يومين.

ـ آرميدا تشكركما جزيل الشكر ـ قال لهما كلاوديو أرنييّاس، بوجه قلق؛ بينما هو يتكلم بصورة متقطعة، وبجدية كبيرة. وكانت

حمّالة سرواله المهيبة تلمع كلما انفتحت سترته ـ أنتما، حسب قولها، صديقا إسماعيل الوحيدان اللذان تثق بكما. فالمسكينة تشعر الآن، مثلما يمكن لكما أن تتخيلا، بأنها مهجورة لمصيرها. سوف تحتاج كثيراً إلى دعمكما.

ـ اعذرني يا دكتور، أعرف أن هذا ليس الوقت المناسب ـ قاطعه ريغوبيرتو ـ ولكنك تعرف كل الأمور التي ظلت معلقة مع موت إسماعيل. هل لديك فكرة عما سيحدث الآن؟

هز أرنييّاس رأسه مؤكداً. كان قد طلب قهوة، وكان الفنجان في يده، قريباً من فمه، ينفخ عليه بتمهل. وفي وجهه بارز العظام، كانت عيناه الحادتان والماكرتان تبدوان متشككتين.

ـ كل شيء يعتمد على ذلك الثنائي ـ تنهد نافخاً صدره ـ غداً ستُفتح الوصية، في مكتب الكاتب بالعدل نونيث. أنا أعرف مضمونها إلى هذا الحدّ أو ذاك. سوف نرى كيف سيكون ردّ فعل الضبعين. محاميهما شخص فاشل وسينصحهما بالتحدي والحرب. لا أدري إلى أين يريدان الوصول. لقد ترك السيد كاريرا ميراثه كله عملياً لآرميدا، ولهذا يجب الاستعداد لأسوأ الاحتمالات.

هز كتفيه مستسلماً لما لا مفر منه. وافترض دون ريغوبيرتو أن ما لا مفر منه هو أن يرفع التوءمان صراخهما إلى عنان السماء. وفكر في تناقضات الحياة الاستثنائية: واحدة من أفقر نساء البيرو تتحول، بين ليلة وضحاها، إلى واحدة من أثرى الثريات.

ـ أولم يقدم لهما إسماعيل مسبقاً حصتهما من الميراث؟ ـ تذكر ـ. لقد فعل ذلك عندما اضطر إلى طردهما من الشركة بسبب الاحتيالات التي كانا يقومان بها، إنني أتذكر ذلك جيداً. لقد أعطى لكل منهما مبلغاً كبيراً من المال.

ـ ولكن بطريقة غير رسمية، بواسطة رسالة فقط ـ عاد الدكتور أرنييّاس إلى تجعيد جبينه ورفع كتفيه وإنزالهما، بينما هو يعيد ترتيب وضع نظارته ـ. لم تكن هنالك أية وثيقة رسمية ولا قبول رسمي من جانبهما. يمكن لهذا الأمر أن يُردَّ قانونياً، وهو ما سيحدث دون ريب. ولدي شك كبير في أن يستسلم التوءمان. أخشى أن يستمر النزاع لوقت طويل.

ـ فلتحاول آرميدا إعطاءهما شيئاً كي يتركاها بسلام ـ اقترح دون ريغوبيرتو ـ. فأسوأ الأمور بالنسبة إليها هي المحاكمة طويلة الأمد. لأنها تستمر لسنوات ويستولي المحامون على ثلاثة أرباع الأموال... آي، المعذرة يا دكتور، هذا غير موجه إليك شخصياً، إنه مجرد مزاح.

ـ أشكرك على ما يتعلق بي ـ ضحك المحامي أرنييّاس وهو ينهض واقفاً ـ. أوافقك الرأي، أوافقك. فالتوصل إلى صفقة هو الأفضل على الدوام. فلنر من أي وجهة سيتم تناول هذه القضية. وسأبقيك على اطلاع طبعاً.

ـ وهل سأظلُ عالقاً في هذه المشكلة أيضاً؟

ـ سنحاول ألا تكون كذلك طبعاً ـ طمأنه المحامي نصف طمأنينة ـ. الدعوى القضائية ضدك لم يعد لها أي مغزى الآن، بعد وفاة دون إسماعيل. ولكن لا يمكن أن نعرف أبداً ما الذي قد يخطر لقضاتنا. سأتصل بك فور حصولي على أية مستجدات.

في الأيام الثلاثة التالية لوفاة إسماعيل كاريرا ظل ريغوبيرتو مشلولاً بسبب انعدام اليقين. اتصلت لوكريثيا عدة مرات بآرميدا، ولكن هذه الأخيرة لم ترد على الهاتف قطّ. كان يرد عليها صوت أنثوي، يبدو أقرب إلى صوت سكرتيرة منه إلى صوت عاملة منزلية. السيدة كاريرا تستريح، وهي تفضل في هذه الظروف، ولأسباب جليه، ألا تستقبل

زيارات؛ سأبلغها الرسالة بكل تأكيد. ولم يستطع ريغوبيرتو كذلك الاتصال بالدكتور أرنييّاس. فهو غير موجود في مكتبه ولا في بيته أبداً؛ فقد خرج للتو أو أنه لم يأتِ بعد، أو يعقد اجتماعات بالغة الأهمية، وسوف يردّ على المكالمة فور توفر لحظة فراغ له.

ما الذي يحدث؟ ماذا جرى؟ هل فُتحت الوصية؟ ما الذي سيكون عليه ردّ فعل التوءمين حين يعلمان أن إسماعيل قد عيّن آرميدا وريثة وحيدة له؟ سوف يطعنان بالوصية، وسيعتبرانها باطلة لأنها تخرق قوانين البيرو التي تشترط الثلث الإجباري للأبناء. ولن تعترف العدالة بحصة الميراث التي قدمها إسماعيل مسبقاً إلى التوءمين. أيظل ريغوبيرتو عالقاً في إجراءات الضبعين القانونية؟ هل سيستمران في التمادي؟ هل سيُستدعى مجدداً أمام ذلك القاضي الفظيع، في ذلك المكتب الذي يوحي برهاب الأمكنة المغلقة؟ ألن يتمكن من الخروج من البيرو ما لم يتم التوصل إلى حلّ للنزاع القضائي؟

يلتهم الصحافة ويستمع إلى كافة نشرات الأخبار الإذاعية والتلفزيونية، غير أن القضية لم تصبح خبراً بعد، إنها ما تزال مودعة في مكاتب تنفيذ الوصيات والمدعين العامين والمحامين. كان ريغوبيرتو يعتكف في مكتبه، يشحذ ذهنه محاولاً أن يتنبأ بما يحدث في تلك المكاتب الوثيرة. لم يكن يجد الحماسة لسماع الموسيقى ـ حتى موسيقى محبوبه ماليز تسبب له قشعريرة في أعصابة ـ، ولا يستطيع التركيز على كتاب، ولا تأمل صور لوحاته والاستغراق في تخيلاته. ويكاد لا يأكل سوى لقيمات قليلة. لا يتبادل مع فونتشيتو ودونيا لوكريثيا أكثر من كلمات صباح الخير ومساء الخير. لا يخرج إلى الشارع خشية أن ينقض عليه الصحفيون دون أن يدري ما الذي يرد به على أسئلتهم. وقد اضطر، خلافاً لكل احتياطاته، إلى أن يلجأ إلى المنومات الكريهة.

وأخيراً، في اليوم الرابع، وفي وقت مبكر جداً، حين كان فونتشيتو قد غادر للتو ذاهباً إلى المدرسة، وكان ريغوبيرتو ولوكريثيا لا يزالان بثياب النوم ويجلسان لتناول الفطور، حضر إلى البيت في حي بارانكو المحامي كلاوديو أرنييّاس. كان يبدو كما لو أنه الناجي الوحيد من كارثة. وكانت حول عينيه دوائر زرقاء عميقة تشي بأرق طويل، ولحية نامية كأنه نسي حلاقتها خلال الأيام الثلاثة الأخيرة، وتكشف ملابسه عن إهمال مفاجئ فيه، هو الذي يخرج على الدوام جيد الملبس والهندام: ربطة العنق منحرفة، ياقة القميص مجعدة جداً، إحدى حمّالتي البنطال مفلتة والحذاء غير ملمع. صافحهما، اعتذر لمجيئه المفاجئ، وفي هذا الوقت المبكر، ووافق على تناول فنجان قهوة. وفور جلوسه إلى المنضدة، كشف عن سبب مجيئه:

ـ هل رأيتما آرميدا؟ هل تحدثتما معها؟ أتعرفان أين هي؟ إنني بحاجة إلى أن تكونا صريحين معي. من أجل مصلحتها ومصلحتكما بالذات.

كان دون ريغوبيرتو ودونيا لوكريثيا يحركان رأسيهما نافيين وينظران إليه بفمين مفتوحين. انتبه الدكتور أرنييّاس إلى أن أسئلته قد سببت الذهول لصاحبي البيت، وبدا أن ذلك قد زاده غماً.

ـ أرى أنكما في السحاب ولا تعرفان شيئاً، مثلي ـ قال ـ أجل، لقد اختفت آرميدا.

ـ الضبعان... ـ تلعثم ريغوبيرتو بشحوب. تخيل الأرملة المسكينة مخطوفة وربما مقتولة، وجثتها ملقاة في البحر لأسماك القرش، أو في مزبلة خارج المدينة كي تتولى أمرها نسور الرخمة والكلاب الشاردة.

ـ لا أحد يعرف أين هي ـ تهاوى الدكتور أرنييّاس على الكرسي منهاراً ـ لقد كنتما أملي الأخير.

كانت آرميدا قد اختفت منذ أربع وعشرين ساعة، وبطريقة غريبة جداً. فبعد أن أمضت فترة الصباح كلها في مكتب الكاتب بالعدل نونيث، في مواجهة مع ميكي وإسكوبيتا ومحامي هذين الآخيرين، إضافة إلى أرنييّاس ومحاميين أو ثلاثة محامين من مكتبه. عُلق الاجتماع في الساعة الواحد، من أجل الغداء، وكان يجب أن يتجدد اللقاء في الرابعة مساء. رجعت آرميدا مع سائقها وحراسها الشخصيين الأربعة إلى بيتها في سان إيسيدرو. قالت إنها لا تشعر برغبة في تناول الطعام؛ وإنها ستنام قيلولة قصيرة كي تكون مستريحة في لقاء المواجهة المسائي. انزوت في حجرتها، وفي الساعة الرابعة إلا ربعاً، حين طرقت العاملة المنزلية بابها ودخلت، كانت حجرة النوم خاوية. لم ير أحد خروجها من الحجرة ولا من البيت. كانت حجرة النوم لا تزال مرتبة تماماً ـ الفراش مرتب ـ ودون أي أثر للعنف. لم يرها أحد من الحراس الشخصيين الأربعة، ولا كبير الخدم، ولا الخادمتان اللتان كانتا في البيت، ولم يلحظوا كذلك وجود أي شخص غريب يجول في محيط المكان. بحث الدكتور أرنييّاس فوراً عن التوءمين، مقتنعاً من أنهما سيكونان المسؤولين عن اختفائها. ولكن ميكي وإسكوبيتا اللذين أخافهما الحدث، رفعا صوتيهما إلى عنان السماء باتهام أرنييّاس بنصب شرك لهما. وفي النهاية توجه الثلاثة معاً لتقديم تقرير إلى الشرطة. وقد تدخل وزير الداخلية شخصياً، وأصدر تعليمات بأن يتم التزام الصمت حالياً. وعدم توجيه أي بيان إلى الصحافة قبل أن يتصل الخاطفون بالأسرة. كانت هنالك حالة تعبئة عامة، ولكن دون أدنى إشارة إلى آرميدا أو الخاطفين حتى الآن.

ـ إنهما هما، الضبعان ـ أكدت دونيا لوكريثيا ـ. لقد اشتريا الحراس الشخصيين والسائق والخادمتين. إنهما هما، طبعاً.

ـ هذا ما ظننته أنا في أول الأمر يا سيدتي، ولكنني لم أعد متأكداً من ذلك ـ أوضح الدكتور أرينيّاس ـ. من غير المناسب لهما بأي حال أن تختفي آرميدا، ولاسيما في هذا الوقت بالذات؛ فالمحادثات في مكتب الكاتب بالعدل نونييث لم تكن تمضي بصورة سيئة. كنا قد بدأنا بوضع مخطط اتفاق، وكان يمكن لهما أن يتلقيا شيئاً إضافياً من التركة. وكل شيء يعتمد على آرميدا. كان إسماعيل قد ترك الأمور محكمة باتقان. فالكتلة الكبرى من الميراث محفوظة في أصول في الخارج، في أكثر الجنان الضرائبية أمنا على كوكب الأرض. وإذا ما اختفت الأرملة فلن يتلقى أحد سنتاً واحداً من الثروة. لا الضبعين ولا الموظفين في البيت ولا أحد. بل لن أتمكن أنا نفسي من تقاضي أتعابي. وهكذا فإن الأمور قد تحولت إلى اللون الرمادي.

أبدى ملامح حزن وخذلان مضحكة لم يتمكن ريغوبيرتو معها من كبح ضحكته.

ـ أيمكنني أن أعرف ما الذي يضحكك يا ريغوبيرتو؟ ـ كانت دونيا لوكريثيا تنظر إليه باستياء ـ. هل يبدو لك أن هنالك شيئاً كوميدياً في هذه المأساة؟

ـ أنا أعرف سبب ضحكك يا سيد ريغوبيرتو ـ قال الدكتور أرنييّاس ـ. لأنك تشعر بالتحرر. فالقضية المرفوعة ضد زواج إسماعيل لم تعد صالحة. ستكون ملغاة. وما كان ليكون لهذه القضية، على أي حال، أدنى تأثير على الميراث، لأن الأموال، كما قلتُ لكَ، ليست في متناول القضاء البيروي. وليس بالإمكان عمل أي شيء. إنها أموال آرميدا. وسوف تتقاسمها هي والخاطفون. أتلاحظون ذلك؟ إنه أمر مضحك طبعاً.

ـ بل الكلام الأدق، إن الأموال ستبقى بين أيدي بنوك سويسرا

وسنغافورة ـ أضاف ريغوبيرتو مبدياً ملامح الجدّ ـ. إنني أضحك من البلاهة التي ستكون عليها نهاية هذه القصة إذا ما جرت الأمور على هذا النحو يا دكتور أرنييّاس.

ـ أيعني هذا أننا نحن قد تحررنا من هذا الكابوس؟ تساءلت دونيا لوكريثيا.

ـ بصورة مبدئية، أجل ـ وافق أرنييّاس ـ. اللهم إلا إذا كنتم أنتم من اختطفتم أو قتلتم الأرملة الميليارديرة.

وسرعان ما ضحك هو نفسه أيضاً، بقهقهة هستيرية، مدوية، قهقهة خالية من أدنى قدر من السعادة. أخرج نظارته، مسحها بقطعة قماش قطنية، رتب هندامه قليلاً، ثم استعاد وقاره مجدداً ودمدم: «ضحكٌ من أجل عدم البكاء، كما يقول المثل». نهض واقفاً وودعهما مع الوعد بأن يبقيهما على اطلاع. وإذا ما حصلا على أي خبر ـ وهو لا يستبعد أن يتصل الخاطفون بهما ـ عليهما الاتصال به على هاتفه المحمول، في أي ساعة من النهار أو الليل. أما المفاوضات بشأن الفدية فسوف تتولاها «كونترول ريسك»، وهي شركة متخصصة مقرها نيويورك.

ما إن غادر الدكتور أرنييّاس حتى انفجرت لوكريثيا بالبكاء. حاول ريغوبيرتو تهدئتها دون جدوى. كانت ترتعش منتحبة، والدموع تتدحرج على خديها، بينما هي تهمس: «يا للمسكينة، يا للمسكينة. لقد قتلاها، لقد قتلها الوغدان، ومن سواهما. أو أنهما أرسلا من يختطفها كي يسرقا منها كل ما خلفه إسماعيل». جاءتها خوستينيانا بكأس ماء مع قطرة من إكسير مهدئ، هدأ من روعها أخيراً. ظلت في الصالة ساكنة وصامتة. تأثر دون ريغوبيرتو وهو يرى امرأته في ذلك القنوط. إن لوكريثيا على حق. فمن المحتمل جداً أن يكون التوءمان وراء

هذه المسألة؛ لأنهما أكثر المتضررين، ولا بد أن جنوناً قد أصابهما من فكرة ضياع الميراث كله من أيديهما. رباه، يا للقصص التي تدبرها الحياة اليومية. ليست أعمالاً بارعة، بل أقرب إلى المسلسلات التلفزيونية الطويلة الفنزويلية والبرازيلية والكولومبية والمكسيكية التي تدين بأصولها إلى ثربانتس وتولستوي. ولكنها ليست بعيدة عن ألكسندر دوماس أو إميل زولا أو ديكنز أو بيريث غالدوس.

كان يشعر بالتشوش وانحطاط المعنويات. من الجيد طبعاً أنه قد أزاح عن كاهله تلك الشكوى القضائية. وفور التأكد من ذلك، سوف يجدد تذاكر السفر إلى أوروبا. أجل. يجب وضع بحر محيط بينهم وبين هذه الميلودراما. والذهاب إلى حيث اللوحات، المتاحف، أعمال الأوبرا، الحفلات الموسيقية، المسرح رفيع المستوى، المطاعم الفاخرة. أجل. مسكينة آرميدا، بالفعل: كانت قد خرجت من الجحيم، وعرفت بداية النعيم ثم عادت مجدداً إلى لهيب جهنم. إنها مخطوفة أو مقتولة. أمران كل منهما أسوأ من الآخر.

دخلت خوستينيانا إلى غرفة الطعام بملامح ضيق شديدة. بدت حائرة.

ـ ما الذي جرى؟ سألها ريغوبيرتو. وبدت لوكريثيا كما لو أنها تستيقظ من نوم قرون، فتحت عينيها المبللتين من البكاء على اتساعهما.

ـ ألا يكون نرسيس قد أصيب بالجنون؟ ـ قالت خوستينيانا وهي تضع إصبعاً على صدغها ـ. إنه في حالة غريبة جداً. لا يريدني أن أذكر اسمه، ولكنني تعرفت عليه. يبدو خائفاً جداً. يريد التكلم معكَ يا سيدي.

ـ حوّلي المكالمة إلى حجرة المكتب يا خوستينيانا.

خرج مسرعاً من غرفة الطعام باتجاه المكتب. كان واثقاً من أن هذه المكالمة تحمل له أخباراً سيئة.

ـ ألو، ألو ـ قال في سماعة الهاتف مهيئاً نفسه للأسوأ.

ـ أنت تعرف مع من تتكلم، أليس كذلك؟ ـ ردّ عليه صوتٌ تعرف عليه فوراً ـ. لا تنطق اسمي، أرجوك.

ـ حسن، كما تشاء ـ قال ريغوبرتو ـ. أيمكنني أن أعرف ما الذي جرى لك؟

ـ يجب أن أراك بصورة مستعجلة ـ قال نرسيس مرعوباً ونزقاً ـ. متأسف لإزعاجك، ولكن الأمر مهم جداً يا سيدي.

ـ أجل، طبعاً، بكل تأكيد ـ كان يفكر، بحثاً عن مكان للقاء ـ. هل تتذكر أين تناولنا الغداء آخر مرة مع رب عملك؟

ـ أتذكر ذلك جيداً. قال السائق بعد صمت قصير.

ـ انتظرني هناك خلال ساعة بالضبط. سأمر لآخذك بالسيارة. إلى اللقاء.

حين رجع إلى غرفة الطعام ليخبر لوكريثيا بمكالمة نرسيس، وجد ريغوبيرتو زوجته وخوستينيانا ملتصقتين بالتلفزيون. تستمعان وتنظران كالمنومتين إلى الصحفي النجم في قناة الأخبار ر.ب.ب. راؤول بارغاس الذي كان يقدم تفاصيل، ويخرج بافتراضات وتخمينات، حول الاختفاء الغامض يوم أمس للسيدة آرميدا دي كاريرا، أرملة رجل الأعمال المعروف، دون إسماعيل كاريرا المتوفى حديثاً. أوامر وزير الداخلية بعدم إذاعة الخبر لم تفد في شيء. لا بد أن البيرو بأسرها ستكون الآن، مثلهما، تتابع هذا الخبر المستجد. وسيكون لدى أهالي ليما ما يتسلون به لبعض الوقت. وقف يستمع إلى راؤول بارغاس. كان يقول ما يعرفونه تقريباً: اختفت السيدة يوم أمس، عند العصر، بعد مثول في مكتب

الكاتب بالعدل نونيث لفتح وصية الزوج المتوفى. وكان من المقرر أن يُستكمل ذلك الاجتماع في المساء. اختفاء السيدة جرى خلال الاستراحة بين الاجتماعين، وقد احتجزت الشرطة جميع العاملين في البيت، وكذلك أربعة حراس شخصيين للأرملة، من أجل استجوابهم. لا يوجد أي إثبات بأن في الأمر عمليه اختطاف، ولكن هذا هو المتوقع. وتقدم الشرطة رقم هاتف خاص، لكل من رأى السيدة أو لديه أخبار عن مكان وجودها. عرضَ صوراً لآرميدا ولجنازة إسماعيل، مُذكّراً بالفضيحة التي مثلها زواج رجل الأعمال الثري من خادمته المنزلية السابقة. وأعلن أن ابني المتوفى قد نشرا بياناً يقولان فيه إنهما يعربان عن حزنهما لما حدث، ويأملان في أن تظهر السيدة سليمة ومعافاة. ويعرضان مكافأة لمن يساعد في العثور عليها.

ـ قطيع الصحافة بأسره سيسعى الآن لإجراء مقابلات معي. قال ريغوبيرتو لاعناً.

ـ لقد بدؤوا ـ وجهت إليه خوستينيانا الطعنة ـ فقد اتصلوا من إذاعتين ومن جريدة حتى الآن.

ـ من الأفضل قطع الهاتف. أمرها ريغوبيرتو.

ـ ما الذي يريده نرسيس؟ سألته دونيا لوكريثيا.

ـ لا أدري، لاحظت أنه خائف جداً بالفعل ـ قال موضحاً ـ. لا بدّ أن الضبعين قد فعلا له شيئاً ما. سوف أذهب للقاء به الآن. لقد حددنا موعداً للقاء كما في الأفلام، دون أن نذكر اسم المكان. ربما لن نتمكن من اللقاء أبداً.

استحم ونزل مباشرة إلى المرآب. وحين انطلق في السيارة رأى أمام مدخل البناء، حيث بيته، صحفيين مرابطين ومعهم كاميرات فوتوغرافية. وقبل أن يتوجه إلى مطعم «روسا ناوتيكا»، حيث تناول

الغداء آخر مرة مع إسماعيل كاريرا، قام بعدة جولات في شوارع حي ميرافلوريس كي يتأكد من أن أحداً لا يتبعه. ربما يكون نرسيس قد تعرض لمشاكل مالية. ولكن هذا ليس سبباً لأن يتخذ كل تلك الاحتياطات ويخفي شخصيته. أو ربما لديه سبب ما. حسن، سأعرف الآن ما الذي جرى له. دخل إلى مرآب المطعم، ورأى نرسيس يظهر من بين السيارات. فتح له الباب، فصعد الزنجي وجلس بجانبه: «صباح الخير يا دون ريغوبيرتو. اعذرني لما سببته لك من إزعاج».

ـ لا تقلق يا نرسيس. هلم بنا للقيام بجولة حول المكان وبهذا يمكننا أن نتحدث باطمئنان.

كان السائق يضع قبعة زرقاء غاطسة حتى عينيه، وبدا أنحف مما كان عليه منذ اللقاء به آخر مرة. توجه ريغوبيرتو عبر الشاطئ الأخضر باتجاه بارانكو وتشوريبوس منضماً إلى رتل كثيف من السيارات.

ـ لابد أنك قد رأيت كيف أن مشاكل إسماعيل لا تتوقف حتى بعد موته ـ علق أخيراً ـ. ولابد أنك علمت بأن آرميدا قد اختفت، أليس كذلك؟ يبدو أنها قد اختُطفت.

ولأنه لم يَلْقَ جواباً، ولم يسمع سوى تنفس السائق الجزع، فقد وجه نظرة سريعة إليه. كان نرسيس ينظر إلى الأمام بفم مزموم وفي حدقتيه بريق فزع. وقد شبك يديه وراح يشدهما بقوة.

ـ هذا بالضبط ما أريد التحدث معك عنه يا دون ريغوبيرتو ـ غمغم وهو يعاود النظر إليه ويزيح عينيه عنه في الحال.

ـ أتعني عن اختفاء آرميدا؟ ـ التفت دون ريغوبيرتو إليه مرة أخرى.

واصل سائق إسماعيل النظر إلى الأمام، ولكنه هز رأسه مؤكداً مرتين أو ثلاث مرات.

ـ سأدخل إلى نادي ريغاتاس وأتوقف بالسيارة هناك كي نتحدث

بهدوء. وإلا فإنني سوف أتسبب في تصطادم ـ قال ريغوبيرتو.

دخل إلى النادي وتوقف في صف السيارات الأول مقابل البحر. كان صباحاً رمادياً وضبابياً، وكان هناك الكثير من النوارس والبط والقطرس تحلق في الهواء وتزعق. وفتاة نحيلة جداً ترتدي بيجامة رياضية وتمارس يوغا على الشاطئ المقفر.

ـ لا تقل لي إنك تعرف من هم الذين خطفوا آرميدا يا نرسيس.

كان السائق هو الذي التفت الآن لينظر إلى عينيه ثم ابتسم فاتحاً فمه. بدى بريق أسنانه ناصعة البياض.

ـ لم يختطفها أحد يا دون يغوبيرتو ـ قال مبدياً الجدّ ـ. وهذا الموضوع بالذات هو الذي أريد أن أكلمك بشأنه، لأنني أشعر بشيء من العصبية. ما أردته هو تقديم معروف لآرميدا وحسب، أعني السيدة آرميدا. لقد كنا صديقين جيدين حين كانت مجرد عاملة لدى إسماعيل. وكانت علاقتي بها على الدوام أفضل من علاقتي بالعاملين الآخرين. لم تكن متكبرة، بل بسيطة جداً. وإذا ما طلبتْ مني معروفاً باسم صداقتنا القديمة، فكيف يمكن لي أن أرفض تلبية طلبها. أما كنت حضرتك ستفعل الشيء نفسه؟

ـ سأطلب منك أمراً يا نرسيس ـ قاطعه ريغوبيرتو ـ. من الأفضل أن تخبرني بكل شيء، من البداية. دون أن تنسى أي تفصيل. أرجوك. ولكنني أريد أن أعرف شيئاً واحداً قبل ذلك. أهي حية إذاً؟

ـ إنها حية مثلي ومثلك يا دون ريغوبيرتو. أو أنها كانت كذلك حتى يوم أمس على الأقل.

وعلى عكس ما طلبه منه، لم يتوجه نرسيس إلى لب المسألة فوراً. فهو محب للديباجات والمقدمات والاستطرادات الجانبية واللف والدوران والجُمل الاعتراضية، أو أنه لا يستطيع تجنبها. فلم يكن من

السهل على دون ريغوبيرتو أن يعيده دوماً إلى التسلسل الزمني للوقائع وإلى صلب الموضوع. كان نرسيس يتيه في تفاصيل وتعليقات عرضية. ومع ذلك، عرف ريغوبيرتو بطريقة مشوشة وملتوية أنه في اليوم الذي رأى فيه إسماعيل آخر مرة في بيته بسان إيسيدرو، كان نرسيس هناك أيضاً في المساء، عند الغروب، إذ استدعاه إسماعيل كاريرا. وقد شكره كل من إسماعيل وآرميدا كثيراً على مساعدته لهما ووفائه، وكافآه بسخاء. ولهذا، حين علم في اليوم التالي بموت رب عمله المفاجئ، هرع مسرعاً للتقديم تعزيته للسيدة. بل إنه حمل معه رسالة ليتركها لها لأنه كان شبه واثق من أنها لن تستطيع استقباله. غير أن آرميدا طلبت منه الدخول وتبادلت معه بضع كلمات. لقد كانت المسكينة محطمة من تلك النكبة التي أصابها الله بها ليختبر صلابتها. وفي لحظة وداعها، فوجئ نرسيس بسؤالها له عما إذا كان لديه هاتف محمول يمكنها الاتصال به. فأعطاها الرقم متسائلاً باستغراب عن السبب الذي يمكن لها أن تتصل به من أجله.

بعد يومين من ذلك، أي قبل أول أمس، اتصلت به السيدة آرميدا، في وقت متأخر من الليل، حين كان نرسيس قد انتهى من رؤية برنامج مجالي ميدينا في التلفزيون، وذهب ليندس في الفراش.

ـ يا لها من مفاجأة، يا للمفاجأة. قال السائق حين تعرّف على صوتها.

ـ لقد كنت أكلمها دون كلفة على الدوام ـ أوضح نرسيس لدون ريغوبيرتو ـ. ولكن منذ زواجها من دون إسماعيل، لم يعد بإمكاني فعل ذلك. غير أن كلمة حضرتكِ لم تكن تخرج معي. لذلك كنت أحاول التحدث إليها بصيغة الغائب، لا أدري إن كنتَ تفهمني.

ـ أفهمك تماماً يا نرسيس ـ ووجهه ريغوبيرتو ـ. تابع، تابع. ما

الذي كانت تريده منك آرميدا؟

ـ أريد منك أن تقدم لي معروفاً كبيراً يا نرسيس، جميلاً آخر كبيراً جداً. أطلبه منك مرة أخرى بسبب صداقتنا القديمة.

ـ طبعاً، طبعاً، بكل سرور ـ قال لها السائق ـ وما هو هذا الجميل؟

ـ أن توصلني إلى مكان معين، غداً مساء. دون أن يعلم أحد بالأمر. هل أنت قادر على ذلك؟

ـ وإلى أين أرادتْ أن توصلها؟ ـ استعجله دون ريغوبيرتو.

ـ إنه من أشد الأمور غرابة ـ انحرف نرسيس بالكلام مرة أخرى ـ. لا أدري إن كنتَ تتذكر، ولكن وراء الحديقة، بالقرب من غرفة العاملين، هنالك في بيت دون إسماعيل باب صغير للخدم يؤدي إلى الشارع، يكاد لا يُستخدم مطلقاً. إنه يطل على زقاق ومنه يُخرجون القمامة في الليل.

ـ أرجوك ألا تبتعد عما هو جوهري يا نرسيس ـ ألح ريغوبيرتو ـ. ألا يمكنك أن تخبرني بما كانت تريده منك آرميدا؟

ـ أرادت مني أن أنتظرها هناك، بسيارتي القديمة، طيلة المساء. إلى أن تظهر هي. ودون أن يراني أحد. أمر غريب، أليس كذلك؟

بدا الأمر غريباً جداً لنرسيس. ولكنه فعل ما طلبَته هي منه، دون مزيد من الأسئلة. ومع بداية مساء البارحة، أوقف سيارته في ذلك الزقاق قبالة باب الخدمة في بيت دون إسماعيل. انتظر نحو ساعتين وهو يكاد يموت من الضجر، وكان يغلبه النعاس للحظات، ويستمع إلى نكات من المذياع في لحظات أخرى، أو يتأمل الكلاب الشاردة وهي تنبش أكياس القمامة، ويتساءل مرة بعد أخرى عما يعنيه كل ذلك. لماذا تتخذ آرميدا كلَ تلك الاحتياطات من أجل الخروج من البيت؟ لماذا لا تخرج من البوابة الكبيرة، بسيارتها المرسيدس بنز، ومع سائقها

الجديد ذي الزي الخاص وحراسها الشخصيين ذوي العضلات المفتولة؟ لماذا تريد الخروج خفية في سيارة نرسيس العتيقة؟ وأخيراً انفتح الباب الصغير وظهرت آرميدا وبيدها حقيبة صغيرة.

ـ ما هذا، ما هذا، كنت قد بدأت أفكر بالانصراف ـ قال لها نرسيس على سبيل التحية، وفتح لها باب سيارته المتهالكة.

ـ انطلق بسرعة يا نرسيس، قبل أن يرانا أحد ـ أمرته ـ. بل طِرْ طيراناً.

ـ كانت مستعجلة جداً يا سيدي ـ أوضح السائق ـ. عندئذ بدأت أقلق. أيمكنني أن أعرف ما سبب كل هذه السرية يا آرميدا؟

ـ ما هذا، أراك عدت إلى مناداتي بآرميدا ورفع الكلفة معي ـ قالت ضاحكة ـ. كما في الأزمنة القديمة. أحسنت صنعاً يا نرسيس.

ـ أعتذر ألف مرة ـ قال السائق ـ. أعرف أنه عليّ أن أكلمك باحترام بعد أن صرتِ الآن سيدة عالية المقام.

ـ دعك من البلاهات وحدثني بلا تكلف وحسب، لأنني مازلت أنا نفسي مثلما كنت على الدوام ـ قالت ـ. لستَ سائقي، بل أنت صديقي ورفيقي. أتدري ما الذي كان يقوله إسماعيل عنك؟ «هذا الزنجي يساوي وزنه ذهباً.» إنها الحقيقية الخالصة. إنك تساوي ذلك يا نرسيس.

ـ أخبريني على الأقل إلى أين تريدين أن أوصلك ـ سألها.

ـ إلى محطة حافلات كروث دي تشالبون؟ ـ قال ريغوبيرتو مذهولاً ـ. أكانت تريد السفر؟ أكانت آرميدا تريد ركوب حافلة يا نرسيس؟

ـ لا أدري إذا ما فعلت ذلك، ولكنني تركتها هناك ـ أكد السائق ـ. في تلك المحطة. لقد قلت لك إنها كانت تحمل حقيبة صغيرة. يخيل إليّ أنها كانت مسافرة. طلبت مني ألا أوجه إليها أسئلة، فلم أوجه أسئلة.

ـ من الأفضل أن تنسى هذا كله يا نرسيس ـ كررت آرميدا وهي تصافحه مودعة ـ من أجلي ومن أجلك أنت على السواء. هنالك أشرار يريدون إلحاق الأذى بي. أنت تعرف من هم. ويريدون الأذية لكل أصدقائي. أنت لم ترني، ولم تجئ بي إلى هنا، ولا تعرف أي شيء عني. لا أستطيع أن أرد لك جميلك هذا طيلة حياتي يا نرسيس.

ـ لم أستطغ النوم طيلة هذه الليلة ـ أضاف السائق ـ. كانت الساعات تمر وأنا أزداد خوفاً، مثلما أقول لك، كنت أخاف أكثر فأكثر. بعد كل الرعب الذي سببه لي التوءمان، يأتي الآن هذا الخوف. لهذا اتصلت بك يا دون ريغوبيرتو. وما إن أنهيت مكالمتي معك حتى سمعت في تلفزيون ر.ب.ب. أن السيدة آرميدا قد اختفت، أنها قد اختُطفت. لهذا مازلتُ أرتجف حتى الآن.

ربت دون ريغوبيرتو على كتفه.

ـ أنت طيب جداً يا نرسيس، ولهذا أنت خائف جداً. لقد أدخلت نفسك الآن مجدداً في ورطة كبيرة. أخشى أنه سيكون عليك أن تذهب إلى الشرطة وتروي لهم هذه القصة.

ـ لن أفعل ذلك ولو مت يا سيدي ـ أجابه السائق بتصميم ـ. لا أدري أين ذهبت آرميدا ولا لماذا ذهبت. وإذا ما أصابها شيء سيبحثون عن مذنب. وأنا المذنب المناسب لهم تماماً، لاحظ ذلك. سائق سابق لدون إسماعيل، متواطئ مع السيدة. ومن أجل أن تكتمل القضية: زنجي. لستُ مجنوناً كي أذهب بنفسي إلى الشرطة.

«كلام دقيق»، فكّر دون ريغوبيرتو. إذا لم تظهر آرميدا، سيكون على نرسيس أن يدفع ثمن الأطباق المكسرة.

ـ حسن، ربما تكون على حق ـ قال ـ. لا تخبر أحداً بما قلته لي. دعني أفكر. سأرى بماذا يمكنني أن أنصحك بعد أن أقوم بتقليب الأمر

والتمعن فيه. أضف إلى ذلك أنه يمكن لآرميدا أن تعود للظهور في أي لحظة. اتصل بي غداً، مثلما اتصلت اليوم، في موعد تناول الفطور.

أوصلَ نرسيس إلى مرآب «روسا ناوتيكا» ورجع إلى بيته في بارّانكو. دخل مباشرة إلى المرآب، كي يتجنب الصحفيين الذين مازالوا يتجمعون أمام مدخل العمارة. وقد صار عددهم ضعف ما كانوا عليه.

كانت دونيا لوكريثيا وخوستينيانا لا تزالان تتابعان التلفزيون، تستمعان إلى الأخبار بملامح ذاهلة. وقد استمعتا إلى روايته فاغرتي الفم.

ـ أغنى امرأة في البيرو تهرب بحقيبة يدوية صغيرة، وفي حافلة بائسة مثل أي صعلوك متشرد، ودون وجهة محددة ـ أنهى دون ريغوبيرتو روايته ـ. المسلسل الطويل لا ينتهي، إنه يتواصل ويتعقد أكثر فأكثر كل يوم.

ـ أنا أفهمها جيداً ـ هتفت لوكريثيا ـ. لقد كانت ضجرة من كل شيء، من المحامين، من الصحفيين، من الضبعين، من النمامين. أرادت أن تتوارى عن الأنظار. ولكن أين؟

ـ وأين سيكون إلا في بيورا ـ قالت خوستينيانا واثقة مما تقول ـ. فهي بيورانية ولها أخت هناك تدعى خيرترورديس، على ما أظن.

XVII

«لم تبكِ ولو مرة واحدة»، فكّر فيليثيتو ياناكيه. بالفعل، ولا مرة واحدة. لكن خيرترورديس صارت بكماء. لم تعد إلى فتح فمها بكلمة واحدة، معه على الأقل، ومع ساتورنينا، الخادمة. ربما كانت تتكلم مع أختها آرميدا التي استقرت، منذ مجيئها إلى بيورا، في الغرفة التي كان ينام فيها تيبورثيو وميغيل حين كانا طفلين وشابين قبل أن يغادرا ليعيشا وحدهما.

خيرترورديس وآرميدا تُمضيان ساعات طويلة هناك، ومن المحال ألا تكونا قد تبادلتا الكلام طوال ذلك الوقت. ولكن خيرترورديس أصيبت بالبكم منذ مساء أول أمس، حين رجع فيليثيتو من عند التقية آديلايدا وأخبر زوجته بأن الشرطة قد اكتشفت أن عنكبوت الابتزاز هو ميغيل، وأن ابنها قد اعتُقل واعترف بكل شيء. لم تعد إلى فتح فمها أمامه. (لم يذكر لها فيليثيتو طبعاً أي شيء عن مابيل). لقد تأججت عينا خيرترورديس وسيطر عليهما الغم، أجل، وشابكت يديها كمن تصلي. وبهذا الوضع كان يراها فيليثيتو كلما التقيا معاً خلال الأربع والعشرين ساعة الأخيرة. وبينما هو يختصر لها القصة التي أخبرته بها الشرطة، مخفياً عنها طيلة الوقت اسم مابيل، لم تسأله زوجته عن أي شيء، ولم تعلق بأي شيء، ولم تجب على الأسئلة القليلة التي وجهها إليها. ظلت جالسة هناك، في العتمة الظليلة بحجرة التلفزيون، صامتة،

منطوية على نفسها مثل قطعة أخرى من قطع الأثاث، تنظر إليه بتينك العينين اللامعتين والمتشككتين، وبيدين متشابكتين، مثل معبود وثني. بعد ذلك، حين نبهها فيليثيتو إلى أن الخبر سينتشر عما قريب، وسوف يتوافد الصحفيون كالذباب إلى البيت، وعليها ألا تفتح الباب ولا أن ترد في الهاتف على أسئلة أي صحيفة أو إذاعة أو تلفزيون، نهضت واقفة، دون أن تنطق بأي كلمة، وذهبت لتعتكف في حجرة أختها. لفت انتباه فيليثيتو أن خيرترروديس لم تحاول الذهاب فوراً لرؤية ميغيل في مفوضية الشرطة أو السجن. وكذلك صمتها. هل إضراب الصمت هذا يقتصر عليه هو؟ لا بد أنها قد تحدثت مع آرميدا، لأن هذه بدت في الليل وخلال العشاء مطلعة على ما حدث.

ـ يؤسفني جداً مجيئي لإزعاجكم في هذه اللحظات بالغة الصعوبة عليكم ـ قالت له السيدة الأنيقة التي كان يقاوم فكرة دعوتها بابنة حميه بينما هي تمدّ إليه يدها ـ. لم يكن لدي مكان أذهب إليه. ستكون بضعة أيام فقط، أعدك بهذا. أطلب منك ألف معذرة لأنني داهمت بيتك بهذه الطريقة يا فيليثيتو.

لم يكن يصدق عينيه. أتكون هذه السيدة البهية، فاخرة الملابس والمجوهرات، هي أخت خيرترروديس؟ إنها تبدو أكثر شباباً بكثير منها، كما أن ملابسها وحذاءها وخواتمها وقرطيها وساعة يدها، كلها كتلك التي تستخدمها أولئك السيدات الثريات اللاتي يعشن في بيوت كبيرة ذات حدائق ومسبح في إلتشيبه، وليس واحدة أخرى من أسرة صاحبة نُزل شجرة الخروب، ذلك النسيون التافه في إحدى ضواحي بيورا.

أثناء العشاء تلك الليلة، لم تتذوق خيرترروديس لقمة واحدة، ولم تتفوه بأية كلمة. رفعت ساتورنينا طبق حساء الشعيرية دون أن يمس،

وكذلك طبق الأرز مع الدجاج. وطوال فترة المساء وشطر لا بأس به من الليل توالى الطرقُ على باب البيت ورنين جرس الهاتف دون توقف، على الرغم من أن أحداً لم يكن يفتح الباب أو يرفع سماعة الهاتف. كان فيليثيتو يترصد بين حين وآخر من خلال ستائر النافذة: ما زال في الخارج أولئك الغربان المتلهفون للحصول على جيفة لآلات تصويرهم، يتجمعون على الرصيف وفي شارع اريكيبا، منتظرين أن يخرج أحد من البيت لينقضوا عليه. ولكن لم يخرج أحد سوى ساتورنينا، لأنها خادمة بلا مبيت، وكان خروجها في وقت متأخر من الليل، وقد رآها فيليثيتو تدافع عن نفسها من الهجوم برفع ذراعيها، وأخفاء وجهها أمام وميض فلاشات المصورين، والانطلاق راكضة.

في الصالة الصغيرة فقط، شاهد فيليثيتو أخبار محطة التلفزيون المحلي واستمع إلى المذياع حيث يشيع انتشار الخبر. ظهر ميغيل على شاشة التلفاز، وكان عابساً، مشعث الشعر ومكبل اليدين، يرتدي بيجامة رياضية وحذاء كرة سلة، وكذلك مابيل، ولكنها لم تكن مقيدة اليدين، تنظر بهلع إلى وميض آلات التصوير. وأحس فيليثيتو في أعماقه بالامتنان لأن خيرترورديس قد ذهبت لتلوذ بحجرتها ولم تر، وهي جالسة بجانبه، هذه الأخبار حيث يجري الكشف عن أن عشيقته، المدعوة مابيل، التي فتح لها بيتاً في حي كاستيليا، قد خانته مع ابنه بالذات، ودبرا معا مؤامرة لابتزازه بإرسالهما رسائل العنكبوت الشهيرة، وافتعالهما حريق مقر ناريهوالا للنقل.

كان يرى ويسمع ذلك كله بقلب منقبض ويدين مبللتين بالعرق، ويشعر ببداية دوار آخر مماثل لذاك الذي أفقده الإحساس عند آديلايدا، ولكن مع الشعور المثير للفضول، في الوقت نفسه، بأن ذلك كله صار بعيداً جداً وغريباً عنه. ليست له أية علاقة به. حتى إنه لم

يشعر بأنه معني بالأمر حين ظهرت صورته بالذات على الشاشة، بينما المذيع يتكلم عن عشيقته مابيل (التي أطلق عليها تسمية «مُساكِنته»)، وعن ابنه ميغيل وعن شركته للنقل. بدا كما لو أنه قد انفصل عن نفسه، وكما لو أن فليثيتو ياناكي الذي يظهر في الصور التلفزيونية والأخبار الإذاعية هو شخص ينتحل اسمه ووجهه.

وحين اضطجع، دون أن يتمكن من النوم، أحس بخطوات خيرترورديس في غرفة النوم المجاورة. رأى الساعة: قرابة الواحدة بعد منتصف الليل. وزوجته، على ما يتذكر، لم تتأخر قطّ في السهر إلى مثل هذا الوقت. لم يستطع النوم، أمضى الليل مؤرقاً، كان يفكر للحظات، ولكنه يظل في معظم الوقت خالي الذهن، يصغي إلى نبضات قلبه. وفي موعد تناول الفطور، كانت خيرترورديس لا تزال صامتة؛ لم تتناول سوى فنجان شاي. بعد قليل من ذلك، وبطلب من فيليثيتو، جاءت خوسيفيتا لتطلعه على ما يحدث في المكتب، وليكلفها ببعض المهام، وبتحرير بعض الرسائل. وقد حملت إليه كذلك رسالة من ابنه تيبورثيو الذي كان في تومبيس. وحين علم بالأخبار، اتصل عدة مرات، لكن أحداً لم يرد عليه. لقد كان يسوق حافلة ركاب على ذلك الخط، وفور وصوله إلى بيورا سيهرع إلى بيت أبويه. بدت سكرتيرته مشوشة من الأخبار إلى حدّ كاد معه فليثيتو ألا يتعرف عليها. فهي تتفادى النظر إلى عينيه والتعليق الوحيد الذي تفوهت به هو عن مدى سماجة أولئك الصحفيين، فقد سببوا لها الجنون يوم أمس في المكتب، وأحاطوا بها الآن لدى وصولها إلى البيت، دون أن يسمحوا لها بالاقتراب من الباب لوقت طويل، بالرغم من أنها كانت تصرخ بهم بأنه ليس لديها ما تقوله، وأنها لا تعرف شيئاً، وأنها سكرتيرة السيد ياناكيه وحسب. كانوا يوجهون إليها أسئلة شديدة الوقاحة، ولكنها لم تقل لهم،

بالطبع، ولو كلمة واحدة. وعندما انصرفت خوسيفيتا، رأى فيليثيتو من النافذة أنها تعرضت مرة أخرى لهجوم حفنة رجال ونساء يحملون آلات تسجيل وكاميرات ويتزاحمون على رصيف شارع اريكيبا.

في موعد الغداء، جلست خيرترورديس إلى المائدة مع آرميدا ومعه، ولكنها لم تأكل ولو لقمة واحدة، ولم تتفوه بأية كلمة. كانت عيناها كجمرتين، وكانت تشدّ إحدى يديها على الأخرى. ما الذي تراه يدور في رأسها مشعث الشعر؟ خطر له أنها نائمة، وأن الأخبار عن ميغيل قد حولتها إلى مسرنمة.

ـ كم هو رهيب، يا فيليثيتو، هذا الذي يحدث لكم ـ اعتذرت آرميدا بأسى مرة أخرى ـ. لو أني كنت أعلم هذا كله لما وقعت عليكم على هذا النحو المفاجئ قطّ. ولكن، مثلما قلت لك أمس، ليس لدي مكان أذهب إليه. وجدت نفسي في وضع صعب جداً وبحاجة إلى التواري عن الأنظار. سأشرح لك كل شيء بالتفصيل حين ترغبُ حضرتك. أعرف أن مشاكل أخرى أكثر أهمية تشغل تفكيرك الآن. ولكن صدق قولي هذا على الأقل: لن أبقى لأيام إضافية طويلة.

ـ أجل، ستخبرينني بكل ما تريدين، ومن الأفضل أن يكون ذلك فيما بعد ـ قال موافقاً ـ. حين تمر قليلاً هذه العاصفة التي تجتاحنا. يا لسوء الحظ يا آرميدا. أن تأتي لتختبئي هنا بالذات، حيث يتمركز صحفيو بيورا جميعهم بعد هذه الفضيحة. أشعر أنني سجين في بيتي بسبب هذه الكاميرات وآلات التسجيل.

هزت أخت خيرترورديس رأسها موافقة، وبنصف ابتسامة متفهمة:

ـ لقد مررتُ بمثل هذا وأعرف ما الذي يعنيه ـ سمعها تقول دون أن يفهم ما الذي تعنيه. ولكنه لم يطلب منها أن تفسر له ذلك.

وأخيراً، عند العصر، وبعد كثير من التفكير، قرر فيليثيتو أن الوقت

قد حان. طلب من خيرترورديس أن تذهب إلى صالة التلفزيون الصغيرة: «علينا أن نتحدث أنت وأنا على انفراد»، قال لها. انسحبت آرميدا فوراً إلى حجرتها. بينما تبعت خيرترورديس زوجها بكل وداعة إلى الحجرة المجاورة. جلست الآن على أريكة مقابله، تحت إضاءة خافتة، بهدوء وخمول وصمت. كانت تنظر إليه دون أن تراه كما يبدو.

ـ لم أكن أتصور أنه سيأتي يوم نتحدث فيه عما سنتحدث عنه الآن. بدأ فيليثيتو بنعومة بالغة. ولاحظ، متفاجئاً، أن صوته يرتجف.

لم تتحرك خيرترورديس. كانت محشورة في الثوب عديم الهوية الذي يبدو هجيناً ما بين جلباب وعباءة، وتنظر إليه، كما لو أنه غير موجود هناك، بتينك الحدقتين اللامعتين ببريق هادئ في وجهها المتلئ ذي الفم الكبير، إنما الخالي من التعبير. كانت تضع يديها في حضنها، مشدودتين بقوة، كما لو أنها تعاني آلاماً رهيبة في المعدة.

ـ لقد خامرني الشك منذ اللحظة الأولى ـ واصل صاحب شركة النقل وهو يبذل جهداً للسيطرة على العصبية التي استحوذت عليه ـ لكنني لم أقل لكِ ذلك كيلا أُحرجكِ. وكنت سأحمل الأمر معي إلى القبر لو لم يحدث ما حدث.

أطلق زفرة، تنفس بعمق. لم تكن زوجته قد تحركت ميليمتراً واحداً، كما أنها لم ترمش ولو مرة واحدة. بدت متحجرة. بدأت حشرةٌ غير مرئية تئز في مكان ما من الحجرة، وتصطدم بالسقف والجدران. كانت ساتورنينا تسقي الحديقة، وكان يُسمع صوت انسكاب ماء المرشة على النباتات.

ـ ما أعنيه ـ واصل الحديث مشدداً على كل حرف ـ أنك أنت وأمك قد خدعتماني. في ذلك اليوم، هناك في نزل شجرة الخروب. لم يعد الأمر يهمني الآن. لقد مضت سنوات طويلة، ولا فرق لدي اليوم في

اكتشاف أنك أنت والآمرة قد أوقعتما بي. الشيء الوحيد الذي أريده، كي أموت مطمئناً، هو أن تؤكدي لي ذلك يا خيرترووديس.

صمت وانتظر. ظلت هي في الوضع نفسه، جامدة، لكن فيليثيتو لاحظ أن أحد الخفين اللذين في قدمي امرأته قد انزاح جانباً بصورة ضئيلة. ثمة حياة هناك على الأقل. بعد لحظات، باعدت خيرترووديس ما بين شفتيها وأطلقت جملة أشبه بزمجرة:

ـ ماذا تريدني أن أؤكد لك يا فيليثيتو؟

ـ أن ميغيل ليس ابني ولم يكن كذلك قطّ ـ قال رافعاً صوته قليلاً ـ. وأنكِ كنتِ حاملاً من آخر عندما جئتِ أنت والآمرة في ذلك الصباح، في نُزل شجرة الخروب، لتتكلما وجعلتماني أصدق أنني أنا الأب. بعد أن تقدمتما بشكوى إلى الشرطة لإجباري على الزواج منكِ.

حين أنهى هذه الجملة أحس بالضيق والضجر، كما لو أنه أكل شيئاً غير قابل للهضم أو تناول إبريقاً شديد التخمر من شراب التشيتشا.

ـ لقد ظننتُ أنك أنت الأب ـ قالت خيرترووديس بهدوء مطلق. كانت تتكلم دون غضب، بالاشمئزاز الذي تشير به دوماً إلى أي شيء، باستثناء الأمور الدينية. ثم أضافت، بعد صمت طويل، بالطريقة المحايدة وغير المبالية نفسها: ـ لم يكن في نيتي ولا في نية أمي أن نخدعك. لقد كنتُ متأكدة آنذاك من أنك أنت أبو الجنين الذي كان في بطني.

ـ ومتى انتبهت إلى أنه ليس مني؟ سألها فيليثيتو باندفاع آخذ بالتحول إلى غضب.

ـ حين ولد ميغيليتو فقط ـ اعترفتْ خيرترووديس، دون أدنى تبدل في نبرة صوتها ـ. حين رأيته شديد البياض، بعينيه الزرقاوين وشعر أقرب

إلى الأشقر. لا يمكن له أن يكون ابن خلاسي تشولو تشوليكاني مثلك.

صمتت وواصلت النظر إلى عيني زوجها بالهدوء نفسه. فكر فيليثيتو بأن خيرترووديس تبدو كمن تكلمه من تحت الماء أو من خلال زجاج سميك. كان يشعر بها منفصلة عنه بشيء غير مرئي ولا يمكن اجتيازه، بالرغم من أنها على مسافة متر واحد منه.

ـ إنه ابن سبعة آباء حقيقي، ليس من المستغرب أن يفعل بي ما فعله ـ دمدم بين أسنانه ـ. وهل عرفتِ عندئذ من هو والد ميغيل الحقيقي؟

تنهدت زوجته وهزت كتفيها بإيماءة يمكن لها أن تكون تعبيراً عن عدم الاهتمام أو التعب. وأنكرت بهز رأسها مرتين أو ثلاث مرات، وبرفع كتفيها.

ـ كم من الأشخاص ضاجعتِ في نُزل شجرة الخروب إذن، تشي غوا؟. كان فيليثيتو يشعر بعقدة في حلقه وأنه يريد إنهاء ذلك الموقف دفعة واحدة.

ـ جميع من كانت أمي تُدخلهم إلى فراشي ـ زمجرت خيرترووديس ببطء واقتضاب. ثم تنهدت من جديد بمزاج إنهاك غير متناهٍ، وحددت: ـ كثيرون. وليسوا جميعهم من النزلاء. بل أشخاص يأتون من الشارع أحياناً.

ـ الآمرة هي من كانت تُدخلهم إليك؟ كان يجد صعوبة في التكلم ويشعر بأزيز في رأسه.

ظلت خيرترووديس ساكنة، بلا تبدل، كأنها شبح مسطح، وهي تشدُّ إحدى يديها على الأخرى طوال الوقت. كانت تنظر إليه بثبات غائب، مضيئة وهادئة، مما يزيد من تشوش فيليثيانو كل لحظة.

ـ هي من كانت تختارهم وتتقاضى النقود منهم، وليس أنا ـ أضافت

امرأته، بشيء من التبدل في نبرة صوتها. لم تعد تبدو الآن أنها تخبره وحسب، بل تتحداه أيضاً ـ من تراه يكون أبو ميغيل. لا أعرف. إنه أبيض ما، أحد أولئك الغرباء الذين كانوا يمرون من نزل شجرة الخروب. ربما واحد من اليوغسلافيين الذين جاؤوا للعمل في أنظمة ري نهر تشيرا. فقد كانوا يأتون إلى بيورا ليسكروا في عطلة نهاية الأسبوع، ويمرون بالنُّزل.

ندم فيليثيتو على فتح هذا الحوار. هل أخطأ بإخراجه إلى السطح، هذا الموضوع الذي لاحقه مثل ظله طيلة حياته؟ وهاهوذا الآن هناك، بينهما، لا يدري كيف يزيحه عن كاهله. كان يشعر به كعائق رهيب، كموضوع دخيل لن يخرج أبداً من هذا البيت.

ـ وكم عدد من أدخلتهم الآمرة إلى فراشك؟ ـ زمجر. كان متأكداً من أنه سيصاب في أية لحظة بإغماءة أخرى أو بنوبة تقيؤ ـ بيورا بأسرها؟

ـ لم أحصِ عددهم ـ قالت خيرترورديس بلا مبالاة، مبدية تكشيرة ازدراء ـ. ولكن بما أنك مهتم بمعرفة ذلك، أكرر لك بأنهم كانوا كثيرين. وكنت حريصة قدر ما أستطيع. لم أكن أعرف الكثير حول هذه الأمور آنذاك. وحقن الغسول التي كنت استخدمها يومياً كانت تنفعني، هذا ما كنت أظنه وما قالته لي أمي. لا بد أن شيئاً قد حدث بشأن ميغيل. ربما أكون قد تهاونت. لقد أردت الإجهاض عند قابلة أشبه بساحرة في الحي. كانوا يسمونها «الفراشة»، ربما تكون قد عرفتها. ولكن الآمرة لم تسمح لي بذلك. وهي من خرجت بفكرة الزواج. أنا لم أكن راغبة في الزواج منك أيضاً يا فيليثيو. لقد كنت أعرف أنني لن أكون سعيدة أبداً إلى جانبك. ولكن أمي هي التي أجبرتني.

لم يعد صاحب شركة النقل يدري ما يقول. ظل ساكناً، يفكر، قبالة امرأته، كم هو مضحك جلوسهما هناك، أحدهما مقابل الآخر،

مشلولين، صامتين عن ماضٍ شديد القبح ينبعث فجأة ليضيف خزياً، وعاراً، وألماً، وحقائق مريرة على النكبة التي حلّت به للتو من ابنه الزائف ومن مابيل.

ـ لقد كنت أدفع ثمن خطاياي طيلة هذه السنوات يا فيليثيتو ـ سمعَ خيرترورديس تقول، وهي تكاد لا تحرك شفتيها الغليظتين، ودون أن ترفع بصرها عنه ولو ثانية واحدة، مع أنها لم تكن تراه، وتتكلم كما لو أنه غير موجود معها ـ لقد حملتُ صليبي بصمت. وأنا أعرف جيداً أنه على المرء أن يدفع ثمن خطاياه. ليس في الحياة الأخرى فقط، بل في هذه الحياة أيضاً. لقد تقبَّلتُ ذلك. وندمت عن نفسي وعن أمي كذلك. لم أعد أشعر نحوها بالضغينة الكبيرة التي كنت أشعر بها في شبابي. ومازلت أدفع الثمن، وأرجو بعد كل هذه المعاناة أن يغفر لي السيد يسوع المسيح خطاياي الكثيرة.

كان فيليثيتو يريدها أن تصمت دفعة واحدة لينصرف. ولكنه لم يجد القوة للنهوض والخروج من الحجرة. كانت ساقاه ترتعشان بقوة. وفكر: «أود لو أكون تلك الحشرة التي تئز، وليس من أنا».

ـ أنت نفسك ساعدتني على دفع الثمن يا فيليثيتو ـ واصلت امرأته وقد خفضت صوتها قليلاً ـ وأنا أشكرك على ذلك. ولهذا لم أقل لك أي شيء قطّ. ولهذا لم أواجهك بأي شجار بدافع الغيرة، ولم أوجه لك أسئلة يمكن لها أن تزعجك. ولهذا لم أُبدِ قطّ ما يشير إلى علمي بعلاقتك مع امرأة أخرى، وأن لك عشيقة، وهي مختلفة عني بأنها ليست عجوزاً ولا دميمة، بل شابة وجميلة. ولهذا لم أتذمر قطّ من وجود مابيل، ولم أوجّه إليك أي تأنيب. لأن مابيل تساعدني أيضاً في دفع ثمن ذنوبي.

صمتتْ منتظرة أن يقول صاحب شركة النقل شيئاً، ولأن هذا لم

يفتح فمه، أضافت:

ـ أنا أيضاً لم أكن أعتقد مطلقاً بأننا سنفتح هذا الحديث يا فيليثيتو. أنت من أردته وليس أنا.

توقفتْ مرة أخرى في صمت طويل وتمتمت وهي ترسم إشارة الصليب في الهواء بأصابعها ذات العقد:

ـ والآن، هذا الذي فعله بك ميغيل هو الكفارة التي عليك أنت أن تدفعها. وأنا أيضاً.

ومع الكلمة الأخيرة، نهضت خيرترروديس وخرجت من الغرفة مجرجرة قدميها. ظل هو جالساً في حجرة التلفزيون الصغيرة، دون أن يسمع الضجيج، والأصوات، والأبواق في شارع اريكيبا، ولا أصوات محركات الموتوتكسي. ظل غارقاً في حالة سبات كثيف، في يأس وحزن لا يسمحان له بالتفكير ويحرمانه من أدنى قدر من الطاقة التي تتيح له النهوض. كان يريد فعل ذلك، يريد الخروج من هذا البيت، على الرغم من أن الصحفيين سينقضّون عليه فور وصوله الشارع، بأسئلتهم المتمادية، وكل سؤال منها أكثر بلاهة من الآخر، وأن يذهب إلى كورنيش إغويغورين ويجلس هناك ليشاهد جريان مياه النهر البنية والرمادية، ويتأمل بفضول سُحب السماء، ويتنفس هواء الظهيرة الساخن، ويستمع إلى صفير العصافير. لكنه لم يحاول التحرك لأن ساقيه لن تطاوعاه أو لأن الدوار سيطرحه أرضاً على السجادة. كان يرعبه التفكير في أن أباه قد سمع، من الحياة الأخرى، الحوار الذي جرى للتو بينه وبين امرأته.

لم يدر كم من الوقت ظل على تلك الحال من التهويم اللزج، شاعراً بمرور الوقت، خجلاً من نفسه ومشفقاً عليها، وعلى خيرترروديس، وعلى مابيل، وميغيل، والعالم بأسره. وبين لحظة وأخرى، كمثل شعاع

نور واضح، يطل من رأسه وجه أبيه فتخفف عنه هذه الصورة العابرة لهنيهة. «لو أنك كنت حياً وعلمتَ بهذا كله لكنت متَ مرة أخرى»، هذا ما فكر به.

وفجأة، لاحظ أن تيبورثيو قد دخل إلى الغرفة دون أن يكون قد انتبه إليه. كان جاثياً إلى جانبه، يمسكه بذراعيه وينظر إليه بخوف.

ـ إنني بخير، لا تقلق ـ طمأنه. لقد غفوت لحظات وحسب.

ـ أتريد أن أستدعي طبيباً؟ ـ كان ابنه بالأفرهول الأزرق والقبعة الخاصة بسائقي الشركة، وعلى واقيتها يُقرأ: «ناريهوالا للنقل». وكان يحمل في يده قفازي الجلد الخام اللذين يلبسهما عندما يقود الحافلات ـ إنك شاحب جداً يا أبي.

ـ أأنت عائد للتو من تومبيس؟ ـ ردّ عليه ـ هل كانت الرحلة جيدة؟

ـ كانت الحافلة ممتلئة تقريباً، والحمولة كانت كبيرة ـ أكد تيبورثيو. وكان الذعر لا يزال بادياً على وجهه وهو يتفحصه، كما لو أنه يحاول انتزاع سرّ منه. بدا واضحاً أنه يرغب في توجيه أسئلة كثيرة إليه، لكنه لم يجرؤ على ذلك. وقد أشفق فيليثيتو عليه بدوره.

ـ سمعتُ خبر ميغيل من المذياع وأنا هناك في تومبيس ـ قال تيبورثيو مضطرباً ـ. لم أستطع تصديق ذلك. اتصلت ألف مرة بهذا البيت ولكن أحداً لم يردَّ على الهاتف. لا أدري كيف استطعتُ قيادة الحافلة حتى هنا. أتعتقد أن ما تقوله الشرطة عن أخي صحيح؟

كان فيليثيتو على وشك أن يقاطعه ليقول له «هو ليس أخوك»، ولكنه كبح نفسه. أولم يكن ميغيل وتيبورثيو أخوين؟ لقد كانا كذلك، ولو أنهما نصف أخوين.

ـ قد تكون أكذوبة، أنا أظن أنها أكاذيب ـ قال تيبورثيو الآن

بهياج، دون أن ينهض عن الأرض، وهو ما يزال يمسك أبيه بين ذراعيه ـ يمكن أن تكون الشرطة قد انتزعت منه اعترافاً زائفاً، بتهشيمه ضرباً.. بتعذيبه. من المعروف أنهم يفعلون هذه الأشياء.

ـ لا يا تيبورثيو. إنها الحقيقة ـ قال فيليثيتو ـ لقد كان هو نفسه العنكبوت. هو من حاك هذا الأمر كله. لقد اعترف لأنها هي، شريكته، قد وشت به. سأطلب منك الآن معروفاً كبيراً يا بني. لا أريد أن نتحدث في هذا الموضوع. إلى الأبد. لا عن ميغيل، ولا عن العنكبوت. الأمر بالنسبة لي كما لو أن أخاك لم يعد له وجود. أو بكلمة أدق، كما لو أنه لم يوجد قطّ. لا أريد ذكر اسمه في بيتي. إلى الأبد. أنت تستطيع أن تفعل ما تشاء. أن تذهب لرؤيته إذا شئت ذلك. أن تأخذ له طعاماً، أن تحصل له على محام، أو أي شيء تريده. لا يهمني ذلك. لست أدري ما الذي ستفعله أمك. لا تخبراني بأي شيء. لا أريد أن أعرف شيئاً. لا تذكراه أبداً أمامي. إنني ألعن اسمه وانتهى الأمر. والآن، ساعدني على النهوض يا تيبورثيو. لا أدري السبب، ولكن كما لو أن ساقيّ لم تعودا تستجيبان لي فجأة.

نهض تيبورثيو واقفاً، وأمسكه من ذراعيه وأنهضه دون جهد.

ـ سأطلب منك أن ترافقني إلى المكتب ـ قال فيليثيتو ـ. الحياة يجب أن تستمر. لابد من متابعة العمل، علينا النهوض بالشركة التي أُهملت. فليس الأسرة وحدها هي التي تعاني من هذا الوضع يا بني؛ بل ناريهوالا للنقل أيضاً. يجب أن نضعها على السكة من جديد.

ـ الشارع يغص بصحفيين ـ نبهه تيبورثيو ـ. لقد انقضوا عليّ كبقعة زيت عند مجيئي ولم يسمحوا لي بالمرور. كنت على وشك أن أبدأ بتوجيه اللكمات لواحد منهم.

ـ ستساعدني أنت على التملص من هؤلاء الثقلاء يا تيبورثيو ـ نظر

إلى عيني ابنه، ثم أضفى عذوبة على صوته وهو يبدي إيماءة حنان خرقاء على وجهه: ـ أشكرك لأنك لم تأت على ذكر مابيل يا بني. ولأنك لم تسألني عن تلك المرأة. أنت ابن طيب.

أمسك بذراع الفتى وتقدم معه باتجاه المخرج. ما إن انفتح الباب المؤدي إلى الشارع حتى انفجر صخب مدوٍ، واضطر أن يرمش أمام وميض فلاشات التصوير. «ليس لدي ما أصرح به أيها السادة، أشكركم جزيل الشكر»، كرر ذلك مرتين، ثلاث مرات، عشر مرات، بينما هو متعلق بذراع تيبورثيو ويتقدم بصعوبة عبر شارع اريكيبا، محاصراً، مدفوعاً، مزعزعاً وسط حشد الصحفيين الذين ينتزع أحدهم الكلمة من الآخر ويدسون في وجهه الميكروفونات والكاميرات ودفاتر الملاحظات والأقلام. يوجهون إليه أسئلة لا يتمكن من فهمها. بينما هو يكرر بين لحظة وأخرى، كما في لازمة ثابتة: «ليس لدي ما أصرح به أيها السادة، أشكركم جزيل الشكر». رافقوه حتى ناريهوالا للنقل، لكنهم لم يدخلوا إلى مقر الشركة لأن الحارس أغلق الباب في وجوههم. حين جلس وراء اللوح الخشبي الموضوع فوق برميلين، والذي صار منضدة مكتبه، قدم إليه تيبورثيو كأس ماء.

ـ وتلك السيدة الأنيقة المدعوة آرميدا، هل كنت تعرفها يا أبي؟ ـ سأله ـ هل كنت تعرف أن هنالك أختاً لأمي تقيم في ليما؟ لم تخبرنا نحن بذلك قطّ.

نفى بحركة من رأسه ورفع إصبعاً إلى فمه:

ـ هنالك سر كبير يا تيبورثيو. لقد جاءت لتختبئ هنا لأن هنالك من يطاردها في ليما، بل إنهم يريدون قتلها. من الأفضل أن تنساها ولا تخبر أحداً بأنك رأيتها. لدينا ما يكفي من المشاكل ولسنا بحاجة لأن نرث كذلك مشاكل أخت زوجتي.

وببذل جهد هائل بدأ العمل. راح يراجع الحسابات، والكمبياليات، والسندات، والنفقات الجارية، والمداخيل، والفواتير، والرواتب، والمدفوعات لمتعهدي التموين. وفي الوقت نفسه، في أعماق عقله، كان يضع خطة عمل للأيام التالية. وبعد وقت قصير بدأ يشعر بالتحسن، وبأن بالإمكان كسب تلك المعركة الشاقة. وفجأة، داخلته رغبة هائلة في الاستماع إلى صوت سيسليا باراسا المرتعش والعذب. من المؤسف أنه لا يملك في المكتب بعض أسطواناتها، يجب توافر أغنيات مثل «شوك ورماد»، «حب بريء»، «حنين جميل» أو «ثور قاتل» في المكتب، وجهاز للاستماع إليها. سيشتري هذا الجهاز فور تحسن الأحوال. وفي الأمسيات أو الليالي التي يظل يعمل فيها في المكتب، بعد إعادة تأهيلية من أضرار الحريق، يستطيع في لحظات مثل هذه أن يضع في الجهاز مجموعة أسطوانات لمغنيته المفضلة. سينسى عندئذ كل شيء ويشعر بالسعادة... أو الحزن، ويكون متأثراً على الدوام بذلك الصوت القادر على سحبة لرقصة فالس، أو مارينيراس، أو بولكاس، أو بريغونيس، جميع أنواع الموسيقى الكريوليه وأشد المشاعر الدفينة في أعماقة حساسية.

عندما غادر مقر ناريهوالا للنقل كان ظلام الليل مطبقاً. لم يكن هناك صحفيون في الشارع: قال له الحارس إنهم تعبوا من انتظاره، فتفرقوا وغادروا منذ وقت طويل. وكان تيبورثيو قد غادر أيضاً، إلى شؤونه الخاصة، منذ أكثر من ساعة. سلك شارع اريكيبا، وكان فيه أناس قليلون الآن، دون أن ينظر إلى أحد، باحثاً عن الظلال كيلا يتعرف عليه أحد. ولحسن الحظ لم يوقفه أحد ويدخل معه في حديث خلال الطريق. وفي بيته، كانت آرميدا وخيرترورديس قد نامتا، أو على الأقل لم يشعر بوجودهما. ذهب إلى صالة التلفاز الصغيرة ووضع بعض

الأسطوانات المدمجة، بصوت خافت. وظل قرابة الساعتين جالساً في الظلام، ساهياً ومتأثراً، غير متحرر تماماً من القلق، ولكنه متخفف منه بعض الشيء بفضل الأغنيات التي تقدمها إليه سيسيليا باراسا في جلسته الحميمة تلك. كان صوتها بلسماً، ماء بارداً وشفافاً يغرق فيه بجسده وروحه، ويتطهر، يستعيد السكينة، يستمتع، وينبعث من أعمق أعماقه شيء صحي، عذب، متفائل. حاول ألا يفكر بمابيل، وألا يتذكر أشد اللحظات التي أمضاها معها زخماً وسعادة خلال تلك السنوات الثمانية، بل تذكر فقط أنها قد خانته، وأنها نامت مع ميغيل وتواطأت معه، وأرسلت له رسائل العنكبوت، وتظاهرت بأنها مختطفة، وأحرقت مكتبه. هذا هو ما عليه أن يتذكره فقط، كيلا تكون شديدة المرارة عليه فكرةُ أنه لن يعود إلى رؤيتها أبداً.

في صباح اليوم التالي، استيقظ في وقت مبكر جداً، قام بتمارين الكي جونغ، متذكراً البقال لاو مثلما يحدث له عادة خلال هذا الروتين الإجباري عند الاستيقاظ، تناول فطوره، وخرج إلى مكتبه قبل أن يصل الصحفيون النؤمون إلى باب بيته ليواصلوا مطاردته. كانت خوسيفيتا قد حضرت قبله وابتهجت كثيراً لرؤيته.

ـ كم هي رائعة عودتك إلى المكتب يا دون فيليثيتو ـ قالت له مصفقة ـ. لقد صرت أفتقدك هنا.

ـ لا يمكنني مواصلة أخذ الإجازات ـ أجابها وهو يخلع القبعة والسترة ويستقر وراء منضدة الدف الخشبي المرتجلة ـ. كفانا فضائح وحماقات يا خوسيفيتا. إلى العمل فقط ابتداء من اليوم. هذا هو ما يروق لي، وما قمت به طوال حياتي وما سأفعله منذ الآن.

انتبه إلى أن سكرتيرته تريد أن تقول له شيئاً، لكنها لم تجد الحماسة لذلك. ماذا جرى لخوسيفيتا؟ إنها مختلفة. أكثر أناقة وتبرجاً

من العادة، ترتدي ملابس مبهرجة ولطيفة. تظهر على محياها بين حين وآخر بعض الابتسامات وحمرة خجل لعوبة. وبدا له أنها، عند المشي، تهز مؤخرتها أكثر قليلاً مما كانت عليه من قبل.

ـ إذا كنتِ راغبة في أن تخبريني بسر، فإنني أؤكد لك أنني قبر أسرار يا خوسيفيتا. وإذا كان في الأمر أحزان حب فسأكون سعيداً بأن أتحول إلى منديل لدموعك.

ـ لا أدري ماذا عليّ أن أفعل يا دون فيليثيتو ـ خفضت صوتها وقد كستها حمرة الخجل من رأسها حتى قدميها. أدنت رأسها من رئيسها، وهمست له وهي ترمش بعينيها كطفلة بريئة: ـ لاحظ أن نقيب الشرطة ذاك يواصل الاتصال بي هاتفياً. لماذا يا ترى؟ كي يدعوني للخروج معه طبعاً!

ـ النقيب سيلفا؟ ـ أبدى صاحب شركة النقل الذهول ـ. لقد كنت أشعر بأنكِ قد فتنته. تشي غوا، يا خوسيفيتا!

ـ هذا ما يبدو لي يا دون فيليثيتو ـ أضافت سكرتيرته بخفر متغنج ـ. إنه يوجه إليّ كل أنواع الزهور حين يتصل بي هاتفياً، لا يمكن لحضرتك أن تتصور الأشياء التي يقولها لي. يا له من رجل بارد! إنه يسبب لي خجلاً شديداً. أجل، أجل، يريد دعوتي للخروج معه. وأنا لا أدري ماذا أفعل. بماذا تنصحني حضرتك؟

ـ لا أدري ماذا أقول لك يا خوسيفيتا. لا يفاجئني بكل تأكيد أنك فتنتهِ. أنت امرأة شديدة الجاذبية.

ـ ولكنني سمينة بعض الشيء يا دون فيليثيتو ـ تذمرت مبدية تكشيرة زائفة ـ. مع أن هذا الأمر ليس مشكلة، حسب ما قاله لي النقيب سيلفا. أكد لي أنه لا يحب أولئك الممصوصات سيئات التغذية من فتيات الإعلانات، وأنه يفضل النساء ممتلئات التقاطيع... مثلي.

ـ انفجر فيليثيتو ياناكيه ضاحكاً وجارته هي أيضاً. كانت المرة الأولى التي يضحك فيها صاحب شركة النقل منذ علم بالأخبار السيئة.

ـ هل تحريتِ، على الأقل، إذا ما كان النقيب متزوجاً يا خوسيفيتا؟

ـ لقد أكد لي أنه عازب وغير مرتبط. ولكن من يدري كيف وضعه، فالرجال يقضون الحياة وهم يولفون الحكايات لنا نحن النساء.

ـ سأحاول التحري عن ذلك، دعي الأمر لي ـ عرض عليها فيليثيتو ـ. وفي أثناء ذلك استمتعي واستخلصي عصارة الحياة، فأنت تستحقين ذلك حقاً. أتمنى لك السعادة يا خوسيفيتا.

كان يراقب انطلاق الفانات والحافلات والشاحنات، وإرسال الطلبيات الموصى عليها، وعند الضحى، ذهب إلى الموعد المحدد له مع الدكتور هيلدبراندو كاسترو بوسو، في مكتبه الضيق والمزدحم بشارع ليما. إنه محامي شركة النقل، وهو يتولى كافة شؤون فيليثيتو ياناكيه القانونية منذ عدة سنوات. شرح له بالتفصيل ما يدور في رأسه، بينما راح الدكتور كاسترو بوسو يسجل ملاحظات عما يقوله له في دفتر ملاحظاته الصغير المعهود، والذي يكتب فيه بقلم رصاص صغير مثله. كان رجلاً ضئيلاً، يرتدي صداراً وربطة عنق، شديد التأنق، ستينياً، حيوياً، نشيطاً، لطيفاً، محدثاً، ومهنياً متواضعاً ولكنه فعال، وليس غالياً بأي حال. كان أبوه مناضلاً اجتماعياً مشهوراً، يدافع عن الفلاحين، وقد تعرض للسجن والمنفى، وهو مؤلف كتاب عن القبائل الهندية جعله مشهوراً. وكان عضواً في مجلس الشيوخ. عندما انتهى فيليثيتو من شرح ما أراد شرحه، تفحصه الدكتور كاسترو بوسو برضى:

ـ الأمر ممكن بالطبع يا دون فيليثيتو ـ هتف وهو يتلاعب بقلمه الرصاص الصغير ـ. ولكن دعني أدرس القضية بهدوء وأقلّبها من كافة

النواحي القانونية، كي نتمكن من التقدم بخطوات واثقة. سيتطلب الأمر مني يومين على أبعد تقدير. أتعرف؟ هذا الذي تريد عمله يؤكد تماماً الفكرة التي كونتها عنك دوماً.

ـ وما هي فكرتك عني يا دكتور كاسترو بوسو؟

ـ أن حضرتك رجل أخلاقي يا دون فيليثيتو. أخلاقي حتى طرف أظفار قدميك. أحد الأخلاقيين القلائل الذين عرفتهم في الحقيقة.

أصاب فليثيتو الذهول، ما الذي يعنيه قوله هذا عن «رجل أخلاقي»؟[1] وقال فيليثيتو لنفسه إنه عليه أن يشتري معجماً في أحد هذه الأيام. فهو يسمع طيلة الوقت كلمات يجهل معناها. ويخجل من أن يسأل الناس عما تعنيه تلك الكلمات. ذهب إلى بيته لتناول الغداء. ومع أنه وجد الصحفيين مرابطين هناك، إلا أنه لم يتوقف ولو لمجرد أن يقول لهم إنه لن يعطي مقابلات صحفية. مر بجانبهم محيياً إياهم بحركة من رأسه، دون أن يرد على الأسئلة التي يوجهونها متزاحمين.

بعد تناول الغداء، طلبت منه آرميدا أن تتحدث معه على انفراد للحظات. ولكن فيليثيتو فوجئ عندما توجه مع أخت زوجته إلى صالة التلفاز، أن خيرترورديس، المعتكفة في الصمت مجدداً، قد لحقت بهما. جلست على أحد المقاعد وظلت هناك طيلة الوقت الذي دامه الحديث الطويل بين آرميدا وصاحب شركة النقل، وكانت تستمع دون أن تقاطعهما ولو مرة واحدة.

ـ سيبدو لك غريباً أنني منذ مجيئي مازلت بالثوب نفسه. بادرت القول لزوج أختها بأكثر الطرق تلقائية.

ـ إذا أردتِ أن أكون صريحاً يا آرميدا، فإن كل شيء يبدو لي غريباً

---

[1] استخدم المحامي مصطلح علم الأخلاق الفلسفي etica ومن هناك جاء ذهول فيليثيتو ضئيل التعليم والثقافة.

في هذه القضية، وليس عدم استبدالك الثوب فقط. ففجأة، تظهرين هنا... هكذا فجأة. أنا وخيرترووديس متزوجان منذ لا أدري كم من السنوات، وإلى ما قبل أيام قليلة، لم تحدثني قطّ على ما أظن عن وجود حضرتك. أتريدين ما هو أشد غرابة من هذا؟

ـ لا أبدل ثوبي لأنه ليس لدي غيره أرتديه ـ واصلت أخت زوجته كما لو أنها لم تسمعه ـ. خرجتُ من ليما بما كنت ألبسه، حاولت تجريب أحد أثواب خيرترووديس، ولكنها واسعة جداً عليّ. باختصار، عليّ أن أبدأ هذه القصة من البداية.

ـ أوضحي لي أمراً واحداً على الأقل ـ طلب منها فيليثيتو ـ لماذا تظل خيرترووديس صامتة، كما ترين، ولا تفسر لي ذلك. هل أنتما أختان من الأب والأم نفسيهما؟

تحركت آرميدا في المقعد مرتبكة دون أن تدري بماذا تجيبه. نظرت إلى خيرترووديس بحثاً عن عون، ولكن أختها واصلت صمتها، منكمشة على نفسها مثل أحد تلك الرخويات ذات الأسماء الغريبة التي تعرضها بائعات السمك في السوق المركزي. كانت ملامحها تشير إلى خمول كامل، كما لو أنه لا علاقة لها بأي شيء مما تسمعه. بالرغم من أنها لم تكن تزيح بصرها عنهما.

ـ لا نعرف ذلك ـ قالت أخيراً آرميدا مشيرة بذقنها إلى أختها ـ. لقد تحدثنا كثيراً حول هذا الأمر خلال الأيام الثلاثة الماضية.

ـ آه، هذا يعني أن خيرترووديس تتكلم حين تكون معك. أنت محظوظة أكثر مني.

ـ نحن أختان من الأم نفسها، هذا هو الشيء الوحيد المُثبت ـ أكدت آرميدا وهي تستعيد شيئاً فشيئاً السيطرة على نفسها ـ. إنها تكبرني ببضع سنوات. ولكن أياً منا لا تتذكر شيئاً عن أبينا. ربما يكون

الشخص نفسه. وربما لا. لم يعد هنالك من يمكن الاستفسار منه يا فيليثيتو. فعندما بدأنا، كلتانا، نمتلك ذكريات، لم يكن هنالك زوج للآمرة. هكذا كانوا يسمون أمي، ألا تتذكر؟

ـ هل كنتِ أنتِ أيضاً تعيشين في نُزل «شجرة الخروب»؟

ـ إلى أن بلغت الخامسة عشرة من عمري ـ أكدت آرميدا ـ. لم يعد آنذاك نُزلاً، وإنما تحول إلى مجرد خان للبغالين، وسط الأرينال. في الخامسة عشرة من عمري ذهبت إلى ليما للبحث عن عمل. لم يكن ذلك سهلاً على الإطلاق. مررت بمصاعب كثيرة، أسوأ من كل ما يمكن تصوره. ولكننا أنا وخيرترووديس لم نقطع تواصلنا أبداً. كنت أكتب إليها بين حين وآخر، بالرغم من أنها لم تكن ترد على رسائلي إلا نادراً. فهي لا تهوى كتابة الرسائل. لأن خيرترووديس لم تذهب إلى المدرسة إلا سنتين أو ثلاث سنوات. أنا كنت محظوظة أكثر منها، إذ أنهيت مرحلة المدرسة الابتدائية كلها. لقد اهتمت الآمرة بمسألة ذهابي إلى المدرسة. أما خيرترووديس بالمقابل فجعلتها تعمل في النزل منذ وقت مبكر جداً.

التفت فيليثيتو إلى امرأته.

ـ لا أدري لماذا لم تخبريني بأن لك أختاً. قال لها.

ولكنها واصلت النظر إليه كما لو أنها تنظر من خلال ماء، دون أن تجيبه.

ـ أنا سأخبرك بذلك يا فيليثيتو ـ تدخلت آرميدا ـ. كانت خيرترووديس تخجل من أن تخبرك بأن أختها تعمل خادمة في ليما. ولا سيما بعد أن تزوجتْ منك وتحولت إلى شخصية محترمة.

ـ هل كنتِ أنت عاملة منزلية؟ استغرب صاحب شركة النقل وهو ينظر إلى ثوب أخت زوجته.

ـ طوال حياتي يا فيليثيتو. باستثناء فترة قصيرة عملتُ خلالها عاملة في مصنع نسيج بمدينة بيتارتي ـ وأضافت مبتسمة ـ. أرى أنك تستغرب ارتدائي ثوباً فاخراً وحذاء جيداً، وساعة يد مثل هذه. كلها أشياء إيطالية، تصور.

ـ أجل يا آرميدا، يبدو لي الأمر غريباً جداً ـ أكد فيليثيتو ـ فأنت ذات مظهر يمكن أن يكون أي شيء باستثناء خادمة.

ـ ما حدث أنني تزوجت من السيد صاحب البيت الذي كنت أعمل فيه ـ أوضحت آرميدا وقد احمرت خجلاً ـ. سيد مهم، ومن مكانة جيدة.

ـ آه، طبعاً، فهمت، إنه زواجٌ بدَّل حياتك ـ قال فيليثيتو ـ هذا يعني أنك كسبتِ اليانصيب.

ـ أجل، أنت محق بطريقة ما، ولكنني لستُ كذلك من ناحية أخرى ـ صححت له آرميدا ـ لأن السيد كاريرا، أعني إسماعيل، زوجي، كان أرمل. وله ابنان من زواجه الأول. وهما يكرهانني مذ تزوجت من أبيهما. حاولا إبطال الزواج، وقدما شكوى ضدي للشرطة، واتهما أبيهما أمام القاضي بأنه عجوز خرف. وأنني عملت له سحراً، وأنني أعطيته أعشاباً ولا أدري أية أعمال سحر أخرى.

رأى فيليثيتو أن تبدلاً قد طرأ على وجه آرميدا. لم تعد هادئة مثلما كانت. وبدا في ملامحها شيء من الحزن والغضب.

ـ أخذني إسماعيل في شهر عسل إلى إيطاليا ـ أضافت وهي تضفي عذوبة على صوتها وتبتسم ـ. كانت أسابيع جميلة جداً. لم أتصور قطّ أنني سأعرف أشياء بكل ذلك البهاء، وكل ذلك الاختلاف. حتى إننا رأينا البابا في شرفته، من ساحة القديس بطرس. لقد كانت تلك الرحلة أشبه بحكايات الجنيات. كان زوجي طيلة الوقت في لقاءات عمل،

وكنت أقضي أوقاتاً طويلة وحدي أمارس السياحة.

«هنا يظهر تفسير هذا الثوب وهذه المجوهرات وهذه الساعة وهذا الحذاء»، فكر فيليثيتو «شهر عسل في إيطاليا! تزوجت من ثري! زواج الفقيرة من غني!».

ـ هناك، في إيطاليا، باع زوجي شركة تأمين كان يملكها في ليما ـ واصلت آرميدا الشرح ـ كيلا تقع في أيدي ابنيه اللذين كانا ينتظران اللحظة التي يستوليان عليها، بالرغم من أنه كان قد أعطاهما مسبقاً حصتهما من الميراث وهو حي. إنهما وغدان، كسولان من أسوأ مستوى. كان إسماعيل غاضباً منهما ولهذا باع الشركة. لقد كنت أحاول فهم تلك التشابكات، ولكنني كنت أضيع في شروحه القانونية. وأخيراً رجعنا إلى ليما، وما كدنا نصل حتى أصيب زوجي بسكتة قلبية أودت به.

ـ متأسف جداً. تلعثم فيليثيتو، وصمتت آرميدا وهي تخفض بصرها. بينما ظلت خيرترروديس ساكنة وغير متأثرة.

ـ أو أنهما قتلاه ـ أضافت آرميدا ـ لا أدري. كان يقول لي إن لدى ابنيه رغبة كبيرة في أن يموت كي يستحوذا على أمواله، حتى إنهما لن يتورعا عن إرسال من يقتله. لقد مات بين عشية وضحاها وأنا لا أستطيع أن أُبعد عني فكرة أن التوءمين ـ ابناه توءمان ـ قد تسببا بطريقة ما بالأزمة القلبية التي قتلته. هذا إذا كانت سكتة قلبية وليس سُمّاً. لست أدري.

ـ الآن صرت أفهم سبب هروبك إلى بيورا وسعيك للاختباء، وعدم خروجك إلى الشارع ـ قال فيليثيتو ـ هل تظنين حقاً أنه يمكن لابنيّ زوجك أن...؟

ـ لا أدري إن كان ذلك يدور في رأسيهما أم لا، ولكن إسماعيل كان

يقول إنهما لا يتورعان عن عمل أي شيء، بما في ذلك التسبب في قتله ـ كانت آرميدا قد انفعلت وصارت تتكلم باندفاع ـ. لقد بدأتُ أشعر بعدم الأمان، وبخوف شديد يا فيليثيتو. جرى لقاء معهما، عند المحامي. كانا يكلماني وينظران إليَّ بطريقة فكرت معها بأنهما قد يتسببان بقتلي أنا أيضاً. كان زوجي يقول إنه يجري الآن في ليما التعاقد مع قاتل مأجور ليقتل أي شخص مقابل بضعة سولات. فلماذا لا يفعلان ذلك من أجل الاستحواذ على كامل ميراث السيد كاريرا؟

توقفت قليلاً ونظرت إلى عيني فيليثيتو.

ـ لهذا قررت الهرب. فكرتُ في أنه لن يخطر ببال أحد المجيء للبحث عني هنا، في بيورا. هذه هي القصة التي كنت أود إخبارك بها يا فيليثيتو.

ـ حسن، حسن ـ قال هذا الأخير ـ. إنني أفهمك، أجل. الشيء الوحيد الذي ظهر لك هو سوء الحظ. لقد جاء بك القدر إلى فم الذئب. انظري كيف هي الأمور. هذا ما يقال عنه القفز من المقلاة إلى النار يا آرميدا.

ـ قلت لك إنني سأبقى يومين أو ثلاثة أيام، وأؤكد لك أنني سأفي بوعدي ـ قالت آرميدا ـ. إنني بحاجة إلى أن أتكلم مع شخص يعيش في ليما. إنه الشخص الوحيد الذي كان زوجي يثق به ثقة مطلقة. وكان شاهداً على زواجنا. هل تساعدني على الاتصال به؟ لدي رقم هاتفه. هل تقدم لي هذا الجميل؟

ـ اتصلي به أنت بنفسك من هنا. قال صاحب شركة النقل.

ـ ليس من الحكمة أن أتصل به أنا ـ قالت آرميدا، وأشارت إلى الهاتف: ـ وماذا لو كان الخط مراقباً؟ كان زوجي يظن أنهم يتنصتون على كل هواتفنا. من الأفضل الاتصال من الشارع، أو من مكتبك، أو من

هاتفك الخليوي الذي يبدو أنه من الصعب التنصت عليه. أنا لا أستطيع الخروج من هذا البيت. ولهذا ألجأ إليك.

ـ أعطني الرقم والرسالة التي عليّ أن أوجهها ـ قال فيليثيتو ـ. سأقوم بالاتصال من المكتب، هذا المساء. وبكل سرور يا آرميدا.

في المساء، بعد أن اجتاز مرة أخرى، وسط التدافع، حاجز الصحفيين، وبينما هو يمشي في شارع اريكيبا متوجهاً إلى مكتبه، قال فيليثيتو ياناكيه لنفسه إن قصة آرميدا تبدو خارجة من أحد أفلام المغامرات تلك التي تروق له مشاهدتها في المرات النادرة التي يذهب فيها إلى السينما. وهو الذي كان يظن أن تلك الأحداث شديدة القسوة ليس لها أية علاقة بالحياة الواقعية. غير أن قصة آرميدا، وقصته هو نفسه منذ تلقيه رسالة العنكبوت الأولى، ليستا أكثر ولا أقل من فلمين من أفلام الأكشن.

في مقر ناريهوالا للنقل، انسحب نحو ركن هادئ ليتصل بالهاتف دون أن تسمعه خوسيفيتا. وعلى الفور ردّ عليه صوت رجل بدا مضطرباً حين سأله عن السيد دون ريغوبيرتو. «من يريده؟»، سأل. بعد صمت قصير، ردّ عليه فيليثيتو: «بطلب من صديقة». فقال الآخر: «أجل، أجل، إنني أنا. عن أي صديقة تكلمني؟».

ـ صديقة لك، تفضل عدم ذكر اسمها، لأسباب تتفهمها حضرتك ـ قال فيليثيتو ـ. أظنك تعرف من هي المعنية.

ـ أجل، أظن ذلك ـ قال السيد ريغوبيرتو ـ. هل هي بحالة جيدة؟

ـ أجل، جيدة جداً وترسل إليك تحياتها. تريد التحدث مع حضرتك. شخصياً إن كان ذلك ممكناً.

ـ طبعاً، ممكن بالطبع ـ قال السيد فوراً دون تردد ـ. يسعدني ذلك جداً. كيف نفعل؟

ـ أيمكن السفر إلى المنطقة التي هي فيها؟. سأله فيليثيتو.

ساد صمت طويل، مع نحنحات أخرى مصطنعة.

ـ يمكنني ذلك، إذا كان الأمر ضرورياً ـ قال أخيراً ـ متى سيكون السفر؟

ـ عندما تشاء ـ ردّ فيليثيتو ـ. وكلما كان ذلك أسرع يكون أفضل.

ـ أتفهم الوضع ـ قال السيد ريغوبيرتو ـ. سأتولى شراء تذاكر السفر فوراً. هذا المساء بالذات.

ـ وأنا سأحجز لك الفندق ـ قال فيليثيتو ـ أيمكنك الاتصال بي على هذا الهاتف الخليوي عندما تحدد موعد سفرك؟ إنه هاتف لا يستخدمه أحد سواي.

ـ حسن جداً، اتفقنا ـ قال له السيد ريغوبيرتو مودعاً ـ تشرفت بك، وإلى اللقاء أيها السيد.

عمل فيليثيتو ياناكيه طوال المساء في ناريهوالا للنقل. وبين وقت وآخر كانت قصة آرميدا تعود إلى رأسه ويتساءل كم فيها من الحقيقة وكم من المبالغة. أمن الممكن لسيد ثري، يملك شركة كبيرة، أن يتزوج خادمته؟ يكاد رأسه لا يتسع لهذا الأمر. ولكن هل هذا أشد غرابة من ابن ينتزع عشيقة أبيه، ويتفق معها على ابتزازه من أجل القضاء عليه؟ الجشع يحول البشر إلى مجانين، إنه أمر معروف. عند الغروب، جاء إلى المكتب الدكتور هيلدبراندو كاسترو بوسو ومعه حزمة أوراق كبيرة محشورة في مغلف أخضر ليموني.

ـ هاأنت ترى أن الموضوع لم يتطلب مني وقتاً طويلاً يا دون فيليثيتو ـ قال له وهو يسلمه المغلف ـ. هذه هي الوثائق التي عليك أن تجعله يوقّع عليها، حيث وضعتُ إشارة X. سيوقّع عليها سعيداً ما لم يكن مجنوناً.

راجعها فيليثيتو بدقة. وجه بعض الأسئلة، وأجابه عليها المحامي، فأبدى رضاه. فكّر في أنه قد اتخذ قراراً جيداً، وحتى لو كان هذا القرار لا يحل كل المشاكل التي تحيط به، إلا أنه سيزيح على الأقل عبئاً ثقيلاً عن كاهله. كما أن قلق الشك الذي كان يحمله منذ سنوات طويلة سوف يتبخر إلى الأبد.

حين غادر المكتب، بدلاً من أن يتوجه مباشرة إلى البيت، قام بالالتفاف كي يمر على مفوضية الشرطة في جادة سانتشيث سيرّو. لم يكن النقيب سيلفا موجوداً، ولكن الرقيب ليتوما استقبله. وقد فوجئ بعض الشيء بطلبه.

ـ أريد مقابلة ميغيل بأسرع ما يمكن ـ كرر فيليثيتو ياناكي ـ. لا يهمني أن تكون أنت أو النقيب سيلفا حاضرين في المقابلة.

ـ حسن يا دون فيليثيتو، يخيل إلي أنه لن تكون ثمة مشكلة ـ قال الرقيب ـ. سأكلم النقيب في الأمر غداً صباحاً.

ـ أشكرك ـ ودّعه فيليثيتو ـ. سلّم لي على النقيب سيلفا وقل له سكرتيرتي السيدة خوسيفيتا ترسل إليه تحياتها.

XVIII

وصل دون ريغوبيرتو ودونيا لوكريثيا وفونتشيتو إلى بيورا في الضحى بطائرة شركة لان بيرو، وأوصلتهم سيارة أجرة من المطار إلى فندق لوس بورتاليس، في ساحة السلاح. الحجز الذي أنجزه فيليثيتو ياناكيه ـ غرفة مزدوجة وغرفة عادية متجاورتان ــ يتوافق تماماً مع رغبتهم. ما كادوا يتسلمون غرفتيهما حتى خرجوا ثلاثتهم للمشي. قاما بجولة على ساحة السلاح المظللة بأشجار تمر هندي عالية وقديمة وملونة بلطخات أزهار شديدة الحمرة.

لم يكن الحر شديداً. توقفوا قليلاً لتأمل النُصب المركزي، «لا بولا». إنه تمثال من المرمر لسيدة محاربة تمثل الحرية، مهدى من الرئيس خوسيه بلاتا في العام 1870؛ وألقوا نظرة سريعة على الكاتدرائية الكئيبة. ثم جلسوا في كافيتريا إلتشالون لتناول شراب مرطب. كان ريغوبيرتو ولوكريثيا يرصدان محيط المكان، الناس المجهولين، بتكتم وبشيء من الريبة. هل سيتحقق فعلاً اللقاء المبرمج مع آرميدا؟ إنهما يتمنيان ذلك بكل تأكيد، غير أن كل اللف والدوران الذي أحاط بهذه الرحلة يحول دون أن يأخذا الأمر على محمل الجدّ تماماً. كان يبدو لهما أحياناً بأنهما يلعبان واحدة من تلك الألعاب التي يلعبها المسنون كي يبدوا شباناً.

ـ لا، لا يمكن أن يكون الأمر مزاحاً أو كميناً ــ أكد دون ريغوبيرتو

مرة أخرى وهو يحاول إقناع نفسه ـ السيد الذي تكلمت معه بالهاتف أثار فيَّ انطباعاً جيداً، لقد أخبرتُكِ بهذا. إنه رجل بائس دون شك، ريفي، خجول بعض الشيء، ولكنه طيب النوايا. إنه شخص طيب، وأنا واثق من ذلك. وليس لدي أي قدر من الشك بأنه كان يتكلم باسم آرميدا حقاً.

ـ ألا يبدو لك أننا نعيش حالة على شيء من عدم الواقعية؟ ـ ردّت عليه دونيا لوكريثيا مع ضحكة عصبية. كانت تحمل في يدها مروحة يدوية من الصَّدف، تحرك بها الهواء أمام وجهها دون توقف ـ أجد صعوبة في تصديق الأمور التي تحدث لنا يا ريغوبيرتو. مجيئنا إلى بيورا قائلين للجميع إننا بحاجة إلى الراحة. لم يصدق أحد ذلك بالطبع.

بدا أن فونتشيتو لا يسمعهما. كان يتناول رشفات متباعدة من عصير ثمار اللوكما المثلج، بينما عيناه مصوبتان إلى نقطة من المنضدة، غير عابئ مطلقاً بما يقوله أبوه وزوجته، كما لو أنه مستغرق في قلق خفي. إنه على هذه الحال منذ لقائه الأخير مع إديلبيرتو توريس، وقد كان هذا هو السبب الذي جعل دون ريغوبيرتو يصر على إحضاره معهما إلى بيورا، على الرغم من أنه سيُضيع أياماً من المدرسة بسبب هذه الرحلة.

ـ إديلبيرتو توريس؟ ـ طفر في مقعد مكتبه ـ أهو مرة أخرى؟ وكان يتكلم عن الكتاب المقدس؟

ـ إنني أنا نفسي يا فونتشيتو ـ قال إديلبيرتو توريس ـ لا تقل لي إنك قد نسيتني. لا أظنك جاحداً إلى هذا الحد.

ـ لقد قدمت اعترافي للتو وأنا أنجز الكفارة التي حدّدها لي الكاهن ـ تلعثم فونتشيتو وهو يشعر بالمفاجأة أكثر من شعوره بالذعر ـ لا يمكنني التحدث معك الآن أيها السيد، متأسف جداً.

ـ في كنيسة فاطمة؟ ـ كرر دون ريغوبيرتو غير مصدق، وهو يتلفت

كمن أصيب فجأة بداء هنتنغتون، موقعاً إلى الأرض كتاباً عن فن التانتريك كان يقرأ فيه ـ. هل كان هناك، هو نفسه؟ في الكنيسة؟

ـ أتفهمك وأعتذر منك ـ قال إديلبيرتو توريس خافضاً صوته ومشيراً إلى مذبح الكنيسة بإصبعه السبابة ـ. صل، صل يا فونتشيتو، فالصلاة تُشعرك بالتحسن. سنتحدث في ما بعد. أنا أيضاً سأصلي.

ـ أجل، في كنيسة فاطمة ـ أكد فونتشيتو وهو شاحب الوجه ونظراته شاردة بعض الشيء ـ. ذهبت أنا وأصدقائي، جماعة قراءة الكتاب المقدس، ذهبنا للاعتراف. كان أصدقائي قد غادروا، وكنت أنا الأخير في الدخول إلى حجرة الاعتراف. ولم يكن قد بقي أناس كثيرون في الكنيسة. وفجأة انتبهتُ إلى أنه هناك، لا أدري منذ متى. أجل، كان هناك، جالساً إلى جانبي. يا للخوف الذي شعرتُ به يا بابا. أعرف أنك لن تصدقني، أعرف أنك ستقول إنني أختلق هذا اللقاء، في هذه المرة. كان الحديث عن الكتاب المقدس، أجل.

ـ حسنٌ حسن ـ تنازل دون ريغوبيرتو ـ. من الأفضل الآن أن نعود إلى الفندق. نتناول الغداء هناك. فالسيد ياناكيه قال لي إنه سيتصل بي في لحظة من لحظات بعد الظهر. هذا إن كان ذلك هو اسمه الحقيقي. إنه اسم غريب جداً، يبدو كالأسماء المستعارة لمغني الروك الذين تغطي الوشوم أجسادهم، أليس كذلك؟

ـ يبدو لي أنه اسم ينتمي إلى بيورا جداً ـ أبدت دونيا لوكريثيا رأيها ـ ربما هو آت من حضارة التالانيين القديمة.

دفع الحساب وخرج الثلاثة من الكافيتيريا. ولدى اجتياز ساحة السلاح، اضطر ريغوبيرتو إلى إبعاد ماسحي الأحذية وبائعي اليانصيب الذين يعرضون عليه خدماتهم. لقد بدأ الحر يشتد الآن بالفعل. وكانت تظهر في السماء الصافية شمسٌ بيضاء، وبدا كل ما حولهم من أشجار

ومقاعد وخزف وأناس وكلاب وسيارات كأنه يشتعل.

ـ متأسف يا بابا ـ همس فونتشيتو بأسى ـ أعرف أن ما قلته لك كان خبراً سيئاً، وأعرف أن هذه اللحظات صعبة جداً عليك، بعد موت السيد كاريرا واختفاء آرميدا. أعرف أنه من القذارة أن أفعل هذا. ولكنك أنت من طلبت مني أن أخبرك بكل شيء، وأن أقول لك الحقيقة. أليس هذا ما تريده يا بابا؟

ـ لقد تعرضتُ لمشاكل مالية مثل الناس جميعاً في هذه الأوقات، وقد بدأت صحتي تخذلني ـ قال السيد إديلبيرتو توريس بوهن وغمٍ ـ صرت أخرج قليلاً في الأونة الأخيرة. وهذا هو السبب في أنك لم ترني منذ أسابيع عديدة يا فونتشيتو.

ـ هل جئت إلى هذه الكنيسة لأنك تعرف أنني سأكون هنا أنا وأصدقائي الذين نقرأ الكتاب المقدس؟

ـ لقد جئت من أجل التأمل، من أجل طمأنينة نفسي، كي أرى الأمور بهدوء وروية أكبر ـ أوضح إديلبيرتو توريس، ولكنه لم يكن يبدو هادئاً وإنما مرتجفاً، وكمن يعيش قلقاً عظيماً ـ كثيراً ما أفعل هذا. إنني أعرف نصف كنائس ليما، وربما أكثر. أشعر بالتحسن في أجواء العزلة والصمت والصلاة هذه. بل تروقني رؤية الراهبات ورائحة البخور وربما رائحة القِدم والعراقة أيضاً، بكل شرف. أنا أُصلي أيضاً وأقرأ الكتاب المقدس يا فونتشيتو، حتى لو كنت تستغرب هذا. وهو دليل آخر على أنني لست الشيطان، مثلما يظن أبوك.

ـ سوف يستاء أبي حين يعلم أني التقيت بك ـ قال الفتى ـ. هو يعتقد أنه لا وجود لك، وأنني أنا من اختلقتُ وجودك. وكذلك زوجة أبي. يظنان ذلك حقاً. ولهذا تحمس أبي حين قلت حضرتك بأنه يمكنك أن تساعده في المشاكل القضائية التي هو متورط فيها. كان يريد

رؤيتك، اللقاء بحضرتك. ولكنك اختفيت.

ـ لم يفت الوقت لهذا الأمر ـ أكد السيد توريس ـ. ويسعدني اللقاء بدون ريغوبيرتو وطمأنته من الهواجس التي يشعر بها تجاهي. يسعدني أن أكون صديقاً له. فنحن في السن نفسها حسب تقديراتي. والحقيقة أنه لا أصدقاء لي، وإنما معارف فقط. إنني متأكد من أننا، هو وأنا، سنتفاهم جيداً.

ـ أنا أريد طبق سيكو دي تشابيلو ـ طلب دون ريغوبيرتو من النادل ـ. إنه الطبق التقليدي في بيورا، أليس كذلك؟

دونيا لوكريثيا طلبت سمكة غراب بحر مشوية مع سلطة مُشَكّلة. واكتفى فونتشيتو بطبق سِفتشي. كان مطعم فندق لوس بورتاليس شبه مقفر، وكانت هناك مراوح بطيئة تحافظ على برودة الجو. وكان ثلاثتهم يتناولون ليمونادة مع كثير من الثلج.

ـ أريد أن أصدقك، أنا أعرف أنك لا تكذب عليّ، وأنك فتى نظيف وطيب المشاعر ـ أكد دون ريغوبيرتو بملامح ضجرة ـ. ولكن هذا الشخص تحول إلى ثقالة في حياتي وحياة لوكريثيا. يبدو أننا لن نتحرر منه أبداً، وأنه سيلحق بنا حتى القبر. ما الذي يريده الآن؟

ـ أن نخوض حديثاً حول أشياء عميقة، حوار أصدقاء ـ أوضح إديلبيرتو توريس ـ. الرب، الحياة الأخرى، عالم الروح، التسامي. مثل أساطير الكتاب المقدس، أعرف أن هذه الأمور تهمك الآن يا فونتشيتو. أعرفُ كذلك أن تشعر بشيء من خيبة الأمل في قراءتك للعهد القديم. وأنك كنت تنتظر شيئاً آخر.

ـ وكيف تعرف هذا أيها السيد؟

ـ لقد أخبرتني به عصفورة ـ ابتسم إديلبيرتو توريس، ولكن لم يكن في ابتسامته أدنى قدر من السعادة، وإنما ذلك الحذر الخفي دوماً ـ. لا

تأخذ كلامي على محمل الجد، إنني أمزح. الشيء الوحيد الذي أريد أن أقوله لك هو أن هذا يحدث لكل من يبدؤون قراءة العهد القديم. واصل، واصل، لا تفقد الحماسة. وسوف ترى كيف أن انطباعك سيكون مختلفاً.

ـ كيف عرف أنك كنت تشعر بخيبة الأمل من تلك القراءة التوراتية؟

ـ انقبض دون ريغوبيرتو من جديد في غرفة مكتبه ـ. هل هذا صحيح يا فونتشيتو؟ هل تشعر بخيبة الأمل؟

ـ لست أدري إن كنت أشعر بالخيبة ـ وافق فونتشيتو بشيء من الارتباك ـ المسألة هي أن كل شيء في الكتاب المقدس عنيف جداً. ابتداء من الرب نفسه، يهوه. لم أتصوره قطّ بمثل هذه الشراسة، يطلق الكثير من اللعنات، يطلب رجم السيدات الزانيات، يأمر بقتل من يخالف الطقوس. يطالب بقطع غُلفة أعداء العبرانيين. أنا لم أكن أعرف ما تعنيه غُلفة إلى أن قرأت التوارة يا بابا.

ـ لقد كانت أزمنة بربرية يا فونتشيتو ـ طمأنه إديلبيرتو توريس، وكان يتكلم مع وقفات صمت كثيرة، ودون أن يتخلى عن طريقته في الكلام المقتضب ـ كل ذلك كان يحدث منذ آلاف السنين، في الأزمنة الوثنية وأزمنة أكل لحوم البشر. عالم كان فيه الطغيان والتعصب يسودان في كل مكان. أضف إلى ذلك أنه يجب عدم أخذ ما تقوله التوارة بحرفيته. فكثير مما يرد فيه رمزي وشاعري ومبالغ به. وعندما اختفى يهوه الرهيب وظهر يسوع المسيح صار الرب وديعاً، رحيماً ومتفهماً، وسوف ترى ذلك. ولكن لتعرف هذا يجب أن تصل إلى العهد الجديد. عليك بالصبر والمثابرة يا فونتشيتو.

ـ عاد للقول لي إنه يريد اللقاء بك يا بابا. أينما كان وفي أي وقت. يحبُ أن تصبحا صديقين، لاسيما أنكما في السن نفسها.

ـ هذه النغمة سمعتها في المرة الأخيرة التي تجسد لك فيها هذا الشبح، في تلك الحافلة ـ قال دون ريغوبيرتو ساخراً ـ ألا يريد أن يساعدني في حلّ مشاكلي القانونية؟ وماذا حدث؟ أتراه تبخر! سيفعل الشيء نفسه هذه المرة أيضاً. باختصار، أنا لا أفهمك يا بني. هل تعجبك أم أنها لا تعجبك هذه القراءات في الكتاب المقدس التي أدخلت نفسك فيها؟

ـ لا أدري إذا كنا نفعل ذلك بصورة جيدة ـ تهرب الصغير من الإجابة ـ فمع أنها تعجبنا كثيراً في بعض الأحيان، إلا أنها تبدو في أحيان أخرى معقدة ومشوشة، كما هي تلك الشعوب التي تحارب اليهود في الصحراء. من المستحيل تذكر تلك الأسماء الغريبة جداً. أكثر ما يروق لنا هي القصص التي تُروى. ولا تبدو أنها أمور دينية، مثل مغامرات *ألف ليلة وليلة*. بيكاس شيريدان هو واحد من أصدقائي، قال قبل أيام إن هذه الطريقة في قراءة الكتاب المقدس ليست جيدة، وإننا لا نستفيد منه. وإنه من الأفضل أن نتخذ لنا دليلاً. أن نطلب مساعدة كاهن على سبيل المثال. ما رأيك أنت أيها السيد؟

ـ لذيذ جداً ـ قال دون ريغوبيرتو وهو يتذوق لقمة من طبقة السيكو دي تشابيلو ـ. يعجبني كثيراً هذا التشفليس... هذه هي التسمية التي يطلقونها هنا على الموز المقلي والمفروم. ولكنني أخشى أن يكون عسير الهضم بعض الشيء في مثل هذا الحر الشديد.

بعد أن أكلوا أطباق طعامهم طلبوا مثلجات، وحين كانوا على وشك البدء بتناول التحلية، لمحوا سيدة تدخل إلى المطعم. وقبل أن تتجاوز قدمها الباب، تفحصت المكان باحثة. لم تكن شابة، إلا أنه كان فيها شيء طازج وبهيج، بقية شبابية في وجهها الممتلئ والحالم، وفي عينيها المتقافزتين وفمها بشفتيه العريضتين كثيرتي الطلاء. تتباهى دون ظرافة

بأهداب اصطناعية ترمش، وبقرطين مستديرين يتأرجحان، وترتدي ثوباً أبيض ضيقاً جداً ومطبعاً برسوم ورود. وركاها السخيان لا يسمحان لها برشاقة الحركة. بعد أن ألقت نظرة على الموائد الثلاث أو الأربع المشغولة، توجهت بتصميم إلى المنضدة التي يجلس إليها الثلاثة. «السيد ريغوبيرتو، أليس كذلك؟»، سألتْ باسمة. مدّت يدها لمصافحة كل واحد منهم، وجلست على الكرسي الشاغر.

ـ اسمي خوسيفيتا، وأنا سكرتيرة السيد فيليثيتو ياناكيه ـ قدّمت نفسها ـ أهلاً بكم في مدينة رقصة التونديرو والتشي غوا. هل هي المرة الأولى التي تزورون فيها بيورا؟

لم تكن تتكلم بفمها فقط، وإنما كذلك بعينيها المعبرتين، كثيرتي الحركة والخضراوين، وكانت تحرك يديها دون توقف.

ـ إنها المرة الأولى، ولكنها لن تكون الأخيرة ـ قال دون ريغوبيرتو بلطف ـ ألم يستطع السيد ياناكيه المجيء؟

ـ فضّل ألا يفعل ذلك، لأن السيد فيليثيتو، كما تعلمون، لا يستطيع أن يخطو خطوة واحدة في شوارع بيورا دون أن يلحق به سرب من الصحفيين.

ـ صحفيون؟ ـ ذُعرَ فاتحاً عينيه على اتساعهما دون ريغوبيرتو ـ وهل يمكننا أن نعرف لماذا يلاحقونه يا سيدة خوسيفيتا؟

ـ أنا آنسة ـ صححتْ له، ثم أضافت بحياء ـ مع أن هناك الآن متودد يتقرب مني، وهو نقيب في الحرس الأهلي.

ـ ألف اعتذار يا آنسة خوسيفيتا ـ اعتذر ريغوبيرتو وهو ينحني لها ـ أيمكنك أن تفسري لي لماذا يلاحق الصحفيون السيد ياناكيه؟

توقفت خوسيفيتا عن الابتسام. نظرت إليهم متفاجئة وبشيء من الشفقة. وكان فونتشيتو قد خرج من غيبوبته وبدا مهتماً أيضاً بما تقوله مَنْ وصلتْ للتو.

ـ ألا تعلمون أن دون فيليثيتو ياناكيه أوسع شهرة الآن من رئيس الجمهورية نفسه؟ ـ هتفت مذهولة، مُظهرة نقطة من لسانها ـ. منذ أيام طويلة وأخباره في الإذاعات والصحف والتلفزيون. ولكن لأسباب خبيثة بكل أسف.

وكلما تكلمت أكثر كان وجها دون ريغوبيرتو وزوجته يبديان دهشة متزايدة، بحيث لم تجد خوسيفيتا بداً من أن تشرح لهما سبب تحول مالك شركة ناريهوالا للنقل من شخص غير معروف إلى شخصية واسعة الشعبية. بدا واضحاً أن هؤلاء القادمين من ليما لا يعرفون شيئاً عن قصة العنكبوت والفضائح التي تلتها.

ـ هذه فكرة عظيمة يا فونتشيتو ـ وافق السيد إديلبيرتو توريس ـ من أجل الإبحار بانسيابية في بحر الكتاب المقدس، لا بد من الاستعانة ببحار مجرب. يمكن له أن يكون رجل دين مثل الأب أودونوفان، بكل تأكيد. ولكن يمكن الاستعانة بشخص علماني كذلك، شخص يكون قد كرس سنوات طويلة لدراسة العهدين القديم والجديد. أنا شخصياً على سبيل المثال. لا تظن أنني متبجح، فقد أمضيت في الحقيقة شطراً لا بأس به من حياتي في دراسة الكتاب المقدس. أرى في عينيك أنك لا تصدقني.

ـ إنه متحرش ومغرر بالقاصرين، ويريد الظهور الآن بمظهر اللاهوتي والخبير في دراسة الكتاب المقدس ـ قال دون ريغوبيرتو ساخطاً ـ. أنتَ لا تدري كم أنا متلهف لرؤية وجهه يا فونتشيتو. سيقول لك في أية لحظة أنه هو نفسه كاهن.

ـ هذا ما قاله لي يا بابا ـ قاطعه فونتشيتو ـ. لم يقل إنه كاهن، بل إنه كان كاهناً. وإنه نزع عنه مسوح المدرسة الدينية قبل أن يُرسَّم. لأنه لا يستطيع تحمل العفة، كما قال لي.

ـ ما كان عليّ أن أحدثك في هذه الأمور، فأنت ماتزال صغيراً على هذا ـ أضاف السيد إديلبيرتو توريس وقد شحب وجهه قليلاً وارتعش صوته ـ ولكن هذا هو ما حدث. كنتُ أستمني طوال الوقت، حتى مرتين في اليوم. وهو أمر يحزنني ويشوشني. لأنه كان لدي، أؤكد لك، ميل قوي لخدمة الرب. ومنذ كنت طفلاً، مثلك. المشكلة فقط في أنني لم أتمكن قطّ من هزيمة شيطان الجنس اللعين. وجاء وقت ظننت فيه أنني أُصبت بالجنون بسبب الغوايات التي كانت تحاصرني في الليل والنهار. عندئذ لم يعد هنالك مفر، واضطررت إلى مغادرة المدرسة الدينية.

ـ هل حدثك في هذه الأمور؟ ـ انزعج دون ريغوبيرتو ـ حدثك عن العادة السرية وعن الاستمناء؟

ـ وهل تزوجتَ عندئذ أيها السيد؟ سأله الصبي بخجل.

ـ لا، لا، مازلت عازباً حتى الآن ـ ضحك السيد توريس كمن يفعل ذلك بشيء من الإكراه ـ الزواج غير ضروري من أجل أن تكون لأحدنا حياة جنسية يا فونتشيتو.

ـ ولكنه ضروري في الديانة الكاثوليكية. أكّد الصغير.

ـ صحيح، لأن الديانة الكاثوليكية متشددة ومتزمتة في موضوع الجنس ـ أوضح ذلك الرجل ـ. هناك ديانات أخرى أكثر تسامحاً. أضف إلى ذلك أن هناك كثير من التسامح في هذه الأزمنة، حتى روما نفسها آخذة بتقبل التحديث، وإن كانت تجد صعوبة في ذلك.

ـ أجل، أجل، الآن تذكرت ـ قاطعت السيدة لوكريثيا كلام خوسيفيتا ـ. أجل بالطبع، لقد قرأتُ عن ذلك في مكان ما أو أنني رأيته في التلفزيون. هل السيد ياناكيه هو ذاك الذي كان ابنه وعشيقته يريدان اختطافه من أجل سرقة أمواله كلها؟

ـ حسن، حسن، هذا يكسر كافة حدود ما هو معقول ـ كان دون ريغوبيرتو قد ضجر من الأمور التي يسمعها ـ. هذا يعني أننا نحن من جئنا لندس أنفسنا في فم الذئب. إذا كنتُ أفهم جيداً، فإن مكتب رئيسك وبيته محاطان بالصحفيين نهاراً وليلاً. أليس كذلك؟

ـ في الليل لا ـ حاولت خوسيفيتا، بابتسامة ظافرة، تشجيع ذلك السيد ذي الأذنين الكبيرتين الذي بدأ يبدي تكشيرات تبدو مخادعة ـ في البدء أجل، كان الصحفيون في الأيام الأولى لا يكلون. كانوا يحيطون ببيته ومكتبه طوال أربع وعشرين ساعة في اليوم. ولكنهم تعبوا، وصاروا الآن ينصرفون في الليل ليناموا أو ليسكروا، لأن جميع الصحفيين هنا من البوهيميين والرومانسيين. خطة السيد ياناكيه ستسير على ما يرام، لا تقلق.

ـ وما هي هذه الخطة؟ سألها ريغوبيرتو. وكان قد ترك المثلجات بعد أن تناول نصفها، وهو يحمل في يده الآن كأس الليمونادة التي انتهى للتو من إفراغها بجرعة واحدة.

الخطة بسيطة جداً. من الأفضل أن يظلوا في الفندق، أو أن يذهبوا إلى إحدى صالات السينما؛ توجد منها صالات كثيرة الآن، في المراكز التجارية الجديدة، وهي توصيهم بالمركز التجاري «أوبن بلازا»، في حي كاستيليا، غير بعيد، إنه ملاصق لجسر آندريس أبيلينو كاثيريس. من غير المناسب أن يظهروا في شوارع المدينة. وفي الليل، عندما ينصرف الصحفيون جميعهم من شارع اريكيبا، سوف تأتي إليهم خوسيفيتا نفسها وتوصلهم إلى بيت السيد ياناكيه. إنه قريب، على بُعد شارعين.

ـ يا لسوء حظ المسكينة آرميدا ـ تحسرت دونيا لوكريثيا فور انصراف خوسيفيتا ـ. هي من جاءت حقاً لتقع في فخ أسوأ من الذي أرادت الهرب منه. لا أجد تفسيراً لمسألة كيف لم يتمكن الصحفيون أو

الشرطة من الإمساك بها حتى الآن.

ـ لا أريد استثارة استنكارك يا فونتشيتو ببوحي بأسراري ـ اعتذر إديلبيرتو توريس بندم وهو يخفض صوته وبصره ـ ولكن عذابي بسبب شيطان الجنس اللعين دفعني للذهاب إلى المواخير والدفع للمومسات. أمور فظيعة تجعلني أشعر بالقرف من نفسي. أرجو ألا تستسلم لهذه الإغواءات المقرفة مثلما جرى لي.

ـ أعرف جيداً إلى أين يريد الوصول بك ذلك المنحرف بحديثه لك عن ملامسات خبيثة وعاهرات ـ تنحنح دون ريغوبيرتو مختنقاً ـ. كان عليك أن تذهب فوراً ولا تجاريه بالاستماع إليه. ألم تلاحظ أنَّ بوحه المزعوم ما هو إلا استراتيجية لإيقاعك في شِباكه يا فونتشيتو؟

ـ أنت مخطئ يا بابا ـ ردّ عليه ـ أؤكد لك أن السيد توريس كان صريحاً، ولم تكن له نوايا أخرى. كنت أراه حزيناً، يكاد يموت حزناً لأنه فعل تلك الأمور. لقد احمرَّت عيناه فجأة، وانقطع صوته وبدأ يبكي من جديد. رؤيته على تلك الحال تمزق الروح.

ـ لحسن الحظ أنني أحضرت معي شيئاً جيداً للقراءة ـ علق دون ريغوبيرتو ـ. لأنه مازال هنالك وقت طويل بانتظار حلول الليل. لا أظن أنكما ترغبان في دخول صالة سينما في مثل هذا الحر.

ـ ولم لا يا بابا؟ ـ اعترض فونتشيتو ـ. لقد قالت خوسيفيتا إن صالات السينما مزودة بأجهزة تبريد، وإنها صالات حديثة جداً.

ـ فلنر قليلاً من التقدم، ألا يقولون إن بيورا هي واحدة من أكثر مدن البيرو اندفاعاً في التقدم؟ ـ ساندته دونيا لوكريثيا ـ. فونتشيتو على حق. فلنقم بجولة في ذلك المركز التجاري، وربما يكون هنالك فيلم جيد. ففي ليما لا نذهب أبداً إلى السينما معاً كأسرة. هيا، تشجع يا ريغوبيرتو.

ـ أشعر بخجل شديد لإقدامي على تلك الأشياء الخبيثة والقذرة،

حتى إنني أفرض على نفسي بنفسي عقوبات التكفير. وفي بعض الأحيان أجلد نفسي، كعقاب، حتى يسيل الدم ـ اعترف إديلبيرتو توريس بصوت مُحزن يمزق القلب وبعينين محمرتين.

ـ أولم يطلب منك عندئذ أن تجلده أنت؟ ـ انفجر دون ريغوبيرتو ـ. سأفتش السماء والأرض بحثاً عن هذا المنحرف، ولن أتوقف حتى أجده وأسدد معه الحساب، إنني أنبهك. سيذهب إلى السجن أو سأطلق عليه رصاصة إذا ما حاول فعل شيء معك. قل له هذا على لساني إذا ما ظهر لك مرة أخرى.

ـ وعندئذ داهمته نوبة بكاء أشد ولم يعد قادراً على مواصلة الكلام يا بابا ـ هدّأ فونتشيتو أبيه ـ لا شيء مما تفكر فيه، أقسم لك أن لا. لأنه... تصور، وهو وسط ذلك البكاء، نهضَ فجأة وخرج راكضاً من الكنيسة، دون وداع ودون أي شيء. بدا يائساً، كمن هو ذاهب للانتحار. إنه غير منحرف، وإنما هو رجل يعاني كثيراً. وهو يستحق الشفقة وليس الخوف منه، أقسم لك.

وبينما هما في هذا الحديث، قاطعتهما طرقات عصبية خفيفة على باب غرفة المكتب. فُتح أحد مصرعي الباب وأطل وجه خوستينيانا قلقاً.

ـ لماذا تظنين أنني أغلقت الباب؟ ـ أوقفها ريغوبيرتو، وهو يرفع يداً مؤنبة، دون أن يتيح لها أن تتكلم ـ ألا ترين أننا أنا وفونتشيتو مشغولان.

ـ إنهما هنا يا سيدي ـ قالت الفتاة ـ لقد بقيا واقفين أمام الباب بالرغم من أنني قلت لهما إنك مشغول، إنهما يريدان الدخول.

ـ هما؟ ـ قال دون ريغوبيرتو متفاجئاً ـ التوءمان؟

ـ لم أدرِ ماذا يمكنني أن أقول لهما، ولا ماذا أفعل ـ وافقته خوستينيانا بقلق شديد، وكانت تتكلم بصوت خافت وإيماءات ـ. إنهما

يقدمان لك ألف اعتذار. يقولان إن الأمر مستعجل جداً، ولن يأخذا من وقتك سوى بضع دقائق. ماذا أفعل يا سيدي؟

ـ لا بأس، أدخليهما إلى الصالون ـ استسلم ريغوبيرتو ـ وكوني متيقظة أنت ولوكريثيا، يجب استدعاء الشرطة إذا ما حدث أي شيء.

عندما انسحبت خوستينيانا، أمسك دون ريغوبيرتو ذراع فونتشيتو ونظر مطولاً إلى عينيه. كان يتأمله بمحبة، ولكن بجزع أيضاً يتبدى في كلامه غير الواثق والمتضرع:

ـ فونتشو، فونتشيتو، ابني الحبيب، أرجوك، أتوسل إليك بأعز ما لديك. قل لي إن كل ما رويته لي ليس صحيحاً. وأنك أنت من اختلقته. وأنه لم يحدث. قل لي إن إديلبيرتو توريس لا وجود له وستجعلني بذلك أسعد إنسان على الأرض.

رأي وجه الطفل يعكس وهناً في المعنويات، وأنه يعض شفتيه إلى أن تحولتا بنفسجيتين.

ـ حسنٌ يا بابا ـ سمعه يقول بنبرة لم تعد نبرة طفل وإنما شخص بالغ ـ لا وجود لإديلبيرتو توريس. أنا من اخترعته. لن أحدثك أبداً بعد اليوم عنه. أيمكنني الانصراف الآن؟

أومأ ريغوبيرتو موافقاً. رأى خروج فونتشيتو من المكتب ولاحظ أن يديه ترتعشان. كان قلبه قد تجمد. إنه يحب ابنه كثيراً، ولكنه فكّر أنه لن يتمكن من فهمه أبداً على الرغم من كل جهوده، سيظل بالنسبة إليه على الدوام سراً غامضاً لا يسبر أعماقه. وقبل أن يواجه الضبعين، ذهب إلى الحمام وبلل وجهه بماء بارد. لن يخرج أبداً من هذه المتاهة، ففي كل مرة مزيد من الكوابيس، مزيد من الأقبية، مزيد من اللف والدوران. أهذه هي الحياة، مجرد متاهة ستوصلك، مهما فعلت، إلى براثن السكلوب؟

وفي الصالون، كان ابنا إسماعيل كاريرا ينتظرانه واقفين. كلاهما كان يرتدي بدلة مع صدار وربطة عنق، كالعادة، ولكن خلافاً لما كان يظنه ريغوبيرتو، لم يكن مجيئهما بهدف قتالي. أكان حقيقياً مظهر الهزيمة والضحية الذي يبديانه، أم أنه تكتيك جديد؟ ما الذي يخفيانه؟ حيَّاهُ كلاهما بتودد، وبتربيت على الظهر وبذل الجهد لإظهار الحزن. وكان إسكوبيتا هو الأول في الاعتذار.

ـ لقد أسأتُ التصرفَ جداً معك في آخر مرة كنا هنا يا عماه ـ دمدم بأسف وهو يفرك يديه ـ فقدتُ صبري، تفوهت ببلاهات، وشتمتك. لقد كنتُ مصدوماً وشبه مجنون. أطلب منك ألف معذرة. إنني أختنق، لا أعرف النوم منذ أسابيع، أتناول أقراصاً لتهدئة الأعصاب. تحولت حياتي إلى كارثة أيها العم ريغوبيرتو. أقسم لك إننا لن نعود أبداً إلى إساءة احترامك.

ـ جميعنا نشعر بالاختناق، وهذا أقل ما يمكن في هذه الأحوال ـ اعترف دون ريغوبيرتو ـ فالأمور التي تحدث تُخرجنا عن طورنا. لا أشعر بأية ضغينة تجاهكما. اجلسا ولنتحدث. ما سبب هذه الزيارة؟

ـ لم نعد قادرين على تحمل المزيد يا عماه ـ بادر ميكي. وكان يبدو دوماً أكثر الاثنين جدّية وحكمة، على الأقل حين يتكلم ـ. لقد صارت حياتنا لا تطاق. أتوقع أنك تعرف هذا. الشرطة تظن أننا اختطفنا أو قتلنا آرميدا. إنهم يستجوبوننا، يوجهون لنا أشد أنواع الأسئلة استفزازاً، يلاحقنا مخبرون طيلة الليل والنهار. يطلبون منا رشوة، وإذا لم نقدمها لهم يدخلون ويعيثون خراباً في بيوتنا في أي وقت. كما لو أننا مجرمون، كيف يبدو لك هذا.

ـ وهنالك الصحف والتلفزيون يا عماه! ـ قاطعه إسكوبيتا ـ. هل رأيت القذارات التي يوجهونها إلينا؟ كل نهار وكل ليلة، في كل

نشرات الأخبار ما رأيك. يقولون إننا مغتصبا بنات، مدمنا مخدرات، وأنه يمكن لنا، بمثل هذه السوابق، أن نكون المذنبين في اختفاء خلاسية البراز تلك. أي ظلم هذا يا عماه!

ـ إذا ما بدأتما بشتم آرميدا، وهي زوجة أبيكما سواء شئتم أم لا، فإنكما تبدأان بدية سيئة يا إسكوبيتا. أنبهُ دون ريغوبيرتو.

ـ معك حق، آسف، ولكنني منفعل ـ اعتذر إسكوبيتا. وفي أثناء ذلك كان ميكي قد عاد إلى عادته القديمة بقضم أظفاره؛ إنه يفعل ذلك دون توقف، إصبعاً فإصبعاً، وبضراوة ـ أنت لا تعرف كم صارت فظيعة قراءة الصحف، وسماع المذياع، والتلفزيون. يفترون علينا طيلة النهار والليل، يسموننا منحلين، كسولين، مدمني كوكائين ولا أدري كم من الأشياء المشينة الأخرى. في أي بلاد نعيش يا عماه!

ـ ولا فائدة ترجى من الذهاب إلى المحاكم، وطلب الحماية، لأنهم يقولون إن في ذلك اعتداء على حرية الصحافة ـ قال ميكي متذمراً. وابتسم دون أي مبرر، وعاد إلى إبداء مظهر الجدّ ـ ما علينا، نحن نعلم أن الصحافة تعيش على الفضائح. الأسوأ هو ما تفعله الشرطة. ألا يبدو لك أمراً مشيناً أنهم، فوق كل ما فعله أبي معنا، يريدون جعلنا الآن مسؤولين عن اختفاء هذه المرأة؟ أصدروا بحقنا أمر إقامة جبرية مادامت التحقيقات متواصلة. حتى إنه لا يمكن لنا مغادرة البلاد، ولاسيما الآن حيث يبدأ «الأوبن ميامي».

ـ ما هو هذا الأوبن؟ قاطعه دون ريغوبيرتو مستغرباً.

ـ بطولة التنس، سوني أريكسون أوبن ـ أوضح له إسكوبيتا ـ ألا تعرف أن ميكي أحد الأوائل في لعبة التنس يا عماه؟ نال كومة من الجوائز. لقد عرضنا مكافأة لمن يساعد في الكشف عن مكان آرميدا. ولكننا، وهذا كلام بيننا، لا نملك ما ندفعه. هذا هو الوضع الحقيقي.

إننا مفلسان. لم يبق لدى ميكي ولا لدي أنا أي شيء من النقود العاهرة. لدينا ديون وحسب. وقد تحولنا إلى موبوئين، لا وجود لمصرف، ولا دائن، ولا صديق يوافق على إقراضنا سنتاً واحداً.

ـ لم يعد لدينا شيء نبيعه أو نرهنه أيها العم ريغوبيرتو ـ قال ميكي. وكان صوته يرتعش كثيراً، مع توقفات صمت طويلة، وعيناه ترمشان بلا توقف ـ بلا فلس واحد، وبلا اعتماد، وكما لو أن هذا كله قليل، فإنهم يشتبهون بنا في عملية اختطاف أو جريمة قتل. لهذا جئنا للقائك.

ـ أنت خشبة نجاتنا الأخيرة ـ أمسك إسكوبيتا يده وشدّ عليها بقوة مؤكداً وفي عينيه دموع ـ. لا تخذلنا، أرجوك يا عماه.

لم يستطع دون ريغوبيرتو أن يصدق ما يراه ويسمعه. لقد فقد التوءمان العجرفة والأمان اللذين كانا يميزانهما، إنهما يبدوان أعزلين، مرعوبين، متوسلين إشفاقه عليهما. كيف تبدلت الأحوال بمثل ذلك الوقت القصير!

ـ يؤسفني جداً كل ما جرى لكما يا بنَي أخي ـ قال مطلقاً عليهما هذه الصفة بلا سخرية لأول مرة ـ. أعرف أن ضررَ كثيرين يشكل عزاء للحمقى. ولكنني أفكر، على الأقل، بأن كل ما يلحق بكما من أذى، يصيب المسكينة آرميدا أكثر منه بكثير. أليس صحيحاً؟ سواء أكانوا قد قتلوها أم مازالوا يحتفظون بها مخطوفة، يا لنكبتها، ألا تريان ذلك؟ ومن جهة أخرى، أنا نفسي كنت ضحية أيضاً لمظالم كثيرة، على ما أعتقد. اتهاماتكما لي، على سبيل المثال، بالتواطؤ في عملية الخداع المزعومة التي كان إسماعيل ضحية لها بزواجه من آرميدا. أتدريان كم مرة كان عليّ أن أذهب للإدلاء بأقوالي لدى الشرطة وقاضي التحقيق؟ أتدريان كم هي أجور المحامين التي دفعتها؟ أتدريان أنني اضطررت

منذ شهور إلى إلغاء رحلتي مع لوكريثيا إلى أوروبا بعد أن كنا قد دفعنا تكاليفها؟ وأنني مازلت غير قادر على البدء بتقاضي راتبي التقاعدي من شركة التأمين، لأنكما عرقلتما الإجراءات. وأخيراً، إذا كانت المسألة تعداد النكبات، فإننا ثلاثتنا نعانيها.

استمعا إليه مطرقين، صامتين، متأثرين ومضطربين. سمع دون ريغوبيرتو موسيقى غريبة هناك في الخارج، من جهة كورنيش بارانكو البحري. أهو صفير مجلخ السكاكين العجوز مرة أخرى؟ يبدو أن هذين الاثنين يحاكيانه. كان ميكي يقضم أظفاره، بينما إسكوبيتا يؤرجح قدمه اليسرى بحركة رتيبة. أجل، إنها موسيقى المجلخ. سماعها يسعده.

ـ لقد تقدمنا بتلك الشكوى لأننا كنا يائسين أيها العم، فزواج أبي جعلنا نفقد عقلنا ـ قال إسكوبيتا ـ أقسم لك إننا نأسف أشد الأسف على كل الإساءات التي تسببنا بها لك. ومسألة تقاعدك ستخرج الآن سريعاً جداً كما أتصور. فكما تعرف، لم يعد لنا أية علاقة بالشركة. لقد باعها أبي لشركة إيطالية. حتى إنه لم يطلعنا على الخبر.

ـ والشكوى ضدك سنسحبها عندما تطلبُ منا ذلك يا عماه ـ أضاف ميكي ـ. فهذا بالتحديد أحد الأمور التي نريد التحدث معك عنها.

ـ شكراً جزيلاً، ولكن تأخر الوقت قليلاً على ذلك ـ قال ريغوبيرتو ـ. فقد أوضح لي الدكتور أرنييّاس أن المحاكمة التي شرعتما بها ضدي تصبح ملغاة بموت إسماعيل.

ـ من مثلك يا عماه ـ قال إسكوبيتا وهو يُظهر، كما فكر ريغوبيرتو، غباءً أكبر مما هو متوقع عقلانياً من كل ما يفعله أو يقوله ـ. يمكنني القولَ بكلمة عابرة إن الدكتور أرنييّاس، هذا المخنث بحمالتي بنطاله كمهرج، هو أسوأ خائن ولد في البيرو. لقد عاش على مصّ ثديي أبي

طوال حياته، وصار الآن عدونا المُعلن. إنه خادمٌ مباع جسداً وروحاً لآرميدا، ولأولئك الإيطاليين المافياويين الذين اشتروا الشركة من أبي بسعر بخس.

ـ لقد جئنا لتسوية الأمور وها أنت تزيدها تعقيداً ـ أنبه أخوه ميكي، ثم التفت إلى دون ريغوبيرتو بحزن ـ. نريد أن نسمع منك يا عماه. فعلى الرغم من أن مساعدتك لأبينا في ذلك الزواج ستؤلمنا دوماً، إلا أننا نثق بك. مدّ لنا يد المساعدة، قدم لنا نصيحة. فقد سمعتَ في أية محن نحن، ولا ندري ماذا نفعل. ما الذي تقترح علينا عمله؟ فأنت تمتلك خبرة كبيرة.

ـ هذا أفضل بكثير مما هو متوقع ـ هتفت دونيا لوكريثيا ـ متاجر لشركات ساغا فالابييّا، وتوتوس، وباساريلا، وديجافو، كما في أفضل محلات الشوبينغ في العاصمة.

ـ وستُ صالات سينما! جميعها مجهزة بأجهزة التكييف ـ صفق فونتشيتو ـ. لا يمكنك أن تتذمر يا بابا.

ـ حسن ـ استسلم دون ريغوبيرتو ـ. اختارا أقل الأفلام سوءاً قدر الإمكان، ولندخل إلى إحدى صالات السينما وننتهي.

ولأن الوقت كان لا يزال بداية العصر والحر شديد في الخارج، فإن تواجد الناس كان قليلاً جداً في أجنحة مركز أوبن بلازا التجاري الأنيقة. أما هنا في الداخل، فكان الهواء المبرد نعمة مباركة، وبينما راحت دونيا لوكريثيا تلقي نظرة على بعض الواجهات التجارية، واستغرق فونتشيتو في دراسة قائمة الأفلام التي تُعرض، انجذب دون ريغوبيرتو إلى تأمل المناطق الرملية الصفراء التي تحيط بحرم جامعة بيورا الوطنية الفسيح، وأشجار الخروب المتفرقة الموزعة على تلك الألسنة الأرضية الذهبية، حيث العظاءات السريعة التي لا يراها، لكنه

يستطيع تخيلها، ترصد محيط المكان برؤوسها الصغيرة المثلثة وعيونها الغمصاء بحثاً عن حشرات. يا لغرابة قصة آرميدا! ففي هربها من فضيحة المحامين وابني زوجها الغاضبين، جاءت إلى بيت شخص هو بطل فضيحة أخرى عظيمة، فيها عناصر تشويق أشهى للصحافة الصفراء: زنا، ابتزاز، رسائل مغفلة تحمل توقيع عنكبوت، عمليات اختطاف واختطافات زائفة، وحتى زنا محارم على ما يبدو. إنه يتلهف الآن فعلاً للتعرف على فيليثيتو ياناكيه، واللقاء بآرميدا وإخبارها بحديثه الأخير مع ميكي وإسكوبيتا.

وبينما هو في هذه الأفكار، اقتربت منه دونيا لوكريثيا ومعها فونتشيتو. كان لديهما اقتراحان سينمائيان: ***قراصنة الكاريبي*** (الجزء الثاني)، وهو الفيلم الذي اختاره ابنه، و«***غرام قاتل***» اختارته امرأته. فوقع اختياره على فيلم القراصنة، مفكراً في أنه سيكون تهويدة مناسبة إذا ما توصل إلى إغفاءة قيلولة، وأفضل من ميلودراما الدموع التي يوحي بها عنوان الفيلم الآخر. منذ كم من الشهور لم يدخل صالة سينما؟

ـ ولدى الخروج يمكننا المجيء إلى محل الحلويات هذا ـ قال فونتشيتو ـ يا لحلواه الرائعة!

«يبدو سعيداً ومستثاراً بهذه الرحلة»، فكّر دون ريغوبيرتو. منذ وقت طويل لم ير ابنه مبتهجاً ومتحمساً بهذا الشكل. فمنذ ظهور إديلبيرتو توريس المشؤوم تحول فونتشيتو إلى شخص متحفظ، سوداوي، وساهم. أما الآن، في بيورا، فيبدو من جديد ذلك الفتى المرح، والفضولي والمتحمس الذي كانه من قبل. داخل صالة السينما الحديثة لم يكن يوجد أكثر من ستة أشخاص.

استنشق دون ريغوبيرتو هواء، ثم أطلقه ووجه خطبته:

ـ لديَّ نصيحة واحدة فقط أقدمها لكما ـ كان يتكلم بوقار ـ. توصلا

إلى سلام مع آرميدا. تقبلا زواجها من إسماعيل، تقبلوها باعتبارها زوجة أبيكما. انسيا حماقة أنكما تريدان إبطال الزواج. تفاوضا معها على تعويض مادي. لا تخدعا نفسيكما، لن تستطيعا أبداً أن تنتزعا منها كل ما ورثته. أبوكما كان يعرف ما الذي يفعله، وقد أحكم ترتيب الأمور جيداً. إذا ما أصريتما على السير في هذه القضية القضائية، فسوف ينتهي بكما الأمر إلى قطع كل الجسور ولن تحصلا على سنتٍ واحد. تفاوضا ودياً، توافقا على مبلغ، حتى لو لم يكن مثلما ترغبان، يمكن له أن يكون كافياً لتعيشا حياة جيدة، بلا عمل وباستمتاع، وبلعب التنس، طوال حياتيكما.

ـ وماذا لو كان الخاطفون قد قتلوها يا عماه؟ ـ كانت عبارة إسكوبيتا مؤثرة جداً إلى حدّ أصيب معه ريغوبيرتو باختلاجة. وبالفعل: ماذا لو أنهم قد قتلوها؟ ماذا سيكون مصير تلك الثروة؟ هل ستبقى بين أيدي المصرفيين والوكلاء والمحاسبين ومكاتب المحاماة الدولية التي تمتلكها الآن، ولن تكون بمنأى عن يد هذين الشيطانين البائسين وحسب، وإنما كذلك عن أيدي جباة الضرائب في العالم بأسره؟

ـ من السهل عليك أن تطلب منا مصالحة تلك المرأة التي سرقت منا أبانا يا عماه ـ قال ميكي مبدياً الحزن أكثر من الغضب ـ. وقد استحوذت فوق ذلك على كل ما كانت تملكه الأسرة، بما في ذلك الأثاث وملابس أمي ومجوهراتها. لقد كنا نحب أبانا كثيراً. ويؤلمنا جداً وقوعه في شيخوخته ضحية هذه المؤامرة الدنيئة.

نظر دون ريغوبيرتو إلى عيني ميكي وحدق به. عديم الحياء الصغير هذا الذي ملأ بالمرارة سنوات إسماعيل الأخيرة، واستبقاه هو نفسه ومعه لوكريثيا معلقين منذ شهور ومحتجزين في ليما ومختنقين في مواعيد قضائية، يمنح نفسه الآن ترف إظهار النوايا الطيبة.

ـ لم تكن هناك أية مؤامرة يا ميكي ـ قال بتمهل، محاولاً عدم إظهار الغضب في كلماته ـ. أبوك تزوج لأنه كان يشعر بعاطفة نحو آرميدا. ربما لم يكن حباً، ولكنها عاطفة كبيرة. فقد كانت طيبة معه، وواسته حين ماتت أمك. وقد كانت تلك مرحلة صعبة جداً، أحس فيها إسماعيل أنه وحيد.

ـ ويا للمواساة التي قدمتها إليه باندساسها في سرير العجوز المسكين ـ قال إسكوبيتا. وصمت حين رفع ميكي يده بحدّة مشيراً له أن يطبق فمه.

ـ ولكن، وقبل كل شيء، تزوج إسماعيل منها لخيبة أمله الرهيبة فيكما ـ واصل دون ريغوبيرتو كما لو أن لسانه، ودون مشيئته، قد انفلت من تلقاء نفسه ـ أجل، أجل، أعرف جيداً ما أقوله لكما يا بنَي أخي، أعرف ما الذي أتكلم عنه. وستعرفانه أنتما الآن أيضاً إذا ما استمعتنا إليّ دون مزيد من المقاطعة.

كان قد بدأ برفع صوته، وكان التوءمان الآن هادئين ومتنبهين، وقد فوجئا بالصرامة التي يكلمهما بها.

ـ أتريدان أن أقول لكما لماذا كان يشعر بخيبة الأمل فيكما؟ ليس لأنكما كسولان ومحتالان وسكيران ومدخنا ماريغوانا وتتعاطيان الكوكائين كمن يتناول السكاكر. لا، لا، فكل هذا كان قادراً على تفهمه، بل وغفرانه أيضاً. على الرغم من أنه كان يرغب، بالطبع، أن يكون ابناه مختلفين جداً عما هما عليه.

ـ لم نأت هنا كي تهيننا يا عماه. احتج ميكي وقد احمرَّ وجهه.

ـ لقد كان محبطاً منكما لأنه علم أنكما تنتظران بفارغ الصبر أن يموت كي ترثاه. كيف عرفتُ ذلك؟ لأنه هو نفسه أخبرني به. يمكنني أن أقول لكما أين، وفي أي يوم وأية ساعة. وأن أخبركما بالكلمات التي قالها لي حرفياً.

وخلال بضع دقائق، أخبرهما ريغوبيرتو، بكل هدوء، بتلك المحادثة التي جرت قبل شهور قليلة، أثناء ذلك الغداء في مطعم روسا ناوتيكا، حين أطلعه رئيسه في العمل وصديقه على قراره بالزواج من آرميدا وطلب منه أن يكون شاهداً على ذلك الزواج.

ـ لقد سمعكما، في مستشفى سان فيليبه، تتفوهان بتلك الأمور البلهاء والخبيثة، بجوار سرير احتضاره ـ أنتما من سرعتما زواج إسماعيل وآرميدا لأنكما عديمي الإحساس وقاسيين. أو بعبارة أدق، لأنكما أحمقين. كان عليكما أن تخفيا مشاعركما على الأقل في تلك اللحظات، وأن تتركا أبيكما يموت بسلام، معتقداً أن ابنيه حزينين لما يحدث له. وليس البدء بالاحتفال بموته وهو لا يزال حياً ويسمعكما. لقد قال لي إسماعيل إن سماعه لكما تتفوهان بتلك الأمور الرهيبة منحه القوة للبقاء حياً، وللصراع ضد الموت. أنتما من تسببتما في بعثه حياً وليس الأطباء. حسن، ها أنتما تعرفان الآن. هذا هو السبب الذي جعل أباكما يتزوج من آرميدا. وكيلا تكونا أبداً الوريثين الوحيدين لثروته.

ـ نحن لم نقل قطّ هذا الذي تقول إنه قال لك إننا قلناه ـ ذُهل إسكوبيتا، وتحولت كلماته إلى لعثمات ـ لقد حلم أبي بذلك، بسبب الأدوية القوية التي أعطوه إياها لإخراجه من حالة الغيبوبة. هذا إن كنت تقول الحقيقة ولم تختلق هذه القصة كلها كي تخوزقنا أكثر مما نحن فيه.

بدا أنه يريد أن يضيف شيئاً آخر. ميكي لم يقل أي شيء وواصل قضم أظفاره بإصرار. تعكرت ملامحه وبدا قانطاً. وكان احتقان وجهه قد تفاقم.

ـ من المحتمل أن نكون قد قلنا ذلك وأنه سمعنا ـ صحح لأخيه بفظاظة ـ لقد قلنا ذلك مرات كثيرة، هذه هي الحقيقة يا عماه. لم نكن

نحبه لأنه هو أيضاً لم يحبنا قطّ. فأنا لا أذكر أنني سمعته يوجه إلينا كلمة محبة. لم يلعب معنا قطّ، لم يأخذنا إلى السينما أو إلى السيرك، مثلما يفعل آباء أصدقائنا جميعاً. وأظن أنه لم يجلس معنا قط لتبادل الحديث. لم يكن يكاد يكلمنا. لأنه ما كان يحب أحداً سوى شركته وعمله. أتدري؟ لا أشعر بأي أسف لأنه علم أننا نكرهه. لأن هذه هي الحقيقة المجردة.

ـ اصمت يا ميكي، الغضب يجعلك تتلفظ بحماقات ـ اعترض إسكوبيتا ـ لا أدري لماذا رويت لنا هذا كله يا عماه؟

ـ لسبب بسيط جداً يابن أخي. من أجل أن تنزعا من رأسيكما، إلى الأبد، تلك الفكرة السخيفة عن أن أبيكما قد تزوج من آرميدا لأنه مخبول، مصاب بخرف الشيخوخة، ولأنهم قدموا إليه أشربة أو مارسوا عليه فنون السحر الأسود. لقد تزوج لأنه علم أنكما تريدان له أن يموت بأسرع ما يمكن كي تستحوذا على ثروته وتبددانها. هذه هي الحقيقة الخالصة والمحزنة.

ـ من الأفضل أن نذهب من هنا يا ميكي ـ قال إسكوبيتا وهو ينهض عن المقعد ـ أترى لماذا لم أكن راغباً في المجيء للقيام بهذه الزيارة؟ لقد قلتُ لك إن الأمر سينتهي بهذا الشخص إلى إهانتنا بدل أن يساعدنا، مثلما فعل في المرة السابقة. من الأفضل أن نغادر قبل أن يشتد غضبي من جديد وأحطم وجه هذا المفتري القذر.

ـ لا أدري ما هو رأيكما، أما أنا فقد أعجبني الفيلم كثيراً ـ قالت السيدة لوكريثيا ـ على الرغم من أنه فيلم أحمق، إلا أنني استمتعت بمشاهدته.

ـ إنه فيلم خيالي أكثر مما هو فيلم مغامرات ـ أيدها فونتشيتو ـ. أفضل ما رأيته فيه هم المسوخ والجماجم. ولا تقل لي إن الفيلم لم يرق

لك يا أبي. لقد كنت أراقبك ورأيتك مستغرقاً بتركيز على الشاشة.

ـ حسن، الحقيقة أنني لم أشعر بأي ملل ـ وافق دون ريغوبيرتو ـ فلنأخذ سيارة أجرة كي نعود إلى الفندق. لقد بدأ الليل بالحلول واللحظة الحاسمة تقترب.

رجعوا إلى الفندق، واستحم دون ريغوبيرتو طويلاً تحت تدفق الدوش. فالآن، ومع اقتراب لحظة اللقاء بآرميدا، بدا له أن كل هذا الذي عاشه هو بالفعل، مثلما قالت لوكريثيا، لا واقعية مسلية وغير معقولة مثل الفيلم الذي شاهدوه للتو، ليس لها أدنى علاقة بالواقع المعيش. ولكن قشعريرة باردة جمدت ظهره فجأة. ربما أن عصابة قتلة، من مجرمين دوليين، عارفين بالثروة الكبيرة التي خلفها إسماعيل كاريرا، يقومون الآن بالذات بتعذيب آرميدا. بانتزاع أظفارها، وقطع إصبعها أو صلم أذنها، أو انتزاع إحدى عينيها، من أجل إجبارها على التنازل عن الملايين التي يطلبونها منها. أو ربما يكونون قد تجاوزوا الحد في تعذيبها وهي الآن ميتة ومدفونة. استحمت لوكريثيا أيضاً، ثم ارتدت ملابسها ونزلا إلى البار لتناول كأس شراب. أما فونتشيتو فظل في غرفته يشاهد التلفاز. قال إنه لا يريد تناول طعام؛ سيكتفي بطلب سندوتش وينام.

كان البار ممتلئاً بالرواد، ولكن بدا أن لا أحد يوليهما أدنى اهتمام. جلسا إلى منضدة منزوية جداً وطلبا كأسي ويسكي مع صودا وثلج.

ـ مازلت غير مصدقة أننا سوف نرى آرميدا ـ قالت دونيا لوكريثيا ـ أيكون الأمر حقيقياً؟

ـ إنه إحساس غريب ـ أجابها ريغوبيرتو ـ الإحساس بأننا نعيش خيالاً، حلماً يمكن له أن يتحول إلى كابوس.

ـ خوسيفيتا، يا لهذا الاسم الذي تحمله، ويا لهيئتها ـ علقت

لوكريثيا ـ الحقيقة أن أعصابي متوترة. وماذا لو كان هذا كله فخاً من بعض الأوغاد من أجل ابتزاز نقود منك يا ريغوبيرتو؟

ـ سيصابون بخيبة أمل عظيمة ـ قال ضاحكاً ـ لأن محفظتي فارغة. ولكن المدعوة خوسيفيتا لها هيئة يمكن لها أن تكون أي شيء باستثناء كونها مجرمة. أليس كذلك؟ والشيء نفسه ينطبق على السيد ياناكيه؛ فقد بدا لي خلال مكالمته الهاتفية أنه أشد كائنات هذه الدنيا بُعداً عن العدوانية.

أنهيا تناول الويسكي، وطلبا كأساً أخرى لكل منهما، ثم انتقلا بعد ذلك إلى المطعم. ولكن أياً منهما لم يكن يشعر برغبة في الأكل، وهكذا، بدل أن يجلسا إلى منضدة ذهبا للجلوس في صالة المدخل الصغيرة. ظلا هناك حوالي الساعة، يتآكلهما القلق، دون أن يزيحا أعينهما عن الناس الذين يدخلون إلى الفندق ويخرجون منه.

وأخيراً جاءت خوسيفيتا، بعينيها المتقافزتين، وقرطيها الكبيرين، وردفيها الفخمين. كانت تلبس كما في الصباح. جاءت بملامح جدية جداً وإيماءات تآمرية. اقتربت منهما بعد أن استطلعت بعينيها المتحركتين محيط المكان حولهما، ودون أن تفتح فمها ولو لتقول لهم مساء الخير، أومأت إليهما بأن يتبعاها. خرجا في إثرها إلى ساحة السلاح. دون ريغوبيرتو الذي يكاد لا يشرب مطلقاً، تسبب له كأسا الويسكي بدوار خفيف، وأصابه هواء الشارع بشيء من التشوش الإضافي. جعلتهما خوسيفيتا يدوران حول الساحة ويمران بمحاذاة الكاتدرائية، ثم ينعطفان بعد ذلك إلى شارع اريكيبا. كانت المتاجر قد أُغلقت، بينما ظلت واجهاتها مضاءة ومحمية بشباك معدنية، ولم يكن هناك عابري سبيل كثيرين على الرصيفين. عند الوصول إلى كتلة الأبنية الثانية، أشارت لهما خوسيفيتا إلى البوابة الكبيرة لبيت قديم، نوافذه

مسدلة الستائر، ودون أن تقول ولو كلمة واحدة، أومأت لهما بيدها مودعة. رآياها تبتعد مسرعة، متبخترة، دون أن تلتفت. اقترب دون ريغوبيرتو ودونيا لوكريثيا من البوابة الضخمة المزينة بمسامير حديدية كبيرة، ولكن البوابة انفتحت قبل أن يطرقا عليها، ودمدم صوت ذكوري باحترام شديد: «تفضلا، ادخلا من فضلكما».

دخلا. وفي بهو سيئ الإضاءة، فيه مصباح وحيد يهزه هواء الشارع، استقبلهما رجل ضئيل ونحيل، محشور في بدلة محكمة مع صدار. انحنى لهما انحناءة كبيرة وهو يمد إليهما في الوقت نفسه يد طفل:

ـ أتشرف بالترحيب بكما في بيتي.. فيليثيتو ياناكيه في خدمتكما. تفضلا، تفضلا.

أغلق الباب الخارجي وقادهما عبر البهو شبه المظلم باتجاه صالة ظليلة أيضاً، حيث يوجد جهاز تلفاز ورف صغير عليه أسطوانات مدمجة. رأى دون ريغوبيرتو شبحاً أنثوياً ينهض منتصباً عن أحد المقاعد. تعرَّف على آرميدا. وقبل أن يتمكن من تحيتها سبقته إليها دونيا لوكريثيا، ورأى امرأته تعانق أرملة إسماعيل كاريرا بقوة. انفجرت المرأتان كلتاهما بالبكاء، كما لو أنهما صديقتان قديمتان تلتقيان بعد سنوات طويلة من الغياب. وعندما جاء دوره لتحيتها، قرَّبت له آرميدا خدها ليقبله. وقد فعل ذلك مدمدماً: «يا للسعادة برؤيتك سليمة ومعافاة يا آرميدا». وشكرته هي لمجيئه، فليكافئك الرب، وإسماعيل أيضاً سيشكرك من هناك، حيث هو الآن.

ـ يا لها من مغامرة يا آرميدا ـ قال ريغوبيرتو ـ. أظنك تعرفين أنك المرأة التي يبحث عنها الجميع في البيرو. والمرأة الأوسع شهرة أيضاً. تظهرين في التلفزيون صباح مساء، والجميع يظنون أنك مختطفة.

ـ لا أجد الكلمات الكافية لشكركما على تحملكما مشقة المجيء إلى

بيورا ـ قالت وهي تمسح دموعها ـ. إنني بحاجة إلى مساعدتكما. لم يعد بإمكاني البقاء لمزيد من الوقت في ليما. فتلك المواعيد مع المحامين، ومع الكتّاب بالعدل، واللقاءات مع ابني إسماعيل، بدأت تسبب لي الجنون. كنت بحاجة إلى قليل من الهدوء كي أتمكن من التفكير. لست أدري ما الذي كنت سأفعله من دون خيرترروديس وفيليثيتو. هذه أختي وفيليثيتو صهري.

ووسط ظلال الحجرة ظهرت هيئة غائمة. ومدّت المرأة الملتفة بجلباب يدها الثخينة المتعرقة وصافحتهما مع انحناءة من رأسها، دون أن تتفوه بكلمة واحدة. وإلى جانبها، وقف الرجل الضئيل الذي يبدو أنه زوجها، بدا أكثر ضآلة، أشبه بعفريت قزم. وكان يحمل بكلتا يديه صينية فيها كؤوس وقوارير شراب غازي:

ـ لقد جهزتُ لكما بعض المرطبات. تفضلا، رجاء.

ـ لدينا حديث كثير معك يا آرميدا ـ قال دون ريغوبيرتو ـ، ولا أعرف من أين أبدأ.

ـ من الأفضل البدء من البداية ـ قالت آرميدا ـ. ولكن، اجلسا، اجلسا. إنكما جائعان. لقد حضّرنا أنا وخيرترروديس شيئاً لتأكلاه أيضاً.

XIX

عندما فتح فيليثيتو ماناكيه عينيه كان الوقت فجراً، ولم تكن العصافير قد بدأت تغرد بعد. فكّر: «هذا هو اليوم». كان الموعد مقرراً في الساعة العاشرة صباحاً؛ مازال لديه نحو خمس ساعات. لم يكن يشعر بالعصبية؛ فهو يعرف كيف يحافظ على التحكم بنفسه، لن يسمح للغضب بأن يسيطر عليه، وسيحدثه بكل هدوء. فالقضية التي أرقته طيلة حياته ستُسوى اليوم وإلى الأبد؛ وستأخذ ذكراها بالتلاشي شيئاً فشيئاً إلى أن تختفي من ذاكرته.

نهض، أزاح الستائر، وبينما هو حافي القدمين وببجامته ذات المقاس الطفلي، مارس لمدة نصف ساعة تمارين الكي جونغ بالبطء والتركيز اللذين علمه إياهما الصيني لاو. فمن أجل التوصل إلى الكمال في كل حركة من حركاته، كان يتيح للجهد أن يستحوذ على وعيه بالكامل. وفكر: «كنت على وشك إضاعة المركز ولم أتوصل بعد إلى استعادته». ناضل كيلا يتغلب عليه وهنُ العزيمة مرة أخرى. ليس غريباً فقدانه التركيز مع التوتر الذي يعيشه منذ تلقيه رسالة العنكبوت الأولى. من بين كافة الشروح التي قدمها إليه البقال لاو حول الكي جونغ ـ هذا الفن، الرياضة، الديانة أو أية تسمية أخرى، الذي علمه إياه وصار منذ ذلك الحين جزءاً من حياته ـ الشيء الوحيد الذي فهمه بكامل أبعاده هو «العثور على المركز». كان لاو يكرر ذلك في كل مرة يضع فيها يديه

على رأسه أو على معدته. وأخيراً فهم فيليثيتو: «المركز» الذي لا بد من العثور عليه، ولا بد من تحميته بحركة دائرية براحتي اليدين على البطن، حتى الإحساس بأن قوة غير مرئية تخرج من هناك وتمنحه شعوراً بالطفو، لم يكن ذلك مركز جسده وحسب، بل شيء أشد تعقيداً، إنه رمز لنظام وسكينة، سُرَّةٌ للروح، إذا ما تمكن المرء من تحديده جيداً والسيطرة عليه، فسوف يطبع حياته بمغزى واضح وتنظيم متناسق. ولقد سيطر عليه في هذه الفترة الأخيرة الإحساس ـ اليقين ـ بأن مركزه قد ضاع وأن حياته آخذت تغرق في الفوضى.

يا للصيني لاو المسكين. لم يكونا صديقين بكل معنى الكلمة، لأن علاقة الصداقة تتطلب التفاهم كلامياً، ولاو لم يتعلم الإسبانية قطّ، بالرغم من أنه كان يفهم كل شيء تقريباً. لكنه يتكلم لغة إيماءات وحركات محاكاة يمكن من خلالها فهم ثلاثة أرباع ما يقوله. أما الصينية التي تعيش معه وتساعده في الدكان؛ فهي تفهم كما يبدو ما يقوله الزبائن، ولكنها نادراً ما تتجرأ على التوجه إليهم بالكلام، مدركة أن ما تقوله ليس سوى أصوات مختلطة، يصعب فهمها أكثر من صعوبة فهم إيماءات لاو. لقد كان فيليثيتو يظن، لوقت طويل، أنهما زوج وزوجة، ولكن في أحد الأيام، حين كان الاثنان قد نسجا علاقة تشبه الصداقة، ولكنها ليست كذلك، تمكن لاو من إفهامه أن تلك المرأة الصينية، في الحقيقة، هي أخته.

كان دكان لاو عند تخوم بيورا آنذاك، حيث تلتقي المدينة بالأراضي الرملية، من جهة إلتشيبه. ما كان يمكن للمكان أن يكون أشد بؤساً: كوخ من عيدان أشجار الخروب مع سقف من التوتياء مثبت بأحجار، مقسوم إلى قسمين، قسم للدكان، وهو حجرة صغيرة فيها منضدة كونتوار وخزائن جدارية مرتجلة، والقسم الآخر هو الذي يعيش فيه الأخوان،

ويأكلان وينامان. وكان لديهما بعض الدجاج والماعز، وقد امتلكا في إحدى المرات خنزيراً أيضاً، ولكنه سُرق منهما. وهما يعيشان بفضل سائقي الشاحنات الذين يمرون من المكان أثناء توجههم إلى سويّانا أو بايتا، ويتوقفون هناك لشراء سجائر أو مياه غازية أو بسكويت أو لتناول زجاجة بيرة. وكان فيليثيتو يعيش في الجوار، في نُزل تملكه أرملة، قبل سنوات من انتقاله إلى بنسيون «شجرة الخروب». المرة الأولى التي اقترب فيها من دكان لاو ـ حدث ذلك في ساعة مبكرة جداً من الصباح ـ وجده يقف منتصباً وسط الرمال، لا يرتدي شيئاً سوى البنطال، بينما صدره بارز العظام عار، ويقوم بممارسة تمارين غريبة بحركة كاميرا بطيئة. لسعه الفضول، ووجه إليه أسئلة، فحاول الصيني بإسبانيته الكاريكاتورية أن يشرح له ما الذي يفعله بتحريك ذراعيه ببطء والتوقف أحياناً دون حراك مثل تمثال، وبعينين مغمضتين، كما لو أنه يحبس أنفاسه. منذ ذلك الحين، صار سائق الشاحنة يستغل أوقات فراغة ليذهب مسرعاً إلى ذلك الدكان كي تبادل الحديث مع لاو، إن كان يمكن تسمية ذلك الذي يفعلانه تبادلاً للحديث، إذ كانا يتواصلان بإشارات وإيماءات يحاولان أن يكملا بها الكلمات، وهي إيماءات تدفعهما أحياناً، عند أي عدم تفاهم، إلى الانفجار في الضحك.

لماذا لم يكن لاو وأخته يلتقيان بصينيّي البيرو الآخرين؟ هنالك عدد لا بأس به منهم، بينهم أصحاب مطاعم وحانات ومتاجر، وبعضهم مزدهرين جداً. ربما لأنهم جميعهم في وضع أفضل بكثير من وضع لاو، وهم لا يريدون الإساءة لسمعتهم بالاختلاط مع هذا الفقير الذي يعيش كمتوحش بدائي، دون أن يستبدل أبداً البنطال المزيت كثير الثقوب وقميصيه الوحيدين الذين يرتديهما مفتوحين على الدوام تقريباً، كاشفاً بذلك عن عظام صدره. وقد كانت أخته هيكلاً عظمياً صامتاً كذلك.

ولكنها هيكل عظمي نشيط جداً، فهي من تقدم العلف للحيوانات، وتذهب لشراء الماء والمؤن من الموزعين في أمكنة قريبة. لم يستطع فيليثيتو قطّ أن يتحرى أي شيء في حياتيهما، كيف ولماذا جاءا إلى البيرو من بلادهم النائية، ولماذا لم يستطيعا، خلافاً للصينيين الآخرين في المدينة، من التقدم قُدماً وظلا غارقين في البؤس.

كانت واسطة تواصلهما الحقيقية هي رياضة الكي جونغ. في البدء، راح فيليثيتو يحاكي حركات لاو كمن يلعب، غير أن لاو لم يأخذ الأمر على محمل المزاح، بل حثه على المثابرة، وتحول إلى معلمه. معلم صبور، لطيف، متفهم، يرافق بإسبانيته البدائية كل حركة من حركاته وأوضاعه، بشروح يفهمها فيليثيتو بصعوبة. ولكن، شيئاً فشيئاً، سمح للعدوى بنموذج لاو أن تنتقل إليه، وبدأ يمارس طقوس الكي جونغ، ليس لدى زيارته الدكان وحسب، وإنما كذلك في نُزل الأرملة، وفي الأمكنة التي يأوي إليها للراحة خلال سفرياته. لقد أعجبه ذلك. وأحس بأنه مفيد له. يجعله يهدأ حين يكون عصبياً، ويمنحه طاقة وقدرة على التحكم بالتبدلات اليومية. وساعده على اكتشاف مركزه.

في إحدى الليالي، أيقظت صاحبة النُزل فيليثيتو قائلة له إن امرأة الدكان الصينية شبه المجنونة تقف عند الباب مطلقة الصرخات، وليس هناك من يفهم ما تقوله. خرج فيليثيتو بسرواله الداخلي. كانت أخت لاو مشعثة الشعر، تومئ مشيرة إلى الدكان وهي تطلق صرخات هستيرية. ركض وراءها ووجد هناك صاحب الدكان عارياً، يتلوى من الألم على حصير، مع حرارة مرتفعة جداً. تكلف مشقة في العثور على سيارة تنقل لاو إلى أقرب مركز إسعاف عمومي. وهناك قال له المرض المناوب إنه يجب نقله إلى المستشفى، لأن مركز الإسعاف لا يقدم سوى إسعافات خفيفة، وهذه الحالة تبدو حرجة. تطلب الأمر أكثر

من نصف ساعة للعثور على سيارة أجرة تحمل لاو إلى قسم الطوارئ في المستشفى العمالي، حيث تركوا البقال مطروحاً على مقعد خشبي حتى الصباح التالي، لأنه لا وجود لأسرّة شاغرة. وفي اليوم التالي، حين رآه طبيب في نهاية المطاف، كان لاو يحتضر. وقد مات بعد ساعات قليلة. لم يكن هناك من يدفع نفقات دفنه ـ كان فيليثيتو يكسب ما يكفي لطعامه فقط ـ فدفنوه في قبر جماعي، بعد تلقي وثيقة توضح أن سبب وفاته تعفن معوي.

المثير للفضول في الأمر أن أخت لاو قد اختفت في ليلة موت البقال نفسها. لم يعد فيليثيتو إلى رؤيتها أو سماع أي خبر عنها قطّ. أما الدكان فتم السطو عليه ونهبه في ذلك الصباح بالذات، وبعد بعض الوقت أخذوا صفائح التوتياء والعوارض الحديدية، بحيث لم يبق بعد أسابيع قليلة أي أثر من الأخوين. وعندما ابتلع الزمن والصحراء آخر آثار الكوخ، أقيمت في المكان ساحة لصراع الديوك، لكنها لم تلق نجاحاً كبيراً. أما الآن، فتحول المكان إلى جزء من مدينة إلتشيبيه، وصار فيه عمران، وشوارع وكهرباء، وماء وصرف صحي، وبيوت أسر مزدهرة من الطبقة الوسطى.

بقيت ذكرى البقال لاو حية في ذاكرة فيليثيتو. تتجدد في كل صباح، بعد ثلاثين عاماً، في كل مرة يمارس فيها تمارين الكي جونغ. لقد انقضى زمن طويل ومازال يتساءل أحياناً عن مغامرة لاو وشقيقته، عن سبب مغادرتهما الصين، وأية ظروف عانياها واضطرتهما إلى البقاء في بيورا محكومين بتلك الحياة الحزينة والمتوحدة. كان لاو يكرر بكثرة أنه لا بد من العثور على المركز، وهو أمر، على ما يبدو، لم يستطع التوصل إليه قطّ. لقد قال فيليثيتو لنفسه إنه ربما سيتمكن اليوم، حين يفعل ما هو ذاهب لفعله، من استعادة مركزه المفقود.

أحس ببعض التعب عند الانتهاء، وكان قلبه ينبض بسرعة أكبر قليلاً. استحم بهدوء، لمّع حذاءه، ارتدى قميصاً نظيفاً وتوجه إلى المطبخ ليُعدّ فطوره المعهود، المكون من حليب الماعز والقهوة وشريحة خبز أسود سخّنها في آلة التحميص، وطلاها بالزبد وعسل تشانكاكا. كانت الساعة السادسة والنصف صباحاً حين خرج إلى شارع اريكيبا. وكان لوثيندو الأعمى قد اتخذ مكانه عند الناصية، كما لو أنه ينتظره. وضع قطعة عملة من فئة سول في علبة الأعمى المعدنية وتعرف عليه الأعمى في الحال:

ـ صباح الخير يا دون فيليثيتو. إنك تخرج اليوم في وقت أبكر من المعتاد.

ـ هذا يوم مهم بالنسبة لي، ولدي عمل كثير. تمنى لي أن يحالفني الحظ يا لوثيندو.

أناس قليلون كانوا في الشارع. فكان المشي ممتعاً على الرصيف دون أن يكون المرء محاصراً بالصحفيين. والأكثر متعة هو معرفة أن هزيمة كبرى محققة قد أُلحقت بأولئك الصحفيين: لم يتمكن أولئك التعساء من اكتشاف أن آرميدا، المختطفة المزعومة، وأكثر شخصية كان البحث جارٍ عنها من قبل صحافة البيرو، وقد أمضت أسبوعاً كاملاً ـ سبعة أيام بلياليها! ـ مختبئة في بيته، تحت أنوفهم، دون أن يخطر لهم ذلك. المؤسف فقط أنهم لن يعلموا أبداً بأنهم قد خسروا بذلك خبطة القرن الصحفية. لأن آرميدا، في مؤتمرها الصحفي الحاشد الذي عقدته في ليما، محاطة بوزير الداخلية وقائد الشرطة، لم تكشف للصحافة عن أنها التجأت إلى بيورا، عند أختها خيرترورديس. اكتفت بالإشارة بصورة غائمة إلى أنها كانت في بيت بعض الأصدقاء كي تهرب من ملاحقة الصحافة التي أوصلتها إلى حافة أزمة عصبية. تابع

فيليثيتو وزوجته عبر التلفاز ذلك المؤتمر الصحفي الذي غصّ بالصحفيين، ووميض الفلاشات والكاميرات. وقد ذُهل صاحب شركة النقل للطلاقة التي تردّ بها أخت زوجته على الأسئلة، دون أن تتورط في الكلام، ودون أن تتباكى، بل كانت تتكلم بهدوء وبكلام جميل. فتواضعها وبساطتها، كما سيقول الجميع في ما بعد، أكسباها تعاطف الرأي العام الذي صار أقل استعداداً، منذ الاستماع إليها، لتصديق صورة الانتهازية الجشعة الساعية للزواج من ثري التي أشاعها عنها ابنا إسماعيل كاريرا.

خروج آرميدا من مدينة بيورا، بصورة سرية، في منتصف الليل، في واحدة من سيارات ناريهوالا للنقل، يقودها ابنه تيبورثيو، كان عملية خُطط لها ونُفذت بإتقان، دون أن ينتبه أحد إليها، ابتداء من الشرطة وانتهاء بالصحفيين. في البدء، كانت آرميدا تريد أن يأتي من ليما ليأخذها شخصٌ يدعى نرسيس، السائق السابق لزوجها المتوفى والذي تثق به كثيراً، إلا أن فيليثيتو وخيرترووديس أقنعاها بأن يتولى قيادة السيارة تيبورثيو الذي يثقان به ثقة عمياء. إنه سائق رائع، وشخص متكتم، وهو ابن أختها فوق ذلك كله. كما أن السيد دون ريغوبيرتو شجعها كثيراً على العودة إلى ليما بأسرع ما يمكن، والخروج إلى العلن من أجل تبديد ظنون آرميدا.

تم كل شيء مثلما خططوا له. فقد رجع دون ريغوبيرتو وزوجته وابنه إلى ليما بالطائرة. وبعد يومين من ذلك، حضر تيبورثيو إلى البيت في شارع اريكيبا في الموعد المتفق عليه، بعد منتصف الليل، وكان قد وافق بطيب خاطر على التعاون في الخطة. ودّعتهم آرميدا بقبلات ودموع والامتنان. وبعد اثنتي عشرة ساعة من سفر بلا عقبات، وصلتْ إلى بيتها في سان إيسيدرو بالعاصمة ليما، حيث كان بانتظارها محاموها

وحراسها الشخصيون والسلطات، وكانوا جميعهم سعداء لإعلان أن أرملة إسماعيل كاريرا قد عادت للظهور سالمة ومعافاة، بعد ثمانية أيام من الاختفاء الغامض.

حين وصل فيليثيتو إلى مكتبه في جادة سانتشيث سيرّو، كانت أول الحافلات والشاحنات والفانات جاهزة للانطلاق إلى كافة مناطق محافظة بيورا وإلى إقليمي تومبيس ولامبايكي المجاورين. وكانت ناريهوالا للنقل قد بدأت تستعيد شيئاً فشيئاً زبائنها كما في أزمنتها الجيدة. فالناس الذين أداروا ظهورهم للشركة بسبب واقعة العنكبوت، لخوفهم من الوقوع ضحية عمل عنف من جانب الخاطفين المزعومين، راحوا ينسون الموضوع ويعودون إلى الاعتماد على الخدمات الجيدة التي يوفرها سائقو الشركة. كما تم التوصل أخيراً إلى اتفاق مع شركة التأمين على أن تدفع مناصفة معه تكاليف إعادة إصلاح الأضرار التي أحدثها الحريق. وسرعان ما بدأت أعمال الإصلاح. وعادت المصارف إلى تقديم قروض له، وإن يكن بالتنقيط. وأخذت الأمور تستتب يوماً بعد يوم. تنفس فيليثيتو الصعداء: سيضع اليوم نقطة النهاية لتلك القضية المشؤومة.

عمل طيلة الصباح في المسائل اليومية العادية، تحدث مع ميكانيكيين وسائقين، ودفع بعض الفواتير، قام بعملية إيداع، أملى رسائل على خوسيفيتا، تناول فنجاني قهوة، وفي الساعة التاسعة والنصف صباحاً، تناول الملف الذي أعده المحامي الدكتور هيلديبراندو كاسترو بوسو، وتوجه إلى مركز الشرطة ليأخذ معه الرقيب ليتوما. كان هذا الأخير ينتظره عند مدخل المفوضية. نقلتهما سيارة أجرة إلى سجن الرجال في ريو سيكو، خارج أسوار المدينة.

ـ هل تشعر بالعصبية من هذه المهمة يا دون فيليثيتو؟ سأله الرقيب

خلال الرحلة.

ـ لا أظن أنني كذلك ـ ردّ عليه متردداً ـ. لا يمكن لأحد أن يعرف. سوف نرى حين يكون واقفاً أمامي.

أدخلوهما في السجن إلى غرفة التدابير الاحتياطية. وتولى بعض الحراس تفتيش ملابس فيليثيتو للتأكد من أنه لا يحمل سلاحاً. ثم قام مدير السجن شخصياً، وهو رجل منحن وكئيب يرتدي قميصاً قصير الكمين ويجرجر صوته وقدميه، باقتيادهما إلى حجرة صغيرة محمية، فضلاً عن الباب الخشبي السميك، بحاجز قضبان حديدية. كانت جدرانها مغطاة بكتابات ورسوم وكلمات بذيئة. وفور اجتياز العتبة، تعرف فيليثيتو على ميغيل الواقف في منتصف الغرفة.

لم يكن قد رآه منذ أسابيع قليلة، ولكن تحولاً كبيراً كان قد طرأ على الشاب. فهو لا يبدو فقط أنه صار أشد نحولاً وأكثر تقدماً في السن، ربما بسبب نمو شعره الأشقر وتشعثه ونمو شعر ذقنه الذي يلوث الآن وجهه، بل إن تبدلاً قد طرأ كذلك على ملامحه التي كانت شبابية وحالمة، وهي الآن ملامح صامتة، مستنفدة، ملامح شخص فقد الاندفاع، وحتى الرغبة في الحياة، لأنه يعرف أنه مهزوم. ولكن ربما كان التبدل الأكبر هو الذي يبدو على ملابسه. فهو الذي اعتاد أن يلبس ويتهندم بتغنج دون جوان الحارة، على العكس من تيبورثيو الذي يظل نهاراً وليلاً ببنطال الجينز وسترات الغوايابيرا الخاصة بالسائقين والميكانيكيين؛ كان يرتدي الآن قميصاً مفتوح الصدر تنقصه أزراره كلها، وبنطال مجعد وملوث بلطخات وبقع، وينتعل حذاء متسخاً وبلا رباط. ولم يكن يلبس جوربين.

نظر فيليثيتو إلى عينيه بثبات ولم يتحمل ميغيل نظرته تلك لأكثر من بضع ثوان؛ ثم بدأ يرمش، فخفض بصره ووجهه إلى الأرض. في هذه

اللحظة فقط انتبه فيليثيتو إلى أن طول قامته يكاد لا يصل إلى مستوى كتف ميغيل، وأن قامة هذا الأخير تزيد عنه أكثر من حجم رأس. أما الرقيب ليتوما فظل يقف ملتصقاً بالجدار، صامتاً تماماً، متوتراً، كما لو أنه يرغب في أن يكون غير مرئي. وعلى الرغم من وجود كرسيين معدنيين في الحجرة، فقد ظل الثلاثة واقفين. كانت هناك خيوط عنكبوت تتدلى على الجدران حيث الرسوم البذيئة لفروج وصدور نسائية. ويعبق المكان برائحة بول. لم يكن المجرم مقيد اليدين.

ـ لم آت لأسألك عما إذا كنتَ نادماً عما فعلته ـ قال فيليثيتو أخيراً وهو ينظر إلى تشعث الشعر الأشقر والمتسخ الذي على بُعد متر عنه، ويشعر بالرضى عن أنه يتكلم بحزم، دون إبداء أي أثر من ذلك الحنق الذي يكبحه في أعماقه ـ. هذا أمر لك أن تتدبره هناك في الأعالي عندما تموت.

توقف عن الكلام كي يتنفس بعمق. لقد تكلم بصوت خافت، وحين واصل الكلام رفع من نبرة صوته:

ـ لقد جئت من أجل موضوع أهم بكثير بالنسبة لي. أكثر أهمية من رسائل العنكبوت، ومن ابتزازاتك للحصول على المال مني، ومن عملية الاختطاف المزيفة التي دبرتها مع مابيل، وأكثر من الحريق في مكتبي ـ ظل ميغيل جامداً دون حراك، ورأسه إلى أسفل طيلة الوقت، ولم يتحرك الرقيب ليتوما كذلك من مكانه ـ. لقد جئت لأقول لك إنني سعيد لما حدث. لما خططتَ له وما فعلتَه. فبفضله استطعتُ أن أتوصل إلى توضيح شكٍّ ساورني طيلة حياتي. أنت تدري ما هو، أليس كذلك؟ لا بد أن يكون قد خطر في بالك، في كل مرة ترى فيها وجهك في المرآة، أن تتساءل عن السبب في امتلاكك بشرة بيضاء في حين أننا، أنا وأمك، خلاسيين. أنا أيضاً أمضيت حياتي أسأل نفسي هذا السؤال. ولقد

ابتلعت الأمر حتى الآن، دون أن أحاول التحري، كيلا أجرح مشاعرك ومشاعر خيرترورديس. أما الآن فلم يعد لدي مبرر للحفاظ على تقدير لمشاعرك. لقد وجدتُ حلّ هذا السر. ولهذا السبب جئت إليك. جئت لأقول لك شيئاً سيروق لك جداً مثلما يروق لي. أنت لست ابني يا ميغيل. ولم تكن ابني قطّ. أمك والآمرة، أم أمك، جدتك، حين اكتشفتا أن خيرترورديس حبلى، جعلتاني أصدق أنني أنا الأب من أجل إجباري على الزواج منها. لقد خدعتاني. لم أكن أنا الأب. تزوجتُ من خيرترورديس لمجرد أني رجل طيب. لقد اتضح الشك الآن. وقد كانت أمك صريحة واعترفت لي بكل شيء. إنها سعادة عظيمة يا ميغيل. كان يمكن لي أن أموت غمّاً لو أن ابناً لي، تجري في عروقه دمائي، هو من فعل بي ما فعلته أنت. إنني مطمئن الآن، بل إنني سعيد. لم يكن ابني من فعل ذلك كله، وإنما ابن السبعة آباء. يا للراحة العظيمة التي أشعر بها لمعرفتي أنها ليست دمائي، ليست دماء أبي النقية، هي التي تسري في عروقك. هنالك أمر آخر يا ميغيل. حتى أمك نفسها لا تعرف من الذي حبلتْ منه لتولد أنت. فهي تقول إنه ربما يكون واحداً من أولئك اليوغسلافيين الذين جاؤوا من أجل إقامة أنظمة الري على نهر تشيرا. لكنها غير متأكدة. أو ربما هو واحد من ذوي البشرة البيضاء الميتين جوعاً الذين كانوا يأتون إلى نُزل «شجرة الخروب» ويمرون كذلك على فراشها. سجل ملاحظة يا ميغيل. أنا لستُ أباك، وأمك نفسها لا تعرف ممن هو الحليب الذي أنجبك. أنت إذاً واحد من أبناء السبعة آباء الذين في بيورا، واحد من أولئك الذين تولدهن الغسالات أو راعيات الماعز اللاتي «يقوصهن» الجنود في أيام سُكرهم. ابن سبعة آباء يا ميغيل، هذه هي حقيقتك بالضبط. ولا أستغرب إقدامك على فعل ما فعلته بكل هذه الدماء المختلطة في عروقك.

صمت لأن رأس الشعر الأشقر المشعث ارتفع بعنف. رأى العينين الزرقاوين محتقنتين بالدم والحقد. «أتراه سينقض عليَّ، ويحاول خنقي»، فكر. ولا بد أن الرقيب ليتوما قد فكر في ذلك أيضاً، لأنه تقدم خطوة إلى الأمام ويده على قراب المسدس، ووقف إلى جانب صاحب شركة النقل لحمايته. إلا أن ميغيل بدا مقيداً، عاجزاً عن القيام برد فعل والتحرك. كانت الدموع تسيل على خديه، مع ارتعاش في يديه وفمه. كان شاحباً. يريد أن يقول شيئاً لكن الكلمات لا تخرج منه، وبين حين وآخر تصدر عن جسده ضجة بطنية، على شكل تجشؤ أو غثيان.

عاد فيليثيتو ياناكيه لمواصلة الكلام، بالبرود المكبوح نفسه الذي ألقى به ذلك الخطاب الطويل:

ـ لم أنته بعد. قليل من الصبر. هذه آخر مرة نلتقي فيها، لحسن حظك وحظي. سأترك لك هذا الملف. اقرأ بتأنٍ كل كلمة أعدّها لك محاميَّ الخاص. الدكتور هيلديبراندو كاسترو بوسو الذي تعرفه جيداً. وإذا كنت توافق عليها، ضع توقيعك على كل ورقة، حيث توجد إشارة X. وسيرسل المحامي من يأخذ هذه الأوراق غداً، وسوف يتولى بنفسه مواصلة الإجراءات أمام القضاء. المسألة التي في الأوراق بسيطة جداً. تغيير الهوية الشخصية، هكذا يسمونها. سوف تتخلى عن لقب ياناكيه، وهو لقب لا تنتمي إليه على كل حال. يمكنك الاحتفاظ بلقب أمك، أو أن تخترع الاسم الذي يروق لك. ومقابل عملك هذا، سوف أسحب جميع الشكاوى التي رفعتُها ضد الفاعل في مسألة رسائل العنكبوت، وضد المتسبب بالحريق في ناريهوالا للنقل وعملية اختطاف مابيل الزائفة. من المحتمل، بفضل ذلك، أن تتخلص من سنوات السجن التي سيُحكم بها عليك وتخرج إلى الشارع. ولكن، فور

نيلك الحرية، ستترك بيورا. ولا تعود لوضع قدميك على أرضها، حيث الجميع يعرفون أنك مجرم. أضف إلى ذلك أن أحداً لن يمنحك فرصة عمل محترم هنا. لا أريد العودة للقاء بك في الطريق. لديك وقت للتفكير في الأمر حتى يوم غد. إذا لم تشأ توقيع الأوراق، فهذا شأنك. سوف تتواصل المحاكمة وسوف أبذل المستحيل كي يكون الحكم عليك بأطول ما يمكن من سنوات السجن. القرار لك. هنالك أمر أخير. أمك لم تأت لزيارتك لأنها لا تريد العودة لرؤيتك إلى الأبد. أنا لم أطلب منها ذلك، بل هو قرارها. هذا كل ما لدي. يمكننا الانصراف الآن أيها الرقيب. فليسامحك الرب يا ميغيل. أما أنا فلن أسامحك أبداً.

ألقى الملف بما فيه من أوراق عند قدمي ميغيل واستدار باتجاه الباب يتبعه الرقيب ليتوما. ظل ميغيل ثابتاً في مكانه، بعينين ممتلئتين بالحقد والدموع، يحرك فمه دون أن يصدر عنه أي صوت، كما لو أن صاعقة أصابته وحرمته من الحركة، والكلام، والرشد، بينما الملف الأخضر عند قدميه. «هذه هي صورته الأخيرة التي ستبقى في ذاكرتي»، فكّر فيليثيتو. وكان يتقدم مع الرقيب نحو مخرج السجن، حيث كانت سيارة الأجرة بانتظارهما. وبينما السيارة العتيقة تتقدم مهتزة خارج بيورا، ومتوجهة إلى مفوضية الشرطة في جادة سانتشيث سيرّو لإيصال ليتوما، ظل هذا الأخير وصاحب شركة النقل صامتين. وعندما صاروا في المدينة، كان الشرطي هو من تكلم أولاً:

ـ أيمكن لي أن أقول لك أمراً يا دون فيليثيتو؟

ـ قل ما تريد أيها الرقيب.

ـ لم أتخيل قطّ أنه يمكن قول مثل هذه الكلمات الفظيعة التي قلتها لابنك هناك في السجن. لقد تجمد دمي، أقسم لك.

ـ إنه ليس ابني. رفع صاحب شركة النقل يده.

ـ ألف اعتذار، أعرف ذلك ـ اعتذر الرقيب ـ. لديك الحق بالطبع، فما فعله ميغيل لا توجد تسمية له. ولكن، حتى في هذه الحال. لا تتضايق مني، إنها أقسى الكلمات التي سمعتُ شخصاً يوجهها لآخر في حياتي، يا دون فيليثيتو. ولم أتوقع قطّ أن تصدر عن شخص شديد الطيبة مثلك. لا أستطيع أن أدرك كيف أن الشاب لم ينقض عليك. ظننتُ أنه سيفعل، وقد أفلَتُ لهذا السبب زر قراب المسدس. وأقول لك إنني كنت على وشك سحب المسدس.

ـ لم يتجرأ لأني تفوقتُ عليه أخلاقياً ـ ردّ فيليثيتو ـ. ربما هي كلمات قاسية، ولكن، أتراني كذبت أو بالغت أيها الرقيب؟ قد أكون قاسياً، ولكنني لم أقل سوى الحقيقة الصارمة.

ـ الحقيقة الرهيبة التي أقسم لك إنني لن أبوح بها لأحد. لن أبوح بها حتى للنقيب سيلفا. هذا وعد يا دون فيليثيتو. ولكنك من جهة أخرى كنت بالغ الكرم معه. إذا ما سحبتَ جميع الدعاوى الموجهة إليه، فسوف يخرج حراً. أمر إضافي آخر، لتغيير الموضوع. تلك الكلمة، «قوص». كنت أسمعها وأنا صبي صغير، ولكنني نسيتها. لم يعد أحد يستخدمها الآن في بيورا، هكذا يبدو لي.

ـ المسألة أنه لم يعد هنالك «مقوصون» كثيرون كما في الزمن الغابر ـ تدخل السائق ضاحكاً بشيء من الحنين ـ حين كنت صغيراً كان ذلك شائعاً بكثرة. لم يعد الجنود الآن يذهبون إلى النهر أو إلى البُرك لضرب الخلاسيات. فالرقابة عليهم الآن أكبر في الثكنات، وهم يعاقبونهم إذا ما أقدموا على «التقويص». حتى إنهم يجبرونهم على الزواج، تشي غوا.

تبادلا تحيات الوداع عند باب المفوضية، وأمر صاحبُ شركة النقل

السائقَ بأن يوصله إلى مكتبه، ولكنه غيّر رأيه حين كانت السيارة على وشك التوقف أمام ناريهوالا للنقل. طلب من السائق الرجوع به إلى حي كاستيليّا وأن يتركه في أقرب مكان ممكن من الجسر المعلق. حين مرّ من ساحة السلاح رأى الشاعر خواكين راموس، يرتدي السواد، بنظارة المونوكل وملامحه الحالمة، يمشي بصلف في منتصف الشارع وهو يجر عنزته كالعادة. فكانت السيارات تتجنبه، وبدلاً من شتمه كان السائقون يحيونه بأيديهم.

الشارع الصغير المؤدي إلى بيت مابيل كان يغص، كالعادة، بصبية بثياب رثة وبلا أحذية، وكلاب ضامرة جرباء، ووسط أصوات الموسيقى وإعلانات الدعاية الآتية من أجهزة المذياع الملعلعة بأعلى صوت، يُسمع نباح كلاب وقوقأة دجاج، وصياح ببغاء يردد كلمة «كاكاتوا، كاكاتوا». سُحب غبار تشوش الهواء. الآن أجل، بعد أن شعر بالثقة الشديدة بنفسه خلال المقابلة مع ميغيل، راح فيليثيتو يشعر بأنه سريع العطب وأعزل وهو يفكر باللقاء مجدداً مع مابيل. كان يؤجل هذا اللقاء منذ خروجها من السجن بإفراج مؤقت عنها. لقد فكر ذات مرة بأنه من الأفضل له تجنب ذلك اللقاء، واستخدام الدكتور كاسترو بوسو لإنجاز الشؤون الأخيرة معها. ومع ذلك، انتهى إلى الحسم بأنه لا يمكن لأحد أن يحل محله في هذه المهمة. إذا كان عليه البدء بحياة أخرى، فلا بد له من تصفية آخر الحسابات مع مابيل، مثلما فعل للتو مع ميغيل. كانت يداه تتعرقان عندما ضغط على الجرس. لم يردّ أحد. وبعد ثوان من الانتظار، أخرج مفتاحه وفتح الباب. أحس بضيق في الدم والتنفس لدى تعرفه على الأشياء والصور، ومنحوتة اللاما، والعلم الصغير، والمربعات الصغيرة، وأزهار الشمع، ولوحة قلب يسوع التي تتصدر الصالة. كل شيء واضح ومرتب ونظيف كما في السابق. جلس في الصالة

الصغيرة ينتظر مابيل دون أن يخلع الجاكيت أو الصدار، وإنما القبعة فقط. كان يشعر بقشعريرة. ماذا سيفعل إذا ما رجعتْ إلى البيت يرافقها رجل يتأبط ذراعها أو يطوق بخصرها؟

لكن مابيل جاءت وحدها، بعد بعض الوقت، عندما كان فيليثيتو ياناكيه، بفعل التوتر العصبي للانتظار، قد بدأ يشعر، وسط التثاؤب، بنعاس شديد. حين سمع فتح الباب الخارجي انتفض متأهباً. أحس بجفاف في فمه، وكأنه قد تحول إلى ورق صنفرة، أو كمن شرب خمرة التشيتشا. رأى الوجه المرتعب وسمع صرخة مابيل («آي، رباه!») حين اكتشفتْ وجوده في الصالة. رآها تستدير لتخرج راكضة.

ـ لا تخافي يا مابيل ـ طمأنها بهدوءٍ لم يكن يشعر به ـ. لقد جئت بنية سلام.

توقفت واستدارت. ظلت تنظر إليه، بفم مفتوح وعينين قلقتين، دون أن تقول شيئاً. كانت أشد نحولاً. بلا مكياج، وبمنديل عادي يثبت شعرها، ترتدي ذلك الثوب البيتي وتنتعل صندلاً قديماً. بدت له أقل جاذبية بكثير من مابيل التي في ذاكرته.

ـ اجلسي لنتحدث قليلاً ـ أشار إلى أحد المقاعد ـ لم آت لتوجيه أي لوم إليكِ، ولا لمحاسبتك. لن آخذ الكثير من وقتك. هنالك أمور لا بد لنا من تسويتها كما تعلمين.

كانت شاحبة. تطبق فمها بقوة كبيرة مما شكل تكشيرة على وجهها. رآها تومئ برأسها موافقة وتجلس على حافة المقعد، وذراعاها متقاطعان فوق بطنها، كمن تحمي نفسها. وكان في عينيها انعدام طمأنينة وذعر.

ـ توجد أمور عملية يمكننا أن نحلها أنا وأنت مباشرة ـ أضاف صاحب شركة النقل ـ فلنبدأ بالأهم. هذا البيت. الاتفاق مع المالك ينص

على دفع الإيجار له كل ستة شهور. وهو مدفوع حتى شهر كانون الأول/ديسمبر. ابتداء من شهر كانون الثاني/يناير ستتولين أنت الحساب. العقد باسمك، وهكذا يمكنك أن تري ماذا ستفعلين. يمكنك تجديد العقد أو الانتقال إلى مكان آخر. أنت من ستقررين.

ـ حسن ـ دمدمت بصوت يكاد لا يُسمع ـ لقد فهمت.

ـ حسابك في بنك الاعتماد ـ واصل الكلام؛ وقد صار يشعر بثقة أكبر وهو يرى هشاشة مابيل وذعرها ـ إنه حساب باسمك، ولكنه بكفالتي. ولأسباب واضحة، لا يمكنني مواصلة تقديم كفالتي لكِ. سوف أسحبها، لكنني لا أظن أنهم سيغلقون لك الحساب لهذا السبب.

ـ لقد فعلوا ذلك. قالت. ثم صمتت، وبعد قليل أوضحت: وجدتُ الإشعار هنا، لدى خروجي من السجن. ويقول الإشعار إنه بسبب الظروف المستجدة، يجد المصرف نفسه مضطراً لإلغاء الحساب. لأنه لا يقبل إلا زبائن شرفاء، بلا سوابق شَرطية. ويطلبون مني أن أمر على البنك كي أسحب رصيدي.

ـ وهل فعلتِ ذلك؟

نفت مابيل بحركة من رأسها.

ـ أشعر بالخجل ـ أجابت وهي تنظر إلى الأرض ـ الجميع يعرفونني في هذا الفرع. سيكون عليّ أن أذهب في أحد هذه الأيام، عندما ينفد ما معي من نقود. فمن أجل النفقات اليومية، مازال لدي بعض النقود في علبة الكوميدينو.

ـ سيفتحون لك حساباً في أي بنك آخر، بسوابق أم من دونها ـ قال فيليثيتو بجفاء ـ لا أظن أنك ستواجهين مشاكل في هذا الشأن.

ـ حسن ـ قالت ـ أفهم جيداً. ماذا بعد؟

ـ إنني آت من زيارة لميغيل ـ قال بكثير من الضيق والاشمئزاز،

فتيبست مابيل ـ. قدمتُ إليه اقتراحاً. إذا وافق على تبديل لقب ياناكيه من اسمه أمام كاتب بالعدل، فسوف أسحب كافة الدعاوى القضائية، ولن أكون شاهد إثبات لدى المدعي العام.

ـ أتعني أنه سيخرج حراً؟ سألته مابيل. ولم تعد الآن مذعورة، بل مرتعبة.

ـ أجل، إذا قبل باقتراحي. هو وأنت ستنالان حريتكما ما لم تكن هنالك اتهامات أخرى من الحق العام. أو ستحصلان على أحكام مخففة. هذا ما قاله لي المحامي على الأقل.

رفعت مابيل في هذه الأثناء يدها إلى فمها:

ـ سوف ينتقم، لن يغفر لي قطّ أنني وشيت به للشرطة ـ دمدمت ـ سوف يقتلني.

ـ لا أظن أنه سيكون راغباً في العودة إلى السجن بجريمة قتل ـ قال فيليثيتو بجفاء ـ ثم إن شَرْطِي الثاني له، حين يخرج من السجن، أن يغادر بيورا ولا يعود إلى وضع قدميه في هذه المدينة. ولهذا أشكُ في أنه سيسبب لك أي أذى. ويمكنك على أي حال أن تطلبي حماية الشرطة. بما أنك تعاونت معهم، فسوف يوفرون لك الحماية.

انخرطت مابيل في البكاء. بللت الدموع عينيها، وكانت الجهود التي تبذلها لكبح بكائها تضفي على وجهها ملامح مشوهة، ومضحكة إلى حدّ ما. لقد تكورت على نفسها، كمن تشعر بالبرد.

ـ حتى لو لم تصدقني، إنني أكرهه من أعماق روحي ـ سمعها تقول بعد لحظات ـ لأنه حطم حياتي إلى الأبد.

أفلتت نحيباً وغطت وجهها بكلتا يديها. لم يشعر فيليثيتو بالتأثر. كان يفكر: «تُراها حقيقية أم مجرد تمثيل؟». لم يكن مهتماً بمعرفة ذلك، فالأمر سيان لديه أكانت الحال هذه أو تلك. منذ أن حدث كل

ذلك، وعلى الرغم من الغضب والحقد، كانت تمر بعض اللحظات، أحياناً، يتذكر فيها مابيل بمحبة، وحتى بشوق. ولكنه في هذه اللحظة بالذات لم يكن يشعر بشيء من ذلك. ولم يكن يشعر بالرغبة أيضاً، ولو أنه امتلكها عارية بين ذراعيه، لما استطاع ممارسة الحب معها. بدا كما لو أن المشاعر المتراكمة خلال السنوات الثمان الماضية والتي أوحت بها مابيل له، قد انخسفت كلها أخيراً.

ـ ما كان لشيء من هذا كله أن يحدث لو أنكِ أخبرتني بالأمر منذ بدأ ميغيل يتودد إليك ـ راوده مرة أخرى ذلك الإحساس بأن شيئاً من ذلك كله قد حدث، وأنه ليس في هذا البيت، ومابيل أيضاً ليست موجودة هناك، بجانبه، تبكي أو تتصنع البكاء، ولم يكن هو نفسه يقول ما يقوله ـ وكنا وفرنا على نفسينا الكثير من أوجاع الرأس يا مابيل.

ـ أعرف ذلك، أعرفه، لقد كنتُ جبانة وغبية ـ سمعها تقول ـ. أوتظن أنني لم أندم؟ كنت أخافه، ولا أعرف كيف أتخلص منه. ألستُ أدفع ثمن ذلك الآن؟ أنت لا تدري كيف هو سجن النساء في سويّانا. مع أنني لم أبق هناك سوى أيام قليلة، إلا أنني أعرف أني سوف أظل أجرجر ذكراها مدى الحياة.

ـ مدى الحياة وقت طويل ـ سخر فيليثيتو، مواصلاً التكلم بهدوء ـ. أنتِ مازلت شابة ولديك مايكفي من الوقت لإعادة ترميم حياتك. وهذه ليست حالي بكل تأكيد.

ـ أنا لم أتوقف عن حبك قطّ يا فيليثيتو ـ سمعها تقول ـ. حتى لو لم تصدق ذلك.

أفلت فيليثيتو ضحكة ساخرة.

ـ إذا كنت تحبينني وفعلتِ بي هذا الذي نعرفه، فما الذي كان يمكن لك أن تفعليه لو أنك تكرهينني يا مابيل.

وبينما هو يسمع نفسه يقول ذلك، فكّر في أنه يمكن لهذه الكلمات أن تكون مناسبة لواحدة من أغنيات سيسليا بارّاسا التي تروق له كثيراً.

ـ أرغب في أن أشرح لك الأمر يا فيليثيتو ـ قالت متضرعة، وهي تخفي طيلة الوقت وجهها بين يديها ـ. ليس لكي تغفر لي، وليس لكي يعود كل شيء مثلما كان في السابق. وإنما لتعرف فقط أن الأمر لم تكن مثلما تظن، وإنما هو مختلف جداً.

ـ لستِ مضطرة لأن تشرحي لي أي شيء يا مابيل ـ قال، وكان يتكلم الآن بطريقة مستسلمة، تكاد تكون ودية ـ لقد حدث ما كان يجب أن يحدث. وكنت أعرف على الدوام أنه سيحدث، عاجلاً أو آجلاً. وأنك ستذهبين للزواج من رجل يكبرك بسنوات عديدة، وستعشقين شاباً. هذا هو قانون الحياة.

تململتْ في مقعدها.

ـ أقسم لك بأمي إن الأمور ليست كما تظن ـ تباكت ـ دعني أوضح لك، دعني أخبرك على الأقل كيف جرى كل شيء.

ـ ما لم أكن أتخيله أن يكون ذلك الشاب الذي ستعشقينه هو ميغيل ـ أضاف صاحب شركة النقل متنحنحاً ـ. ولم أكن لأتخيل رسائل العنكبوت بالطبع. ولكن ذلك قد حدث. وأفضل ما أفعله هو أن أنصرف دفعة واحدة. لقد رتبنا الأمور العملية كلها ولم يبق شيء معلق. لا أريد لهذا الأمر أن ينتهي بشجار. أترك لك هنا مفتاح البيت.

وضع المفتاح على منضدة الصالة، إلى جانب منحوتة اللاما الخشبية وعلم البيرو، ونهض واقفاً. ظلت هي تغطي وجهها بيديها وتبكي.

سمعها تقول:

ـ فلنبق أصدقاء على الأقل.

ـ أنت وأنا لا يمكن لنا أن نكون أصدقاء، وأنت تعرفين هذا جيداً ـ أجابها دون أن ينظر إليها ـ. حظاً سعيداً يا مابيل.

توجه نحو الباب، فتحه، ثم أغلقه وراءه بتمهل. جعله وهج الشمس يرمش. تقدم وسط زوابع الغبار، وصخب أجهزة الراديو، والصبية ذوي الأسمال والكلاب الجرباء، وكان يفكر في أنه لن يعود أبداً لطرق هذه الأزقة المتربة في حي كاستيليّا كما أنه لن يعود، بلا شك، إلى رؤية مابيل. وإذا شاءت المصادفات أن يلتقي بها ذات يوم في أحد شوارع مركز المدينة، فسوف يتظاهر بأنه لم يرها، وستفعل هي الشيء نفسه. سيمران كأي غريبين. وفكر أيضاً، بلا حزن ولا مرارة، بأنه على الرغم من عدم بلوغه سن الشيخوخة المتقدمة، فمن المحتمل ألا يعود أبداً إلى ممارسة الحب مع امرأة. فهو لم يعد في وارد البحث عن عشيقة أخرى، ولا الذهاب إلى الماخور في الليالي لمضاجعة مومسات. وفكرة العودة إلى ممارسة الحب مع خيرترروديس بعد كل تلك السنوات لم تمر مجرد مرور في ذهنه. ربما سيكون عليه ممارسة العادة السرية بين حين وآخر، مثل غلام فتي. وأياً تكن وجهة مستقبله، فإن هنالك أمراً مؤكداً: لن يكون لديه متسع للمتعة أو الحب. وهو لن يأسف لذلك، ولن ييئس. فهكذا هي الحياة، وقد تعلم، مذ كان صبياً بلا حذاء في تشولوكاناس ويباتيرا، أن يتقبلها مثلما تأتيه.

وبلا شعور، راحت قدماه تقودانه نحو دكان الأعشاب ولوازم الخياطة، وصور القديسين والمسيح والعذراء التي تملكها صديقته آديلايدا. وقد كانت التقية هناك، ممشوقة القامة، وافرة المؤخرة،

حافية القدمين، محشورة في الجلباب الخام الذي يصل حتى كاحليها، رأته قادما وهي عند باب بيتها، بعينيها الواسعتين الثاقبتين.

ـ أهلاً فيليثيتو، يا لسعد العينين اللتين تريانك ـ حيّته ملوحة تلويحة وداع ـ بدأت أظن أنك قد نسيتني.

ـ أنت تعرفين جيداً يا آديلايدا أنك صديقتي المفضلة التي لا يمكنني نسيانها أبداً ـ مدّ لها يده مصافحاً وربت على ظهرها بمودة ـ. لقد واجهتني مشاكل كثيرة في الفترة الأخيرة، لا بد أنك علمت بها. ولكن، ها أنذا معك هنا. أيناسبني أن أتناول الآن كأساً من ذلك الماء المقطر شديد النقاء والبرودة الذي لديك؟ أكاد أموت عطشاً.

ـ تفضل، ادخل واجلس يا فيليثيتو. سآتيك بكأس الماء فوراً، أجل بالطبع.

وخلافاً للحر الشديد في الخارج، كان دكان آديلايدا في الداخل غارقاً في العتمة الظليلة والسكون المعهودين، تسوده البرودة. وبينما هو جالس على الكرسي الهزاز ذي القش المجدول، تأمل نسيج العناكب، والرفوف، والمناضد التي عليها مسامير، وأزرار، وبراغ، وبذور، وباقات أعشاب، وإبر، وصور، ومسابح، وتماثيل من الجبس ومن الخشب للعذراء وللمسيح بمختلف الأحجام، بينما هو ينتظر عودة التقية. هل هنالك زبائن لآديلايدا؟ ففي كل المرات التي جاء إليها، وهي مرات كثيرة، لم ير قطّ أحداً يشتري أي شيء. فهذا المكان يبدو مصلى أكثر من كونه متجراً. لا ينقصه سوى المذبح. في كل مرة يجيء إلى المكان، يشعر بهذا الإحساس بالأمان الذي كان يشعر به في ما مضى ـ وهو ماض بعيد جداً ـ في الكنائس، حين كانت خيرترورديس، وهما حديثا الزواج، تسحبه معها إلى القداس في أيام الآحاد.

شرب بتلذذ ماء حجر التقطير الذي قدمته إليه آديلايدا.

ـ يا للمشكلة التي تورطتَ فيها يا فيليثيتو ـ قالت التقية متأثرة مع نظرة حانية ـ عشيقتك وابنك يتوطأان لنتف ريشك. رباه، يا للقباحات التي تُرى في هذا العالم! لحسن الحظ أنهم حبسوا هذا الثنائي.

ـ لقد انقضىَ ذلك كله، لم يعد الأمر يهمني ـ هز كتفيه وأبدى تكشيرة ازدراء ـ لقد صار ذلك كله خلفي، وقد بدأت أنساه. لا أريد السماح لهم بتسميم حياتي. والآن، سأنكّب جسداً وروحاً للتقدم قُدما بناريهوالا للنقل. فبسبب تلك الفضائح أهملتُ الشركة التي توفر لي الطعام. وسوف تغرق إذا لم أهتم بها.

ـ هذا يعجبني يا فيليثيتو، فما مضى قد مضى ـ صفقتْ التقية ـ وإلى العمل! لقد كنتَ على الدوام رجلاً لا يعرف الاستسلام، ممن يناضلون حتى النهاية.

ـ أتعلمين يا آديلايدا؟ ـ قاطعها فيليثيتو ـ ذلك الوحي الذي جاءك في آخر مرة زرتك فيها، قد تحقق. لقد حدث شيء استثنائي، مثلما قلتِ أنت. لا يمكنني أن أخبرك بالمزيد الآن، ولكنني سأفعل فور تمكني من ذلك.

ـ لا أريدك أن تخبرني بشيء ـ بدت التقية حزينة جداً وغشت عينيها ظلالٌ لبرهة ـ لا يهمني ذلك يا فيليثيتو. أنت تعرف جيداً أن مجيء تلك الإيحاءات لي لا يروقني أبداً. لسوء الحظ أن الوحي يأتيني دوماً حين يتعلق الأمر بك. يبدو لي أنك أنت من تستثير مجيئه، *تشي غوا*.

ـ آمل ألا أستثير فيك أي وحي آخر يا آديلايدا ـ ابتسم فيليثيتو ـ. لم أعد قادراً على تحمّل المزيد من المفاجآت. ابتداء من الآن أريد أن

أعيش حياة هادئة وعادية، مكرساً نفسي للعمل.

ظلا صامتين لبعض الوقت، يستمعان إلى ضجة الشارع. كانت أبواق السيارات والشاحنات ومحركاتها، ونداءات الباعة المتجولين، وأصوات وحركة عابري السبيل تصل إليهما مخففة في هدوء هذا المكان. وكان فيليثيتو يفكر بأنه على الرغم من معرفته آديلايدا منذ سنوات طويلة، إلا أن التقية مازالت لغزاً كبيراً غامضاً بالنسبة إليه. هل لها أسرة؟ هل كان لديها شريك في حياتها ذات يوم؟ ربما تكون قد خرجت من دار الأيتام، وأنها واحدة من أولئك الطفلات اللاتي يُهجرن، ممن يُلتقطن ويُربين على نفقة الإحسان العام، ثم عاشت وحيدة على الدوام بعد ذلك، مثل نبتة فطر، بلا أبوين ولا إخوة، ولا زوج ولا أبناء. لم يسمع آديلايدا تتكلم قطّ عن أي قريب لها، ولا حتى عن صداقات. وربما يكون فيليثيتو هو الشخص الوحيد في بيورا الذي يمكن للتقية أن تدعوه صديقاً.

ـ أخبريني أمراً يا آديلايدا ـ سألها ـ. هل عشتِ ذات يوم في هوانكابامبا؟ هل ترعرعتِ هناك بالمصادفة؟

وبدلاً من الردّ على سؤاله، أطلقت الخلاسية قهقهة مدوية وهي تفتح فمها الكبير بشفتيه الغليظتين على اتساعه، كاشفة عن أسنان كبيرة ومنتظمة.

ـ أعرف لماذا تسألني هذا السؤال يا فيليثيتو ـ هتفت وسط ضحكاتها ـ. إنك تسأل بسبب سحرة هوارينغاس، أليس كذلك؟

ـ لا تظني أنني أفكر، بأي حال، أنك ساحرة ـ أكدَ لها ـ. كل ما هنالك أن تتمتعي... لا أدري كيف أسمي ذلك... بتلك القدرة، الهبة ـ أو أية تسمية تشائين ـ على التكهن بأمور ستحدث، وهو ما جعلني أفكر دوماً. هذا مستحيل، *تشي غوا*. في كل مرة يأتيك الوحي، يحدث

ما تكوني قد توقعتِه. إننا نعرف أحدنا الآخر منذ سنوات، أليس كذلك؟ وكلما تنبئتِ لي بشيء، يحدث بحذافيره. لستِ مثل الآخرين، مثل البشر العاديين، فيك شيء لا يمتلكه أحد سواكِ يا آديلايدا. لو أنك رغبتِ لأصبحتِ ثرية بتحولك إلى منجمة محترفة.

بينما هو يتكلم، اتخذت هي هيئة جدية جداً.

ـ هذا الأمر تكبة أكثر من كونه موهبة. إنه نكبة ألقى بها الرب على كاهلي يا فيليثيتو ـ قالت متنهدة ـ. لقد قلت لك هذا مرات كثيرة. لا يروق لي أن تداهمني فجأة تلك الإيحاءات. لا أدري من أين تخرج، ولا لماذا، وهي تكون مرتبطة بأشخاص معينين، مثلك. الأمر أحجية غامضة بالنسبة لي أيضاً. فأنا لم أتلق أي وحي خاص بي مثلاً. لم أعرف قطّ ما الذي سيحدث لي غداً أو بعد غد. حسن، من أجل الرد على سؤالك. أجل، لقد كنت في هوانكابامبا، مرة واحدة فقط. دعني أقول لك شيئاً. إنني أشعر بالحزن على أولئك الناس الذين يصعدون إلى هناك، منفقين ما يملكونه وما لا يملكونه، يرهنون حتى أنفسهم، من أجل أن يشفيهم المعلمون، كما يسمونهم. إنهم جماعة من المحتالين، معظمهم على الأقل. من يمررون قوارض الكوي على أجساد المرضى، من يحممونهم بماء البحيرة المثلج. ويتسببون بموتهم أحياناً بذات الرئة بدلاً من شفائهم.

ـ ليس دوماً يا آديلايدا. هنالك صديق لي، سائق في ناريهوالا للنقل، يدعى أندريس نوفوا، كان مصاباً بالحمى المالطية ولم يستطع أطباء المستشفى العمالي علاجه. تخلوا عنه كحالة ميؤوس منها. ذهب إلى هوانكابامبا وهو شبه ميت، فأخذه أحد السحرة إلى بحيرات هوارينغاس، وجعله يستحم في مياه البحيرة، وقدم إليه شراباً لا أدري ما هو. فرجع من هناك معافى. لقد رأيته بعيني

هاتين، أقسم لك يا آديلايدا.

ـ ربما يوجد استثناء ما ـ وافقت معه ـ. ولكن في مقابل كل مداوٍ حقيقي هنالك عشرة محتالين يا فيليثيتو.

تبادلا الحديث لوقت طويل. وراحت المحادثة تنتقل من سحرة هوانكابامبا ومعلميها ومعالجيها وتشاماناتها المشهورين الذين يتوافد إليهم الناس من كل أنحاء البيرو لاستشارتهم بشأن أمراضهم، إلى الحديث عن مرتلات الأدعية والتقيات في بيورا، أولئك النسوة البائسات عموماً، والمسنات اللاتي يلبسن كالراهبات، ويتنقلن من بيت لبيت لتلاوة الأدعية بجانب فراش المرضى. ويرضين ببضع سنتات قليلة كمكافأة أو بمجرد الحصول على طبق طعام مقابل أدعيتهم التي يؤمن أناسٌ كثيرون بأنها تكمل مهمة الأطباء في المساعدة على شفاء المرضى. وكانت مفاجأة فيليثيتو في أن آديلايدا لا تؤمن بشيء من ذلك أيضاً. فمرتلات المدينة والتقيات المداويات بالأدعية والتراتيل يبدون لها محتالات كذلك. وقد أبدى استغرابة من أن امرأة مثلها، لديها تلك الموهبة والقدرة على استشراف مستقبل بعض الرجال والنساء، تنكِر إلى هذا الحدّ قدرات بعض الأشخاص العلاجية. ربما هي على حق، فهنالك الكثير من المدعين والمدعيات بين من يتباهون بامتلاك قدرات على شفاء المرضى. وقد فوجئ فلورينثيتو حين سمع آديلايدا تقول إنه، في ماض قريب، كانت هنالك في بيورا نساء غامضات يسمين نازعات الأحزان، تستدعيهن بعض العائلات إلى البيوت كي يساعدن المحتضرين على الموت، وهو ما كنَّ يفعلنه، وسط ترديد الأدعية والصلوات، بقطع الوريد العنقي بظِفر طويل يتركنه ينمو ويكبر في الإصبع السبابة لهذا الغرض بالذات.

وقد فوجئ فيليثيتو كثيراً، بالمقابل، حين عرف أن آديلايدا، تؤمن إيماناً مطلقاً بالأسطورة القائلة إن تمثال السيد الكاوتيفو في كنيسة آياباكا قد نحته عدد من الإكوادوريين الذين تبين أنهم ملائكة.

ـ أتؤمنين أنت بهذه الشعوذة يا آديلايدا؟

ـ أؤمن بها لأنني سمعت القصة من الناس هناك. فهم ينقلونها من الآباء للأبناء منذ حدوثها، وإذا كانت قد استمرت طيلة هذا الوقت كله، فلا بد من أن تكون صحيحة.

لقد سمع فيليثيتو مرات عديدة قصة تلك المعجزة، ولكنه لم يأخذها قطّ على محمل الجد. تقول القصة إنه منذ سنوات طويلة، قامت لجنة من أعيان آياباكا البارزين بحملة جمع أموال من أجل نحت تمثال للمسيح. وقد اجتازوا الحدود إلى الإكوادور، ووجدوا هناك ثلاثة سادة يرتدون ثياباً بيضاء، وتبين لهم أنهم نحاتون. فتعاقدوا معهم على الفور كي ينتقلوا إلى آياباكا وينحتوا التمثال. وقد فعلوا ذلك، ولكنهم اختفوا قبل أن يتقاضوا الأجر المتفق عليه. رجعت اللجنة نفسها إلى الإكوادور بحثاً عنهم، ولكن أحداً هناك لم يكن قد سمع بهم أو علم بوجودهم. وبكلمات أخرى: كانوا ملائكة. من الطبيعي أن تؤمن خيرترورديس بذلك، ولكن المفاجأة هي في تصديق آديلايدا ذلك أيضاً وابتلاعها قصة المعجزة.

بعد وقت لا بأس به من تبادل الحديث، أحس فيليثيتو أنه أحسن حالاً مما كان عليه عند وصوله. لم يكن قد نسي لقائيه مع ميغيل ومابيل؛ وربما لن ينساهما أبداً، غير أن الساعة التي أمضاها هنا ساعدته على تبريد ذكرى ذينك اللقائين وعدم إثقالهما عليه كصليب.

شكر آديلايدا على الماء المقطر والحديث معها، وبالرغم من رفضها،

أجبرها على قبول ورقة الخمسين سولاً التي دسها في يدها عند الوداع.

حين خرج إلى الشارع، بدا له أن حدة الشمس لا تزال قوية. مشى ببطء باتجاه بيته، ولم يقترب منه خلال الطريق كله سوى شخصين فقط، لا يعرفهما، ليسلما عليه. وفكر براحة أن كونه مشهوراً ومعروفاً سيبدأ بالتلاشي شيئاً فشيئاً. سوف ينسى الناس قصة العنكبوت وسيتوقفون فجأة عن الإشارة إليه والاقتراب منه. وربما لن يكون بعيداً اليوم الذي يتمكن فيه من العودة للتجوال في شوارع المدينة مثل أي عابر سبيل مجهول.

حين وصل إلى بيته في شارع اريكيبا، كان الغداء جاهزاً. فقد أعدّت ساتورنينا حساء خضار وأويوكيتو مع التشاركي والرز[1]. بينما كانت خيرترورديس قد جهزت إبريق ليمونادة مع كثير من الثلج. جلسا لتناول الطعام بصمت، وعند الانتهاء من تناول ملعقة الحساء الأخيرة، أخبر فيليثيتو زوجته بأنه ذهب لزيارة ميغيل في الصباح، وأنه عرض عليه سحب الاتهام الموجه إليه إذا ما وافق على تغيير لقبه. استمعت زوجته إليه صامتة، ولم تتفوه بأي تعليق بعد أن انتهى.

ـ من المؤكد أنه سيوافق على العرض وسيخرج طليقاً ـ أضاف فيليثيتو ـ وسوف يغادر بيورا، مثلما طلبتُ منه. لأنه، بسجل سوابقه، لن يجد عملاً هنا بأي حال.

هزت رأسها دون أن تتلفظ ولو بكلمة واحدة.

ـ ألن تذهبي لزيارته؟ سألها فيليثيتو.

نفت ذلك بحركة من رأسها.

ـ أنا أيضاً لا أريد رؤيته إلى الأبد ـ أكدت، وواصلت تناول الحساء،

---

[1] طبق تقليدي بيروي مكون من قطع أويوكيتو، وهو نبات درني شبيه بالبطاطا، ولا يوجد إلا في جبال الأنديز، والشراكي وهو لحم اللاما مقدداً، ويقدم الأرز إلى جانبه، في الطبق نفسه.

برشفات ملاعق بطيئة ـ ما عدت قادرة على رؤيته بعد الذي فعله معك.

واصلا تناول الطعام بصمت، وبعد وقت لا بأس به، حين رفعت ساتورنينا الأطباق. دمدم فيليثيتو:

ـ لقد ذهبتُ إلى حي كاستيّا أيضاً، إلى حيث تتخيلين. ذهبتُ من أجل إنهاء تلك العلاقة.

وأخيراً سمع فيليثيتو خيرترورديس تسأله:

ـ أتريد قهوة أم متة البابونج؟

XX

عندما استيقظ دون ريغوبيرتو، وكان الظلام لا يزال مخيماً، سمع صخب البحر وفكّر: «لقد حل النهار أخيراً». باغته إحساس بالراحة والإثارة. أهذه هي السعادة؟ وإلى جانبه، كانت لوكريثيا تنام بهدوء. لا بد أنها متعبة جداً، فقد ظلت في اليوم السابق، حتى وقت متأخر، ترتب الحقائب. ظلّ لبعض الوقت يصغي إلى حركة البحر ـ إنها موسيقى لا تُسمع أبداً في بارّانكو خلال النهار، وإنما في الليل وعند الفجر فقط، حين ينطفئ صخب الشوارع ـ نهض بعد ذلك، وذهب وهو بالبيجاما والخُفّ إلى حجرة المكتب. بحث ووجد، في رفّ الشِّعر، كتاب فراي لويس دي ليون. وعلى ضوء مصباح المنضدة، قرأ القصيدة المكرسة للموسيقي الأعمى فرانثيسكو دي ساليناس. لقد كان يحاول تذكرها في اليوم السابق، وهو بين النوم واليقظة، ثم حلم بها بعد ذلك. لقد قرأها من قبل مرات كثيرة؛ وحين أعاد قراءتها الآن، وهو يحرك شفتيه ببطء، أكد لنفسه مرة أخرى: إنها أجمل تكريم مكرس للموسيقى يعرفه، فهذه القصيدة، في الوقت الذي تفسر فيه ذلك الواقع العصي على التفسير الذي هو الموسيقى، تشكل هي بحدّ ذاتها موسيقى. موسيقى بأفكارٍ واستعارات. إنها رمزية ذكية لرجل إيمان، تضمخ القارئ بأحاسيس يعجز عنها الوصف، وتكشف له الجوهر السري المتسامي، والسامي الذي يعشش في ركن ما من

الحيوان البشري، ويُطلّ على الوعي فقط بالانسجام المتقن لسيمفونية بديعة، لقصيدة زخمة، لأوبرا عظيمة، لمعرض فني فائق التميز. وهو إحساس بالنسبة لفراي لويس، المؤمن، يختلط بالنعمة الربانية والغيبوبة الصوفية. كيف هي موسيقى أرغن الأعمى تلك التي صاغ فراي لويس دي ليون من أجلها هذا المديح الشعري الشامخ؟ إنه لم يسمعها قطّ. سيجدها، لقد صارت لديه الآن مهمة عليه إنجازها خلال وجوده في مدريد: الحصول على قرص سي.دي لمؤلفات فرانثيسكو ساليناس الموسيقية. لا بد لإحدى المجموعات المهتمة بالموسيقى القديمة ـ فرقة جوردي سافال على سبيل المثال ـ أن تكون قد كرّست أسطوانة لمن أوحى بمثل تلك القصيدة الرائعة.

أغمض عينيه، وفكر أنه سيقوم هو ولوكريثيا وفونتشيتو، بعد ساعات قليلة، باجتياز الأجواء، مخلفين وراءهم غيوم ليما الكثيفة، وبادئين بالرحلة المؤجلة إلى أوروبا. أخيراً! سيصلون في أوج الخريف. تخيل الأشجار الذهبية والشوارع المبلطة وقد وشّيتْ بأوراق أُفلتت بفعل البرد. بدا له ذلك أشبه بالكذب. أربعة أسابيع. واحد منها في مدريد، وآخر في باريس، وآخر في لندن، والأسبوع الأخير ما بين فلورنسا وروما. لقد خطط لتلك الأيام الإحدى والثلاثين بطريقة لا يتسبب التعب فيها بإفساد المتعة، وبتجنب ما أمكن تلك الحالات الطارئة المزعجة التي تُدَمِّر الرحلات. فرحلات تنقلهم بالطائرات محجوزة، وبطاقات الدخول إلى الحفلات الموسيقية وعروض الأوبرا والمعارض الفنية مشتراة، وأجور الفنادق والنُزل مدفوعة سلفاً. ستكون المرة الأولى التي يطأ فيها فونتشيتو قارة رامبو، أوروبا الشرفات القديمة. ستكون متعة كبيرة أن يُري ابنه، في هذه الرحلة، متاحف البرادو واللوفر والناشيونال غاليري ومتحف أوفيزي، وساحة القديس بطرس، وكنيسة السيستين. هل

سينسى ابنه، وسط كل تلك الأشياء البديعة، هذه الفترة المشؤومة الأخيرة وحالات الظهور الشبحي لإديلبيرتو توريس، ذلك الروح الشريرة ـ الإنكوبو أو السوكوبو[1] (ما هو الفرق بينهما؟) ـ الذي سبب له وللوكريثيا الكثير من المرارة في حياتيهما؟ آمل ذلك. سيكون هذا الشهر حمّام تطهر: ستغلق الأسرة أسوأ مرحلة في حياتها. وسيرجع ثلاثتهم إلى ليما متجددين كمن ولدوا من جديد.

تذكر آخر حديث له مع فونتشيتو في مكتبه، قبل يومين، ووقاحة ابنه المفاجئة:

ـ إذا كانت أوروبا تعجبك إلى هذا الحدّ، وتحلم بها ليلاً ونهاراً، فلماذا عشت حياتك كلها في البيرو يا أبي؟

أربكه السؤال ولم يدر بماذا يرد عليه للحظات. كان يشعر بالذنب لشيء ما، لكنه يجهل ما هو.

ـ حسن، أظن لو أنني ذهبت للعيش هناك، لما كنت سأستمتع كثيراً بالأشياء الجميلة التي تضمها القارة العجوز ـ حاول التهرب من الورطة ـ كنت سأعتاد كثيراً عليها بحيث لا ألحظ وجودها، مثلما يحدث لملايين الأوروبيين. وباختصار، لم يخطر لي قطّ الانتقال إلى هناك، لقد فكّرتُ على الدوام بأنه عليّ أن أعيش هنا. أن أتقبل قدري، إذا كان هذا ما ترمي إليه.

ـ كل الكتب التي تقرؤها هي لمؤلفين أوروبيين ـ ألح ابنه ـ. وأظن أن معظم الأسطوانات والرسوم وصور اللوحات التي لديك هي كذلك أيضاً. لإيطاليين، وإنكليزيين، وفرنسيين، وإسبان وألمان وبعض الأمريكيين.

---

[1] الإنكوبو incubo أو السوكوبو sucubo: شيطانان في خرافات أوروبا العصور الوسطى، الأول شيطان ذكر يقع فوق ضحيته الأنثى النائمة لمضاجعتها، أما السوكوبو فهو شيطان يتخذ هيئة امرأة جذابة لغواية الذكور، وبصورة خاصة الرهبان، بالدخول إلى أحلامهم وتخيلاتهم.

ولكن، هل هنالك شيء يروق لك في البيرو يا بابا؟

كان دون ريغوبيرتو على وشك الاعتراض، والقول إن هنالك أشياء كثيرة، ولكنه اختار أن يبدي ملامح الشك وأن يشير بإيماءة ارتيابية:

ـ ثلاثة أشياء يا فونتشيتو. قال متصنعاً التكلم بتفخيم متنور مدعٍ: رسوم فرناندو سزسلو. وأشعار سيسر مورو بالفرنسية. وقريديس نهر ماخيس بالطبع.

ـ لا يمكن الحديث معك بجد يا بابا ـ احتج ابنه ـ. أظن أنك أخذت، ما سألتك عنه، على محمل المزاح لأنك لا تجرؤ على قول الحقيقة لي.

«هذا الصبي أكثر تيقظاً من سنجاب، ويفتتن حين يجعل أباه يمر بلحظات حرجة»، فكّر ريغوبيرتو. «هل كنتُ أنا هكذا أيضاً في صباي؟». إنه لا يتذكر.

ظلَّ يراجع أوراقاً، ألقى نظرة أخيرة على حقيبته اليدوية ليتأكد من أنه لم ينس شيئاً. طلع الفجر بعد قليل وسمع حركة في المطبخ. أتراهم يجهزون طعام الفطور؟ حين رجع إلى غرفة النوم، رأى الحقائب الثلاث جاهزة في الممر، وقد وضعتْ عليها لوكريثيا البطاقات اللازمة. ذهب إلى الحمام، حلق ذقنه، واستحم، وحين رجع إلى غرفة النوم، كانت لوكريثيا قد نهضت وذهبت لإيقاظ فونتشيتو. وأعلنت خوستينيانا عندئذ أن الفطور بانتظارهم في غرفة الطعام.

ـ أكاد لا أصدق أن هذا اليوم قد جاء ـ قال للوكريثيا بينما هو يتذوق كأسه من عصير البرتقال، وقهوته بالحليب، وخبزه المحمص مع الزبد والمربى ـ. لقد وصل بي الأمر في هذا الشهر إلى التفكير بأننا سنظل عالقين لسنوات وسنوات في تلك التعقيدات القضائية التي أدخلني فيها الضبعان، وأننا لن نعود أبداً إلى أوروبا.

ـ لو أخبرتكَ بأكثر ما يثير فضولي في هذه الرحلة، فسوف تضحك ـ ردّت عليه لوكريثيا التي كانت تتناول فطوراً يقتصر على فنجان شاي فقط ـ أتدري ماذا؟ إنها دعوة آرميديا. كيف ستكون تلك الوجبة؟ من ستدعو معنا؟ مازلتُ غير مصدقة أن خادمة إسماعيل السابقة ستقيم لنا مأدبة في بيتها بروما. إنني أموت فضولاً. كيف تراها تعيش، كيف تستضيف الآخرين، من هم أصدقاؤها. هل تعلمت الإيطالية؟ أظن أنها تملك قصراً صغيراً هناك.

ـ حسن، أجل، بكل تأكيد ـ قال ريغوبيرتو، بشيء من خيبة الأمل ـ. إنها تملك من الأموال ما يكفي لأن تعيش كملكة بالطبع. وعسى أن تمتلك كذلك الذوق والحساسية لتستغل مثل تلك الثروة بأفضل طريقة. ولِم لا تكون كذلك في نهاية المطاف. فقد أثبتت أنها أكثر فطنة منا جميعنا معاً. لقد حقق مرادها، وها هي هناك الآن، تعيش في إيطالية، وثروة إسماعيل كلها صارت في جيبها. بينما هُزم التوءمان هزيمة ساحقة. الحقيقة أنني سعيد من أجلها.

ـ لا تتكلم بالسوء عن آرميدا، لا تسخر ـ قالت لوكريثيا وهي تضع يدها على فمها ـ. فهي ليست ولم تكن قطّ مثلما يظنها الناس.

ـ أجل، أجل، أعرف أن الحديث الذي تبادلتِهِ معها في بيورا قد أقنعك ـ ابتسم ريغوبيرتو ـ وماذا لو أن ما روته لك مجرد حكاية يا لوكريثيا؟

ـ لقد قالت لي الحقيقة ـ أكدت لوكريثيا بصورة حاسمة ـ. إنني مستعدة لأن أدس يديّ في النار لتأكيد أن ما قالته لي هو ما جرى حقاً. دون زيادة أو نقصان. فأنا لدي غريزة لا تخطئ في هذه الأمور. لا أصدقكِ. أهذا ما جرى حقاً؟

ـ حقاً ـ خفضت آرميدا بصرها بشيء من الخجل ـ. لم يكن قد نظر إليّ قطّ من قبل، ولم يوجه لي أية كلمة غزل. ولا حتى شيئاً من تلك العبارات اللطيفة التي يقولها، أحياناً، أصحاب البيوت لمجرد قول شيء لعاملاتهن المنزليات. أقسم لكِ بأقدس ما لدي يا سيدة لوكريثيا.

ـ كم مرة يجب أن أطلب منكِ أن تكلميني دون كلفة يا آرميدا؟ ـ أنبتها لوكريثيا ـ. أجد صعوبة في تصديق ما تقولينه. هل حقاً لم تلحظي أبداً، من قبل، أنك تعجبين إسماعيل ولو قليلاً؟

ـ أقسم لك بما هو أكثر قداسة ـ وقبلت آرميدا إصبعيها المتصالبين ـ. لم يحدث ذلك مطلقاً، وليعاقبني الرب عقاباً أبدياً إن كنتُ أكذب. لا شيء. أبداً. على الإطلاق. ولهذا كانت المفاجأة شديدة إلى حدّ أنه أُغمي عليّ تقريباً. ولكن، أي شيء هذا الذي تقوله لي حضرتُكَ! هل أصابك الجنون يا دون إسماعيل؟ أم أنني أنا من أُصبت بالجنون؟ ما هذا الذي يحدث هنا؟

ـ لا أنت مجنونة ولا أنا مجنون يا آرميدا ـ قال السيد كاريرا مبتسماً لها، متكلماً بلطف لم تعرفه منه أبداً من قبل، ولكن دون أن يقترب منها ـ. أنتِ سمعتِ جيداً بالطبع ما قلته لكِ. وأعود لأسألك من جديد. أتوافقين على الزواج مني؟ أقول لكِ هذا بجد. فقد صرت عجوزاً على مغازلتك وعشقك على الطريقة الشائعة. إنني أعرض عليك مودتي واحترامي. وأنا واثق من أن الحب سيأتي فيما بعد. حبي لك وحبك لي.

ـ قال لي إنه يشعر بالوحدة، وإنني أبدو له طيبة، وأعرف عاداته، وأعرف ما يعجبه، وما يزعجه، إضافة إلى أنه متأكد من أنني سأعرف كيف أعتني به. كان رأسي يلف أيتها السيدة لوكريثيا. لم أستطع أن أصدق أنه كان يقول ما سمعته. لكن هذا ما حدث، مثلما أرويه لكِ. هكذا، فجأة ومن دون مواربة ولا مقدمات. هذه هي الحقيقة ولا شيء

آخر سواها. أقسم لك.

ـ إنكِ تذهلينني يا آرميدا ـ كانت لوكريثيا تتفحصها بذهول ـ. ولكن، أجل، ولِم لا. لقد قال لكِ الحقيقة في نهاية المطاف، وبكل بساطة. كان يشعر بالوحدة، ويحتاج لمن يرافقه، وأنت تعرفينه أفضل من الجميع. وهل وافقتِ عندئذ على طلبه، هكذا فجأة؟

ـ لستِ مضطرة إلى أن تردي عليّ الآن يا آرميدا ـ أضاف السيد، دون أن يتقدم خطوة واحدة نحوها، دون أدنى محاولة للمسها، لإمساك يدها، ذراعها ـ، فكري في الأمر. عرضي لكِ جديّ تماماً. نتزوج ونذهب في شهر عسل إلى أوروبا. سوف أحاول إسعادكِ. فكّري في الأمر. أرجوكِ.

ـ لقد كان لي حبيب يا سيدة لوكريثيا. يدعى بانتشيتو. شخص طيب. يعمل في بلدية لينثي، في مكتب التسجيل. فكان لا بد لي من قطع العلاقة معه. الحقيقة أنني لم أفكر في الموضوع كثيراً. بدا لي الأمر أشبه بحكاية سندريلا. لكنني ظللت حتى اللحظة الأخيرة أشك في أن السيد كاريرا قد كلمني بجد. ولكن أجل، أجل، كان يتكلم بجد تام، وقد رأيتِ حضرتك كل ما جرى بعد ذلك.

ـ لست أدري ما الذي أشعر به وأنا أتوجه إليكِ بهذا السؤال يا آرميدا ـ قالت لوكريثيا وهي تخفض صوتها كثيراً ـ. ولكنني لا أستطيع كبح نفسي. الفضول يقتلني. أتعنين أنه لم يكن هنالك أي شيء بينكما قبل الزواج؟

انفجرت آرميدا في الضحك وهي ترفع يديها إلى وجهها.

ـ بعد أن وافقت، أجل، جرت بيننا أشياء ـ قالت بخجل وهي تضحك ـ. لقد جرت أشياء بالطبع. فالسيد إسماعيل كان لايزال رجلاً كامل الرجولة، على الرغم من عمره.

انفجرت لوكريثيا في الضحك أيضاً.

ـ لا أحتاج إلى أن تخبريني بأكثر من هذا ياآرميدا ـ قالت وهي تعانقها ـ. آي، كم هو مضحك حدوث الأمور على هذا النحو. من المؤسف أنه مات سريعاً.

ـ لم أقتنع بعد بأن الضبعين قد فقدا أنيابهما ـ قال ريغوبيرتو ـ. وأنهما قد صارا وديعين جداً.

ـ وأنا لا أصدق ذلك، فهما لم يعودا إلى إحداث الضجيج لأنهما يخططان لمكائد أخرى ـ أجابته لوكريثيا ـ. هل شرح لك الدكتور أرنييّا مضمون اتفاق آرميدا معهما؟

أنكر ريغوبيرتو بحركة من رأسه.

ـ ولم أسأله عن ذلك أيضاً ـ أجابها وهو يهز كتفيه ـ. ولكن لا شك في أنهما قد استسلما. فلولا ذلك لما سحبا كل المطالب والدعوى المرفوعة. لا بد أنها قدمت لهما مبلغاً جيداً لتروضهما. وربما لا. ربما توصل الأحمقان إلى الاقتناع بأنهما إذا ما واصلا الصراع، فسوف يموتان بفعل الشيخوخة دون أن يحصلا على قرش واحد من الميراث. والحقيقة أن هذا الأمر لا يهمني بأي حال. لا أريد أن نتحدث عن هذين الوغدين طيلة هذا الشهر يا لوكريثيا. فليكن كل شيء خلال هذه الأسابيع الأربعة نظيفاً، جميلاً، لطيفاً، مشجعاً. والضبعان لا يتوافقان بأي حال مع شيء من هذه المتطلبات.

ـ أعدك بأنني لن أعود إلى ذكر اسميهما ـ ضحكت لوكريثيا ـ. سؤال أخير فقط. أتعرف ما الذي جرى لهما؟

ـ سيكونان قد ذهبا إلى ميامي لينفقا، في السهر والصخب، النقودَ التي حصلا عليها من آرميدا، وإلا أين سيذهبان ـ قال دونريغوبيرتو ـ. آه، ولكنهما لا يستطيعان في الحقيقة الذهاب إلى ميامي، لأن ميكي

صدم أحدهم هناك ثم هرب. مع أنه يمكن لتلك التهمة أن تكون قد سقطت بالتقادم. الآن أجل، لقد اختفى التوءمان، تلاشيا، لم يوجدا قطّ. لن نعود إلى الحديث عنهما أبداً. أهلاً يا فونتشيتو!

كان الفتى قد ارتدى ملابسه من أجل السفر، حتى إنه قد اعتمر قبعة.

ـ يا لأناقتك، رباه ـ استقبلته دونيا لوكريثيا مقبِّلة ـ. فطورك جاهز هنا. سأترككما، لأن الوقت بدأ ينفد، يجب أن أسرع إذا كنتما تريدان الخروج في التاسعة تماماً.

ـ هل تستثير مخيلتك هذه الرحلة؟ ـ سأل دون ريغوبيرتو ابنه حين ظلا وحدهما.

ـ كثيراً يا بابا. لقد سمعتك تتكلم عن أوروبا كثيراً مذ وعيتُ على الدنيا، فصرت أحلم منذ سنوات بالذهاب إلى هناك.

ـ ستكون تجربة بديعة، وسوف ترى ذلك بنفسك ـ قال دون ريغوبيرتو ـ. لقد خططتُ لكل شيء بدقة كبيرة، كي ترى أفضل ما في قارة أوروبا العجوز، مع تجنب ما هو قبيح. ستكون هذه الرحلة، بطريقة ما، هي عملي البارع. العمل الذي لم أرسمه، ولم أنْظُمه، ولم أكتبه يا فونتشيتو. أما أنت فسوف تعيشه.

ـ لم يفت الوقتُ بعد يا أبي ـ ردّ الصبي ـ. مازال أمامك متسع من الوقت، يمكنك أن تكرس وقتك لما تحبه حقاً. أنت الآن متقاعد ولديك كل ما في العالم من الحرية كي تفعل ما تحبه.

ملاحظة أخرى غير مريحة، ولا يدري كيف يتملص منها. فنهض بحجة أنه يريد القيام بإلقاء نظرة مراجعةٍ أخيرة على حقيبة يده.

حضر نرسيس في الساعة التاسعة صباحاً بالضبط، مثلما طلب منه دون ريغوبيرتو. جاء يقود سيارته ذات الدفع الرباعي، ماركة تيوتا آخر

موديل، لونها أزرق بحري، وقد علّق سائقُ إسماعيل كاريرا السابق بمرآتها العاكسة دمية صغيرة ملونة تمثل الطوباوية ميلتشوريتا. كان لا بد لهم من الانتظار لوقت لا بأس به طبعاً، ريثما تخرج دونيا لوكريثيا. الوداع بينها وبين خوستينيانا جرى بمعانقات وقبلات لا تنتهي، وقد انتبه ريغوبيرتو بذهول إلى أن شفاههما قد تلامست. ولكنّ أياً من فونتشيتو ونرسيس لم يلحظ ذلك. حين نزلت سيارة الدفع الرباعي ممر كيبرادا دي ارميندايريس واتخذت طريقها عبر كوستا بيردي باتجاه المطار، سأل دون ريغوبيرتو نرسيسَ كيف هي الحال في عمله الجديد في شركة التأمين.

ـ على أحسن ما يرام ـ أظهر أسنانه البيضاء وهو يبتسم ابتسامة تمتد من إحدى أذنيه حتى الأُذن الأخرى ـ. ظننت أن توصية السيدة آرميدا لن تنفع شيئاً لدى أصحاب الشركة الجدد، ولكنني كنت مخطئاً. لقد عاملوني معاملة أكثر من جيدة. استقبلني المدير شخصياً، تصور حضرتك. سيد إيطالي معطر جداً. ولكنني لم أكن على أحسن حال، لا أدري ماذا أصابني وأنا أرى أنه قد احتل مكتبك يا دون ريغوبيرتو.

ـ أن يحتله هو أفضل من أن يحتله إسكوبيتا وميكي، ألا ترى ذلك؟ وأطلق دون ريغوبيرتو قهقهة.

ـ هذا أمر لا شك فيه. بالطبع!

ـ وما العمل الذي تقوم به يا نرسيس؟ أأنت سائق المدير؟

ـ بالضبط. وحين لا يكون بحاجة لي، أوصل وأحضر أناساً من الشركة، أعني من المسؤولين ـ كان السائق يبدو سعيداً، وواثقاً من نفسه ـ. وهو يرسلني أحياناً إلى الجمارك، وإلى البريد، وإلى المصارف. عمل شاق، ولكن لا يمكنني أن أتذمر، فهم يدفعون لي جيداً. وبفضل السيدة

آرميدا، صار لدي الآن سيارة خاصة. وهو ما لم أكن أفكر بالحصول عليه في الحقيقة.

ـ لقد قدمتْ لك هدية جميلة يا نرسيس ـ علقت دونيا لوكريثيا ـ. سيارتك بديعة.

ـ كانت على الدوام ذات قلب من ذهب ـ أكد السائق ـ. أعني السيدة آرميدا.

ـ هذا أقل ما يمكنها عمله معك ـ شدّد دون ريغوبيرتو ـ. فقد تصرفتَ على أحسن وجه معها ومع إسماعيل. فأنت لم توافق فقط على أن تكون شاهداً على زواجهما، مع أنك كنت تعلم ما الذي تعرّض نفسك له. والأهم أنك لم ترضخ لتخويف الضبعين ومحاولتهما شرائك. من العدل جداً أن تقدّم لك هذه الهدية.

ـ هذه السيارة ليست هدية، بل هي أعظم من هدية يا دون.

كان مطار خورخي تشافيس يغص بالناس، رتل المنتظرين عند شركة إيبريا طويل جداً. لكن ريغوبيرتو لم يفقد صبره. لقد مرّ بحالات ضيق كثيرة خلال الشهور الأخيرة من الاستدعاءات الشرطية والقضائية، وتعطيل إجراءات تقاعده، وأوجاع الرأس التي سببها له فونتشيتو بقصة إديلبيرتو توريس، بحيث لم يعد يهمه الوقوف في صف انتظار لربع ساعة، أو نصف ساعة أو مهما يكن من وقت، طالما أنه قد خلّف تلك الأمور كلها وراء ظهره، وسيكون يوم غد عند الظهر في مدريد مع زوجته وابنه. شبك ذراعيه باندفاع بذراعي لوكريثيا وفونتشيتو، وقال لهما بحماسة متدفقة:

ـ غداً في الليل سوف نذهب لنأكل في أفضل وألطف مطعم في مدريد. «كاسا لوثيو»! الجامبون عنده، والبيض مع البطاطا المقلية وجبة لا تضاهى.

ـ بيض مع بطاطا مقلية وجبة لا تضاهى يا بابا؟ ـ قال فونتشيتو ساخراً.

ـ اضحك كما تشاء، لكنني أؤكد لك، مهما بدا هذا الطبق بسيطاً، بأنهم قد حولوه، في كاسا لوثيو، إلى عمل فني، إلى شيء لذيذ تمص أصابعك معه.

وفي تلك اللحظة بالذات، لمح، على بُعد أمتار قليلة، زوجين مثيرين للفضول بدا له أنه يعرفهما. لا يمكن لهما أن يكونا أكثر تماثلاً وخروجاً عن المألوف. فهي امرأة صلبة وضخمة، ذات خدين منتفخين، غاطسة في ما يشبة جلباباً فاتح اللون يصل حتى كاحليها ومتدثرة بكنزة صوفية مفتوحة الصدر، سميكة ضاربة إلى الخضرة. لكن الأكثر غرابة هي القبعة العبثية المسطحة وذات الخمار التي تضعها على رأسها وتمنحها مظهراً كاريكاتورياً. أما الرجل بالمقابل، فضئيل، قصير، ونحيل، يبدو مُعَلَّباً في بدلة ضيقة جداً، ذات لون رمادي لؤلؤي، مع صدار أخضر مبهرج لافت للنظر. ويضع بدوره قبعة، غاطسة حتى منصف جبهته. لهما هيئة ريفية، يبدوان تائهين ومشوشين وسط الزحام في المطار، ينظران إلى كل شيء بتمعن وارتياب. يخيل لمن يراهما بأنهما هاربان من واحدة من تلك اللوحات التعبيرية التي تغص بأناس ذاهلين وغير متناسقين، في برلين سنوات العشرينات التي كان يرسمها أوتو ديكس وجورج غروسز.

ـ آي، أتراهما – سمع لوكريثيا تقول مشيرة إلى ذلك الثنائي–. يبدو أنهما مسافران إلى إسبانيا أيضاً. وفي الدرجة الأولى، ما رأيك!

ـ أظن أنني أعرفهما، ولكنني لا أتذكر أين ـ قال ريغوبيرتو، ثم سألها: ـ من يكونان؟

ـ بنيّ ـ ردّت لوكريثيا ـ، الزوجان اللذان من بيورا، كيف لا تتمكن

من التعرف عليهما.

ـ إنهما أخت آرميدا وصهرها، طبعاً ـ تعرف إليهما دون ريغوبيرتو ـ معكِ حق، إنهما مسافران أيضاً إلى إسبانيا، يا للمصادفة.

أحسَ باستياء غريب وغير مفهوم، بقلق مبهم، كما لو أن توافق رحلته في طائرة إيبريا إلى مدريد مع هذين الزوجين البيورانيين يشكل تهديداً ما لبرنامج نشاطاته الذي وضع مخططه بدقة تامة من أجل الشهر الأوروبي. «يا للحماقة»، فكّر «يا لهذيان الملاحقة». بأي طريقة يمكن لهذين الزوجين المبهرجين أن يفسدا رحلتهم. ظلّ يراقبهم لبعض الوقت بينما هما يقومان بالإجراءات عند منضدة شركة إيبريا ويزنان الحقيبة الضخمة المثبتة بأحزمة ثخينة ويسجلانها كأمتعة. لاحظ أنهما أشبه بضائعين ومذعورين، كما لو أنها المرة الأولى في حياتهما التي سيركبان فيها الطائرة. عندما انتهيا من فهم تعليمات مضيفة شركة إيبريا، أمسك كل منهما بذراع الآخر، كما لو أنهما يحتميان من أمر مفاجئ، وابتعدا باتجاه الجمارك. ما الذي سيفعله في إسبانيا فيليثيتو ياناكيه وزوجته خيرترورديس؟ آه، طبعاً، لا شك أنهما ذاهبان لنسيان تلك الفضيحة التي كانا بطليها، هناك في بيورا، فضيحة رافقتها عمليات اختطاف وزنا محارم وعاهرات. أتراهما يسافران ضمن رحلة سياحية منظمة، ينفقان فيها مدخرات حياتهما. ليس للأمر أدنى أهمية. لقد صار خلال هذه الشهور الأخيرة كثير الوساوس، والحساسية، وشبه هذياني. بعيداً عن متناول يد هذين الزوجين لن يلحق به أدنى ضرر في إجازته الرائعة.

ـ أتدري أنني أشعر، دون أن أعرف السبب، بوخزة شؤم من لقائي بهذين البيورانيين يا ريغوبيرتو؟ ـ سمعَ لوكريثيا تقول ذلك، فاجتاحته قشعريرة. لقد كان في صوت زوجته شيء من الغم.

ـ وخزة تشاؤم؟ ـ قال مدارياً مشاعره ـ. أي بعبع هذا يا لوكريثيا، لا مسوغ لذلك. ستكون هذه الرحلة أفضل من رحلة شهر عسلنا، هذا وعد.

بعد أن أنهوا الإجراءات، صعدوا إلى الطابق الثاني في المطار، حيث كان هناك رتل طويل من أجل أن تختم الشرطة جوازات السفر. وعندما أصبحوا أخيراً في صالة التوجه إلى الطائرة، كان لا يزال لديهم متسع من الوقت قبل الانطلاق. قررت دونيا لوكريثيا الذهاب لإلقاء نظرة على متاجر السوق الحرة، ورافقها فونتشيتو. فقال لهما ريغوبيرتو الذي يمقت التسوق، إنه سينتظرهما في الكافتيريا. وفي طريقه اشترى مجلة الإيكونوميست، ووجد أن المناضد كلها مشغولة في المطعم الصغير. كان يتأهب للذهاب والجلوس عند باب صالة المغادرة، حين اكتشف وجود السيد ياناكيه وزوجته يجلسان إلى إحدى المناضد. كانا جديين جداً وساكنين جداً، أمامهما على المنضدة زجاجتي شراب غازي وطبق بسكويت. فاستجاب ريغوبيرتو لدافع مفاجئ واقترب منهما.

ـ لا أدري إن كنتما تتذكراني ـ قال لهما محيياً وهو يمدّ يده ـ. لقد كنا في بيتكما في بيورا قبل بضعة شهور. ويا لمفاجأة اللقاء بكما هنا. إنكما ذاهبان في رحلة إذاً.

كان البيورانيان قد نهضا واقفين، وقد فوجئا للوهلة الأولى، ثم ابتسما. تصافحوا بالأيدي باندفاع.

ـ يا للمفاجأة يا دون ريغوبيرتو، حضرتك هنا. كيف يمكن ألا نتذكر مؤامرتنا السرية المشتركة.

ـ تفضل بالجلوس أيها السيد ـ قالت السيدة خيرترودیس ـ. امنحنا هذه السعادة.

ـ حسن، أجل، بكل سرور ـ شكرهما دون ريغوبيرتو ـ. زوجتي

وابني يُلقيان نظرة على المتاجر. إننا مسافرون إلى مدريد.

ـ إلى مدريد؟ ـ فتح فيليثيتو ياناكيه عينيه على اتساعهما ـ مثلنا، يا للمصادفة.

ـ ماذا تريد أن تتناول أيها السيد؟ سألته السيدة خيرترورديس بلطف شديد.

بدت متغيرة، فقد صارت تواصلية ولطيفة، وهي تبتسم الآن. إنه يتذكرها، خلال تلك الأيام في بيورا، دائمة التجهم وغير قادرة على إفلات كلمة واحدة.

ـ قهوة مع قليل من الحليب ـ أمرَ النادل ـ. أنتما ذاهبان إلى مدريد إذاً، سنكون رفاق سفر.

جلسوا، ابتسموا، تبادلوا انطباعات حول الرحلة ـ هل ستخرج الطائرة في موعدها أم ستتأخر؟ ـ والسيدة خيرترورديس التي كان ريغوبيرتو متأكداً من أنه لم يسمع صوتها خلال الاجتماعات في بيورا، صارت تتكلم الآن دون توقف. عسى ألا تهتز هذه الطائرة مثلما اهتزت طائرة شركة «لان بيرو» التي جاءت بهما من بيورا يوم أمس. لقد تراقصت الطائرة في الجو كثيراً، حتى إن دموعها انسابت من عينيها لاعتقادها أنها ستنفجر. وهي تأمل ألا تضيع لهما شركة إيبريا الحقيبة، لأنها إذا ضاعت، ماذا سيلبسان في مدريد، حيث سيمضيان ثلاثة أيام وثلاث ليال، وحيث البرد شديد كما يبدو.

ـ الخريف هو أفضل فصول السنة في أوروبا كلها ـ طمأنها ريغوبيرتو ـ وأجملها، أؤكد لكِ. لا برد فيه، وإنما بعض البرودة اللطيفة جداً. هل أنتما ذاهبان إلى مدريد للتنزه؟

ـ الحقيقة أننا ذاهبان إلى روما ـ قال فيليثيتو ياناكيه ـ. ولكن آرميدا أصرت أن نبقى بضعة أيام في مدريد، للتعرف عليها.

ـ أختي تريدنا أن نذهب إلى الأندلس أيضاً ـ قال خيرترورديس ـ. ولكن هذا يعني أن نبقى وقتاً طويلاً، ولدى فيليثيتو في بيورا عمل كثير، في حافلات الشركة وشاحناتها. إنه يعيد تنظيم الشركة من القدمين حتى الرأس.

ـ ناريهوالا للنقل آخذة بالتقدم قدماً، على الرغم من أنها تسبب لي في بعض الأحيان أوجاع رأس ـ قال السيد ياناكيه مبتسماً ـ. لقد حلّ محلي ابني تيبورثيو. وهو يعرف الشركة جيداً، فقد عمل فيها منذ صباه. أنا واثق من أنه سيقوم بالعمل على أحسن وجه. ولكن، مثلما تعرف حضرتك، لا بد لأحدنا من أن يظل على رأس عمله في كل شأن، وإلا ستبدأ الأمور بالتراجع.

ـ آرميدا هي من دعتنا إلى هذه الرحلة ـ قالت السيدة خيرترورديس، برنة فخر في صوتها ـ. لقد دفعتْ لنا كافة النفقات. لاحظ كم هي كريمة. تذاكر السفر، الفنادق، وكل شيء. وفي روما سوف ننزل في بيتها.

ـ لقد كانت شديدة اللطف إلى حدّ لا يمكننا معه أن نرفض منها شيئاً كهذا ـ أوضح السيد ياناكيه ـ. تصور كم ستكلفها هذه الدعوة. ثروة! آرمندا تقول إنها ممتنة جداً لأننا استقبلناها في بيتنا. كما لو أن ذلك قد سبب لنا أدنى إزعاج. بل كان شرفاً كبيراً لنا في الحقيقة.

ـ حسن، لقد تصرفتما جيداً معها خلال تلك الأيام بالغة الصعوبة ـ علق ريغوبيرتو ـ. منحتماها الحنان والدعم والمعنويات. لقد كانت بحاجة إلى أن تشعر أنها قريبة من أسرتها. وهي الآن في مكانة عظيمة، ولهذا أجد أنها أحسنت صنعاً بدعوتكما. سوف تفتنكما روما، وستريان.

نهضت السيدة خيرترورديس لتذهب إلى الحمام. فأشار فيليثيتو ياناكيه إلى امرأته، وخفض صوته، معترفاً لدون ريغوبيرتو:

ـ زوجتي تموت تحرقاً لرؤية البابا. إنه حلم حياتها، لأن خيرترورديس متعلقة جداً بالدين. لقد وعدتْها آرميدا بأن تأخذها إلى ساحة القديس بطرس حين يخرج البابا إلى الشرفة. وربما تتمكن من التوصل إلى أن يوفروا لها مكاناً بين الحجاج الذين يلتقي بهم الأب المقدس في أحد أيام اجتماعه بهم. ستكون رؤية البابا، ووطأ أرض الفاتيكان، هي أعظم سعادة في حياتها. أتعرف حضرتك أنها تحولت إلى كاثوليكية جداً بعد زواجنا. لم تكن كذلك من قبل. لهذا السبب تشجعتُ على قبول هذه الدعوة. من أجلها. لقد كانت امرأة طيبة على الدوام. وقد ضحَّتْ كثيراً في الأزمنة الصعبة. لولا خيرترورديس لما قمتُ بهذه الرحلة. أتعرف أمراً؟ لم آخذ إجازة في حياتي من قبل قطّ. لا أشعر بأنني على ما يرام إذا لم أفعل شيئاً. لأن أكثر ما يروق لي هو العمل.

وفجأة، وبلا مرحلة انتقالية، بدأ فيليثيتو ياناكيه يروي لدون ريغوبيرتو أشياء عن أبيه. إنه ياناكوني، من ياباتيرا، تشولوكاني بائس، لم يتلق تعليماً، ولم يلبس أحذية، هجرته امرأته، واشتغل في أعمال تقصم الظهر، وربى فيليثيتو بجعله يدرس، ويتعلم مهنة، كي يخرج قُدماً. لقد كان رجلاً يمثل الاستقامة مجسدة.

ـ حسن، كم أنت محظوظ بأنه كان لك أب من هذا النوع يا دون فيليثيتو ـ قال دون ريغوبيرتو، ونهض واقفاً ـ. لن تندم على هذه الرحلة، أؤكد لك. مدريد وروما مدينتان مليئتان بأشياء مثيرة للاهتمام، وسوف ترى.

ـ أجل، أتمنى.لك الأفضل دوماً ـ أيده الآخر وهو ينهض أيضاً ـ سلّم على زوجتك.

ولكن بدا لريغوبيرتو أنه غير مقتنع، وأن الرحلة لا تشكل أي حلم

له، وأنه يضحي بالفعل من أجل زوجته. سأله عما إذا كانت المشاكل التي تعرض لها قد حُلّتْ، لكنه ندم على الفور حين رأى لمحة من القلق أو الحزن تظهر على وجه الرجل الضئيل الذي أمامه.

ـ لقد جرى حلّها لحسن الحظ ـ دمدم ـ. آمل أن تؤدي هذه الرحلة إلى جعل البيورانيين ينسونني. لا يمكن لحضرتك أن تعرف كم هو رهيب تحول المرء إلى شخصية معروفة، أن يظهر في الصحف وفي التلفزيون، ويشير إليه الناس في الشارع.

ـ إنني أصدقك... أصدقك ـ قال دون ريغوبيرتو وهو يربت على كتفه. ثم استدعى النادل وأصر أن يدفع الحساب ـ. حسن، سنلتقي في الطائرة. إنني أرى زوجتي وابني هناك يبحثان عني. إلى اللقاء قريباً.

تقدموا حتى بوابة الخروج، ولم يكن صعود الركاب إلى الطائرة قد بدأ بعد. روى ريغوبيرتو للوكريثيا وفونتشيتو أن الزوجين ياناكيه يسافران إلى أوروبا بدعوة من آرميدا. فأبدت زوجته تأثرها بكرم أرملة إسماعيل كاريرا.

ـ هذه أشياء لم تعد تُرى في هذه الأزمنة ـ قالت ـ سوف أقترب منهما في الطائرة وأسلم عليهما. لقد استقبلاها بضعة أيام في بيتهما، ولم يكن يخطر في بالهما أنهما بسبب ذلك العمل الطيب سيحصلان على جائزة يانصيب.

كانت قد اشترت من السوق الحرة عدة سلاسل فضية بيروية لتقدمها كذكرى للأشخاص اللطفاء الذين سيتعرفون عليهم خلال الرحلة، واشترى فونتشيتو قرص دي.في.دي لجاستن بيبر، وهذا مغنٍ كندي يبعث الجنون الآن بشباب العالم بأسره، وهو ينوي مشاهدته في الطائرة على جهاز كمبيوتره. بدأ ريغوبيرتو بتصفح مجلة الإيكونومست ولكنه تذكر، في تلك اللحظة بالذات، أنه من الأفضل أن يحمل في يده

الكتاب الذي اختاره للقراءة خلال الرحلة. فتح حقيبته اليدوية وأخرج منها نسخته القديمة ـ كان قد اشتراها من كشك على ضفاف السين ـ من دراسة أندريه مارلو حول غويا: «ساتورن». فمنذ سنوات طويلة، يختار بحذر ما يقرأه في الطائرة. وقد أثبتت له التجربة أنه من غير الممكن قراءة أي شيء خلال رحلة طيران. يجب أن تكون القراءة مثيرة، تشد انتباهه بطريقة تُعطّل معها تماماً ذلك القلق الدفين الذي يُفاجأ به كلما حلق طائراً، والذي يُذكّره بأنه على ارتفاع عشرة آلاف متر ـ عشرة كيلومترات ـ، وينزلق في الفضاء بسرعة تسعمئة أو ألف كيلومتر في الساعة، وأن درجات الحرارة، هناك في الخارج، تصل إلى خمسين أو ستين درجة مئوية تحت الصفر. لم يكن ما يشعر به حين يطير هو الخوف بالضبط، وإنما شيء أشد زخماً من الخوف، إنه اليقين بأن ذلك الوضع قد يكون النهاية في أية لحظة، تفكك الجسد خلال جزء من الثانية، وربما الكشف عن السر الكبير الغامض، بمعرفة أن هنالك ما هو بعد الموت، إذا كان ثمة شيء. هناك احتمال، انطلاقاً من لا أدريته القديمة التي لم تكد تخفف منها السنون، يميل أكثر إلى استبعاده. ولكنّ بعض القراءات تتوصل إلى سدّ الطريق أمام ذلك الإحساس الهاجسي المشؤوم، إنها قراءات تتمكن من امتصاص ذلك الهاجس بطريقة يستغرق معها في ما يقرأه، وينسى تماماً كل ما سواه. لقد حدث له ذلك وهو يقرأ رواية لداشييل هاميت، ودراسة إيتالو كالفينو «*ست مقترحات للألفية القادمة*»، و«*الدانوب*» لكلاوديو ماغريس، وإعادته قراءة «*دورة اللولب*» لهنري جيمس. هذه المرة اختار دراسة أندريه مارلو لأنه مازال يتذكر التأثر الذي أحس به حين قرأها أول مرة، والجزع الذي أيقظته فيه رؤيته بصورة حية، وليس في استنساخات الكتب، لوحات الفريسكو في كينتا دل سوردو، وأعمال

الحفر «*كوارث الحرب*» و«*النزوات*». في كل مرة ذهب في إلى متحف البرادو كان يبقى طويلاً في صالة أعمال غويا. وإعادة قراءة دراسة مارلو ستكون مقدمة جيدة لتلك المتعة.

عظيم جداً أن تلك القصة المزعجة قد حُلّت أخيراً. ولديه قرار حاسم الآن بعدم السماح لشيء أن يُفسد عليه هذه الأسابيع. فكل شيء خلالها يجب أن يكون بهيجاً، جميلاً، ممتعاً. وعدم رؤية شيء أو أحد يمكن له أن يكون باعثاً على الاكتئاب أو النزق أو القبح، تنظيم كافة التنقلات بطريقة تكون فيها السعادة الدائمة، خلال الشهر كله، أمراً ممكناً، يسهم فيها كل ما يفعله ويسمعه ويراه، بل وكل ما يشمه أيضاً (وهذا الأمر الأخير لن يكون سهلاً بالطبع).

كان غارقاً في هذا الحلم المشرق حين أحس بضربات من مرفق لوكريثيا تشير إليه إلى أن الصعود إلى الطائرة قد بدأ. رأيا، من بعيد، دون فيليثيتو ودونيا خيرترورديس يمران في أول رتل ركاب درجة رجال الأعمال. وكان صف ركاب الدرجة الاقتصادية طويل جداً، مما يعني، طبعاً، أن الطائرة ستكون ممتلئة. كان ريغوبيرتو يشعر بالاطمئنان على أية حال؛ إذ كان قد توصل إلى جعل وكالة السفر تحجز له مقاعد الصف العاشر الثلاثة، بجانب باب الطوارئ، حيث توجد فسحة أكبر لمدّ الأرجل، مما يجعل إزعاج الرحلة أقل وطأة.

حين دخلوا إلى الطائرة، مدّت لوكريثيا يدها إلى الزوجين البيورانيين وصافحت الثنائي بمودة كبيرة. وقد وجدوا بالفعل أنهم سيشغلون المقاعد الثلاثة في الصف العاشر، بجانب باب الطوارئ، حيث تتوافر مساحة أكثر اتساعاً لمدّ الأرجل. جلس ريغوبيرتو بجانب النافذة، ولوكريثيا في جهة الممر، وفونتشيتو في المقعد الأوسط.

تنهد دون ريغوبيرتو. كان يسمع، دون إصغاء، التعليمات التي

يقدمها أحد أفراد طاقم الطائرة حول الرحلة. وحين بدأت الطائرة تكرج على المدرج باتجاه نقطة الانطلاق، كان قد تمكن من الاندماج بمقالة افتتاحية في الإيكونوميست حول إذا ما كان اليورو، العملة الأوروبية، سيتجاوز الأزمة التي تهز أوروبا، وإذا ما كان الاتحاد الأوروبي سيحافظ على وجوده عند اختفاء اليورو. حين اندفعت الطائرة وسط زمجرة محركاتها الأربعة، وبسرعة تتزايد في كل ثانية، أحس فجأة بأن يد فونتشيتو تضغط على ذراعه الأيمن. رفع بصره عن المجلة والتفت نحو ابنه: كان الصبي ينظر إليه مذهولاً، وعلى وجهه ملامح لا يمكن تفسيرها.

ـ لا تخف يا بني ـ قال متفاجئاً، لكنه سكت لأن فونتشيتو كان ينفي بحركة من رأسه، كما لو أنه يقول «ليست هذه هي المسألة، ليس هذا هو السبب».

انفصلت الطائرة في تلك اللحظة عن الأرض، وكانت يد الصغير تنغرس في ذراع الأب كما لو أنها تريد أن تؤذيه.

ـ ماذا حدث يا فوتشيتو؟ سأله وهو يلقي نظرة ذعر باتجاه لوكريثيا، إلا أنها لم تسمعهما بسبب ضجيج المحركات. كانت زوجته قد أغمضت عينيها وبدت كما لو أنها نائمة أو تصلي.

كان فونتشيتو يحاول أن يقول له شيئاً، لكنه يحرك فمه دون أن تصدر عن شفتيه أية كلمة. لقد كان شاحباً جداً.

هاجس رهيب دفع دون ريغوبيرتو إلى الانحناء نحو ابنه والهمس في أذنه:

ـ لن نسمح لإديلبيرتو توريس أن يفسد علينا رحلتنا، أليس كذلك يا فونتشيتو؟

ـ إنه هنا يا بابا، هنا في الطائرة، يجلس وراءك. أجل، أجل، السيد إديلبيرتو توريس.

أحس ريغوبيرتو بتشنج في رقبته، وبدا له أنه أصيب برضٍ وتمزق. لم يستطع تحريك رأسه، والالتفات للنظر إلى المقعد الذي خلفه. كانت رقبته تؤلمه ألماً رهيباً وبدأ رأسه يغلي ويفور. خطرت له الفكرة البلهاء بأن دخاناً ينبعث من شعره كأنه موقد. أيكون ممكناً أن ابن العاهرة ذاك موجود هنا، في هذه الطائرة، ويسافر معهم إلى مدريد؟ كان الغضب يتصاعد في بدنه مثل كتلة حمم لا تُقاوَم، ورغبة ضارية في النهوض والانقضاض على إديلبيرتو توريس، لضربه وشتمه دون رحمة، إلى أن يشعر باستنفاد قواه. وعلى الرغم من الألم الحاد في حلقه، تمكن أخيراً من الالتفات بنصف جسده. ولكن لم يكن هناك في المقعد الذي خلفة أي رجل، وإنما امرأتان متقدمتان في السن فقط، وطفلة تلعق مصاصة حلوى. فاستدار مشوشاً لينظر إلى فونتشيتو، وانتبه عندئذ إلى مفاجأة أن عيني ابنه تلمعان بوميض سخرية وسعادة. وأنه أطلق في تلك اللحظة قهقهة مدوية.

ـ لقد صدَّقتَ الأمر يا بابا ـ راح يقول وهو يختنق بضحكة صحية، خبيثة، نظيفة، طفولية ـ. أليس صحيحاً أنك قد صدقت الأمر؟ لو أنك ترى كيف صار وجهك يا بابا!

حرك ريغوبيرتو الآن رأسه براحة، ابتسم، وراح يضحك أيضاً، متصالحاً مع ابنه، ومع الحياة. كانوا قد تجاوزا طبقة الغيوم وكانت هناك شمس ساطعة تضيء الطائرة كلها من الداخل.

كان صوتها بلسماً، ماء بارداً وشفافاً يغرق فيه بجسده وروحه، ويتطهر، يستعيد السكينة، يستمتع، وينبعث من أعمق أعماقه شيء صحي، عذب، متفائل. حاول ألا يفكر بمابيل، وألا يتذكر أشد اللحظات التي أمضاها معها زخماً وسعادة خلال تلك السنوات الثمانية، بل تذكر فقط أنها قد خانته، وأنها نامت مع ميغيل وتواطأت معه، وأرسلت له رسائل العنكبوت، وتظاهرت بأنها مختطفة، وأحرقت مكتبه. هذا هو ما عليه أن يتذكره فقط، كيلا تكون شديدة المرارة عليه فكرةُ أنه لن يعود إلى رؤيتها أبداً.

***

ماذا جرى لخوسيفيتا؟ إنها مختلفة. أكثر أناقة وتبرجاً من العادة، ترتدي ملابس مبهرجة ولطيفة. تظهر على محياها بين حين وآخر بعض الابتسامات وحمرة خجل لعوبة. وبدا له أنها، عند المشي، تهز مؤخرتها أكثر قليلاً مما كانت عليه من قبل.

- إذا كنتِ راغبة في أن تخبريني بسرٍ، فإنني أؤكد لك أنني قبر أسرار يا خوسيفيتا. وإذا كان في الأمر أحزان حب فسأكون سعيداً بأن أتحول إلى منديلٍ لدموعك.

- لا أدري ماذا عليّ أن أفعل يا دون فيليثيتو- خفضت صوتها وقد كستها حمرة الخجل من رأسها حتى قدميها. أدنت رأسها من رئيسها، وهمست له وهي ترمش بعينيها كطفلة بريئة:- لاحظ أن نقيب الشرطة ذاك يواصل الاتصال بي هاتفياً. لماذا يا ترى؟ كي يدعوني للخروج معه طبعاً!

لم يكن ما يشعر به حين يطير هو الخوف بالضبط، وإنما شيء أشد زخماً من الخوف، إنه اليقين بأن ذلك الوضع قد يكون النهايةَ في أية لحظة: تفككُ الجسد خلال جزء من الثانية، وربما الكشف عن السر الكبير الغامض، بمعرفة أن هنالك ما هو بعد الموت، ثمة احتمال، انطلاقاً من لا أدريته القديمة التي لم تكد تخفف منها السنون، يميل أكثر إلى استبعاده. ولكنّ بعض القراءات تتوصل إلى سدّ الطريق أمام ذلك الإحساس الهاجسي المشؤوم، إنها قراءات تتمكن من امتصاص ذلك الهاجس بطريقة يستغرق معها في ما يقرأه، وينسى تماماً كل ما سواه.

دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع
سوريا - اللاذقية - ص.ب 1018 هاتف 422339
9 789933 523589